المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركز البحوث



بحوث المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول

المجلد الرابع

أشرفت على طباعته ونشره : إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركز البحوث

بحوث
المؤتمر الجغرافى الاسلامى الأول

المجلد الرابع

أشرفت على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

راجع وصحح التجارب الطباعية

د. محمود توفيق محمود
مركز البحوث

صالح حسين السمر
مركز البحوث

راجع الخرائط واعاد رسمها

نعمان محمد صيام
كلية العلوم الاجتماعية

المحـــتويات

الموضوع رقم الصفحة

بحوث فى انتشار الاسلام

شرقي أفريقيا:
دراسة فى جغرافية الإسلام

دكتور / دولت صادق

إن موضوع انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ينبغي أن يحتل المكان الرئيسي في التاريخ الإفريقي، لأسباب عديدة من بينها: ارتباط العالم العربي بالقارة الإفريقية في عصور مختلفة من التاريخ، وامتزاج الحضارة العربية بالحضارات المتعددة للشعوب الإفريقية، مما جعل العالم العربي وإفريقيا بحكم التخوم الجغرافية، وسرعة الاندماج بين شعوبهما، وتاريخهما الحافل بالكفاح المشترك، أقرب إلى التضامن والتفاهم. ومع ذلك فإن إبراز طبيعة العلاقات العربية الإفريقية لاتزال تكتنفها صعوبات عديدة، من بينها فقدان الكثير من السجلات العربية، وغلبة المصادر الأجنبية التي كان قصدها التشويه المتعمد لتاريخ العرب في إفريقيا.

انتقلت المؤثرات العربية إلى الشعوب الإفريقية، وقد نتج عنها ظهور حضارة عربية إفريقية واضحة المعالم، بعد أن وجدت كثير من الشعوب الإفريقية في الحضارة العربية والدين الإسلامي أساسا لبناء مستقبلها السياسي والاجتماعي، وتطبعت كثير من هذه الشعوب بالروح والثقافة العربية الإسلامية طوعا لا قسرا، وذلك قبل أن يعمل الاستعمار الأوربي على فرض نظامه ونفوذه.

ظهرت كثير من المعلومات الخاصة بإفريقيا في المصنفات العربية ابتداء من القرن التاسع الميلادي، ومن أبرز المصنفات التي كتبت عن شرق إفريقيا ما كتبه أبوالحسن المسعودي الذي تردد على شرق إفريقيا في الفترة ما بين ٩١٦ ـ ٩٢٦م، إذ كانت له أكثر من رحلة قام بها في تلك المنطقة، ولكن للأسف فإننا لا نملك من آثار المسعودي إلا كتابين: أحدهما كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»(١). وعلى الرغم من أن القرن العاشر الميلادي شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية والإسلامية في ساحل شرق إفريقيا فإن المسعودي لا يحدثنا عنها، وإنما اقتصر في وصفه على الزنوج.

وقد جاء بعد المسعودي الإصطخري، وأبوالقاسم محمد بن حوقل، والمقدسي الذى قدم لنا كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وهو من أعظم الجغرافيين العرب في القرن العاشر

الميلادي، وقد اقتصر في كتاباته على وصف الأقاليم الإسلامية، ولم يتعرض لوصف الأقاليم التي يسكنها غير المسلمين، إلا أننا لا نجد في مصنفاته ما يمكن أن نضيفه إلى معلوماتنا عن شرق إفريقيا خلال هذه الفترة. وفي القرن الحادي عشر الميلادي، وقبل أن نصل إلى مصنفات الإدريسي، وهي من المصنفات العربية الهامة التي عنيت بإفريقيا، لا نجد سوى البيروني، ونلحظ في كتاباته اهتمامات واضحة بالساحل الشرقي لإفريقيا. وقد استفاد الإدريسي من جميع المعلومات التي أوردها المصنفون العرب والمسلمون، سواء من وصلت إلينا كتاباتهم أو من فقدت مدوناتهم، واعتمد عليها في وضع كتابه وخريطته المعروفة[٢].

وعلى الرغم من أهمية ما كتبه الإدريسي إلا أن المعلومات التي أوردها ليست وافية، هذا فضلا عن أنه أخطأ عندما أشار إلى مدينة براوة، فذكر أنها لاتزال على وثنيتها، إذ قال: إنها واقعة بطرف بلاد الكفرة. ولكن من المعروف أن الإسلام كان قد انتقل إليها في زمن أسبق بكثير من كتابات الإدريسي.

ويهمنا رحلات ابن بطوطة ، فهناك رحلة قام بها في عام ١٣٣١م من زيلع إلى مقديشو وممبسة وكلوة، ولعله يكون أول المصنفين العرب الذين حدثونا عن الإمارات الإسلامية الهامة في شرق إفريقيا[٣]. وقد حدثنا عن مدينة ممبسة، وأنها شافعية المذهب وأن مساجدها مبنية من الخشب، كذلك وصف كلوة. وقد أشار إلى إسلام كثير من الزنوج، وأن هؤلاء كان يغلب عليهم الدين الإسلامي، وينتمون إلى المذهب الشافعي.

ومنذ النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى تجدب المصنفات العربية العامة التي تعرضت لإفريقيا. وقد أمدتنا هذه المصنفات بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الإفريقية منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وهي الفترة التي يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامي الذي كان المسلمون خلاله على اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ والسيادة عليها، والسيطرة على تجارتها. وفي الوقت الذي بدأت فيه المصنفات العربية في التلاشي تبدأ المصادر البرتغالية في الظهور، ثم تتوالى بعد ذلك المصادر الأوربية عن إفريقيا. وقد حاول بعض الكتاب الأوربيين تجاهل المؤثرات العربية، بل منهم من حاول

النيل من الحضارة الإسلامية في إفريقيا. وتجدر الإشارة إلى دور جرنفيل فريمان أحد المعنيين بتاريخ شرق إفريقيا قبل العصر البرتغالي، كذلك مجهودات كل من ستيجاند Stigand، وبرنس Prins، وهتشنز Huchens، في دراسة وتطور الإمارات العربية والإسلامية في شرق إفريقيا(٤).

وقد نجحت مدن شرق إفريقيا نجاحا كبيرا، ووصلت إلى درجة كبيرة من التحضر والازدهار، ولكن افتقرت إلى التنظيمات العسكرية. وربما يرجع السبب إلى أنه قد أسسها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون سياسيون أو دينيون، وهؤلاء جميعا كانوا مضطرين بحكم ذلك أن تكون علاقاتهم سليمة إلى حد كبير مع الأهالي الذين استقروا في أوطانهم. وما كاد القرن العاشر يولي حتى كانت هذه المدن قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية، إذ ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية، واستحالت إلى مدن عربية صرفة. وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هي: مقديشيو ـ براوة ـ سبوة ـ بات ـ لامو ـ زنجبار ـ كلوة. وفي خلال القرن العاشر الميلادي كان الإسلام قد انتشر في تلك المراكز، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص.

ويمكننا أن نقسم المراحل الرئيسية التي مر بها تاريخ العرب في ساحل شرق إفريقيا إلى المراحل الآتية:

١ ـ المرحلة الأولى: وتتميز بظهور المراكز التجارية. وليست لدينا معلومات وافية عن حالة العرب في ساحل شرق إفريقيا في الفترة السابقة لظهور الإسلام، ولكن الأمر الذي لاشك فيه أن الصلات كانت قائمة لا تنقطع، إلى أن بدأ الإسلام يحدث انقلابا خطيرا في حالة العرب بوجه عام، وتاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا بوجه خاص. ولم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق إفريقيا، وإنما كانت الصلات تقتصر على عمليات التبادل التجاري، وما يتبع ذلك في بعض الأحيان من استقرار مؤقت في المراكز التجارية. على أن الأمور قد تغيرت تماما بظهور الإسلام، إذ ظهر عامل آخر غير العامل التجاري، نتج عنه محاولة العرب الاستقرار الدائم، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، ولذلك شهد الساحل الشرقي لإفريقيا قيام الكثير من الإمارات والمدن العربية الإسلامية.

٢ ـ المرحلة الثانية: وتمتد من القرن السابع الميلادي إلى نهاية القرن الخامس عشر، وتتميز هذه المرحلة بسيطرة المسلمين على تجارة المحيط الهندي، كما شهدت هذه المرحلة أيضا استقرار العرب والمسلمين في ساحل شرق إفريقيا من الجزيرة العربية والخليج العربي وفارس والهند.

٣ ـ المرحلة الثالثة: وصول البرتغاليين إلى الساحل ، وسيطرتهم على تجارة الميحط الهندي ، وانتزاعهم هذه السيطرة من العرب والهنود.

٤ ـ المرحلة الرابعة: وتتميز بالثورات والحروب المتتالية التي قامت ضد البرتغاليين حتى خلص الساحل الشرقي لعرب عمان، وبذلك وضع الأساس لتكوين سلطنة زنجبار الحديثة.

إختار الله سبحانه الجزيرة العربية موطناً لبيته الكريم، ومبعثا للصفوة من رسله وأنبيائه، ومهبطا للأديان السماوية الثلاثة الكبرى: اليهودية، والمسيحية، والإسلام. وكان لذلك دلالته وحكمته من الناحية الجغرافية، فهذا الجزء يتوسط العالم، حيث يسهل الانتشار في كل اتجاه، وعنده تتقارب البحار. ومن هنا فقد كان على العابر أن يغير وسيلة النقل، وأن يقف عند الموانئ ليلتمس وساطة حداة الإبل وربابنة القوافل، فضلا عن أن سكان شواطئ شبه الجزيرة العربية كانوا أصحاب سفن ونقل بحري إلى ماوراء بحارهم، اشتغلوا بالتجارة ينقلون السلع بين أهل المشارق وأهل المغارب، وبين الجنوب وبحاره الدفيئة وسكان الشمال وبحاره المعتدلة أو الباردة، وكانت رحلات الشتاء والصيف التي ذكرها القرآن الكريم يحملون فيها المتاجر والسلع. ومع تبادل السلع ونقلها كان تفاعل الأفكار بل والمعاني والقيم الإنسانية على نحو انفرد به هذا الإقليم بين أقاليم الأرض جميعا. قال الله تعالى في محكم آياته:

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ)

(البقرة: ١٤٣)

إن بلاد العرب تعتبر في موقع مثالي، له منافذه التي تطل على كل اتجاه، وله مسالكه التي

تسمح بعبور كل شيء مادي أو معنوي، وله سكانه الذين عرفوا شعوب الأرض وماوراء البحار، وألفوا التجارة والتبادل، بل ألفوا العطاء والأخذ، وأحسوا دائما بأنهم أصحاب رسالة، لأنهم كانوا بحكم موقع وطنهم وطبيعته مؤهلين لأن يحملوا عبء تلك الرسالة. فلما أذن الله، وجاءت الرسالة المحمدية، وتوطدت أركانها في الجزيرة العربية، كان أهلها معدين لنشرها في كل اتجاه مع قوافل التجارة وسفن البحار وكتائب الفتح.

سارت كتائب الفتح تغزو أكبر دولتين وأعرقهما في العالم القديم: الفرس والروم، تزلزل أركانها، وتمحو وجودهما، وتنشر العدالة والتسامح والرفق والمساواة في ظل الدين الجديد الذي عرض اختيارا بغير عنف ولا اكراه.

وسارت قوافل التجارة وسفن البحار التي تتبادل السلع، وتبشر بالدين الجديد، وتعرض فيه على الناس مثلا عليا، وتجارة ما يحملون، تجارة لن تبور ولا يخشون كسادها، تجارة تنجيهم من عذاب أليم، وتضمن لهم ربحا أكيدا، ذلك هو الإسلام.

ودخل الإسلام إفريقيا من الجزيرة العربية المجاورة لها، من أرض الرسالة مباشرة، واتبع أكثر من مدخل وأهم هذه المداخل المدخل الشمالي الشرقي، والمدخل البحرى الشرقي، أو كما يطلق عليهما أحيانا تميزا لوسيلة المواصلات الأساسية: الإسلام البري، والإسلام البحري.

أما الإسلام البري فقد دخل من الشمال إلى مصر مع جيش الفتح العربي الذى غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٢٠ هـ)، استجابة لدعوة أهل الأرض من المسيحيين الذين عانوا من الإدارة الظالمة للبيزنطيين، والمعاملة المجحفة من إخوانهم في الدين، والتعذيب والتفريق بين أصحاب المذاهب المسيحية المختلفة، وما جعلهم يحقدون على حكم الرومان المسيحيين أمثالهم، ويودون الخلاص منه، ويرحبون بالعرب المسلمين المختلفين معهم دينا المتفقين معهم إنسانية، ويرون في الفتح العربى الإسلامي أمل الحياة العزيزة، والممارسة الحرة للشعائر الدينية دون ضغط أو إرهاب.

وبهذه المبادىء السامية وما تحمله من حرية وكرامة تابع الإسلام كفاحه ضد الرومان، واستطاع أن يمد ظلاله على مناطق لم يصل إليها نفوذ الرومان، وتتابعت الهجرات العربية، واندمجت في السكان، وأصبح المسلمون دعاة لدينهم، يستوي في هذا المهاجرون وأهل الأرض

ينشرونه عبر الصحراء إلى النطاق الرعوي، ويحاولون التوغل به في الغابة الأستوائية، ويتخذون طرسقهم تجاه منابع النيل، وأقاموا باسم الإسلام دولاً ومعالم وحياة جديدة، لها مقوماتها الحضارية المتكاملة المتميزة عن الأوضاع التقليدية السابقة. ومع أن هذا الوطن الإسلامي الكبير، وهو أكبر كتلة متجانسة في إفريقيا، لم يخضع لسيادة سياسة واحدة، إلا أن المصدر الفكري الأصيل لهذه الدول، وهو الإسلام، جعل من أجزاء هذا الوطن قطاعات من حضارة عالمية واحدة، تشعر بالانتماء إلى منبع روحي واحد هو الإسلام.

وفي إفريقيا استطاع السلام الإسلامي أن يحل محل السلام الروماني، وأخذت الامبراطورية الرومانية في التدهور تحت وطأة الانحلال الداخلي والضغط الخارجي، وخفتت مشاعل الحضارة في روما، وغرقت وراءها أوربا في ظلام ثقيل.

لم ينتشر الإسلام في شرق وشمال شرق إفريقيا بنفس السرعة، ولم تكن له نفس النتائج التي حققتها في مصر وشمال إفريقيا.

وبقدر وفرة المراجع والكتابات التي تحدثت عن الفتوح الإسلامية ومسيرتها الظافرة، سواء ما امتد منها شرقا في آسيا متتبعا الدولة الفارسية، وقاضيا عليها، وناشرا الإسلام في ربوعها، أو تلك الفتوحات التي امتدت غربا في إفريقيا الشمالية، ممتدة من مصر غربا إلى الميحط الأطلسى فأوربا، متعقبة الدولة الرومانية، قاضية على ظلمها، ومجيبة لدعوة أهلها، وناشرة راية الإسلام الذي سرعان ما استجاب له أهل الأرض، وانفتحت له قلوبهم وعقولهم، فاعتنقوه وتعلموا لغته، وأصبحت الدولة شرقا وغربا تدين بالإسلام، وتتكلم بلغة القرآن في سرعة أدهشت العالم، ووقف أمامها التاريخ، وهي البلاد التي كانت لها لغاتها العريقة، والتي استعصت على لغة الرومان، وقد خضت لهم زمنا طويلا، مما يشير إلى أن الإسلام غزا العقول والقلوب قبل أن يغزو الأرض ويفتح المدن، ويحمل السيف.

أقول: بقدر وفرة المراجع والكتابات عن هذه الفتوحات الظافرة، نجد قلة وندرة في المراجع والكتابات، بل تكاد تكون معدومة تلك الكتابات التي تؤرخ للإسلام الذي لم يسبقه أو يعقبه فتح للبلاد، ولم تعلن أرضه أرضا للجهاد، بل سار الإسلام إليها في صحبة التجار أصحاب القوافل والسفن، ومع الدعاة المجاهدين، حملوه فرادى وجماعات في فترات متقاربة أو

متباعدة، قد تصحب ظهور الإسلام نفسه، أو بعده بقليل أو كثير، يعززها ويدعمها معرفة سابقة وطيدة أو خفيفة بأصحاب تلك الأراضي عن طريق تجارة وتبادل سبق ظهور الإسلام بكثير أو قليل.

لم تترك تلك الجهود سوى كتابات قليلة متناثرة، نجدها في ثنايا كتب الرحالة المسلمين أو الغربيين، وقد نجدها في حوزة عائلات إسلامية، استوطنت تلك البلاد، وهي تعتز وتحرص على تلك الكتابات، ولكنه اعتزاز وحرص على التراث العائلي، الذي لا يخرج عن ملك العائلة الضيق المحدود إلى أفق التاريخ الواسع المترامي، إلى ملك البشرية أجمع، وملك التاريخ الإسلامي العريق. وإن كانت جهود تلك العائلات والجهود الفردية أو الجماعية تحتسب جهادا في سبيل نشر دين الله بنشرها وإلقاء الأضواء عليها، بجعلها نبراسا ومثلا لجهود رائعة، قدمت فى صمت وخفاء في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق.

ولاريب أن هذه الرحلات المنفردة كانت كما قلنا موجودة قبل الإسلام، فقد كانت هناك من الدلائل والمؤثرات ما يشير إلى أن العرب كانوا على صلة وثيقة بشرق إفريقيا وشمالها الشرقي الذي كان يمثل الضفة الغربية للبحر الأحمر، فهم جيران العرب لا يفصلهم عنهم سوى هذا الشريط البحري الضيق، بل إن الدلائل تشير إلى أن هناك من السفن العربية ماكان يدور حول الجزيرة، ويأتي من أقصى الشرق من الخليج العربي إلى الساحل الإفريقي، حاملا المتاجر والسلع إلى جانب الدعوات الروحية والدين.

وإلى جانب ذلك كانت إفريقيا قبل ظهور الإسلام من أول مصادر جلب الرقيق الأسود، وهو جزء من الرقيق الذي نزلت فيه الكثير من آيات القرآن الكريم، تحث على إطلاق سراحه وإعطائه حريته، وجعل ذلك من أحسن ما يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى.

ومن هذا الوطن الإفريقي ظهر الكثير من أبطال العرب ذوي الأصول الإفريقية، أمثال عنترة الأسطورة العربية في الشجاعة، وظهر الكثير من المجاهدين العرب الأوائل، من أمثال بلال بن رباح رضي الله عنه. كل ذلك يدعم الصلة الكبيرة التي كانت بين الجزيرة العربية وذلك الشرق الإفريقى المجاور، مما كان له أبعد الأثر في تاريخ البلدين.

ولكن رغم هذه الصلات القديمة لم ينتشر الإسلام في شرق وشمال شرق إفريقيا بنفس

السرعة، ولم يكن له نفس النتائج التي حققها في مصر وشمال إفريقية، وحتى أكسوم تلك المملكة المسيحية الحبشية التي كانت كثيرا ما تغير على جنوب شبه الجزيرة العربية حتى ميلاد الرسول قد تركت في أمان عدة قرون أعقبت الإسلام. ولقد استفاد العرب المسلمون في القرن السابع من ضعف هذه المملكة المسيحية المؤقت، فاستولوا على ميناء مصوع وجزر دهلك المجاورة. وتروي لنا كتابات العرب في القرن التاسع والعاشر على لسان اليعقوبي وابن حوقل أنه في هذه الفترة كانت الحبشة ومازالت تسيطر على معظم ساحل البحر الأحمر المقابل لليمن، ولقد امتد هذا التأثير حتى شواطئ خليج عدن، وقد تمكنت جماعة من التجار المسلمين من أن تستقر في الأجزاء الساحلية خاصة الموانئ، ولكنهم كانوا يدفعون الجزية لملك الحبشة. ولم يعتبر العالم الإسلامى الحبشة أرضا للجهاد، لما يربطها به من صلات روحية امتدت جذورها إلى أيام البعثة المحمدية حين ضاقت بالمسلمين الأرض، واشتد بهم أذى الكفار، واحتاروا إلى اين يتوجهون؟ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة، ولم يجد أمامه غير الحبشة مهجرا لرجاله، فهي بلاد مجاورة، يحكمها النجاشي صديق العرب الذي يدين بالمسيحية الدين الكتابي. فلما هاجروا إليها تلقاهم النجاشي لقاء رحيا وأمنهم وآواهم وحماهم، بعد أن سألهم عن دينهم، ووجد فيه الملامح الأصيلة للأديان السماوية. ولما تعقبهم الكفار إلى أرضه بسط عليهم حمايته، ورد عليهم كيد الكفار. ولم ينس المسلمون له هذا الصنيع الذي أنقذ بعض المسلمين المجاهدين الأوائل، وشد من أزر الإسلام في أيامه الأولى، واعتبرت الحبشة صديقة الإسلام، ولم تعلن أرضا للجهاد.

ولكن رغم ذلك فقد كان ظهور الإسلام في الواقع نقطة تحول في تاريخ الحبشة إذ فكك وحدتها وتجانسها وارتباطها السابق بعالم البحر المتوسط، مما ترتب عليه استبدالهم بتجارة العرب المسلمين في موانئ البحر المتوسط المصريين واليونانيين واليهود الذين كانوا هناك من قبل.

ولم تقم أية مشاحنات بين المسلمين والمسيحيين زهاء ستة أو سبعة قرون تقريبا، إذ لم يكن هناك ما يدعو لمثل ذلك، كما كان مع الصليبيين الذين شكلوا تاريخ البحر المتوسط الأوسط. وربما كان سبب ذلك هو أن كنيسة الحبشة كانت تتبع الكنيسة المصرية والسورية التي تدين بالمذهب اليعقوبي، وبذلك استفادوا من التسوية التي عقدها القبط مع العرب في مصر. وقد

كان الأساقفة الأحباش خلال العصور الوسطى وحتى خلال الحروب الصليبية موجودين بالقاهرة، كما كان الآلاف من الحجيج الأحباش وكانوا يتوقفون للاحتفال بالصلاة والعبادة. والواقع أن صلاح الدين الذي يمثل العدو اللدود للصليبيين المسيحيين هو الذي أهدى كنيسة القدس للحبشة، لتكون قبلة المسيحيين ومركزهم الدينى.

ولم يكن الخطر الحقيقي على الحبشة الوسطى ليأتي إليها من مسلمي الشمال، وإنما من وثنيي الجنوب، ولا نستطيع سرد تفاصيل ذلك الخطر الذي أحدق بهم، لعدم وقوفنا على تفاصيل الأزمة التي حدثت هناك، ولم يكن ثمة ما يشير إلى حدوث كارثة سوى رسالة خطها ملك الحبشة في أواخر القرن العاشر إلى أخيه الملك جورج ملك النوبة، يروى له فيها كارثة خطيرة حلت بالبلاد، فدمرتها وتركتها خاوية على عروشها، بعد أن تعرضت لغزوات من جانب دولة وثنية مجاورة. ومن المحتمل أن تكون هذه الدولة هى دولة «آجاو» في منطقة داموت على النيل الأزرق. وتعتبر فترة استرداد المملكة المسيحية في الحبشة أكبر فترة بطولية في تاريخ الحبشة في خلال قرنين ونصف، استطاعت هذه الأسرة البطركية أن تمد حدود الدولة السياسية والدينية شمالا لتشمل مقاطعات أمهرة ـ لاسا ـ جوجام ـ وداموت، وأصبحت أمهرة ـ وليست مقاطعة تيجرة الشمالية ـ مركزا لهذه المملكة. وكان هذا الامتداد الجنوبي الذى كان ردا على تهديدات الوثنيين هو الذي سمح بتوسع الإسلام من ساحل البحر الأحمر إلى الداخل على طول الحدود الشرقية للمملكة الحبشية.

ويبدو أن تيار الهجرة العربية لم يتجاوز البحر الأحمر الذى كانت سواحله تكون جزءا من مملكة الحبشة إلا بعد ظهور الإسلام بقرون.

وحتى القرن العاشر لم تكن هناك إلا أسر إسلامية قليلة العدد تقيم فى مدن الحبشة الساحلية، إلا أنه فى نهاية القرن الثانى عشر أدى تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضى الساحلية عن مملكة الحبشة.

ومنذ بداية القرن العاشر نمت عدة دول إسلامية ابتداء من ميناء زيلع وفى اتجاه الشمال مع طريق التجارة الطبيعى نهر هواش، متتبعة إلى حد كبير طريق الخط الحديدى الحديث إلى أديس أبابا. وكان يقوم بحكم هذه الدول سلالة صومالية الأصل تعمل فى تجارة الرقيق والعاج

والذهب مع الوثنيين والدول المسيحية. وكان من الطبيعى أن يمتد نشاط التبادل التجارى ليشمل سودان وادى النيل، وربما أوغندا أو شمال كينيا وكانت وظيفة هذه الممالك الرئيسية هى التجارة، وبذلك حلت فى القرون الوسطى محل نشاط مروى ثم أكسوم القديمة، كدول تجارية فى وسط إفريقيا. ولم يكن كل هذا يهدد مركز المملكة المسيحية هناك..

وحدث سنة ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة ويدعى أبا عبدالله محمدا، طريقه إلى بلاد الحبشة داعيا أهلها إلى الإسلام ولما تمكن من أن يجمع مائتى ألف شخص هجم بهم فى السنة التالية على حاكم أمهرة واشتبك معه فى معارك كبيرة. وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢ ـ ١٣٧٠) تدابير صارمة فى مملكته ضد المسلمين، تقضى بإعدام كل من يأبى دخول المسيحية أو نفيه من البلاد.

وفى نهاية القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب لانشغالها بالحروب الداخلية مما مهد للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل لأن يجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها وطردوا الأحباش إلى الداخل(٥)

ولكن كل هذا لم يكن يهدد المملكة المسيحية هناك، وبدأت المملكة المسيحية الجديدة بعد أن استردت سلطتها ومركزها في المنطقة في أواخر القرن الثالث عشر، وبعد أن آلت إلى مجموعة الملوك الأول من أسرة سولومبيك بدأت التحرش بالمسلمين، ونجحت في خلال القرن الرابع عشر في أخذ الجزية منهم. وكان كل هذا في الوقت الذي لم يصل فيه العداء بين المسلمين والأحباش المسيحيين إلى حرب دينية سافرة. وفي القرن الخامس عشر قوي حكم الحبشة، وفكر سكان المنطقة كمسلمين لا كتجار في تنظيم الثورات في سبيل الانتصار أو الاستشهاد.

وكانت نتيجة الثورة الأولى زوال أكثر الدول الإسلامية وتحطيمها، مثل إيفات التي طورد حاكمها حتى زيلع حيث قتل عام ١٤٦٥، وسقط شمال إيفات تحت حكم الحبشة المباشر. وقد قيل: إن الملك بنيد ماربام (١٤٦٨ ـ ١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه في محاربة المسلمين المقيمين على الحدود القريبة من مملكته(٦).

إلا أن قادة المسلمين وأفراد الأسرة الملكية استطاعوا، بعد أن تراجعوا إلى اليمن، تجميع

شتاتهم، واسترداد بعض قواتهم، فعادوا إلى الجزء الشرقي العصى من الساحل الصومالي، ليبدأوا في إنشاء أول دولة إسلامية بين الحبشة والأطراف الجنوبية أطلق عليها «دولة عدل»، معلنة الجهاد ضد الحبشة جهادا على أيدي قوة حقيقية منظمة.

وفي أوائل القرن السادس عشر كان الأتراك العثمانيون قد وصلوا إلى مصر، ومعهم الأسلحة النارية المختلفة، واستطاعوا أن يصلوا بها إلى موانئ البحر الأحمر في الجنوب وفي بلاد العرب أيضا، ووجدوا في «دوله عدل» مجمعا إسلاميا مترابطا، يستطيع استخدام هذه الأسلحة ضد الأحباش المسيحيين. وهذا ما فعله أحمد القرين أمير عدل المسلم المستقل الذي يروى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة إيجو المسيحيين، وكان قد ترك موطنه، وهداه الله إلى الإسلام في عدل، فقد غزا أحمد القرين بلاد الحبشة من ١٥٢١ ـ ١٥٤٣، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم وأصبحوا مسلمين. وفضل بعض أهالي بعض المقاطعات أداء الجزية، إلا أن التحول الواسع النطاق إلى الإسلام يوحي بأن الحركة لقيت تأييدا من العامة، وقد طلب الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام من جيوشهم الاقتداء بهم ففعلوا، ومنهم كثير من الزعماء الذين كانوا في خدمة ملك الحبشة. وكادت دولة عدل بقيادة أحمد القرين تقضي على الدولة الحبشية لولا تدخل البرتغاليين في آخر لحظة ١٥٤٢، إذ استطاع الأحباش بمساعدة البرتغاليين إيقاف الغزو الإسلامى وقتل أحمد القرين نفسه ١٥٤٣.

ومع ذلك فقد استقرت دعائم الإسلام في تلك البلاد، ويقرر بعض المؤرخين ذلك الاستقرار إلى حالة القلق التي سادت الحبشة بقية القرن السادس عشر وما يليه، وكانت الكنائس المسيحية مشغولة بالتنازع فيما بينها انشغالا لم يمكنها من التفرغ للعدو المشترك، حتى أعلن بعض القواد صراحة: إنه من الخير أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفة البرتغاليين.

وقد اختلطت الحركة الدينية بالحركة الوطنية، واتخذت خطوات واسعة، أدت إلى طرد البرتغاليين حوالي عام ١٦٣٢، وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد. وأصيبت الحبشة إذ ذاك بضرب من الفوضى وسوء النظام، وقد استغلت بعض قبائل الجلا هذه الفرصة، فشقت طريقها إلى قلب البلاد، حيث لاتزال أماكن استيطانها باقية إلى الآن.

ويبدو أن الإسلام أحرز تقدما في خلال هذه الفترة، إذ ذكر بعض رحالة القرن السابع عشر أن معتنقي الدين الإسلامي كانوا في ذلك الوقت منتشرين في جميع أنحاء الحبشة، وأنهم يؤلفون ثلث السكان. وفي القرن التالي زاد الإسلام انتشارا بفضل أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك، وساعد على ذلك ظهور أمراء مستقلين، كانوا كثيري العطف على الإسلام، رغم أن كل أمراء الحبشة كانوا ـ وفقا لقوانين البلاد ـ من المسيحيين، وكذلك الطبقة الأرستقراطية، بل وبعض كبار المسلمين تظاهروا بالتحول إلى المسيحية جريا وراء مظاهر العظمة المادية التي يوفرها لهم اعتناق هذا الدين، ولكنهم رغم ذلك كانوا يستخدمون كل ما لهم من نفوذ في نشر الإسلام[٧].

ورغم ما كانت توفره المسيحية لمعتنقيها من التفوق المادي والجاه والمنصب إلا أن الإسلام كان يوفر لمعتنقيه من التفوق الأدبي والخلقي ما يهيئ لهم النجاح في حياتهم وفي نشر دينهم وجذب الناس إليه، حتى إن الاختيار في الحبشة كان يقع على الشخص المسلم لشغل المناصب التي تتطلب الأمانة والثقة والحيوية والنشاط والعلم.

إن الإسلام أحرز في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تقدما كبيرا، وإن كان بطيئا، ساعد عليه انحطاط رجال الكنيسة، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات. وبدأ نشاط التجار المسلمين واضحا في نشر الإسلام، حتى قيل: إنه اعتنق الإسلام في خلال المائة عام الأخيرة من هذا القرن كل قبايل الحباب القاطنة بين خطى عرض ١٦، و١٧ إلى الشمال الغربي من مصوع، وكانوا يحملون أسماء مسيحية إلا أن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان والإسلام. وساعد على انتشار الإسلام أن الإسلام لم يكن يعرف التعصب أو العداء للمسيحية، كما أشيع عنه أنه يورث طول العمر وحسن الحظ.

ولعل نور الإيمان الذي كان يشرق في وجوه المسلمين السود فيضفي عليها النضارة، كما أن النظافة التي تصاحب الإسلام، وتتجلى في طلب الطهارة دائما، والإكثار من الوضوء، ومظاهر الصلاة وما فيها من خشوع في القيام والركوع والسجود وقراءة القرآن بترتيل جميل، كل ذلك كان يلفت النظر في هذه البلاد، فيحيط الإسلام والمسلمين بهذه الهالات الطيبة والشائعات الساذجة، فالنظافة طريق الصحة، والإيمان يفتح أمام الإنسان طريق التفاؤل والأبواب المغلقة للنجاح.

وقد أصبح الدين الإسلامي الآن راسخا بعيد الغور في الحبشة،وأصبح المسلمون يملكون ناصية التجارة كلها، كما يملكون المهن الصغيرة بأنواعها في البلاد، ولهم أملاك واسعة، وهم يسيطرون على الكثير من المدن والأسواق الهامة، ولهم نفوذ قوي في الشعب.

ويرجع الفضل في ذلك إلى الدعاة المسلمين وحماسهم وإخلاصهم، وقد لخص أحد المبشرين المسيحيين ذلك، فقال: لو أن هناك أحمد قرين آخر يقوم وينشر راية النبي لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها.

ولكن حدثت نكسة في هذا النجاح عندما وقع الشقاق بين الحبشة والحكومة المصرية ١٨٧٥ ـ ١٨٦٢، وانعكست كراهة العدو الأجنبى المسلم على إخوانهم في الوطن، وتطورت الأمور إلى المناداة بالاقتصار على دين واحد هو المسيحية، وسادت وسائل القهر والتعميد الإجباري، ولكن ذلك لم يوهن عزم المسلمين أو إيمانهم، بل زادتهم تمسكا بالدين الإسلامى سرا وعلنا كما،قامت السيدات الحبشيات المسلمات بدور خطير في تلك الفترة الحرجة مما ساعد على تثبيت دعائم الدين الإسلامي.

وقد اغتنم ملك كافا ، الولاية الصغيرة التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية، فرصة تهديد الإيطاليين وأتباع المهدى للملك جون، وأعلن استقلاله وإسلامه، وظل إلى أن غزاه وأسره الملك منليك، وأعاد كافا تحت سيطرته.

ولكن كل وسائل القهر والقمع لم تمنع الدين الإسلامي من النمو والانتشار خلال القرن التاسع عشر في الحبشة، حتى لقد أسلمت قبائل بأجمعها كانت تدين بالمسيحية، ومازالت للآن تحمل أسماء مسيحية وقلوبا مسلمة، مثل قبيلة تاكلبة وغيرها، مما يرجع إلى جهود الدعاة المخلصين.

إن تاريخ الحضارة الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي ازدهر في القرن الثالث عشر في الساحل الشرقي لإفريقيا لأنه وثيق الصلة بأرض الإسلام، وعلاقته بها كبيرة وعميقة، ولكن الحقائق المعروفة عن الوطن الأول لاستقرار العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدا، منها أحد الكتب التاريخية العربية، وجده البرتغاليون في مدينة كلوة، فيه أحاديث عن أول من هاجر من العرب إما نفيا أو هربا، وهم جماعة من الشيعة الزيديين نجحوا في الاستقرار في هذه

البلاد، وتبعهم جموع من أهل السنة قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي من موطن لا يبعد عن البحرين، وأنهم بنوا مدينة مقديشيو التي أصبحت فيما بعد سيدة على كل عرب الساحل، يسودها العرب المسلمون. ويحكي الكتاب أن هؤلاء العرب المسلمين اختلطوا بأهل البلاد الأصليين، ومنهم من توغل في الداخل، وتطبعوا بطباع السكان الأصليين وأخلاقهم.

وقد اتسعت مقديشيو المسلمة حول منتصف القرن العاشر، وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين عاما، إلى أن جاء مسلمون آخرون من جنوب الخليج ينسب زعيمهم إلى أحد ملوك شيراز، ورسوا على ساحل زنجبار هربا من اضطهاد الفرس أيضا وأنهم أسسوا مدينة كلوة التي أصبحت تنافس مقديشيو بمركزها المستقل.

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية الإسلامية على طول الساحل الشرقي، من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليها اسم بر الزنج، ولابد أنه كانت هناك جهود كبيرة للدعوة إلى الإسلام، ولكن الكتابات عنها ـ كما قلنا ـ قليلة أو مختفية عند الأسر المسلمة، أما القصص التي تصحبها فكثيرة مثيرة، وكلها تتبلور في علاقات تجارية عريقة بين هذه البلاد والعرب المسلمين، وأن تعرف هؤلاء الزنج على الإسلام كان يفتح قلوب أهل البلاد للمسلمين، ويرغبهم في اعتناق الإسلام، والعمل بتعاليمه، والرغبة في التعرف على مواطن الإسلام في مكة والمدينة، بل والتفقه في الدين والتمسك بآدابه.

إن تاريخ الحضارة الإسلامية في الساحل الإفريقي الشرقي ازدهر في القرن الثالث عشر، وكان العرب ـ كما قلنا ـ يشاركون في التجارة الواسعة في المحيط الهندي، وأسسوا حوالي أربعين مدينة مشيدة بالأحجار، وبعيدة على الساحل الشرقي الإفريقي، كما أن هناك مسجدا في جزيرة زنجبار يرجع إليهم. وتشير الاكتشافات الحديثة في خرائب أحد القصور بمنطقة حصن كبوا في جزيرة كلوة إلى وجود آثار الفن الفارسي الذي ينسب إلى الفترة من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر.

وتروى آثار المنطقة أنه في منتصف القرن الثالث عشر وحتى وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر كان يخيم على ساحل شرق إفريقيا هدوء وسلام شاملان، وقد استقرت

جماعات إسلامية متحضرة على طول الساحل الصومالي الكيني التنجانيقي، وأخذوا يشيدون بيوتهم من الكتل الصخرية كما استوردوا الفخار من سيام والخزف الصيني القديم ومعادن الصين، وقد صك سلاطين كلوة نقودهم النحاسية في هذه الفترة في دور سك النقود، ليمكن تدولها في أي مكان من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

وكانت كلوة تعيش على تجارة أوديسيا وربما كاتنجا أيضا، وعرفت ماليندي وممبسة منذ القرن الثاني عشر بمناجمها الغنية بالذهب الذي كان يصدر إلى الهند، وكذلك مصانع الصلب لعمل السيوف وغيرها. وكان يوجد في مقديشيو مصنع للنسيج، ينتج الأقطان والملابس المصنوعة من وبر الجمال لتباع في أسواق مصر. وقد كان التقدم المادي واضحا في القرن الثالث عشر، وتبع هذا أيضا التقدم في الناحية الثقافية والفنية التي انعكست على رخاء المنطقة، وقد امتد أثر المسلمين في المحيط الهندي على الجانب الآخر من مجال توسعهم.

شهد القرن الثالث عشر بداية توغل المسلمين في الهند وأندونيسيا توغلا كبيرا، كما شهد أيضا إسلام الهندوس وبناء حضارتهم في مدن الملايو وجاوة وسومطرة، ومن المحتمل أن تكون هذه العناصر اندمجت مع عناصر إسلامية أخرى في منطقة الساحل. وفي بداية القرن الثالث عشر كانت معظم تجارة المحيط الهندي تمر عبر الأراضي الإسلامية. وفي هذه الفترة ظهر الأثر الديني واضحا، فانعكس على المساجد والمقابر الإسلامية على الساحل الشرقي وبين الداخل الإفريقي من الشرق أيضا، ففي بيئة البانتو تعيش العناصر الصومالية ـ السواحلية التي عملت في التجارة بعد دخولها الإسلام، فتبادلوا التجارة برا مع الجالا الوثنيين في جنوب مملكة الحبشة، كما حدث اتصال بحري مع جماعات جنوب كلوة. وأيضا نرى آخر في مناطق الذهب على الساحل وفي روديسيا ومناجم النحاس في كانتيا ولم يكن هناك أي اتصال يذكر بين ساحل زنجبار ومنطقة البحيرات التي كانت منطقة ازدحام سكاني في شرق إفريقية، وتشير الدلائل الأثرية إلى قيام ممالك منظمة ظهرت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر على الأقل، إذ لم تكشف الحفائر غرب أوغندا أو عند موقع السد الترابي الذي شيد في القرن الخامس عشر عن وجود أي أثر مهما كان ضئيلا فى المناطق البعيدة عن الساحل، والسبب في ذلك وجود الأخدود الإفريقي الذي يعمل على وجود فاصل كبير بين الساحل وبين منطقة البحيرات، يتمثل فى أراضي غير صالحة للزراعة متميزة بجفافها، وكانت تحتلها جماعات من الحاميين

النيلين وكانت لهم مثل وعادات تتعلق بمساعدة وحماية القوافل. وظل الحال كذلك حتى القرن الثانى عشر عندما تدفق البانتو من تنجانيقا إلى جنوب البحيرات للزراعة، وفى نفس الوقت فتحوا طريق التجارة بين الساحل وداخل افريقية.

وفي النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت مملكة أوغندا على سواحل بحيرة فكتوريا الشمالية العربية تستورد الأقشمة القطنية وسلعا أخرى من العالم الخارجي. وفى هذه الفترة كان الاحتلال البرتغالى قد سيطر على ساحل زنجبار ولم يكن لهذا الاحتلال آثار عميقة فى الساحل بل إنه انعدم تماما فى الداخل إذ كانت أهداف البرتغاليين على شواطئ موزمبيق وزنجبار وبمبا وممباسا ومجموعة جزر لامو. وقد اقتصرت أهدافهم الأساسية فى المنطقة على الحصول على ذهب الزمبيرى وقاعدة موزمبيق البحرية التي تتجر فيها السفن من شرق الهند إلى جوا رأسا. ولقد حدث أن تحولت تجارة الذهب فأخذت طريقها إلى أوربا وذلك بعد سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى هناك وأصبحت مدينة كلوة قليلة الأهمية واستقر العرب فى المناطق الواقعة إلى شمالها لتندمج مع البانتو السواحليين الذين كانوا على علاقات مع العرب والخليج العربي. وفى عام ١٥٩٣ سعى البرتغاليون للسيطرة على الساحل فبنوا الحصون التى فيها تلك القلعة للسيطرة على الساحل فبنوا الحصون المسماة بحصن يسوع فى ممباسا حدث ذلك فى الوقت الذي خرجت الأجزاء الشمالية الشرقية من المحيط الهندي من قبضتهم وفى ١٦٢٢ طردوا من الخليج العربي، وفى منتصف ذلك القرن شهد الملاحون العثمانيون هجوما على جنوب زنجبار وفى ١٧٠٠ طردوا البرتغاليين من حصن يسوع وفى القرن الثامن عشر كان الساحل الشرقي لإفريقية شمال رأس ويلكادو قد استرد علاقاته واتصالاته بالعالم الخارجي، وخرج الساحل وزنجبار نهائيا من قبضة الاحتلال البرتغالي، وبذلك عادت العلاقات الثقافية والتجارية مع المراكز الإسلامية الرئيسية، وشهد القرن الثامن عشر مولد مدن وممالك سواحلية معظمها تحت الحكم العربي، وقد اندمجت هذه الممالك تحت زعامة أئمة عمان. ومن هذه القواعد العربية بدأ التوغل الجدي من الساحل إلى داخل القارة.

ولكن تأثر أهل البلاد داخل القارة بالإسلام كان قليلا قلة ملحوظة، وحتى قبل الفتوحات البرتغالية تحولت قلة إلى الإسلام وكانت في الحدود الساحلية وكذلك بعد تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم.

وإلى أن جاء القرن العشرون كان من العسير أن تبذل جهود في نشر معارف الإسلام بين قبائل الجهات الداخلية فيما عدا الجلا والصومال، ولم يكن الإسلام قوة حقيقية في شرقي إفريقية، تصبغ أهل البلاد بصبغة الحضارة والمدنية. ومهما تكن القوة الروحية والمعنوية في الدين الإسلامي فإنها ظلت مستكنة وسار الإسلام في بطء في هذه البلاد بصورة أدهشت المؤرخين الذين أرجعوه إلى عدم قابلية الأهالى هناك للحضارة، بدليل أنهم اتصلوا زهاء خمسة قرون بشعب نصف متحضر، فلم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الحضارية التي كان يتصف بها جيرانهم، وأصبح الفارق بين إفريقيا الداخل والخارج كبيرا. أما أوغندا فإن نشاط التجار بها جاء بالثمرة المرجوة، ويرجع بعض المؤرخين ذلك إلى ما يتصف به أهل أوغندا من روح الحرية والعزة مما يتفق وتعاليم الإسلام، فوجدوا فيه ضالتهم، وأقبلوا عليه، وأسلم كثير منهم في عهد الملك موتزا. ولكن دخول إرساليات مسيحية سنة ١٨٧٥ جعلت النشاط الديني المسلم يتباطأ وزاد عدد المتنصرين. ورغم ذلك فمازال في أوغندا عدد كبير من المسلمين، يشغلون مراكز هامة، ويقال: إن عددا كبيرا من بلاد يوسوجا الواقعة في شمال أوغندا والتي تخضع للنفوذ البرتغالي قد دخل الإسلام سنة ١٩٠٦، وذكر أن عدد المسلمين بها بلغ ٢٠٠,٠٠٠ من السكان البالغ عددهم أربعة ملايين.

وباستثناء أوغندا كان الإسلام حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصرا في البلاد الساحلية وما يتاخمها، وقد سجل الإسلام نجاحا كبيرا بين قبائل الجلا والصومال. وقصة دخول الجلا في الإسلام يكتنفها الغموض، ولكن معظمهم الآن مسلمون في تعصب وحماس، وبعضهم مازال وثنيا. ويكثر المسلمون في السهول، ويقلون في الجبال، مما يوضح أثر الدعاة المسلمين والتجار الذين كانوا يجدون متسعا من الوقت لنشر الدين بما توفر لهم من إيمان وحب للدعوة ولباقة ومال وتمكن من اللغة. أما الصومال فقد كان القرب الشديد بينهم وبين موطن الإسلام في الجزيرة العربية سيجعل هذه البلاد مسرحا لنشاط الدعوة الإسلامية في أيامها الأولى، ولكن للأسف الأخبار قليلة، وقد ذكر ابن حوقل أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، وذكر أبوالفدا أنهم مسلمون في القرن الرابع عشر الميلادي.

وهناك الكثير من القصص التي تحوط بالدعاة الأوائل للإسلام في الصومال، ومنهم الشيخ إبراهيم أبو رزباي، الذي شق طريقه إلى مدينة هرر، وتحول على يديه الكثير إلى

الإسلام، ومازال ذكره موضع التكريم، كما أن هناك بالقرب من بربرة جبل يسمى جبل الأولياء، نسبة إلى هؤلاء الدعاة الأوائل الذين كانوا يعيشون في خلوة مقدسة، يدعون إلى الدين الإسلامي الحنيف. وقد ساد الإسلام شيئا فشيئا جميع أنحاء إفريقيا الشمالية الشرقية، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور متلتيك واحتلاله هرر عام ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين إلى المسيحية.

وهكذا نرى الدعوة الإسلامية في شرق إفريقيا تلقى نجاحا كبيرا أحيانا وتعثرا أحيانا أخرى، وقد يحدث ذلك لأسباب كثيرة، منها ما يرجع إلى أهل البلاد أنفسهم ومدى تقبلهم لدعوات الروح والمدنية، كما في قبائل الداخل من إفريقيا، وقد ترجع إلى أحداث تاريخية، كما رأينا في الحبشة، وقد ترجع إلى نشاط الدعاة أو تقاعسهم، وقد ترجع إلى النشاط التبشيري المسيحي الذي يمتاز بالسعار والخبث، حتى إن أحد المبشرين المسيحيين اعترف لطبيبة مصرية عالمة من المهتمات بالشئون الإسلامية، ولم يكن يعرف دينها، أنهم يذيعون بيانات خاطئة عن فشل التبشير المسيحي فى إفريقيا ونجاح الدعوة الإسلامية، وذلك ذرا للرماد، وليطمئن المسلمون فلا ينشرون دعاتهم. ولكن علي أي حال ليس صحيحا ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين من أن السبب في عدم نشر الدين الإسلامي بين قبائل الداخل في إفريقيا أن المسلمين يجلبون من هناك الرقيق، فليس في صالحهم نشر الدين بينهم، وليس صحيحا أن السبب في انتشار الدين أي دين هو النفوذ الأوروبي الذي منع الرقيق، وأعطى الحرية، فالعكس هو الصحيح، فالإسلام دين الحرية، والنفوذ الأوروبي عبودية.

وفي القرن التاسع عشر كانت الحضارة الأوربية قد استوت على سوقها، وتقدمت تقدما واسعا في الميدان العلمي والتكنولوجي، وسادت العالم صناعيا، والصناعة في حاجة إلى خامات وأسواق ومجالات لتوظيف رؤوس الأموال، وبلغ التكالب على القارة ذروته في أواخر القرن التاسع عشر، وأخذ صورته الدولية في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥، وكابدت القارة هذا السعار المحموم على الموارد، وانعكس ذلك على رسم الحدود السياسية لإفريقيا في ضوء معرفة محدودة ومطامع واسعة، دون مراعاة لأبسط قواعد التخطيط. ولا نكاد نجد في أية قارة اضطرابا في الحدود يشبه ما في إفريقيا.

وفي أوائل القرن العشرين كانت القارة كلها، إلا في أجزاء محدودة، قد أصبحت في قبضة الاستعمار.

وعندما بدأت الشعوب الإفريقية تفيق لنفسها، وتشعر بكيانها ، وتطالب بحريتها، وتصمم على نيل استقلالها، بدأت قبضة الاستعمار تتراخى مرغمة من إفريقيا. وفي سرعة لا نظير لها، وفي ثورات متتابعة، استقلت معظم أقطارها بحدودها السياسية المضطربة وما تحمل من مشكلات اقتصادية وقبائلية وثقافية، وأخذت الدول الاستعمارية القديمة والدول الطامعة الجديدة والقوى العالمية تبحث لنفسها عن وضع جديد في القارة، يمكنها من إعادة السيطرة عليها.

ونرى اليوم الدول الاستعمارية، وقد جاءت من جديد تتحدث في إشفاق مصطنع عن التخلف الإفريقي، وقد صنعته بأساليبها، وتنادي بالقضاء عليه في صورة جديدة، تسميها رسالة الرجل الأبيض، ويمكن أن نطلق عليها استعمارا جديدا واستعمارا مقنعا، ولكن بعض الدول الإفريقية تنبهت إلى هذا اللون الجديد من الاستعمار، وهي تحاول الاحتفاظ باستقلالها الذى حصلت عليه، فلا تخدعها هذه الصيحات الزائفة .

ونختتم البحث بقول هسلتين: «إن الإسلام حمل إلى إفريقيا الكرامة والمساواة لمن اعتنقوه، وأدى امتزاج السلالات إلى انعدام الحاجز اللوني... وأنتج هذا الامتزاج شعوبا لها منزلتها كالشعوب السودانية وشعوب شرق إفريقيا، قامت دون شك بدور كبير في بناء إفريقيا الحديثة. وقد حمل الأوربيون المسيحية إلى إفريقيا حملها المبشرون الكاثوليك من البرتغاليين والفرنسيين وغيرهم، ثم جاء البروتستانت بعد ذلك. ومع هجرة الأوربيين قامت الفرقة بين الحاكمين والمحكومين على أساس عنصري، ومارس الأوربيون التفرقة العنصرية، وحملوا معهم دينا يبشر بالإخاء بينما احتفظوا لأنفسهم بحقوق شخصية، كانوا يبشرون بالمساواة بين البشر أمام الله ويمارسون أشد أنواع التفرقة، وكان المبشرون من جنس غير جنس رعايا الكنيسة، وكانوا على ارتباط بالإدارة الاستعمارية»(٨).

ويتابع هسلتين دراسة لهذا الموقف ، ويبين أثر الفروق بين المذاهب المسيحية الدينية على بلبلة أذهان الإفريقيين، وكيف أنه في ظل الإسلام كانت الفرص متاحة لأي إفريقي لأن يصبح من الهيئة الحاكمة، بخلاف ما حدث في ظل الاستعمار المسيحي(٩). ومما يجدر ذكره أن العلاقات العربية الإفريقية كان لها أثر كبير في نشر الإسلام في إفريقيا، وإدخال الحضارة إلى شعوبها. ويعتقد كثير من الباحثين أنه لو أتيح وقت أطول أمام تيارات الإسلام والعروبة لكان

مصير إفريقيا اليوم مصيرا آخر، إذ إن الاستعمار الأوربي عمل على إضعاف المقومات العربية والإسلامية في المناطق التي يسيطر عليها. حقيقة إن القرن التاسع عشر شهد حركات إحياء اعتمدت على إنعاش الثقافة العربية ونشر الإسلام بين القبائل الوثنية، إلا أن ذلك القرن أيضا كان عصر الصدام بين القوى الإسلامية من ناحية والاستعمار الأوربي من ناحية أخرى، ولكن القوى الإسلامية افتقرت إلى القوة المادية التي تعينها على مواصلة هذا الصراع، وكانت النتيجة الحتمية هي استسلام المسلمين ونشر الاستعمار نفوذه بين الشعوب الإفريقية.

OOO

الحواشى

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ ص : ٨٩

(٢) انظر كتاب

Freeman-Grenuille , The Medieval of History of the Coast of Tanganika , Berlin 1962.

(٣) ابن بطوطة فى دائرة المعارف الإسلامية.

4 – Pins A., The Swahili Speaking peoples of Zenzibar and the East African Coast (Arab-Shiraz and Swahili) London 1961 and Freeman Grenuille, The East African Coast, Selected Documents from the First to Earlier 19 th Century. London 1962.

(٥) المتفق عليه تاريخيا أن العرب كانوا أول من توغلوا فى هضاب الحبشة لمسافات بعيدة وقد اتخذوا من مجارى بعض الأنهار وسيلتهم إلى ذلك غير أن مما يؤسف له أن معظم سجلات العرب قد مستها يد الضياع أو على الأقل لم تصل إلى أيدينا باستثناء بعض المصنفات العامة والخاصة التى تعرضت للمالك المسيحية وللممالك الإسلامية.

(٦) انظر لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ـ ترجمة عجاج نويهض، وتعليق شكيب أرسلان ـ المجلد الأول. عبدالمجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب من ص: ٨١ ـ ٩٢. يوسف أحمد ـ الإسلام في الحبشة ص: ٢٩.

(٧) لقد كان الغموض يكتنف الحبشة لقرون عديدة، إذ لا تكاد تطالع أحدا من الرحالة العرب أو المسلمين كتب عن التوغل في هذه البلاد. ولعل هذا هو السبب في أن جغرافيي العرب لم يتعرضوا لذكر شيء له قيمة عن بلاد الحبشة. على أنه بتقدم الزمن نجد بعض المصنفات تشير إلى أقاليم الحبشة ومدنها، وإن كانت تفتقر في أحيان كثيرة إلى الدقة والصحة. حتى إذا وصلنا إلى القرنين: الثالث عشر، والرابع عشر الميلاديين نرى ذكرا لأسماء بعض القبائل والأقاليم الحبشية، مثل أمهرة وسهرت، ودامسوت.

8- Heseltine, M. Remarking Africa, 1961, P. P. 148- 149.

9- Ibid.

المصــادر

١ - الدكتور عبدالعزيز كامل - نحو تخطيط علمي لدراساتنا الإفريقية - الموسم الثقافي ١٩٦٢. الجمعية الجغرافية - القاهرة.

٢ - توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام، نقله للعربية حسن إبراهيم - مكتبة النهضة - القاهرة ١٩٤٧.

٣ - روستو - مراحل النمو الاقتصادي - نقله إلى العربية برهان دهاني - المكتبة الأهلية - بيروت ١٩٦٠.

٤ - محمد أسد - الطريق إلى مكة - نقله إلى العربية - عفيفي البعكيكي - دار العلم للملايين. بيروت ١٩٥٦.

٥ - موجز تاريخ إفريقية - ترجمة الدكتورة دولت أحمد صادق - الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٦ - المشرق العربي بين الماضي والحاضر - دراسة في الجغرافيا الحضارية. للأستاذ الدكتور سليان حزين - المجلة العربية الجغرافية - ١٩٦٨.

(7) Worthington G. B. Connaissance Scienhihique de L'Afrique, Berger. Levrault, Paris 1960.

(8) Huzayyin, S. A. , Arabia and theFar East, Soc. Roy. de Creog. d'Egypte, Le Caire, 1942.

(9) Heseltine N. Remaking Amica, 1961.

(10) Coupland , East Africa and Is invaders, Oxford, 1938.

(11) Spencer, Trimingham, Islam in East Africa, Oxford, 1964.

مسالك انتشار الإسلام

دكتور / يوسف ابو الحجاج

حتميات جغرافية بالية :

لا مناص من الاعتراف في البدء بأنني أطرق هنا موضوعا واسعا، لا يتيسر الإلمام بكل أطرافه في بحث أو حتى فى عدة بحوث.

فالعالم الإسلامي دنيا فسيحة الأرجاء، حتى لو قصرنا هذا التعريف على الوحدات السياسية التي يؤلف المسلمون أكثر من نصف سكانها بإجماع التقديرات.

فهو يمتد نحو ١٤٠ درجة طولية: من درجة ١٢٠ الشرقية، شرقي أندونيسيا حتى درجة ١٨ الغربية حيث سواحل السنغال التي هي أقصى أقطار العالم الإسلامي في الإتجاه الغربي.

وهو يمتد نحو ٧٠ درجة عرضية: من أعالي نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ الشمالية حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار.

وتلك مساحة هائلة، أكبر مثلا من مساحة كل القارة الإفريقية، وأكبر من مساحة قارتي أوربا وأمريكا الجنوبية مجتمعتين، فهي تبلغ نحو اثني عشر مليونا من الأميال المربعة، ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليونا إذا أضفنا إليها المساحة التي تشغلها الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية.

وفي هذه المساحة يعيش نحو ٨٠٠ مليون مسلم أو يزيدون، مما يجعل الإسلام يحتل المركز الثاني بعد المسيحية من حيث عدد معتنقي الأديان السماوية[١].

ويزيد من صعوبة الأمر في هذا البحث، أن يكون الباحث جغرافيا قد اختار «الظروف الجغرافية» محورا لبحثه، فأصبح من المفروض والمتوقع أن يبرز أثر العوامل الجغرافية في تحديد معالم خريطة الإسلام، وأن يتفنن في التدليل على قوة هذه العوامل وفي أعماق نفسه ميل جياش إلى إبراز أهمية تخصصه. أقول: إن ذلك يزيد من صعوبة الأمر بالنسبة لي في هذا البحث، لأن إطالة التأمل في شأن هذه الظروف الجغرافية، والإمعان في تحليلها، قد أقنعني بنتيجة ـ أستأذن في أن أقفز إليها في صدر البحث ـ ألا وهى: أن هذه الظروف لم تلعب في

الحقيقة إلا دورا ثانويا باهتا، وأن انتشار الإسلام إنما تم في الأغلب الأعم رغم أنف الظروف الجغرافية.

وقد كانت بواكير هذا الاستنتاج آراء قرأناها أو درسناها ضمن منهج الجغرافيا الاجتماعية، ونحن طلاب ناشئون، تبهرنا «الحتميات» الجغرافية التي تؤكد دور المكان أي البيئة الطبيعية، وتمعن في هذا التوكيد، إلى الحد الذي يستفز التفكير في الشك فيها، والرغبة في تمحيصها.

حتمية من هذه الحتميات التي لا تصمد في الواقع أمام التمحيص من القول بأن خريطة الإسلام ترتبط إلى حد كبير بالمناطق الجافة، أى بالجهات الصحراوية. ويشفع أصحاب هذه الحتمية دعواهم بخريطة توضح حدود المناطق الجافة، (أي التي يقل مجموع مطرها السنوي عن ٢٥ سنتيمترا) موقعه على خريطة الإسلام.

والخريطة بهذا التصوير قد تغري القارئ فعلا بقبول هذه الحتمية المحبوكة، ولكن قدرا يسيرا من التمحيص يثبت فورا أن مثل هذه الخريطة لا تعني خريطة الإسلام بالمعنى الجوهري للكلمة، ذلك أن العبرة في تحديد المقصود بالإسلام في هذا المجال هي بعدد المسلمين، وتوزيع هذا العدد في تلك المساحة الكبيرة التي نسلم بالطبع بأن نسبة الصحراء ترتفع فيها عما عداها من أقاليم المناخ. والتركيز على عدد المسلمين وتوزيعهم يبرز على الفور أن الجزء الأكبر من المسلمين إنما يعيشون اليوم في أقطار مطيرة، لا في أقطار جافة أو شبه جافة. فالواقع المستقى من الإحصائيات ـ هو أن نسبة مسلمي الجهات المطيرة تصل إلى نحو ٦٦٪ من جملة سكان العالم الإسلامي، وتتركز هذه النسبة العالية في أندونيسيا الاستوائية، وفي آسيا الموسمية، وفي إقليم البحر المتوسط ، وفي إفريقيا خارج الصحراء، وفى بعض أجزاء اليمن المطيرة.

ويرتبط بهذه الحتمية رأي آخر يبديه بعض الكتاب، ولا يقل سطحية عن سابقه، ألا وهو تعليل هؤلاء البعض لتراجع الإسلام عن الشواطئ الأوربية للبحر المتوسط . فهم يقولون: إن الإسلام الذي ظهر في بيئة صحراوية تغلب عليها البداوة ينظرون للزراعة نظرة احتقار، ولما كانت هذه الشواطئ الأوربية من المناطق التي تسود فيها الزراعة والكثير منها زراعة في مناطق جبلية، فإن المسلمين فيها كان نصيبهم الفشل، وبذلك تراجع الإسلام إلى الشواطئ الإفريقية لذلك البحر، حيث الزراعة ـ إن وجدت ـ لا تحتاج إلى مجهود كبير، وحيث تمتد

الصحراء حتى الساحل في بعض الجهات، ووراءه ـ غير بعيد منه ـ في جهات أخرى، مما يعني بيئة قريبة من بيئة مهد الإسلام.

ومن الغريب أن يتواتر هذا الرأي في كتب الجغرافية الدينية في إلحاح يلفت النظر، رغم أنه لا يصمد أمام أي تمحيص ولو كان سريعا. فالحقيقة أن العرب في شبه الجزيرة العربية أهل واحات وزراعة، كما هم أهل ارتحال وبداوة، وزراعة المدرجات الجبلية معروفة منذ القدم في اليمن وعسير، والإسلام نشر لواءه راسخا ومكينا في وداي النيل رغم أنه بيئة زراعية بكل معاني الكلمة، والزراعة فيه تحتاج إلى الكثير من الجهد والمشقة. كما توطد الإسلام في الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، أي في بلاد الشام، حيث لا تختلف ظروف الزراعة فى جوهرها عنها في الشواطئ الأوربية. وفوق ذلك كله فقد ثبت أن الزراعة في تلك الشواطئ الأوربية قد أضمحلت بعد خروج المسلمين، (وقد ارتفع شأنها بعد ذلك في العصر الحديث بعد الثورة الزراعية والصناعية التي شهدتها أوربا، ولكن هذا موضوع آخر). أما الأسباب الحقيقية لتراجع الإسلام من تلك البلاد فلا ترتبط بهذه الحتمية الجغرافية السطحية التي تنتهي إلى احتقار الإسلام المزعوم للزراعة، ولكن لها أسسها التاريخية والسياسية التي لا تمت بأي صلة لما يزعم هؤلاء الزاعمون.

وحتمية ثالثة ذات طابع نصفه جغرافي ونصفه تاريخي: هي أن انتشار الإسلام لم يكن إلا نتيجة لتذبذب في المناخ، شأنه في ذلك كشأن الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة، كالهجرات الأكادية والكنعانية والآرامية. وهو زعم غير صحيح، لأن هذه الهجرات كانت هجرات عامة، يشترك فيها الرجال والنساء والأطفال، انتقلوا بحيوانهم ومتاعهم، بينما الفتح الإسلامى لم يشترك فيه غالبا إلا الرجال القادرون على الجهاد. وهذا الزعم غير صحيح أيضا في ضوء ما قررته بعض الدراسات الحديثة من أن الجفاف كان قد حل في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام بقرن من الزمان، كما أن الأمطار قبل حلول هذا الجفاف لم تكن على كل حال بالأمطار الغزيرة بحيث تسمح بزيادة كبيرة في السكان، وبالتالي لم يكن هناك سبب يبرر الهجرة بعد حلول الجفاف هروبا من وطأته، مع فرض الصحة في توقيت هذا الجفاف. وفوق ذلك فإن العرب المسلمين لم يستوطنوا البلاد المفتوحة على أي نطاق واسع، ولم يحدث مثل هذا

الاستيطان إلا بعد الفتح بوقت غير قصير. ولسنا إذن إزاء هجرة نشأت عن ضيق الموارد في شبه الجزيرة، والرغبة في احتلال أقطار جديدة بغرض الاستيطان.

تلك هي بعض الحتميات الجغرافية التي وردت في كثير من كتب الجغرافية الدينية، ولكن هذا ليس هو الموضوع الأصيل لهذا البحث، وإنما أورد هنا تقيما لمدى أثر الظروف الجغرافية في عملية انتشار الإسلام. ما هو النمط الذي اتخذته هذه العملية؟ وهل كان لهذه الظروف فعلا ذلك الأثر الذي نجد إبرازا له حتى فيما يكتبه الجغرافيون المسلمون اليوم؟

في الجزيرة العربية:

لنبدأ بمهد الإسلام، بشبه الجزيرة العربية، فهنا منطقة هائلة المساحة، تتنوع فيها الأقاليم الطبيعية، فهي ليست مجرد بادية واسعة الأرجاء، سهلة التضاريس، كما قد توحي بذلك الخرائط العامة، ولكنها تتوزع بين السهول، وبين الهضاب والجبال الوعرة ممثلة في الغرب والجنوب، وفيها البحار الرملية الهائلة، والحرات البركانية المتضرسة. وفيها إلى جانب هذا التباين في ظروف السطح قدر من التباين في الظروف المناخية، وكان فيها وقت ظهور الإسلام ذلك التنافر والتناحر بين السكان، والتعدد في المعتقدات والاتجاهات. ومع كل ذلك فقد كتب للإسلام أن يكتسح هذه المنطقة الفسيحة التى تصل مساحتها إلى مليون ميل مربع بحلول العام العاشر للهجرة، وبذلك اكتسبت شبه الجزيرة وحدة دينية وسياسية لأول مرة، ثم أخذت على عاتقها حمل الدعوة إلى ما جاورها من أقطار.

وهكذا بدأت الفتوح الإسلامية المعروفة. والذي ينبغي أن نبرزه أن المسلمين الأوائل قد انتقلوا بهذه الفتوح إلى بيئات جغرافية مختلفة وجديدة عليهم، ولكن النصر كان حليفهم في كل حال. ومن الصحيح أن من بين هذه الأقطار ما كان أرضا تمتاز باستواء السطح، أي بالخلو من العقبات الجبلية الكأداء، ومثل ذلك السهل العراقي، وإن كان هذا السهل لا يخلو من عقبات جغرافية من نوع آخر، تتمثل في كثرة ما به من مستنقعات أو أهوار، وكثرة ما به من فروع للأنهار وقنوات للري. ولم يكن انتصار المسلمين في موقعة «القادسية» مثلا بالأمر الذي يمكن أن يسند فيه الفضل أو جزء من الفضل إلى الظروف الجغرافية، فقد كانت القادسية يومذاك يحف بها من ناحية الشرق نهر الفرات، وهو نهر كبير لابد من عبوره، ويحف بها من

جانب ميمنة جيش المسلمين مستنقع كبير لا يسهل اجتيازه، وإنما كان نجاح جيش سعد بن أبي وقاص في عبور الفرات والانطلاق شرقا حتى نهر دجلة أمرا يحسب ضد الظروف الجغرافية ولا يحسب نتيجة لها. وكان الأمر كذلك، وبصورة أشد جلاء، في المرحلة التالية حين أصبح نهر دجلة هو الفاصل بين المسلمين والفرس، حين خاطب سعد بن أبي وقاص جنده قائلا: «إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر، فلا تخلصون إليه معه، ويخلصون إليكم إذا شاؤوا في سفنهم، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه، إلا أني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم». وكان أن عبر جيشه دجله، واستولى على بقية المدائن، وبسط المسلمون نفوذهم على المنطقة الواقعة شرقي النهر حتى بلغوا سفوح جبال زاجروس.

في بلاد الشام :

وكانت الظروف الجغرافية أشد عسرا في الشام. فهنا مناطق جبلية وعرة معقدة التضاريس تخترقها أودية عميقة، ومناخها غير المناخ الذي ألفه العرب في شبه الجزيرة، فهذا مناخ إقليم البحر المتوسط بخصائصه المعينة، ومركبه المحصولي المختلف، ونمط زراعته الخاص. وكان من وراء الروم في هذا القطر البحر المتوسط أو بحر الروم الذي كان لهم فيه أسطول كبير، يصلهم بموارد العتاد والتموين من بلادهم، ولنذكر أيضا أن هؤلاء الروم كانوا أكثر عددا، وأحسن عتادا من المسلمين. ورغم كل ذلك كتب النصر لجيوش المسلمين.

والواقع أن التحليل الجغرافي لموقعة اليرموك يظهر كيف أن ذلك النصر المبين الذي تحقق في تلك المعركة إنما تم رغم الظروف الجغرافية، وبكل جلاء ووضوح. فاليرموك رافد شرقي لنهر الأردن، ينبع من مرتفع في حوران، ويشق لنفسه خانقا ضيقا شديد التعرج في هضبة كلسية يغطيها البازلت، وقبل التقائه بنهر الأردن بنحو ٣٠ كيلومترا يدور في شكل ثنية نهرية، تلتف حول منطقة سهلية ليس لها سوى باب واحد من الجنوب. والمعروف عند الجغرافيين أنه في كل ثنية نهرية يشتد النحت النهري في جانبها الخارجي، بحيث يصبح هذا الجانب شديد الانحدار، على حين يتركز الترسيب وينبسط السطح في الجانب الآخر. وقد عسكر الروم عند حافة الجانب الخارجي ذي الجرف المنحدر نحو النهر، أي نحو الجنوب، فكانوا بذلك في موقع يسهل عليهم منه أن يرموا جيش المسلمين المعسكر في الجنوب، في قلب تلك الثنية النهرية،

ويسهل عليهم الهبوط من ذلك المنحدر، ولكن يشق على المسلمين. ومع ذلك فقد كتب النصر المؤزر للمسلمين، إذ ألهم الله المجاهدين أن تدور جمهرة جيشهم من وراء الروم حتى أحاطوا بهم بحيث يتعذر عليهم التقهقر نحو الشمال، واندفع المسلمون نحوهم فلم يكن أمامه إلا أن يتجهوا نحو خانق اليرموك العميق، نحو جرف الثنية النهرية المنحدر، وحاولت خيولهم الإفلات من رقبة الثنية، أي بهابها، وألهم المسلمون أن يتركوهم يفعلون ذلك، أى أن يفسحوا لهم مجال الفرار، وبذلك تشتت فرسانهم في الفلاة، وعند ذلك انقض العرب على مشاة الروم، فهوى أكثرهم في خانق اليرموك.

هذا إذن مثل لظروف جغرافية كانت مواتية لأعداء المسلمين، لا العكس، مثل للقوة الجبارة التى منحتها للمسلمين عقيدتهم المتوقدة.

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾
(آل عمران: ١٦٠)

في إيران وأفغانستان :

وسنجد الصورة أكثر جلاء وأعظم بهاء في ظروف إيران وأفغانستان ، وفي ظروف بلاد ما وراء النهر. فإيران وأفغانستان تمتاز كلتاهما بوعورة شديدة في السطح، وحدة بالغة في المناخ، والفتح الإسلامي الذي تم فيها بسرعة مذهلة، إنما تم إذن رغم هذه الظروف.

فإيران تضم طائفة من السلاسل الجبلية الوعرة، منها جبال البرز التي تمتد نحو ٨٠٠ ك. م، وتكثر بها الخوانق العميقة والتي قد يصل ارتفاعها إلى نحو ٦٠٠٠ متر فوق سطحالبحر، ومنها جبال زاجروس التي عبرها المسلمون، والتي تمثل حاجزا جبليا هائلا يتألف في الواقع من عدة سلاسل متعاقبة، ويصل عرضها إلى ١٥٠ ـ ٣٠٠ ك م، وتمتد من حدود الأناضول في الشمال حتى منطقة مكران وحدود باكستان، أي ما يزيد على ٢٠٠٠ ك م. وهي في جانبها المطل على العراق تزخر بالخوانق العميقة والسفوح الصخرية الوعرة. ثم هناك المرتفعات الشرقية على الحدود مع أفغانستان. وبين كل هذه الجبال يقع قلب إيران الذي يتألف من هضبة شديدة الجفاف، تتكون من العديد من الأحواض المتفرقة التي يغلب أن يتوسط الواحد منها مستنقع ملحي.

ولا تقل ظروف أفغانستان صعوبة وقسوة، فهناك جبال هندكوش والسلاسل المتفرعة منها، وهي تلي جبال الهمالايا في الارتفاع، وقد يصل ارتفاع قممها إلى أكثر من ٨٠٠٠ متر فوق سطح البحر، وتشتهر بإقفارها ووحشتها ووعورة ممراتها، وهناك جبال سليمان التي تؤلف في معظم أجزائها الحدود بين أفغانستان وباكستان، ويخترقها ممر خيبر الشهير. وهناك هضبة البامير التي تتوزع اليوم بين أفغانستان وباكستان والصين، والتي تسمى «سقف العالم» لشدة ارتفاعها. وإلى جانب السهول الخصيبة التي يتركز فيها السكان، مثل وادي «كابول»، ووادي «هرى رود»، ووادي «هلمند»، تتمثل في أفغانستان الهضاب المقفرة والسهول الصحراوية شديدة الجفاف، مثل صحراء سيستان التي تسمى «صحراء الموت» لشدة جفافها ومشقة عبورها، والتي قال عنها أحد الرحالة الأوربيين: «لم أشهد في حياتي مكانا أكثر إقفارا من هذه البادية، لا شيء فيها على قيد الحياة، لا ديار ولا نافخ نار، ولا عودا من الخشب، ولا حتى عظمة جافة تدل على كائن حي فارق الحياة».

هكذا فإن جيوش المسلمين التي فتحت فارس وأفغانستان قادمة من العراق إنما واجهت ظروفا جغرافية معاكسة بكل المقاييس، خاصة وأن ذلك كان أول عهد المسلمين بحرب الجبال. والواقع أنه بعد أن عبر جيش سعد بن أبي وقاص نهر دجلة، ووصل إلى سفوح جبال زاجروس، ساور سيدنا عمر بن الخطاب شيء من الخوف إن عبر المسلمون هذه الجبال، فقال رضي الله عنه: «وددت لو أن بيننا وبين العجم سدا، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حسبنا من الريف السواد».

ولكن الله تعالى شاء غير ما شاء عمر. والذي حدث هو أن الفرس حشدوا جيوشهم في تلك الجبال، وبخاصة في وادي نهر ديالي الذي يهبط نحو العراق عند حصن منيع هو حصن جلولاء، على طريق القوافل بين العراق وكرمنشاه، وأخذ الفرس ينقضون على العرب من هذا الموقع المنيع، وكان قتال شديد رميا بالنبل وطعنا بالرماح حتى تقصفت، كما جاء في فتوح البلدان، ولكن المعركة انتهت بانتصار المسلمين. ووقف لهم الفرس مرة أخرى في قلب جبال زاجروس، وأشد أجزائها وعورة، وفي موقع أكثر منعة من جلولاء، هو (نهاوند). وهنا التقى العرب بالطبيعة الإيرانية الخالصة، طبيعة جبال شاهقة تزخر بالخوانق السحيقة، وتسودها ظروف مناخية جد مختلفة عما ألفوه في بلادهم، ولكن الله تعالى قيض النصر للمسلمين فى هذه الموقعة

التي سموا انتصارهم فيها «فتح الفتوح» لعظم أهميتها. كذلك كتب لهم النصر في اختراقهم هذه الجبال في الجنوب عن طريق وادي نهر قارون نحو الأهواز، وانتهى الأمر، بأن تم فتح فارس للمسلمين.

ومن إيران تقدم المجاهدون إلى أفغانستان، وعبر ظروف جغرافية بالغة الصعوبة، فوصلوا إلى قلب أفغانستان في عهد سيدنا عثمان بن عفان، حيث استولوا على كابل وهرات وبلخ، واستكمل فتح القطرين بعد حوالي ٣٠ عاما فقط من الهجرة، وإن كانت المناطق الواقعة في جنوب جبال هندكوش لم يصلها الإسلام إلا بعد ذلك بنحو قرنين من الزمان.

في بلاد ما وراء النهر:

وقد يطول بنا الأمر لو حاولنا مزيدا من التفصيل في وصف المسرح الجغرافي الطبيعي لملحمة الفتح الإسلامي لإيران وأفغانستان، أو لانتشار الإسلام في إقليم ما وراء النهر، نهر جيحون «أموداريا» الذي يكون اليوم خط الحدود بين أفغانستان والاتحاد السوفيتي مسافة طويلة.

وهو إقليم فسيح يمتد من بحر قزوين ونهر الفولجا في الغرب إلى حدود منغوليا والصين الغربية في الشرق، ويضم بذلك التركستان بقسميها: الغربي الذي يضم اليوم الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي، والشرقي الذي يشمل بوجه خاص ولاية سيكيانج في الصين، وهي مساحة هائلة تكاد تبلغ ثلاثة أمثال مساحة إيران وأفغانستان وباكستان (الغربية) مجتمعة. وعلى الرغم من بعد هذا الإقليم بعدا شديدا عن مهد الإسلام (نحو ثلاثة آلاف كيلو مترا)، وعلى الرغم من صعوبة ظروفه الطبيعية، فإنه قد شهد الفتح الإسلامى في وقت مبكر من ظهور الإسلام، مما مهد السبيل لانتشار الدين الحنيف بين الناس حتى إنه ماكاد القرن الثاني للهجرة أن ينتهي حتى اكتسب إقليم ماوراء النهر طابعا إسلاميا غاية في الوضوح.

لا مراء إذن في أننا إزاء معجزات سماوية لا ظروف جغرافية، إنما هو حماس الجهاد الصادق في سبيل الله، هو الذي حقق للمجاهدين هذا الإيداع الذي أبدعوه في فن الحرب والقتال، غير هيابين ولا وجلين، وعبر السهلِ وفوق الجبل، وفي القيظ وفي الزمهرير، وفي التربة الغبراء

وفي الأرض الخضراء على حد سواء. ولا مندوحة إذن من أن نرفض قولا كالقول مثلا بأن الإسلام وقف عند الغابة الاستوائية في إفريقية، أو حالت دونه ودن بلاد «برما» الجبال الشاهقة الواقعة في غربيها، أى جبال «أركان يوما»، أو أنه لم يتغلغل في كل أنحاء الحبشة بسبب وعورة سطحها أو غير هذا وذاك من أقوال تفوح منها رائحة الحتميات الجغرافية، تلك الحتميات التي إذا جازت في معرض الحديث عن النشاط البشري بمعناه العادي العام، فإنها تقصر حتما عن تقديم العلة الصحيحة في انتشار الإسلام هنا وتوقفه عن الانتشار هناك، وإنما تلتمس العلة كل العلة، في الإرادة الإلهية وحدها دون غيرها من أسباب.

(فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) (الأنعام: ١٢٥)

لا إكراه في الدين :

بلى ، ولم تكن الفتوح الإسلامية تعني فرض الإسلام على شعوب جديدة، كما فعلت روسيا في أوربا الشرقية حين فرضت عليها الشيوعية، فلا إكراه في الدين. وإنما كان دورها دور البلاغ الذي جاء اعتناق الدين من بعده بزمن لم يكن قصيرا في كل الأحوال. بل إنه حتى في الشرق الأوسط العربي نفسه لم تصبح غالبية السكان من المسلمين إلا بعد ظهور الإسلام بأكثر من قرنين من الزمان.

وعلى الرغم من أن الكثيرين ممن كتبوا في الجغرافية الدينية من بين الغربيين لا يفطنون إلى حقيقة الأسلوب الذي انتشر به الإسلام، فيتخبطون في هذا المجال أشد التخبط ، فإن منهم من يقترب من هذه الحقيقة أشد الاقتراب، ومن هؤلاء مثلا الدكتور «دافيد صوفر» مؤلف كتاب «جغرافية الأديان»، الذي كان أستاذ الجغرافيا بجامعة «سيراكيوز» في الولايات المتحدة، والذى قام في السنين الحديثة بعدد من الدراسات في الجغرافية الحضارية للهند وباكستان وسيلون.

فهو يوضح في معرض كلامه عن توزيع الديانات وطرق انتشارها كيف أن هناك فارقا واضحا بين وسائل انتشار المسيحية ووسائل انتشار الإسلام، إذ يقول: «إن انتشار المسيحية قد اعتمد اعتمادا أساسيا على منظمات التبشير، الذي يعتبر نشاطا رئيسيا من أنشطة الكنيسة، والذي يمتاز بالدأب والإلحاح، وبأنه يخضع لتنظيم مركزي محكم». كما أنه يوضح دور السيطرة الاستعمارية الأوربية في القرن التاسع عشر في إتاحة الفرصة للتبشير المسيحي لممارسة نشاطه في المستعمرات على نحو لم يسبق له مثيل.

أما بالنسبة للإسلام فإن المؤلف يبرز أن العامل الأول في انتشاره كان الاتصال العادي بين المسلمين وغير المسلمين، أو ما يسميه (Contact Conversion)، بمعنى التحويل للعقيدة عن طريق الاتصال والاختلاط. وفي ذلك يقول الدكتور صوفر: «في الإسلام لم يكن للتنظيم التبشيري دور شائع، وإنما الذي كان يحدث هو أن معتنقي هذا الدين يحاولون نشر عقيدتهم كأفراد، وذلك بالقدوة الحسنة والانتقال... وقد كسب الإسلام مناطق فسيحة كثيفة السكان بهذه المخالطة الفردية. بهذه الوسيلة انتشر بحرا إلى الأقطار التي تحف بالمحيط الهندي: استقرت أعداد صغيرة من التجار المسلمين في الموانئ التجارية على السواحل غير الإسلامية، وتزاوجوا مع أهل هذه الأقطار. ومضى الزمن، ووسعوا مجال نشاطهم التجاري ومجال الإسلام في الداخل. ومعظم المسلمين في أندونيسيا والملايو وجنوب الفلبين، بالإضافة إلى المجموعات الأصغر في جنوب الهند وسيلان، وفي جزر المالديف، إنما هم من نتاج هذه العملية، عملية التحويل للعقيدة بالمخالطة».

وهو يبرز في مواضع أخرى دور أهل الورع والتقوى من المسلمين في نشر الدين في البنغال وجاوة وغيرهما، كما أنه ينبه إلى الخطأ الذي يقع فيه بعض المؤلفين، وهو أن الجهاد يعني الدعوة للإسلام بحد السيف، «بمعنى الخيار بين الإسلام أو القتل»، موضحا أن القرآن نص بصراحة على ألا إكراه في الدين[٢].

ولا أعتزم هنا أن أستعرض ما قاله أمثال هذا الأستاذ من المؤلفين غير المسلمين الذين بعدوا عن التعصب الأعمى وتشويه الحقائق، كالأستاذ «هستون سمث» في كتابه «ديانات الإنسان» حيث يحاول مخلصا شرح الإسلام ونمط انتشاره بين العالمين، أو الأستاذ «بيير دفونتين» في كتابه «الجغرافيا والدين»، أو الأستاذ «فرناو» في كتابه «مسيرة المسلمين» أو غير

هؤلاء من الباحثين. ولكني أود أن أختم هذا البحث بإبراز ملامح ثلاثة أخرى في نمط انتشار الإسلام، وهي ملامح لم تجد ما تستحقه من إبراز وتوكيد عند الجغرافيين، مسلمين وغير مسلمين.

أولا ـ حملة الدعوة عرب وغير عرب :

من هذه الملامح أن نشر الإسلام لم يكن حكرا للعرب ، فقد أسهم في نشره أقوام عديدة من المسلمين الجدد، أسهم الفرس في نقله إلى أفغانستان، وأسهم الفرس والأفغان في نقله إلى بلاد ما وراء النهر، وحمل أهل تركستان أنفسهم راية الدعوة، بل إن منهم من اشتركوا في عملية الفتح، سواء كانوا من أهل بخارى أو خوارزم، أو غيرهم ممن اشتركوا مثلا في جيش قتيبة بن مسلم. وبعد أن تم إسلام الأتراك الغربيين تبنوا حركة الجهاد بين جيرانهم من العناصر التركية الشرقية. وبعد أن أسلم هؤلاء أتيح لهم فيما بعد أن يحملوا الإسلام بدورهم إلى بلاد الأناضول. وتتكرر القصة بعد ذلك فيحمل أهل الأناضول الإسلام إلى البلقان حتى الدانوب، كما تتكرر في إفريقيا وفي الشرق الأقصى. الكل يتسابقون في حمل راية الدين، في «سباق تتابع» رائع إن صح التمثيل.

وما أكثر الحتميات الجغرافية التي تسقط عند إبراز هذه الحقيقة الأصيلة في نمط انتشار الإسلام، ما أسخف الربط مثلا بين البيئة الجغرافية للجزيرة العربية وبين خريطة الإسلام، ذلك الربط السطحي الذي ينطوي على افتراض ساذج وخبيث في الوقت نفسه، وهو أن رسم تلك الخريطة كان من صنع المسلمين العرب وحدهم، مع تجاهل مقصود لدور سائر المسلمين من فرس وأفغان وترك وبربر وسودان وغير هؤلاء وهؤلاء من دعاة، ابتغوا وجه الله ونشر نور الدين بين العالمين.

ثانيا : للناس كافة :

والملمح الثاني هو أن الإسلام حيث ساد في إفريقيا أو في آسيا إنما انتشر بين شعوب شتى في سلالاتها، وفي لغاتها، وفي تقاليدها وعاداتها، فضلا عن معتقداتها.

فإيران مثلا تجمع بين الفرس والأكراد والبالوخيين والأرمن. وفي الشمال، في جبال زاجروس، جماعات تتكلم أشكالا من اللغة التركية مثل الأذربيجانيين والإيرانيين والتركمان والقاشقي، ثم هناك الآشوريون الذين يتكلمون الآرامية ثم البراهوي وغيرهم. وفي أفغانستان لا تقل الصورة تعقيدا عن ذلك، فهناك البشتون (٦٠٪) والتاجيك والأوزبك والهزارة والتركمان والقرخيز والبلوتشي أو البلوخي وغيرهم. ويكفي أن نذكر أن أفغانستان اليوم بها نحو ٢٠ لغة. ومثل ذلك يقال عن إقليم ما وراء النهر وعن الهند وأندونيسيا، كما يقال عن أقطار إفريقيا. وقد وجد الإسلام طريقه بين كل هذه الشعوب المختلفة، لم يقف دونه حائل من سلالة أو لغة أو تقاليد موروثة أو تراث حضاري قديم، وانصهرت جميعها في بوتقة الإسلام والحضارة الإسلامية. وذلك في كل نظرة علمية حقة عنصر أساسي من عناصر نمط انتشار الإسلام، لا مندوحة لأي باحث منصف من تقديره حق قدره وإعطائه نصيبه من الاهتمام، وبغض النظر عن اصطدامه «بالظروف الجغرافية».

ثالثا : اقتناع لا انبهار :

أما الملمح الثالث الذي نرى أنه جدير بأن تسلط عليه أضواء الباحثين، فهو أن اعتناق الإسلام إنما نتيجة الاقتناع ووليد المقارنة، لا نتيجة للانبهار بشيء جديد. ومن الخطأ أن نعتقد ـ كما يريد بعض المؤلفين لحاجة في أنفسهم ـ أن الإسلام حين وصل إلى إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى مثلا وجد قوما من البسطاء البدائيين، يعيشون في عزلة لا يدرون من أمر الدنيا من حولهم شيئا، يذكرهم، وأنهم كانوا بذلك «لقمة» ميسورة للإسلام، فأهل إفريقيا الغربية كانت لهم ممالك ونظم حكم قبل العهد الإسلامي مثل مملكة «الماندنجو» الكبيرة التي كانت تمتد في سيراليون وما والاها شرقا، ومثل مملكة «السونفاي» التي كانت أول من أسلم من أهل النطاق السوداني (في فجر القرن الخامس الهجري). وكانت هذه الجهات على اتصال بإقليم البحر المتوسط وما وراءه، منذ دخول الإبل إلى الصحراء الكبرى. وكانت المسيحية قد وصلت إلى سواحل شمال إفريقيا، وعرف عنها هؤلاء السود، ومع ذلك فإنه لم تجد أي استجابة في نفوسهم. وكان للفرس حضارتهم القديمة، وأفغانستان كانت مهدا لحضارة قديمة أيضا عاصرت الحضارة الفرعونية، حيث كانت أفغانستان تسمى «أريانا» وكلتاهما عرفتا العديد من الثقافات الأجنبية: الثقافة الإغريقية بعد الإسكندر، والثقافة الهندية قبل الميلاد أيضا، ثم

الثقافة الصينية ومعها عقيدتها البوذية. والإسلام هنا دخل إذن القلوب والعقول عن طواعية واقتناع، وفي ضوء مقارنة بينه وبين معتقدات أخرى متنوعة، استبدل فيها الناس الذي هو خير بالذي هو أدنى، ولم يكن نجاحه أبدا وليد مجرد الانبهار بالجديد، كما أنه بالقطع لم يكن وليد سيطرة سياسية أو رهبة عسكرية. ومثل ذلك يقال عن آسيا الوسطى، أي بلاد ماوراء النهر، فقد تعرض هذا الإقليم قبل الإسلام لتيارات ثقافية واردة من إيران أو من الصين، وسادت بذلك الزردشتية والبوذية، كما عرفت المسيحية عن طريق المبشرين بها في ذلك الحين، وسرعان ما أدرك الناس الفارق بين مبادئ الإسلام الحنيف وبين تلك الزردشتية التي أحلت الزواج بالمحارم، وجعلت المرأة في منزلة الرقيق، أو بينه وبين البوذية أو بينه وبين المسيحية. ولم يلبث أهل الإقليم ـ والذين اعتبروا مواطنين في الدولة الإسلامية تمنحهم كل الثقة، وتوليهم الوظائف، ولا تفرق بينهم وبين العرب في ذلك ـ لم يلبثوا أن حملوا راية الدعوة في حماس لا يقل عن حماس غيرهم من الدعاة، سواء كان هؤلاء الدعاة من الولاة والموظفين، أو من الأسر العربية التي استوطنت الإقليم واختلطت بأهل البلاد، أو من الفقهاء والمتصوفين العرب.

ونحن إذن ـ كتابا ومفكرين ـ مطالبون بألا نبالغ في وصف الكفار قبل الإسلام بضيق الأفق وضحولة الثقافة، ناهيك بالبدائية، والأجدى أن نبرز ما كانوا قد بلغوه من تقدم في المجال الحضاري، وبالتالي ما بلغوه من مقدرة على التفهم وحسن الإدراك، والمقدرة على التمييز بين الطيب والخبيث.

ولكن لعلي هنا قد بعدت عن مجال تخصصي المحدود، وتطرقت إلى ميدان الدعوة والدعاة، فلأعد إلى بيتى الذي ألم به، ولأخاطب زملائي من الجغرافيين، مختتما بقولي: إننا مطالبون بأن نبرز حقيقة لا مراء فيها، هي أن الظروف الجغرافية ـ رغم أصالة دورها في التحكم في نشاط البشر ـ يتضاءل قدرها كل التضاؤل في تفسير خريطة الأسلام. بل إننا مطالبون ـ على العكس ـ بأن نبرز كيف أن هذا الدين الحنيف يشع ضياؤه حيث يشع رغم الظروف الجغرافية.

الحواشي

(١) وإن كان هذا الترتيب حديث العهد نسبيا، فلم يتحقق المركز الأول للمسيحية إلا بعد توسع أوربا في العالمين الجديد والقديم، وخاصة بعد الثورة الصناعية التي ارتبط بها ثورة سكانية في أوربا، أي زيادة في عدد المسيحيين، زيادة طبيعية في المقام الأول، وليست وليدة انتشار المسيحية بين الناس.

(٢) يترجم الأستاذ صوفر هذا المعنى كالآتي: Let there be no compulsion in religion.

ooo

المصــادر

١ ـ البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، القاهرة ١٣١٨ هـ .

٢ ـ جمال حمدان ، العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة ١٩٧١ .

٣ ـ حسن أحمد محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار النهضة العربية، ١٩٦٨.

٤ ـ عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية ، القاهرة ١٩٧٠.

٥ ـ محمد أحمد حسونه ، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٠.

٦ ـ يوسف أبو الحجاج ، العالـم الإسلامـي: مكانتـه في الاقتصـاد العـالمي وارتباطهـا بالأطماع الاستعمارية، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد الخامس ١٩٥٩ ص ٥٩ ـ ١١٧.

7 - David Sepher, Geography of Religions, 1967.

8 - Deffontaine , P. Geographie et Religion, Paris, 1948.

9 - Fernau , W., Molems on the Marsh, London, 1955.

10 - Sazard, H. W., Atlas of Islam History , N. Y. 1951.

11 - Pierre Rondot, I'Islam et les Musulmans d'Aujourd'bui, Paris, 1960.

12 - Xavier de Planhol, Le Monde Islamique, Paris, 1957.

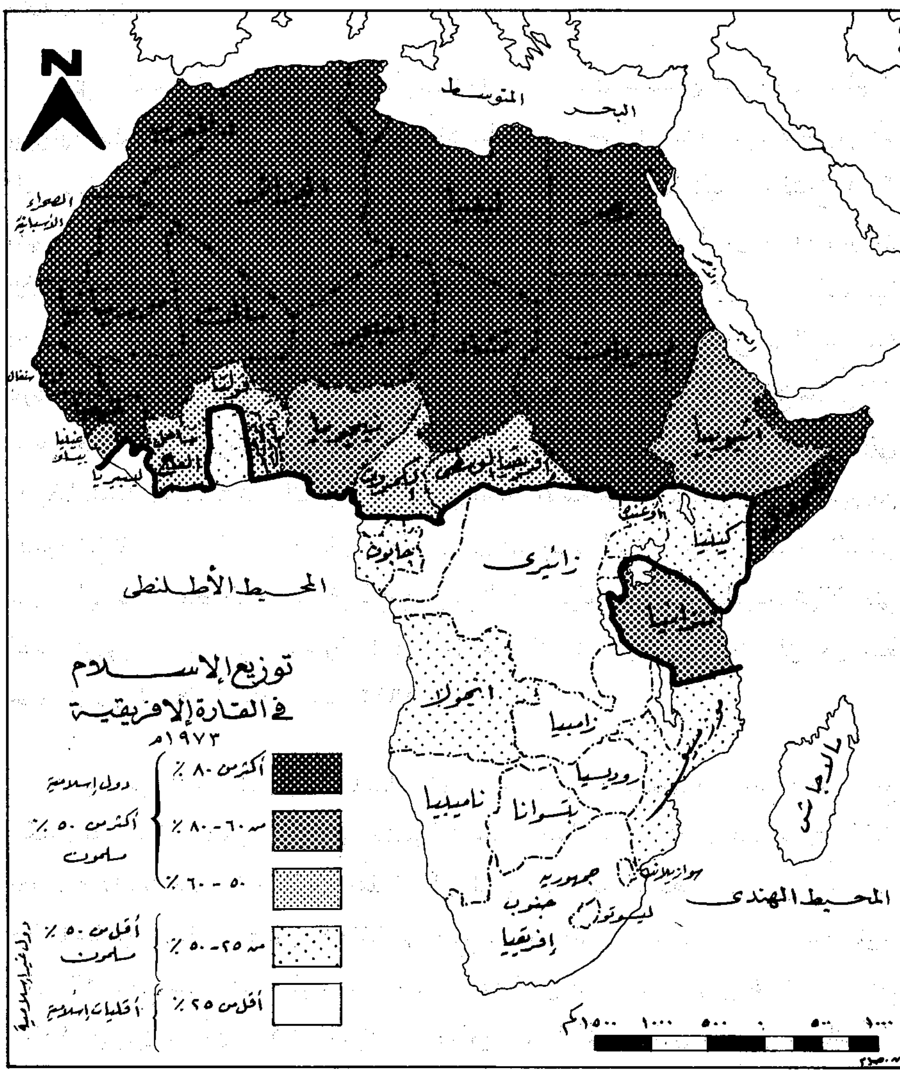
اثر الضوابط الجغرافية فى انتشار الإسلام وتوزيع أقلياته

دكتور / سليمان خاطر

«تحديد وتعريف» :

تحتل القارة الإفريقية مكانة بين قارات العالم من حيث مساحتهـا، وعـدد سكانهـا، وثرواتها الطبيعية، وإمكانياتها الاقتصادية، بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي. فتعد إفريقيا ثانية قارات العالم مساحة، إذ تزيد مساحتها على ٢٢٪ من مساحة اليابس، فتبلغ ٢٩٫٣ مليون ك. م مربع (١١٫٧ مليون مربع)، وهي بذلك تعـادل مساحـة القارتـين الجنوبيتـين الأخريين: أستراليا، وأمريكا الجنوبية[١]. ويقتسم مساحة القارة عدد من الوحدات السياسية الإسلامية وغير الإسلامية[٢]، تشغل الدول الإسلامية ـ عام ١٩٧٣ ـ (إفريقيا الإسلامية) ٦٥٫٥٪ من مساحتها، وهذه تعادل ٦٠٪ من مساحة الدول التي تكون العالم الإسلامي[٣]، وتحتل مجموعة دول إفريقيا الإسلامية جزءا من الكتلة الإسلامية المتصلة بالبنيان عبر قارتي إفريقيا وآسيا ـ التي تشغل الغالبية العظمى من العالم الإسلامي ـ ممتدة في العالم القديم من المحيط الإطلنطي غربا إلى باكستان شرقا. ومن ثم تمتد إفريقيا الإسلامية في النصف الشمالي من القارة من المحيط الإطلنطي غربا إلى البحر الأحمر شرقا ومن البحر المتوسط شمالا حتى الحدود الجنوبية للدول الإسلامية والشمالية للدول غير الإسلامية في إفريقيا بما يطلق عليه خط حدود أرض الإسلام في القارة سنة ١٩٧٣م.

إفريقيا هي القارة التي تلي آسيا مباشرة في كثرة السكان المسلمين. ففى عام ١٩٥٠م بلغ سكان القارة ١٩٨ مليون نسمة، من بينهم ٤٢ مليون مسلم حسب تقدير «وسترمان»[٤] (D. Westerman)، يشكلون ٢١٫٢٪ من جملة سكان القارة، بينما تشير الإحصاءات أن بها نحوا من ٦٠ مليونا من المسلمين، يمثلون ٣٠٫٣٪ من جملة سكان القارة الذين وصلوا إلى ٢٤٠ مليونا عام ١٩٦٠، من بينهم ١١٥ مليون مسلم، يمثلون ٤٥٪ من جملة سكانها، وإلى ٢٤٥ مليونا عام ١٩٦٦، في حين قدر أن بها ١٥٥ مليونا من المسلمين عام ١٩٦٨، يمثلون ٥٧٪ من سكانها[٥]. وتقدر الأمم المتحدة أن سكان إفريقيا وصلوا إلى ٣٠٣ مليون نسمة (تقريبا) عام ١٩٧٣، يشكلون ٨٪ من مجموع سكان العالم، وتقدر المصادر أن من بينهـم ٢٣٩ مليون مسلـم، يشكلون ٦٠٫٥٪ من سكان القارة، ويمثلون ٢٦٫٥٪ من جملة مسلمي العالم[٦]. ومـن ثم



توزيع الإسلام
في القارة الإفريقية
١٩٧٣م
أكثر من ٨٠٪
من ٦٠ - ٨٠٪
٥٠ - ٦٠٪
دول إسلامية
أكثر من ٥٠٪
مسلمون
من ٢٥ - ٥٠٪
أقل من ٢٥٪
أقل من ٥٠٪
مسلمون
أقليات إسلامية
البحر المتوسط
المحيط الأطلنطى
المحيط الهندى
زائيرى
أنجولا
زامبيا
روديسيا
ناميبيا
بتسوانا
جمهورية
جنوب
إفريقيا
ليسوتو
مالاجاش
كينيا
تنزانيا
إثيوبيا
نيجيريا
ليبيريا
الصحراء الإسبانية
١٥٠٠كم ١٠٠٠ ٥٠٠ ٠ ٥٠٠ ١٠٠٠

شكل (١)

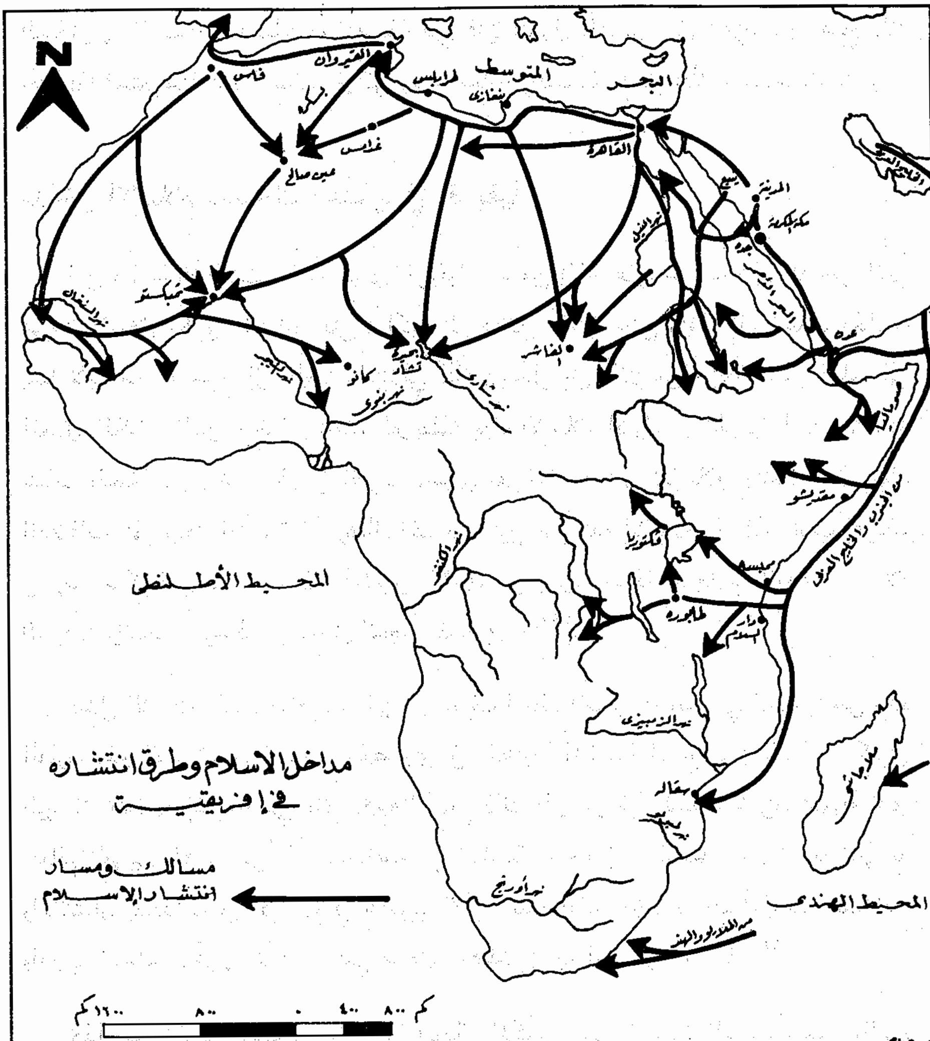
يتضح أن هناك زيادة مطردة في أعداد المسلمين بالقارة ونسبتهم من جملة سكانها مع زيادة عدد السكان. أما عن التوزيع فيشبه نمط توزيع السكان في إفريقيا معظم القارات الأخرى، إذ يتركز معظم السكان على الأطراف، ثم يقل في الداخل. والصورة الواضحة هي عدد السكان في الوحدات السياسية، فإفريقيا هي قارة الدول الصغيرة بل القزمية، ويتضح ذلك جليا إذا استعرضنا عدد السكان في كل وحدة مقارنا بالمساحة داخل إطار حدودها السياسية.

مداخل الإسلام ومسالك انتشاره في إفريقيا :

قبل دراسة الأقليات الإسلامية في إفريقيا لابد من إلقاء نظرة سريعة على المداخل التي عبرها الإسلام وطرق انتشاره التي سلكها إلى داخل القارة حتى وصل إلى الحدود الحالية، وهنا لابد من الرجوع إلى العمق الزماني الذي يصل إلى أكثر من أربعة عشر قرنا، وإلى المجال المكاني الذي يتخطى القارة ليربطها بمهد الإسلام الأول في الجزيرة العربية. فلقد نشأت الصلات بين شبه الجزيرة العربية وشرق إفريقيا منذ قبل الإسلام، وقامت معظم تلك العلاقات على تبادل التجارة[٧]. وهناك أكثر من دليل على قدم الإسلام في غانا بغرب إفريقيا في زمن مبكر قبل دور المرابطين (القرن ١١م)، من بينها الصلة التجارية القديمة بين بلاد السودان والبحر المتوسط ، واحتكار التجار المسلمين لها[٨].

دخل الإسلام القارة الإفريقية قبل أن يعرف العالم الغربي أو الشرقي كيف يدخل هذه القارة، وقام الإسلام فيها بدوره الحضاري فى أقطارها المختلفة الموقع. وأن الديانة الكبرى اليوم السائدة في إفريقيا هي «الإسلام»[٩] ومع ذلك فإن إفريقيا المسلمة لاتزال مجهولة لدى العالم العربي والإسلامي[١٠]، وبخاصة من الناحية الإحصائية البحتة، ومن ناحية التوزيع والانتشار. وهكذا دخل الإسلام في عصوره الأولى هذه القارة الجبارة، فهو أول دين يدخلها، والعرب المسلمون أول الأقوام التي فتحتها وحملت إليها الحضارة الإنسانية[١١].

هذا عن الجانب الزماني، أما عن المجال المكاني فمن الجزيرة العربية القلب والنواة المركزية للإشعاع في العالم خرجت محاور إشعاع الإسلام الرئيسية في كل الاتجاهات إلى العالم، والتي بلغت ثمانية، منها ثلاثة إلى إفريقيا[١٢]، ولكل منها محاور فرعية ثانوية، وثالثة تملأ الفراغات البيضية، وتسد الثغرات الجانبية.



N
البحر المتوسط
القيروان
فاس
طرابلس
بنغازي
غدامس
عين صالح
القاهرة
المدينة
مكة المكرمة
جدة
تمبكتو
كانو
الفاشر
مقديشو
ممباسا
فكتوريا
سفالة
مدغشقر
المحيط الأطلنطي
المحيط الهندي
مداخل الاسلام وطرق انتشاره
في إفريقية
مسالك ومسار
انتشار الإسلام
كم ٨٠٠ ٤٠٠ ٠ ٨٠٠ ١٦٠٠ كم

شكل (٢)

لقد كان دخول الإسلام لإفريقيا ـ من الجزيرة العربية ـ على طول جهة تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالا حتى خط عرض ٢٠° جنوبا في موزمبيق الحالية، كما ارتبط هذا الامتداد بعوامل جغرافية عديدة[١٣]. ولقد نفذ من هذه الجهة إلى قلب القارة عبر مداخل ثلاثة، سلكها العرب فى هجراتهم إليها، منها مدخل بري يتمثل في شبه جزيرة سيناء[١٤]، تلك الصلة البرية الوحيدة بين شبه الجزيرة العربية والقارة، ومدخلان بحريان: أحدهما عبر البحر الأحمر وباب المندب أقرب نقطتين بين شاطئيها، والثاني الساحل الشرقي الإفريقي عبر المحيط الهندي.

ولم تتوقف حركة الإسلام في إفريقيا عند هذه المداخل، كما لم ينحسر زحفه منذ دخوله حتى الآن. ولذا يمكن القول بأن إفريقيا لازالت من المناطق التي يتقدم فيها الإسلام، بل هي في الواقع أهم مجالات انتشار الإسلام رغم ما يلقى فيها من عقبات.

وقد أخذ الإسلام في انتشاره داخل القارة طرقا ومسالك مختلفة، تبدأ من المداخل الثلاثة السالفة، ويمكن تتبعها في داخل القارة زمنيا[١٥] ومكانيا[١٦] وجغرافيا. نوجزها جميعا فيما يلي:

أخذ الإسلام ـ زمنيا ـ ينتشر في إفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، فقد دخل مصر ثم المغرب مع الفتح العربي، ثم انتشر انتشارا عظيما منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري). وقد ذكر «ترمنجهام» بأن انتشار الإسلام في القارة الإفريقية تميز بأربع فترات زمنية أو مراحل تاريخية متتابعة[١٧] تمثل مدى عمق انتشاره في القارة، كما أنها تمثل مراحل مختلفة من الإسلام في حياة شعوب القارة.

أما مكانيا وجغرافيا فيمكن تتبع طرق الانتشار في القارة إذا قسمت إلى مناطق تعد محاور انتشار الإسلام فيها.

ـ **شمال شرق إفريقيا أو حوض وادي النيل**: وهو ما يسمى بالمحور النيلي، الذي يبدأ من مصر ـ أهم المناطق المؤثرة في انتشار الإسلام في القارة ـ عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة، ومنها إلى الجنوب، حيث غطى السودان الشمالي، لينفذ إلى قلب السودان، حيث اندفع التيار الإسلامي نحو الغرب إلى كردفان ودار فور في غربي السودان، ومنها إلى ما جاورها غربا في سودان السافانا حتى منطقة بحيرة تشاد، حيث النطاق الرعوي الكبير المتصل بغرب إفريقيا.

ولقد استفاد الإسلام من موقع سودان وادي النيل في إفريقيا الإسلامية، فهو بحكم امتداده السياسي إلى خط عرض ٣٫٥° شمالا يملك ـ عمليا ـ أكبر عمق إسلامي في قلب القارة. ولازالت الرحلة بين غرب إفريقيا والأراضي المقدسة بالحجاز عن طريقه من الظاهرات الرئيسية لحركة السكان في القارة حتى الوقت الحاضر(١٨).

لكن وقف المد الجنوبي للإسلام عن التقدم عند بحر العرب، ولم يصل إلى المنابع الاستوائية من هذا الاتجاه الشمالي الجنوبي، ويرجع ذلك إلى عامل جغرافي يتمثل في وجود المستنقعات في منطقة السدود ـ في السودان الجنوبي ـ التي حالت دون انتشاره.

ـ **شمال غرب إفريقيا** : وهو ما يطلق عليه المحور الساحلي أو المحور الغربي، الذي يبدأ من مصر إلى المغرب على طول ساحل البحر المتوسط ، حتى وصل إلى المغرب ومنها إلى غرب القارة، ليغطي كل شمال إفريقيا بالإسلام في غضون القرن العاشر الميلادي.

فمن المغرب ـ التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام بإفريقيا وخاصة انتشار الإسلام في الصحراء وفي حوض السنغال ـ اتخذ الإسلام خطوط انتشار رئيسية، كان أهمها نحو الجنوب في الصحراء وما وراءها جنوبا في غرب إفريقيا، حتى بلغ أطراف الغابة في غرب ووسط القارة. واتخذ الإسلام في اختراقه وتوغله القارة أكثر من طريق، من بينها: من طرابلس جنوبا إلى بحيرة تشاد، ومن جنوب تونس إلى «كانو» وتشاد، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد «الهوسا» وشمال نيجيريا، ومن جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال وثنية النيجر حيث قامت مدينة «تمبكتو»(١٩). فالإسلام لم يقف عند حدود الصحراء الكبرى، وإنما تعداها إلى إقامة عشر دول إسلامية خلف هذه الصحراء في وقت مبكر(٢٠). وهنا نجد أن طرق التجارة التي تبدأ من إفريقيا الشمالية متجهة صوب الجنوب عبر واحات الصحراء إلى المدن الكبرى في النطاق السوداني قد لعبت دورا كبير في نشر الإسلام من مراكزه في شمال إفريقيا إلى غرب القارة(٢١).

ولقد استدار المحور الغربي من المغرب جنوبا مع ساحل المحيط الإطلنطي على حواف الصحراء الكبرى (ق/١٠ ـ ١١م) ليصل إلى حوض السنغال وسافانا السودان الغربي ابتداء من القرن ١١ ـ ١٣م، حتى تغلغل في حوض نهر النيجر وبلاد غربي إفريقيا. وكان هذا

أهم الطرق، إذ به تم الإسلام دورته عكس عقارب الساعة على طول محور السافانا الرئيسي ليلتقي في النهاية بالمحور النيلي السابق عند بحيرة تشاد حوالي القرن ١٣م.

وبهذا كان للمؤثرات الإسلامية في غرب إفريقيا أربع اتجاهات رئيسية: اتجاه شمالي يربطه بالمغرب، واتجاه شرقي يربطه بالسودان، واتجاه شمالي شرقي يربطه بمصر، ثم اتجاه جنوبي شرقي يربطه بشرق إفريقيا.

ـ **شرق ووسط إفريقيا** : وهو محور شرق إفريقيا ابتداء من القرن الإفريقى ـ بل السودان ـ شمالا حتى مدينة «الرأس» جنوبا . وهنا ثمة فترتان لانتشار الإسلام(٢٢): الأولى هي فترة قيام مجتمع إسلامي إفريقي جديد على الساحل والجزر المقابلة في شكل المراكز التجارية في المدن، والثانية فترة انتشار الإسلام من الساحل وتلك الجزر إلى الداخل. كما نشأت في وداي النيل مراكز للتجارة كان لها شأن عظيم في نشر الإسلام في شرق إفريقيا على الخصوص عبر الطرق التجارية التي تصل وادي النيل بشرق القارة. ويذْكر «يوسف فضل» أن الإسلام دخل إلى السودان من الشرق، وأن المسلمين استطاعوا دخول السودان عبر ثلاثة طرق رئيسية(٢٣).

لقد عبر عرب الجنوب إلى شرق السودان والقرن الإفريقي والصومال، ثم منه إلى زنجبار (ساحل الزنج)، ومنه جنوبا على طول الساحل الشرقى الإفريقي في الزمبيزي ومدغشقر منذ القرن العاشر الميلادي، ولم يتقدم جنوبا بعد هذا إلا حديثا في القرن الماضى (١٩م) على أيدى الهنود المسلمين المهجرين إلى جنوب القارة، حيث وصلوا به إلى مدينة «الرأس». وعندما وفد البرتغاليون إلى شرق إفريقيا في أواخر القرن ١٥م وجدوا المسلمين متمركزين في المدن الساحلية وفي كل مكان من الساحل، وفي الداخل من الساحل الشرقي للقارة(٢٤)، ثم ازداد نشاطهم التجاري واتسع بين الساحل والداخل في القرن ١٧م، وبخاصة في القرن ١٩م.

وتجدر الإشارة إلى أن مراكز شرق إفريقيا ـ بعامة ـ كانت على صلة بالمراكز الحضارية الإسلامية في غرب إفريقيا عن طريق وسط القارة(٢٥). وقد ضعف هذا المد الإسلامي بعد سيطرة الاستعمار البريطاني على شرق إفريقيا.

والخلاصة : أننا نجد أن المحورين النيلي والغربي يرسمان قوسا كبيرا يحيط بالصحراء

الكبرى بعد أن انتشر الإسلام في غرب إفريقيا، ولكن هذا الامتداد وقف عند حدود العقبات الجغرافية الطبيعية كمنطقة السدود في جنوب السودان ونطاق الغابات في وسط وغرب القارة، وهذه وقفت في وجه استمرار امتداد طريق ومسالك الإسلام في القارة تجاه جنوبها. أما المحور الشرقي فقد امتد من الساحل ليصل إلى قلب القارة دون أن تواجهه عقبات طبيعية جغرافية تعوق تقدمه، ولذا التقى مع المحاور السالفة لكن لم يمتد إلى جنوب القارة في داخلها، وإنما على ساحلها الشرقي. ومن ثم ظل جنوب القارة يحيط به مجموعة من العقبات الطبيعية الجغرافية والتاريخية والسياسية، حالت دون تقدم طرق انتشار الإسلام إلى جنوب القارة.

الأقليات الإسلامية في إفريقيا :

توجد الغالبية العظمى من المسلمين في قارات العالم القديم (آسيا، إفريقيا، أوربا)، وبخاصة قارتي آسيا وإفريقيا، حيث تشمل الأولى وحدها نحو ٧٠٪ (تقريبا) من عدد المسلمين في العالم، بينا تضم الثانية أكثر من ربع مسلمي العالم، وذلك حسب تقدير عام ١٩٧٣م.

ويقدر بأن عدد المسلمين قد تضاعف في إفريقيا في مدى عشرين عاما (بين عام ١٩٣١، ١٩٥١م)، وجزء كبير من هذا النمو يرجع بلا شك إلى الزيادة الطبيعية للسكان، ولكن هذا وحده لا يمكن أن يفسره كله، فهي طفرة لا تفسرها الزيادة الطبيعية وحدها.

كما يقدر عدد المسلمين في إفريقيا ـ في الوقت الحاضر ـ بأكثر من ضعف عدد سكان الدول العربية في مجموعهم (تقريبا)، وهذا يجعل إفريقيا أكثر القارات نسبة في عدد مسلميها إلى جملة سكانها، وإن كانت أعداده المطلقة لا تزيد عن منطقة كإندونيسيا مثلا[٢٦]. لكنا نجد أن الكثرة العددية لاتزال للإسلام، وأن القارة إسلامية. أفلا يحق لنا أن نطلق عليها القارة المسلمة..؟؟ وأن المستقبل للإسلام في هذه القارة...؟؟ ومن ثم تقرر في مؤتمر «مقديشيو» أن إفريقيا القارة المسلمة[٢٧].

مساحة الدول الإسلامية : لدراسة الأقليات الإسلامية بالقارة الإفريقية لابد أولا أن نحدد رقعة الإسلام بها، ونقصد به تحديد أرض الإسلام مساحة وموقعها من القارة وتوزيع

الدول داخل حدودها وأعدادها وتغيرها على مدى فترة من الزمن ـ في ضوء التواريخ الإحصائية المستخدمة للدول الإسلامية وأعداد المسلمين بها ـ وأيضا إلقاء نظرة إلى توسع الإسلام جنوب الصحراء.

وذلك لنستخلص منها موقع الأقليات الإسلامية وأعدادهم ونسبتهم إلى جملة سكان الدول التي يقيمون فيها ومن مجموع مسلمي القارة.

إن الدول الإسلامية في إفريقيا تشكل كتلة متصلة البنيان في النصف الشمالي من القارة، كما تعد الدول الإسلامية في إفريقيا سطحا حضاريا عظيم الامتداد فوق هذه الكتلة من اليابس، يشمل الكثير من الوحدات السياسية التي يدين معظم سكانها أو بعضهم بالدين الإسلامي، كما تغطي ٦٥٫٥٪ من جملة مساحة القارة (تقدير عام ١٩٧٣م). وبمراجعة حدود أرض الإسلام في القارة نجد أن الحد الجنوبي أو بمعنى آخر الجبهة القارية لأرض الإسلام في إفريقيا هي المجال الرئيسي المتبقي الذي ينتشر فيه الإسلام. ولذا يمكن القول بأن «كتلة الإسلام» في إفريقيا تتحرك نحو الجنوب، ومن هذه الزاوية تبدو حيوية إفريقية المدارية (جنوب الصحراء) بالنسبة للإسلام.

وهناك عوامل كثيرة طبيعية وبشرية وتاريخية واقتصادية ساعدت على اتصال أجزاء الكتلة الإسلامية الإفريقية بعضها ببعض، فالنيل عامل ربط بين أقصى شمال القارة وقلبها الاستوائي، وبلاد المغرب تتصل بغرب إفريقيا منذ القدم عبر الصحراء ونقط الواحات[٢٨].

وتجمع المصادر في هذا الشأن على أنه من النمط التوزيعي للدول الإسلامية وخط تحديد أرض الإسلام بالقارة، ويمكننا أن نميز بين نطاقين زمنيين للإسلام: الأول نطاق الإسلام القديم، وهو يتفق تقريبا مع دول العالم العربي، والثاني يشمل الإسلام جنوب الصحراء أو الإسلام المداري، كما يطلق عليه البعض، نطاق السافانا، وهو لازال يتوسع في هذا الاتجاه. بل إن إفريقيا هي القارة الوحيدة التي يزحف فيها الإسلام اليوم بعد أن فقد أرضا في أوربا، وتوقف أو كاد في آسيا. وهو بهذا يستبدل بعروض شمالية عليا عروضا جنوبية سفلى في حركة انتقال طفيفة غير منظورة[٢٩]، فالإسلام جبهة زاحفة في إفريقيا لا يعرفها في أية قارة أخرى، كما لا يمارسها أي دين آخر سواه في الوقت الحالي أو في أي مكان، وهو كفيل أن يجعل منها «قارة الإسلام» بالضرورة، لأن الإسلام لا يصل إلى نسبتها (٦٠٫٥٪) في أية قارة سواها.

أبعد من هذا، تعد إفريقيا أكثر من أية قارة أخرى جبهة زيادة في أعداده، وزحف في رقعته، واحتياطي توسعه في المستقبل. ويشير كل الكتاب والمبشرين الغربيين قبل سواهم إلى أن دين المستقبل في قارة المستقبل إنما هو الإسلام(٣٠).

ويؤكد «عبدالعزيز كامل» أن نطاق السافانا ـ جنوب الصحراء ـ في إفريقيا هو دائماً نطاق الكسب للإسلام، ليعوض الفقدان أو النقص في مناطق أخرى من العالم، حيث يتزايد المسلمون فيه بطريقتين: الزيادة الطبيعية، وبمعتنقين جدد للإسلام(٣١). ولم يقتصر الدخول في الإسلام على الوثنيين، بل هناك موجة عارمة ورجعة كبيرة من أولئك الذين نصرهم رجال التبشير ورسل الاستعمار(٣٢). ويؤكد «ماك كاي» (V. Mckay) فيقول: «.... وهنا نقدم الإيضاحات والأسباب على نجاح الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، لأن التحول من الوثنية إلى الإسلام أمر سهل وميسور،...، فليس من السهل أن يتبع المرء تعاليم الإسلام كلها مباشرة، لكن كل ما نرجوه هو أن يرسل الطفل إلى مدرسة القرآن...»(٣٣).

إن العناصر العربية التي تدفقت إلى غرب إفريقيا إنما جاءت من بلاد المغرب منطلقة إلى مصب السنغال، ثم متجهة صوب الشرق عبر نطاق السافانا، قد كانت بيئة السافانا هذه على حد تعبير «ترمنجهام» بيئة تسهل الهجرات وتتيح الاحتكاك الثقافي، وتمهد لتكوين الوحدات الاجتماعية والسياسية(٣٤) أما الصواف(٣٥) فيذكر أن النطاق جنوب الصحراء هو المكسب الحقيقي لاكتساب أعداد متزايدة وسريعة للمسلمين في القارة، وضرب لذلك مثلين، وهما: فولتا العليا، وجمهورية سيراليون، حيث كانت نسبة المسلمين قبل استقلالها (سنة ١٩٦٠م) لا تزيد عن ٢٥٪ فقط، لكن ارتفعت فيها في الوقت الحاضر (سنة ١٩٧٣م) إلى ٥٦٪ للأولى، وقفزت إلى ٦٥٪ في الثانية.

ويؤيد خلاصة الآراء السالفة تتبع أعداد الدول الإسلامية ومواقعها من إفريقيا لتبيان كثرتها العددية المطردة في إفريقيا المدارية جنوب الصحراء. فبالنظر إلى جدول (١) نجد أن عدد الدول الإسلامية سنة ١٩٦١م بلغ ٢٢ دولة، ارتفع إلى ٢٦ دولة عام ١٩٧٣م، أي بزيادة خمس وحدات سياسية، هي: بنين ـ توجو ـ ساحل العاج ـ إفريقيا الوسطى ـ الكمرون(٣٦). هذا بالإضافة إلى الحبشة (+ إريتريا)، وتنزانيا (تنجانيقا + زنجبار + بمبا) التي أحصيت سنة ١٩٧٣م ضمن الدول الإسلامية مع أوضاعها السياسية الحالية، بعد أن كانت دولاً غير

إسلامية. والملاحظ أن هذه الدول الإسلامية المضافة كلها تقع جنوب الصحراء في إقليم السافانا، وإفريقيا المدارية.

تحديد الدول الإسلامية وتوزيعها: لاشك أن هناك معايير موضوعة تستخدم عند التطبيق لتحديد إطلاق التسمية على الوحدة السياسية ما إذا كانت إسلامية أو غير إسلامية(٣٧). وهناك معياران وضعا لتحديد الدول الإسلامية، تستخدمهما للتطبيق على القارة الإفريقية، وهما:

«المعيار الأول»: وهو «المعيار الرسمي»: وهي الدول التي ينص في دساتيرها على أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي لأهل البلاد. وهذا المعيار لاجدال فيه من أن الدولة في هذا الشأن وتحت هذا المعيار دولة إسلامية، غالبية مسملة بالطبع، وأقلية أو لا شيء من الديانات الأخرى.

وبتطبيق هذا المعيار على الدول والوحدات السياسية في القارة الإفريقية نجد أن نسبة ضئيلة من الدول الإفريقية هي التى تدخل تحت مضمار هذا المعيار. وهي فقط مجموعة دول العالم العربي في شمال وشمال شرق إفريقية (جمهرية مصر العربية - الجمهورية العربية الليبية - جمهورية تونس - جمهورية الجزائر - المملكة المغربية - جمهورية السودان الديمقراطية)، بالإضافة إلى عدد ضئيل من الدول الأخرى: (موريتانيا - الصومال) التي ينص في دساتيرها الرسمية على أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي أو الرئيسي للدولة. وفي كل هذه الوحدات نجد أن نسبة المسلمين فيها لا تزيد على ٥٠٪ من مجموع سكانها فحسب، بل تصل هذه النسبة إلى أكثر من ٩٠٪ في كل هذه الوحدات السياسية فيما عدا السودان (٨٥٪ عام ١٩٧٣م).

«أما المعيار الثاني»: فهو «المعيار العددي أو الإحصائي»: وهو أوفق معيار لتحديد الدول الإسلامية. ويتطلب العمل لتطبيق هذا المعيار الحصول على عدد من البيانات الإحصائية، تتلخص في: كم عدد المسلمين في كل دولة على حدة مقارنا بعدد السكان الكلي في نفس سنة التقدير أو الإحصاء ونسبتهم من الدولة؟؟ وضع جدول نسبي بالأرقام لتصنيف

الدول الإسلامية وغير الإسلامية، هذا بالإضافة إلى إجراء مقارنة بين هذا الجدول الحالي بجداول أخرى سالفة حسب الأرقام الممكن الحصول عليها والموثوق بها. وأخيرا استخلاص الأقليات الإسلامية عددا وموقعا في القارة. وكان خلاصة هذه الدراسة بتطبيق هذا المعيار والإجابة على كل الأسئلة السالفة كلها الجداول (١)، (٢)، (٣) بما فيها من أرقام بحتة ونسب مئوية ومصادر.

وهناك ملاحظة يجدر أخذها بعين الاعتبار عند تطبيق المعيار العددي على الدول الإفريقية، وهي أنه على الرغم من النقص الكبير الذي نجده في المصادر الإحصائية الخاصة بالدول الإسلامية، إلا أن في دراسة كهذه تعتمد في الأساس على الحقائق العلمية الدقيقة والأرقام الصحيحة الموثوق بها من مصادرها وصدق نوايا ناشريها، نجد أن هناك مراجع ومصادر عديدة تحاول الإجابة على هذه الأسئلة. لكن الأرقام المتاحة كثيرا ما تختلف أحيانا إلى حد التضارب[٣٨].

كما أن من الواجب العلمي هنا أن نقرر أنه بقدر ما تجنح التقديرات الغربية إلى التقليل من حجم الإسلام، بقدر ما تندفع بعض الكتابات العربية إلى التضخم، ولذا اختلف المصدران في تقدير عدد المسلمين نتيجة اختلاف وجهات النظر في تقدير عدد المسلمين في الدول والأقاليم المختلفة. إننا نفتقر كل الافتقار إلى البيانات التي تخول لنا صدق الحكم في هذا الموضوع، لأن التقديرات التي وضعت عن عدد المسلمين في إفريقيا بما في ذلك أحدثها عهدا قدرت أعداد المسلمين تقديرات متباينة. وهناك جانب كبير من الشك يحيط بكل تقدير، لأن كثيرا من الأقطار التي يكثر فيها المسلمون لم يعمل لها إحصاء ديني قط ، ولهذا فإنه يعوزنا فيها الإحصاء الدقيق، وحتى المصادر العربية الإسلامية تذكر «أن العالم الإسلامي يعتمد في مصادره عن نفسه على أعمال غير المسلمين وعلى كثير من المصادر الأولية»[٣٩].

وترجع عدم دقة الإحصاءات في إفريقيا إلى الأسباب التالية :

أ ـ معظم هذه الدول ـ إن لم يكن كلها ـ دول نامية ، وليس لها إحصاءات حيوية.

ب ـ معظم الدول الحديثة لا تتضمن جداولها الإحصائية أو تعداداتها السكانية التركيب الديني.

جـ ـ تعمدت القوى الاستعمارية عدم إعطاء معلومات صحيحة مضبوطة عن مستعمراتها، ولذا جاءت كل أرقامها التقديرية المقبولة بعد الاستقلال فقط لا تقبل المقارنة بما سبقها، سواء بالنسبة للدولة ذاتها أو لأن العديد من الوحدات السياسية الحالية كان مندمجا في إطار وحدات استعمارية كبيرة.

د ـ يميل المستعمرون الأوربيون إلى خفض عدد المسلمين في الأقطار التي لايزال لهم نفوذ فيها. وهم معروفون بموقفهم بالنسبة للإسلام وبخاصة في إفريقيا قارة المستعمرات.

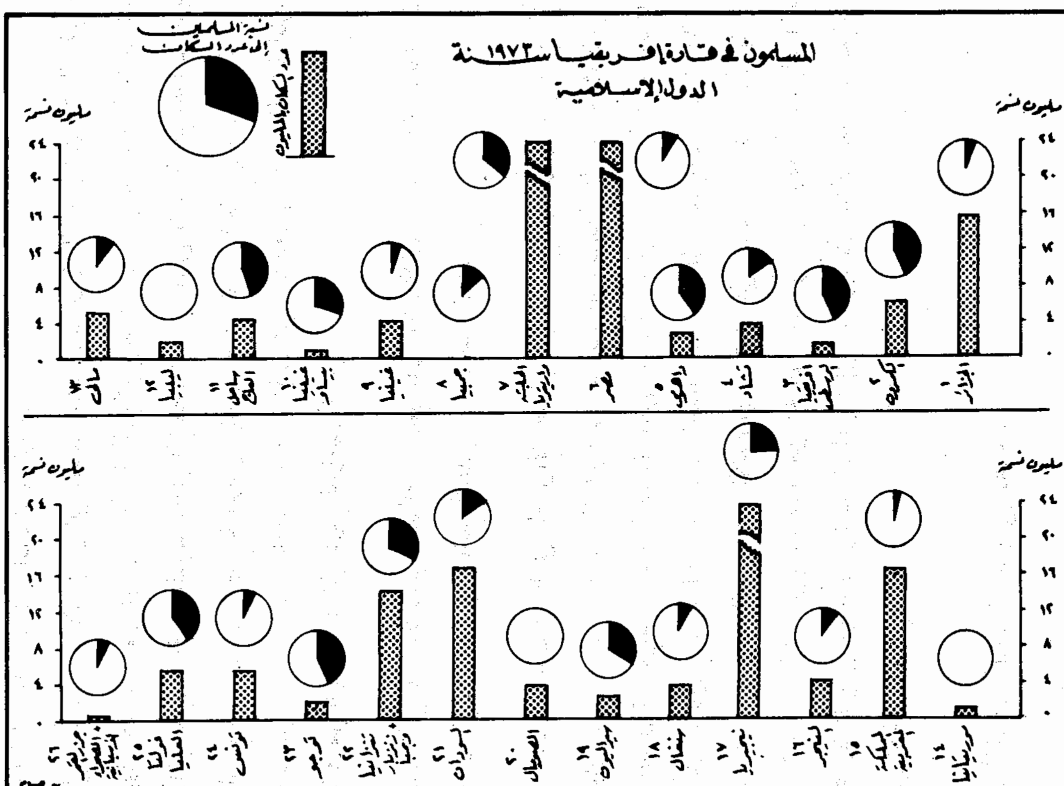
هـ ـ إطلاق حرية العقيدة الدينية تجعل الإحصاءات لا تعطى بالنسبة للمعتقدات الدينية عامة والمسلمين على وجه الخصوص. وأخيرا نجد أنه في كثير من الدول اضطرابات يعمد معها المسلمون إلى إخفاء أو عدم الإعلان عن عقائدهم وشعائرهم الدينية لظروف تضطرهم إلى ذلك داخل دولهم لدواعى الأمن.

ونتيجة لكل هذه الأسباب السالفة يصبح مدى الاختلاف (Range of Variation) كبيرا وبخاصة إذا قورنت الأرقام الحالية بالتقديرات السالفة المبكرة.

لذا اعتمد الباحث في تطبيق المعيار الإحصائي على ما أتيح من أرقام منشورة مع الأخذ في الاعتبار أمورا عديدة، وبخاصة الأرقام التي صدرت بعد استقلال القارة، حيث ظهر عدد كبير من الدول في الخريطة السياسية للقارة والتي كانت أجزاء من وحدات سياسية استعمارية كبيرة، حتى تسهل المقارنة فيما بينها. وهنا اعتمد الباحث على تقديرات سنوات ١٩٦١م، ١٩٦٨م، ١٩٧٣م، وفي حالة السنتين الأخيرتين اعتمد على المصادر مباشرة. أما بالنسبة للتاريخ الأول فقد أخذ متوسط العديد من الجداول للوصول إلى أرقام أقرب إلى الحقيقة ومقبولة محاولا التوفيق فيما بينها واستخدام أقربها إلى المنطق، لأن هناك بعض الافتراضات بعيدة عن الحقيقة والواقع(٤٠).

تحديد الأقليات الإسلامية وتوزيعها :

اتفق الكثيرون عند تطبيق المعيار العددي على الوحدات السياسية في إفريقيا، من حيث عدد المسلمين ونسبتهم من المجموع الكلي للسكان على اعتبار كل دولة يزيد عدد المسلمين فيها على ٥٠٪ من مجموع عدد سكانها «دولة إسلامية»، بصرف النظر عما إذا كان دستور هذه


المسلمون في قارة افريقيا سنة ١٩٧٣
الدول الإسلامية
نسبة المسلمين الى عدد السكان
عدد السكان بالمليون
مليون نسمة
١ الجزائر
٢ الكمرون
٣ افريقيا الوسطى
٤ تشاد
٥ داهومي
٦ مصر
٧ الحبشة واريتريا
٨ جمبيا
٩ غينيا
١٠ غينيا بيساو
١١ ساحل العاج
١٢ ليبيا
١٣ مالي
١٤ موريتانيا
١٥ المملكة المغربية
١٦ النيجر
١٧ نيجيريا
١٨ سنغال
١٩ سيراليون
٢٠ الصومال
٢١ السودان
٢٢ تنزانيا زنزبار وبمبا
٢٣ توجو
٢٤ تونس
٢٥ فولتا العليا
٢٦ جزر الكنار الصحراء الاسبانية

شكل (٢)

الدولة يقرر دين الدولة الرسمي أو لا يقرره، أما إذا لم يتجاوز عدد المسلمين هذه مثل هذه النسبة في سكان الدولة، فالمسلمون في هذه الحالة «أقلية دينية» في مثل هذه الدولة، وتعتبر «دولة غير إسلامية» حتى ولو كانت هذه الأقلية الإسلامية كبيرة من حيث النسبة مثل الجابون (٤٥٪ مسلمون)، ومالاوي (٣٥٪)، وأوغندة (٣٦٪) طبقا لتقديرات ١٩٧٣م، (جدول (٣)).

لكن أضاف الباحث عند التطبيق أن الدولة تعتبر إسلامية إذا زادت نسبة المسلمين بها على ٥٥٪ من جملة سكانها (باعتبار أن هناك احتمالا للخطأ بمقدار + أو - ٥٪). فحتى إذا نقصت نسبة الخطأ المحتمل كلها من التقدير هبطت نسبة المسلمين في الدولة إلى حد النسبة العامة وهى ٥٠٪. وبتطبيق ذلك وجد أن هناك ٢٦ دولة إسلامية و ٢٠ دولة غير إسلامية، أو بمعنى آخر دول بها أقليات إسلامية ظهرت في جدول (٣).

- ومهما يكن من أمر فإن تقدير عدد السكان والمساحات في الدول الإفريقية المختلفة، والتي ظهرت أرقامها في جدول (٣)، يوضح الدول الإسلامية وغير الإسلامية في إفريقيا، على أساس تقديرات الأمم المتحدة عام ١٩٧٣م. أما عن تقدير عدد المسلمين من سكان هذه الدول فهي من مصدر واحد[٤١]، ولنفس العام (١٩٧٣)، لكن النسب المئوية الأخرى للمسلمين في الدول التي ظهرت في الجدول (٢)، فهي من مصادر مختلفة وضعت أسفله، أخذت بشيء من الحذر والتحفظ في الاعتماد عليها، في بعض الدول الإفريقية في غربي ووسط القارة وجنوبها، مع مراعاة المبالغة من ناحية، والتقديرات المغرضة من ناحية أخرى.

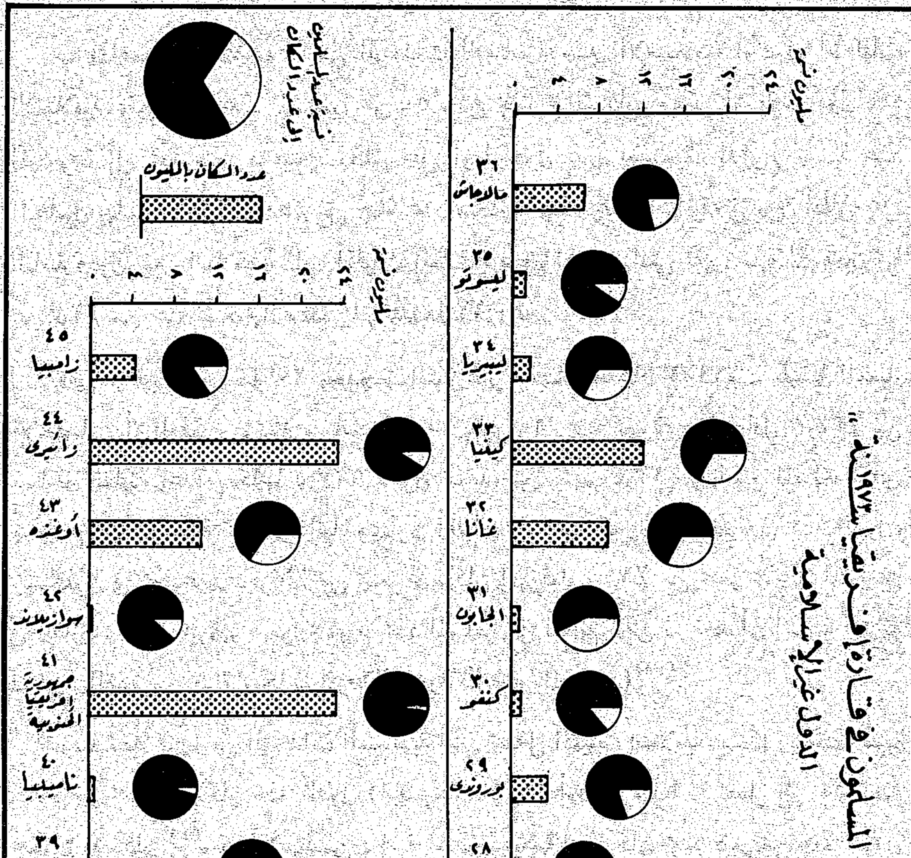
وبناء على المعيار العددي وتقديرات عام ١٩٧٣م يمكن تقسيم القارة إلى ثلاث مجموعات، وهي:

- **المجموعة الأولى**: وهي الوحدات التي يطلق عليها - طبقا للمعيار العددي - دولا إسلامية، حيث تزيد نسبة المسلمين فيها على ٥٠٪ من مجموع سكانها، بل تصل هذه النسبة في عدد كبير منها إلى أكثر من ٨٠٪ من مجموع السكان[٤٢]. ويتضح أن هناك ٢٦ وحدة سياسية إفريقية تعد دولا إسلامية، منها ٢٥ دولة مستقلة، بالإضافة إلى وحدتين سياسيتين صغيرتين غير مستقلين، وهذه الأخيرة تساهم بنسب ضئيلة جدا في العدد الكلي لسكان الدول الإسلامية في إفريقيا، وبالتالي في عدد أو نسبة المسلمين بها.

في القارة الإفريقية ـ عام ١٩٧٣م ـ ٢٦ دولة إسلامية، تبلغ مساحتها ١٨٫٧ مليون ك. م مربع، أي ما يعادل ٦٥٫٥٪ من مساحة القارة، وعدد سكانها ٢٦٨ مليون نسمة، من بينهم ٢١٥٫٧ مليونا من المسلمين، أي بنسبة ٨٠٫٥٪ من جملة عدد سكانها، يمثلون ٥٥٪ من مجموع سكان إفريقيا، ونحو ٩٠٪ من مجموع عدد المسلمين في القارة، وحوالي ٢٤٪ من مجموع عدد المسلمين في العالم.

ويلاحظ من الجدول (٣) أيضا أن حجم السكان في معظم هذه الدول صغير بشكل محسوس، إذ لا يزيد عدد السكان في أية دولة من هذه الدول على ١٥ مليون نسمة فيما عدا مصر، ونيجيريا، والحبشة (+ أريتريا)، والمملكة المغربية، والسودان، وأن النسبة العامة للمسلمين في هذه المجموعة الأخيرة يزيد على ٨٠٪ من مجموع سكانها، وإن كانت نسبة المسلمين تزيد على ٩٠٪ في كل الدول العربية الإفريقية (فيما عدا السودان) وكذلك الصومال وموريتانيا، بالإضافة إلى غينيا، مالي، النيجر، والسنغال.

أما عن الوحدات السياسية الإسلامية غير المستقلة بالقارة فتتمثل في إريتريا التي ضمتها الحبشة إلى أراضيها، وأصبحت إقليما من الحبشة، وهي إقليم يسود فيه المسلمون تماما. وعلى هذا ارتفع عدد المسلمين بالحبشة عن ذي قبل، كما ارتفعت نسبتهم داخل الدولة، وظهرت إحصاءاتها في الوقت الحاضر بنسبة ٦٤٪ للمسلمين عام ١٩٧٣م من مجموع السكان، مقارنا بـ ٤٩٪ عام ١٩٦٨ و ٣٠٪ عام ١٩٦١م. وبذلك أصبحت دولة إسلامية الآن بعد أن كانت تحصى مع الدول غير الإسلامية من قبل، وذلك بفضل ضم أريتريا إلى إحصاءاتها. وقد كتب «جون جنتر» (Gunther, J.) «أن الفكرة السائدة بأن الحبشة دولة مسيحية في حاجة إلى تعديل وتصحيح، إذ إن نصف مجموع السكان يعتنقون الإسلام أو الوثنية... ثم يعود ويقرر بأن المسلمين في إثيوبيا قوة كبيرة، فمقاطعة هرر ـ التي نشأ فيها الإمبراطور ـ مقاطعة إسلامية، وقبائل «الجالا» التي تشغل جنوب الحبشة وغربها نصفها من المسلمين. بينما تنتشر في جميع أنحاء الحبشة جنوب المجمعات الزراعية التي يملكها المسلمون[٤٣]... أما «ترمنجهام» فقد ذكر أن المسلمين يشكلون ٣٠٪ من مجموع السكان في الحبشة، وتبلغ نسبتهم أكثر من ٥٠٪ إذا أضيفت إليها أريتريا[٤٤]. فإذا كان هذا ما قرره بعض الكتاب عام ١٩٥٥م، فما بالنا بإضافة أريتريا ـ وكلها مسلمون ـ إلى نسبتها المئوية في الوقت الحالي؟



" المسلمون في قارة إفريقيا سنة ١٩٧٣ "
الدول غير الإسلامية
مليون نسمة
٣٦ مالاجاش
٣٥ ليسوتو
٣٤ ليبيريا
٣٣ كينيا
٣٢ غانا
٣١ الجابون
٣٠ كنغو
٢٩ بوروندي
٢٨ بتسوانا
٢٧ انجولا
٢٦ روديسيا
٤٥ زامبيا
٤٤ زائيري
٤٣ أوغندة
٤٢ سوازيلاند
٤١ جمهورية إفريقيا الجنوبية
٤٠ ناميبيا
٣٩ موزمبيق
٣٨ موريشس
٣٧ مالاوي
عدد السكان بالمليون
نسبة عدد المسلمين إلى عدد السكان

شكل (٤)

أما الصحراء الإسبانية فقد تم تقسيمها بين المغرب وموريتانيا، وعدد سكانها ٧٦ ألف نسمة، منهم ٧٣ ألف نسمة من المسلمين، أي بنسبة ٩٥٪ (عام ١٩٧٣م) من مجموع السكان.

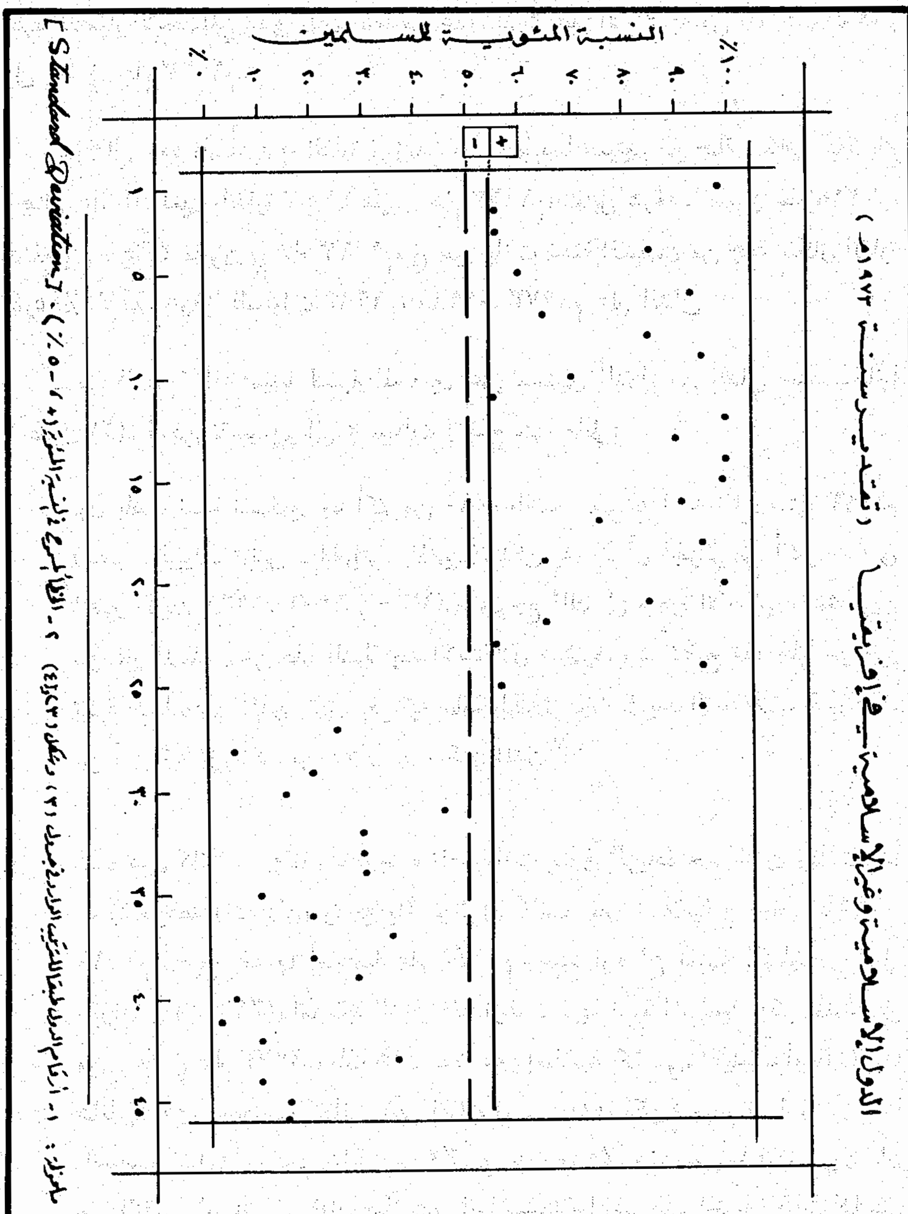
ـ **المجموعة الثانية** : هي الوحدات السياسية غير الإسلامية أو دول الأقليات الإسلامية. وفيها يقل عدد المسلمين عن ٥٠٪ من مجموع السكان. ويمكن أن نقسم دول هذه المجموعة إلى مجموعتين فرعيتين: **أطلق** على أولها «دول غير إسلامية» يتراوح نسبة عدد المسلمين بها ما بين ٢٥ ـ ٥٠٪ من جملة عدد سكانها، وهذه عددها ثمانية، في حين **أطلق** على الثانية «دول غير إسلامية» ذات أقليات إسلامية صغيرة، وهي التي تقل نسبة المسلمين بها عن ٢٥٪ من عدد سكانها، وهذه بلغ عددها ١٢ دولة.

ففي القارة الإفريقية ٢٠ وحدة سياسية غير إسلامية عام ١٩٧٣م ـ طبقا للمعيار الإحصائي أو العددي ـ تبلغ مساحتها ١٠٫٦ مليون ك. م مربع، أي ما يعادل ٣٤٫٥٪ من مساحة القارة، وعدد سكانها ١٢٧٫٥ مليون نسمة، من بينهم ٢٣٫٤ مليونا من المسلمين، أي بنسبة ١٨٪ من جملة عدد سكانها. ويمثلون أقليات إسلامية كبيرة أو صغيرة في هذه الدول، ويشكلون في مجموعهم نحو ٦٪ من مجموع سكان إفريقيا، و ١٠٪ من مجموع عدد المسلمين في القارة، وحوالي ٢٫٥٪ من مجموع عدد المسلمين في العالم. ومن ثم نجد أن النسبة المئوية لمسلمي القارة من جملة سكانها ٦٠٫٥٪ (٣٩٫٥٪ لغير المسلمين)[٤٥].

وهنا نجد كثيرا من الوحدات السياسية التي تشمل أقليات إسلامية، يشكل بعضها نسبة كبيرة من مجموع سكان هذه الدول (الجابون، مالاوي، أوغنده)، إنما لا يصل إلى ٥٠٪ من مجموع السكان[٤٦]، كما يلاحظ من دراسة الجدول أيضا أن سكان عدد كبير من هذه الدول صغير للغاية (بتسوانا ـ الجابون ـ ناميبيا ـ سوازيلاند)، وبالتالي لا يتجاوز عدد المسلمين بها مليونين في ١٥ دولة منها، ويصل العدد إلى أكثر من ٢ مليون مسلم في خمس دول فقط، كما يلاحظ أن كلها دول مستقلة، فيما عدا أربعة منها مازالت تحت الحكم أو الوصايات الأجنبية.

التغاير العددي والنسبي للدول الإسلامية والمسلمين في إفريقيا:

تبين من الدراسة العددية للدول الإسلامية ونسبة المسلمين بالدول الإفريقية أنه حدث تغير فيها على مدى فترة ١٢ عاما (١٩٦١ ـ ١٩٧٣م) طبقا للجدولين (١)، (٢)..... واتضح مايلي:


الدول الإسلامية وغير الإسلامية في إفريقيا (تقدير سنة ١٩٧٣م)
النسبة المئوية للمسلمين
١٠٠٪
٩٠
٨٠
٧٠
٦٠
٥٠
٤٠
٣٠
٢٠
١٠
٠٪
+
-
١
٥
١٠
١٥
٢٠
٢٥
٣٠
٣٥
٤٠
٤٥
ملحوظة : ١- أرقام الدول طبقا للترتيب الوارد في جدول (٣) وشكل (٣)،(٤) ٢- الخطأ المسموح في النسبة المئوية (+ ، - ٥٪). [Standard Deviation]

شكل (٥)

ـ ارتفع عدد الدول الإسلامية في القارة من ٢٢ عاما ١٩٦١م إلى ٢٦ عام ١٩٧٣م ـ طبقا للمعيار الإحصائي ـ، في حين انخفض عدد الدول غير الإسلامية من ٢٨ عام ١٩٦١م إلى ٢٠ في عام ١٩٧٣م.

ـ إجمالي عدد المسلمين في القارة في زيادة مطردة وأيضا نسبتهم من جملة سكانها، فقد بلغ إجمالي عدد المسلمين بالقارة ١١٥٫٧ مليون عام ١٩٦٣م، مقابل ١٥٤٫٤ مليون عام ١٩٦٨م، ارتفع إلى ٢٣٩٫١ مليون في عام ١٩٧٣م، في حين بلغت نسبة المسلمين من جملة سكان القارة ٤٥٫٤٪، ٥٧٪، ٦٠٫٥ للسنوات ١٩٦٣م، ١٩٦٨م، ١٩٧٣م على التوالي.

ـ من الدراسة التفصيلية لنسبة المسلمين على مستوى الدول من إجمالي عدد سكانها (جدول (٢)) أمكن تقسيمهم إلى مجموعات اتضح منها مايلي:

أ ـ دول بلغت نسبة المسلمين بها أكثر من ٨٠٪، واستمرت في هذا الارتفاع حتى ١٩٧٣م (مصر ـ ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب)، لكن يلاحظ أن الجزائر هي أكبر نسبة في التغير ما بين ١٩٦١، ١٩٧٣ (+ ١٧٪)، ويرجع ذلك إلى هجرة الأجانب المستعمرين من غير المسلمين من هذه الدولة بعد الاستقلال مباشرة، وقد اتضح هذا جليا من تغير نسبة المسلمين في المدن بشمال إفريقيا بعامة والجزائر بخاصة بعد الاستقلال، إذ ارتفعت من أقل ٢٪ إلى أكثر من ٩٠٪ من سكان المدن[٤٧].

ب ـ هناك دول كانت نسبة المسلمين بها مرتفعة، واستمرت في الزيادة حتى الآن. وكانت هذه بنسبة مرتفعة (السودان، ونيجيريا)، وأخرى كانت غير إسلامية في عامي ١٩٦١م، ١٩٦٨م أصبح بعضها إسلاميا عام ١٩٧٣م بحكم ارتفاع نسبة المسلمين، مثل سيراليون (+ ٤٢٪)، أما بقية الدول فقد ارتفعت فيها نسبة المسلمين، لكن ظلت أقل من ٥٠٪ في عام ١٩٧٣م، ولذا ظلت دولا غير إسلامية، كما هي: (كينيا ـ أوغندة). أما غانا وماولاي وروديسيا فكانت غير إسلامية (ـ ٥٠٪)، لكن ظهرت نسبة التغير فيها بالسالب، إذ انخفضت في غانا إلى ٢٠٪ وفي مالاوي ٥٪، وفي روديسيا ١٩٪، وإن كان هذا النقص لم يؤثر في بقائها دولا غير إسلامية، لأنها رغم هذه الخسارة ظلت كما هي غير إسلامية بأقل من ٥٠٪ من مجموع سكانها.

جـ - دول كانت ضمن وحدات سياسية استعمارية كبيرة قبل التقسيم والاستقلال (إفريقيا الغربية الفرنسية) ظهرت بعد التقسيم دولا إسلامية، وظلت على إسلاميتها حتى عام ١٩٧٣، ولكنها كسبت الكثير في زيادة نسبة المسلمين في هذه الفترة.

د - دول كانت ضمن وحدات سياسية استعمارية كبيرة قبل التقسيم والاستقلال (إفريقيا الاستوائية الفرنسية) وكانت غير إسلامية عام ١٩٦١م، ثم كسبت الكثير فأصبحت إسلامية عام ١٩٧٣م، بحكم أن نسبة المسلمين بها بلغت ٥٥٪ فأكثر من جملة سكانها (داهومي - توجو - ساحل العاج - إفريقيا الوسطى - الكمرون). وهذه هي مناطق الكسب الجديدة وانتشار الإسلام عددا ومساحة في إفريقيا جنوب الصحراء. يضاف إلى هذه المجموعة الحبشة (بما فيها أريتريا) وتنزانيا (تنجانيقا + زنجبار + ممبسا) على أنهما كانتا غير إسلاميتين، وأصبحتا وحدات سياسية عام ١٩٧٣م، بحكم أوضاعهما السياسية الحالية وضم مناطق إسلامية لكل منهما.

والخلاصة : أنه اتضح من دراسة الجداول ككل أن الإسلام كسب في كل الدول الإفريقية بعامة، ويسير باطراد بدليل ظهور نسبة التغير كلها بالإيجاب، ولم تظهر بالسالب إلا في حالات قليلة. ومن ثم يمكن أن نقرر أن الإسلام آخذ في الكثرة عددا، والانتشار مساحة في القارة الإفريقية، وأن هذه الزيادة لا يمكن إرجاعها إلى الزيادة الطبيعية فقط في السكان، ولكن أيضا إلى زيادة عدد المسلمين بالدول، وهذا على حساب النقص في نسبة غير المسلمين بها على مستوى القارة بعامة والدول بخاصة.

نظرة إلى المستقبل :

لقد ذهب بعض الباحثين إلى القول - بعد دراسة عرض توزيعات الأديان في إفريقيا - بأن مصير القارة كلها يتوقف على نتيجة اللقاء بين زحف الإسلام من الشمال والشرق والمسيحية من الجنوب. ولعل الدراسة السالفة لتوزيع الإسلام في القارة الإفريقية قد بينت لنا سعة انتشاره بها إلى أبعد الحدود، فقد تحرك الإسلام نحو قلب القارة، واخترق نطاق الغابات، كما انتشر على طول الساحل في غربي القارة، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكنغو. أما في شرق القارة فقد نفذ الإسلام إلى جنوب السودان وهضبة البحيرات، وتدفق إلى قلب هضبة

الحبشة، وتخطى ساحل شرق القارة إلى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنزانيا. ودخل الإسلام جنوب القارة مع المهاجرين المسلمين من سكان الهند، ولازال ينتشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة.

وقد حاول الجغرافيون المسلمون وصف العالم الإسلامي وتحديده في القرن العاشر الميلادي. وقد اتسعت رقعة الإسلام كثيرا منذ هذا القرن، وانتشر فى مناطق كثيرة لم يكن يعرفها الجغرافيون المسلمون في القرون الوسطى. كما حاول بعض الجغرافيين في العالم الغربي التقليل من شأن العالم الإسلامي أثناء الحرب العالمية الثانية، ووصفه بأنه نطاق صحراوي فقير في موارده الطبيعية، وسكانه متخلفون، ولا خطر منهم على جيوش الحلفاء المحاربة[٤٨]. ولعل دراسة وجوه النشاط الاقتصادي المختلفة في العالم الإسلامي - وخاصة في سنوات العصر الحديث - تثبت عكس ذلك.

وبعد الحرب العالمية الثانية حصلت كل الدول الإسلامية في شمال غرب إفريقيا وجمهورية السودان على استقلالها، ثم حدثت موجة الاستقلال على المسلمين جنوب الصحراء تجاه الجنوب في إفريقيا، حيث حصلت معظم الدول الإسلامية على استقلالها خلال العقد السابق (بعد عام ١٩٦٠م). وهذا هو نطاق السافانا الإفريقي الذي يمتد عرضيا في القارة إلى الجنوب من الدول الإفريقية الإسلامية (المجموعة الأولى)، وهو النطاق الذي أخذ الإسلام ينتشر فيه انتشارا حضاريا خلال صلات الشمال الإسلامي بالمجتمعات الوثنية في الدول الحديثة الاستقلال في غرب إفريقيا ووسطها. ولاشك أن الإسلام في القارة يكسب المزيد من أفراد هذا النطاق باطراد، الأمر الذي يعوض ما يخسره العالم الإسلامي كميا في نطاقات أخرى من العالم أو في بعض الدول الإفريقية، ففي كل دول النطاق الأوسط من إفريقيا من الصومال شرقا إلى السنغال غربا بالإضافة إلى الدول العربية في الشمال، توجد حياة إسلامية تجمع بين كل شعوب القارة، رغم اختلاف لغاتهم ولهجاتهم ولونهم. ومن الطبيعي بعد الاستقلال أن تحاول هذه الدول الإسلامية في تقوية علاقاتها، وتزيد من روابطها.

ولا يفوتنا هنا أن نقدر عدد المسلمين بالقارة الإفريقية في نهاية القرن الحالي (عام ٢٠٠٠). فالمسلمون ٢٣٩ مليون نسمة (عام ١٩٧٣م)، يمثلون ٥ر٦٠٪ من جملة سكان القارة. وبناء على معدلات الزيادة الطبيعية لسكان العالم فيما بين ١٩٥٠ - ١٩٦١م البالغة ٨ر١٪،

وبافتراض أن المسلمين سيتزايدون بنفس المعدل، رغم أن معدل الزيادة السنوي في آسيا وإفريقيا حيث يوجد أكبر نسبة من السكان المسلمين في العالم يرتفع عن المعدل العالمي ككل[٤٩]، سيصبح عدد المسلمين في إفريقيا ٣٥٥ مليون نسمة عام ٢٠٠٠م، يمثلون ٦٣٪ تقريبا من جملة سكان القارة في ذلك الوقت، والحقيقة الهامة التي لا يمكن أن نغفل عنها هي أن الإسلام له رصيد كبير في إفريقيا.

فالإسلام في إفريقيا قوة كبرى في هذه القارة الناهضة، قارة المستقبل، ليس فقط من حيث العدد ـ كما سبق ـ بل من حيث أثر المسلمين البالغ في النشاط الثقافي والاقتصادي والاجتماعي في شعوب القارة.

جدول (١) نسبة التغاير للدول الإسلامية والمسلمين في إفريقيا

١٩٦١ (١)			١٩٦٨ (٢)			١٩٧٣ (٣)		
عدد الدول	عدد المسلمين بها (مليون نسمة)	% من جملة سكانها (تقريبا)	عدد الدول	عدد المسلمين بها (مليون نسمة)	% من جملة سكانها (تقريبا)	عدد الدول	عدد المسلمين بها (مليون نسمة)	% من جملة سكانها تقريبا
٢٢ ـ إسلامية ٢٨ ـ غير إسلامية	٩٩٫٦ ١٦٫١	٧٦ـ ١٣ـ	١٧ ـ إسلامية ١٩ ـ غير إسلامية	١٢١٫٦ ٣١٫٣	٧٣ـ ٣٠ـ	٢٦ ـ إسلامية ٢٠ ـ غير إسلامية	٢١٥٫٧ ٢٣٫٤	٨٠٫٥ ١٨ـ
إجمالي عدد المسلمين بالقارة	١١٥٫٧ ـ = (مليون نسمة)	٤٥٫٤٪ من جملة سكان القارة	إجمالي عدد المسلمين بالقارة	١٥٢٫٩ ـ + ١٫٥ (*) ١٥٤٫٤ (مليون نسمة)	٥٧ـ٪ من جملة سكان القارة	إجمالي عدد المسلمين بالقارة	٢٣٩٫١ = (مليون نسمة)	٦٠٫٥٪ من جملة سكان القارة

المصدر : الجدول من المصادر التالية :

ـ حسن إبراهيم حسن ، (١٩٦٤) ، جدول ص ص ٢١١ ـ ٢١٢

(1) Proctor, J. H., (1965), Table, pp. 192 - 193. and &

Alter: - Ready Information About Africa (Mission Information Centre, St. Edward's College, London, 1962). 2 - Ready Information About Africa and Africa AND Africa Report, Vol. 8,

ـ (استخرجت أرقام ١٩٦١ من متوسط الجداول بالمصدرين) .... (March, 1963), P. 14 .

(٢) تقويم العالم الإسلامي، (١٩٧٠)، ص ص ٢٧ ـ ٣٨ .

(3) World Muslim Gazitteer , 1975 Edition, & - U. N. Demongraphic Yearbook, 1973, N. Y., 1974.

(*) ذكر المصدر أنه يجب أن نضيف ١٫٥ مليون مسلم يمثلون أقليات إسلامية صغيرة في دول إفريقية أخرى غير إسلامية، وهي ١٣ وحدة سياسية، معظمها دول غير مستقلة لم ترد في الجدول.

جدول (٢)
نسبة التغاير للمسلمين ببعض دول إفريقيا

م	الدولـــة		النسبة المئوية للمسلمين من جملة السكان			نسبة التغاير ٪	
			١٩٦١	١٩٦٨	١٩٧٣	+	(ـ)
١	مصر	(١)	٩٢	٩٢	٩٣	١	..
٢	ليبيا		٩٥	٩٥	٩٩٫٥	٤	..
٣	تونس		٩١	٩٣	٩٥	٤	..
٤	الجزائر		٨١	٩٢	٩٨	١٧	..
٥	المغرب		٩٤	٩٤	٩٩	٥	..
٦	السودان	(٢) / م	٧٤	٨٢	٨٥	١١	..
٧	نيجيريا		٦٢	٥٢	٧٥	١٣	..
٨	سيراليون	(٣) / ب	٢٣	٢٠	٦٥	٤٢	..
٩	غانا		٥٠	٦	٣٠	..	٢٠
١٠	كينيا		٧	٢٢	٣٠	٢٢	..
١١	أوغندة		١	١٢	٣٦	٣٥	..
١٢	موريتانيا	(٣)	٩٩	٩٠	١٠٠	١	..
١٣	مالي		٧٤	٦٥	٩٠	٢٦	..
١٤	النيجر		٨٠	٦٨	٩١	١١	..
١٥	السنغال		٧٣	٦٠	٩٥	٢٢	..
١٦	فولتا العليا		٥١	٤٠	٥٦	٥	..
١٧	تشاد		٦٩	٦٠	٨٥	١٦	..
١٨	داهومي		١١	١٥	٦٠	٤٩	..
١٩	توجو	(٤) / م	٤	١٠	٥٥	٥١	..
٢٠	ساحل العاج		٢١	٣٥	٥٥	٣٤	..
٢١	إفريقيا الوسطى		٧	٢٠	٥٥	٤٨	..
٢٢	الكمرون		٣٦	٣٥	٥٥	١٤	..
٢٣	الجابون	(٤) / ب	٢٤	لم ترد في الجداول	٤٥	٢١	..
٢٤	مالاوي		لم ترد في الجداول	٤٠	٣٥	..	٥
٢٥	ليبيريا		١٧	٢٦	٣٠	١٣	..
٢٦	الحبشة + أريتريا	(٥)	٣٠	٤٩	٦٤	٣٤	..
	تنجانيقا		٢٠ } ٢٣ـ	٤٠	٦٥	٤٣	..
٢٧	تنزانيا + زنجبار		٩٩				
٢٨	روديسيا	(٦)	٣٤	لم ترد في الجداول	١٥	..	١٩

المصدر: الجدول من مصادر الجدول السابق مع تعديلات.

جدول (٣) «المسلمون واللا مسلمون في دول إفريقيا»
(تقدير سنة ١٩٧٣)

م	الدولة	المساحة (ألف) (ك.م)	السكان ألف نسمة	تاريخ تقدير الأمم المتحدة	المسلمون ألف نسمة	النسبة المئوية	تاريخ عضوية الأمم المتحدة
	(١) الدول الإسلامية المستقلة						
١	الجزائر	١٫٥٠٠	١٥٫٧٠٠	١٩٧٣	١٥٫٣٨٦	٩٨٪	١٩٦٢
٢	الكمرون	٤٧٧	٦٫٠٠٠	١٩٧٣	٣٫٣٦٥	٥٥	١٩٦٠
٣	جمهورية إفريقيا الوسطى	٦١٨	١٫٦٤٠	١٩٧٣	٩٠٧	٥٥	١٩٦٠
٤	تشاد	١٫٢٨١	٣٫٩٩٩	١٩٧٣	٣٫٤٠٠	٨٥	١٩٦٠
٥	داهومي	١١٥	٢٫٩٠٩	١٩٧٣	١٫٧٤٦	٦٠	١٩٦٠
٧	جمهورية مصر العربية	١٫٠٠٠	٣٥٫٩٠٠	١٩٧٣	٢٣٫٣٨٧	٩٣	١٩٤٥
٧	الحبشة + أريتريا	١٫٢٢١	٢٦٫٥٩٨	١٩٧٣	١٧٫٢٨٩	٦٤	١٩٤٥
٨	جمبيا	١٠	٣٨٤	تقدير الحكومة ١٩٧٣	٣٢٧	٨٥	١٩٦٥
٩	غينيا	٢٤٦	٤٫٢٥٩	١٩٧٣	٤٫٠٤٧	٩٥	١٩٥٨
١٠	غينيا بساو	٣٦	٨١٠	١٩٧٢	٥٦٧	٧٠	١٩٧٤
١١	ساحل العاج	٣٢٢	٤٫٥١٥	١٩٧٣	٢٫٤٨٤	٥٥	١٩٦٠
١٢	ليبيا	١٫٧٥٩	٢٫١٧٨	١٩٧٣	٢٫١٧٨	١٠٠	١٩٥٥
١٣	مالي	١٫٢٤٠	٥٫٣٩١	١٩٧٣	٤٫٨٥٣	٩٠	١٩٦٠
١٤	موريتانيا	١٫٠٣٠	١٫٢٢٧	١٩٧٣	١٫٢٢٧	١٠٠	١٩٦١
١٥	المملكة المغربية	٤٤٦	١٦٫٩٩٥	١٩٧٣	١٦٫٨٢٦	٩٩	١٩٥٦
١٦	النيجر	١٫٢٧٢	٤٫٣٣٥	١٩٧٣	٣٫٩٦٣	٩١	١٩٦٠
١٧	نيجيريا	٩٢٧	٧٩٫٧٥٩	تعداد سنة ١٩٧٣	٥٩٫٨٢٠	٧٥	١٩٦٠
١٨	سنغال	١٩٦	٤٫٠٢٠	١٩٧٣	٣٫٨١٩	٩٥	١٩٦٠
١٩	سيراليون	٧٣	٢٫٧٦٩	١٩٧٣	١٫٨٠٠	٦٥	١٩٦١
٢٠	جمهورية الصومال الديمقراطية	٧٠٢	٣٫٩٥٠	تقدير الحكومة ١٩٧٣	٣٫٩٥٠	١٠٠	١٩٦٠
٢١	السودان	٢٫٥١٥	١٦٫٩١١	تعداد سنة ١٩٧٣	١٤٫٣٧٥	٨٥	١٩٥٦
٢٢	جمهورية تنزانيا الاتحادية (زنزبار بمبسا)	٩٤٣	١٤٫٣٨٠	١٩٧٣	٩٫٣٤٧	٦٥	١٩٦١
٢٣	توجو	٥٧	٢٫١٢٠	١٩٧٣	١٫١٦٦	٥٥	١٩٦٠
٢٤	تونس	١٦٥	٥٫٥٢١	١٩٧٣	٥٫٢٤٥	٩٥	١٩٥٦
٢٥	فولتا العليا	٢٧٥	٥٫٥١٤	١٩٧٣	٣٫٨٧٩	٥٦	١٩٦٠
	(٢) الدول الإسلامية تحت حكم غير إسلامي						
٢٦	جزر القمر	٢	٢٩٠	-	٢٨٦	٩٥	تحت الفرنسي
	- الصحراء الإسبانية	٢٧٤	٧٦	-	٧٣	٩٥	تحت الإسباني
-	أريتريا	١١٩	٣٫٠٠٠	-	٢٫٢٥٠	٧٥	تحت أثيوبيا
	جملة الدول الإسلامية	١٨٫٧٢٠	٢٦٨٫٢٨٨	-	٢١٥٫٧٠٧	٨٠٫٥٪	

ملاحظة : قسمت الصحراء الإسبانية بين المغرب وموريتانيا.

تابع / جدول (٣) ......

م	الدولة	المساحة ألف كم²	السكان ألف	تاريخ تقدير الأمم المتحدة نسمة	المسلمون ألف نسمة	النسبة المئوية	تاريخ عضوية الأمم المتحدة
	(٣) الدول غير الإسلامية						
٢٧	أنجولا	١,٢٥١	٥,٨٠٠	١٩٧٣	١,٤٥٠	٢٥	(برتغالية)
٢٨	بتسوانا	٥٧١	٦٧٠	١٩٧٣	٣٤	٥	١٩٦٦
٢٩	بوروندي	٢٨	٣,٦٠٠	١٩٧٣	٧٢٠	٢٠	١٩٦٢
٣٠	كنغو	٣٤٢	١,٠٠٠	١٩٧٣	١٥٠	١٥	١٩٦٠
٣١	الجابون	٢٦٦	٥٢٠	١٩٧٣	١٣٤	٤٥	١٩٦٠
٣٢	غانا	٢٣٩	٩,٣٦٠	١٩٧٣	٢,٨٠٨	٣٠	١٩٦٠
٣٣	كينيا	٥٨٥	١٢,٤٨٠	١٩٧٣	٣,٦٨٢	٣٠	١٩٦٣
٣٤	ليبيريا	١١٢	١,٦٦٠	١٩٧٣	٤٩٨	٣٠	١٨٤٧
٣٥	ليسوتو	٣٠	١,٢٠٠	١٩٧٣	١٢٠	١٠	١٩٦٦
٣٦	مالاجاشي	٥٩٣	٦,٧٥٠	١٩٧٣	١,٣٥٠	٢٠	١٩٦٠
٣٧	مالاوي	٩٤	٤,٧٩٠	١٩٧٣	١,٦١٧	٣٥	١٩٦٤
٣٨	موريشس	٢	٨٣٠	١٩٧٣	١٤١	٢٠	بريطانية
٣٩	موزمبيق	٧٧٤	٨,٨٢٠	١٩٧٣	٢,٢٠٥	٢٩	برتغالية
٤٠	زامبيا	٨٢٧	٦٧٠	١٩٧٣	٣٤	٥	١٩٦٠
٤١	جنوب إفريقيا	١,٢٣٨	١٩٧٣	٤٧٤	٢	١٩٧١	
٤٢	سوازيلاند	١٧	٤٦٠	١٩٧٣	٤٦	١٠	بريطانية
٤٣	أوغندة	٢٤٤	١٠,٨١٠	١٩٧٣	٣٦	١٩٦٢	
٤٤	زائيري	١,٣٤٥	٢٣,٨٣٦	١٩٧٣	٢,٣٨٤	١٠	١٩٥٩
٤٥	زامبيا	٦٥٥	٤,٦٤٠	١٩٧٣	٦٩٦	١٥	١٩٦٤
٤٦	روديسيا	٣٩١	٥,٩٠٠	١٩٧٣	٨٨٥	١٥	بريطانية
جملة	الدول غير الإسلامية	١٠,٥٩٨	١٢٧,٥١٦	-	٢٣,٤٦٩	٪١٨	

إجمالـــي :

	في العالم	في إفريقيا	النسبة المئوية من العالم
ـ جملة المسلمين في الدول الإسلامية	٦٧٥,٣٨٧,٠٠٠	٢١٥,٧٠٧,٠٠٠	٪٣٢
ـ جملة المسلمين في الدول غير الإسلامية	٢٢٩,٦٦٠,٠٠٠	٢٣,٤٦٩,٠٠٠	٪١٠
ـ جملة المسلمين	٩٠٤,٩٤٧,٠٠٠	٢٣٩,١٧٦,٠٠٠	٪٣٦,٤

ـ النسبة المئوية لمسلمى القارة من جملة سكانها ٦٠,٥٪ (٣٩,٥٪ لغير المسلمين)

ـ النسبة المئوية لمساحة إفريقيا الإسلامية من جملة مساحة القارة ٦٥,٥٪ (٣٤,٥٪ للدول غير الاسلامية)

- World Muslim Gazetteer, 1975, Edition.
- U. N. Demographic Yearbook, 1979, N. Y., 1974.

الحواشـــي

(1) Jarrett, H. R., (1970), P. 7.

(٢) بلغ عدد الدول ٤٦ (٢٦ إسلامية + ٢٠ غير إسلامية)، بدون الجزر الصغيرة المحيطة بالقارة فيا عدا مالاجاش.

(٣) مساحة العالم الإسلامي ٢ر٣١ مليون ك. م مربع (١٢ ميل مربع)، إفريقيا الإسلامية ٧ر١٨ مليون ك. م مربع.

(٤) عن / دائرة المعارف الإسلامية / مجلد ٢ ، ص ٦٤٩ .

(٥) جدول (١) ـ عن/ تقويم العالم الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

(6) World Muslim Gazetteer, 1975.

(٧) عبدالرحمن زكي ، (١٩٦٥)، ص ٧٦ .

(٨) إبراهيم طرخان ، (١٩٧٠) ، ص ٤٣ .

(٩) هو الاسم الذي يطلقه المسلمون في كل قطر على عقيدتهم، ومعنى هذه الكلمة هو الخضوع أو الاستسلام لله، وقد وردت في القرآن ثماني مرات. عن/ دائرة المعارف الإسلامية،ص ص ١٤٩.

(١٠) محمد الصواف ، (١٩٧٥) ، ص ٣٧ .

(١١) غزيت إفريقيا ثلاث غزوات : سنة ٣٤ هـ ، سنة ٤٥ هـ ، والثالثة سنة ٥٠ هـ على يد عقبة بن نافع، الذي دفع بالإسلام إلى غرب القارة وأوروبا ـ عن/ الصواف، (١٩٧٥)، ص ٤٠.

(١٢) انظر : جمال حمدان ، (١٩٧١) ، ص ٥٢ ـ ٥٨ .

(١٣) محمود أبو العلا ، (١٩٦٨)، ص ص ٣١ ـ ٣٣، عبدالعزيز كامل، (١٩٦٦م)، ص ص ٩٥ ـ ٩٧.

(١٤) انظر: أحمد فخري، تاريخ شبه جزيرة سيناء، ص ٦٧، من/ موسوعة سيناء التي أصدرها المجلس الأعلى للعولم في عام ١٩٦٠، القاهرة، وبها أربع عشرة دراسة عن شبه الجزيرة.

(15) Trimingham, J. S. in : Lewis, I. M., (ed.), (1960), PP. 127-130.

(١٦) راجع ما يلي : عبدالعزيز كامل، (١٩٦٩)، ص ص ٩٩ ـ ١٠٢.، عبدالرحمن زكي، (١٩٦٥)، ص ص ٦ ـ ١٧، حسين إبراهيم، (١٩٦٤)، ص ص ٩ ـ ١٥، جمال حمدان، (١٩٧١)، ص ص ٥٤ ـ ٥٥، ترمنجهام، ترجمة النواوي، (١٩٧٣)، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(17) Trimingham, op. cit.

(١٨) عبدالعزيز كامل ، (١٩٦٦) ، ص ١٠٠ .

(19) Bovill, E. W., The Golden Trade of The Moors, O. U. P., 1961, P. 234.

عن / ـ عبدالعزيز كامل ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

ـ عبدالرحمن زكي ، (١٩٦٥) ، ص ١٧ .

(٢٠) عبده بدوي ، (١٩٧٠) ، ص ٨ .

(٢١) انظر : حسن إبراهيم ، (١٩٦٤) ، ص ٩ .

(٢٢) ترمنجهام : ترجمة النواوي ، (١٩٧٣) ، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(23) Yusuf Fadl, in : Lewis, I. M., (1960), PP. 145-146 .

(24) Davidson, B., Old Africa Rediscovered, London, 1961, p. 63.

عن / عبدالعزيز كامل ، (١٩٦٦) ، ص ١٠٢ .

(25) World Muslim Gazetteer, 1975, P. 25 .

(٢٦) انظر : جدول (٣) .

(27) (Africa, The Muslim Centinent.) Dvidson, Op. Cit., P. 165.

(٢٨) انظر: خريطة «لابلاش» (La Blach) الشهيرة عن طرق القوافل ومواني الصحراء في العالم العربي،

عن / جمال حمدان ، جغرافية المدن، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٠٨ .

(٢٩) جمال حمدان ، (١٩٦٦) ، ص ٢٦٨ .

(٣٠) جمال حمدان ، (١٩٧١) ، ص ص ١٧ ـ ١٨) .

(31) Kamel ,A.A., (1965), P. 142 .

(٣٢) محمد الصواف ، (١٩٧٥) ، ص ٤٥ .

(33) V. McKay, in : Proctor, J. Marris, (Ed.) , 1965, P. 161.

(34) Fage, J. D., (1955), PP. 10-16.

(٣٥) محمد الصواف ، (١٩٧٥) ، ص ٤٥ .

(٣٦) انظر : الجداول / ١ ـ ٢ ـ ٣ / .

(٣٧) تقويم العالم الإسلامي ، ص ص ٢٠ ـ ٢٦ .

(38) World Muslim Gazetteer, 1975, P. 7.

مثال عن التضارب وعدم الثقة بالأرقام: قدر عدد المسلمين في العالم في بداية القرن العشرين سنة ١٩٠٧ بـ ٣٠٠ مليون نسمة، وهو نفس الرقم الذي قدروا به في منتصف القرن. كما لو أن السكان ظلوا ثابتي العدد دون زيادة لفترة ٥٠ عاما، في حين أن «الهاشمي» قد قدرهم في كتابه بـ ٥٥٠ مليون نسمة سنة ١٩٥٧، وليس من المعقول أن يزداد المسلمون ٢٥٠ مليون نسمة في فترة ٧ سنوات بالنسبة إلى تقدير عددهم هذا.

(٤٠) انظر : الجداول (١) ، (٢) ، (٣) .

(41) World Muslim Gazetteer , 1975 .

(٤٢) يوضحها جدول (٣) ، فقرة (١) ، (٢) .

(43) Gunther, J. (1955) , P. 150 & P. 249 .

(44) Trimingham , S., (1952) , P. 15 .

(٤٥) انظر جدول (٣) .

(٤٦) جدول (٣) ، (الدول : الجابون ، مالاوي ، أوغنده) .

(٤٧) انظر : سليان خاطر ، مدن شمال إفريقيا ، دراسة تحليلية.

ـ مجلة البحوث والدراسات العربية ـ معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، العدد الثامن.

(48) Bowman , I. , (1944) , PP. 164-165 .

(49) Demographic Yearbook, 1962, Table 2 , P. 124 .

المصــادر

أولا : المصــادر العــربية :

١ - إبراهيم علي طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، الفصل الثاني، ص ص ٤١ - ٥٠، «غانة الإسلامية».

٢ - إبراهيم علي طرخان : دولة مالي الإسلامية، القاهرة ١٩٦٩ .

٣ - جمال حمـدان: إفريقيا الجديدة، القاهرة ، ١٩٦٦.

٤ - جمال حمدان : العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة ،١٩٧١ .

٥ - جمعية الدراسات الإسلامية : تقويم العالم الإسلامي ، القاهرة ١٩٧٠.

٦ - حامد عمار: علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية، (رسالة غير مطبوعة).

٧ - حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة ١٩٦٤، (الطبعة الثانية).

٨ - حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعربية فيما يلي الصحراء الكبرى وشرقي القارة الإفريقية وغربها، القاهرة ١٩٥٧.

٩ - حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، القاهرة ، ١٩٦٣، (الجزء الأول - الطبعة الثانية).

١٠ - «دائرة المعارف الإسلامية»: الترجمة العربية عن الأصل الإنجليزي، نقلها إلى العربية: (محمد ثابت الفندي - أحمد الشنتناوي - إبراهيم زكي خورشيد - عبدالحميد يونس).

(The Encyclopedia of Islam, Leiden, 1960)

(Vol, I & II, London, 1969, (Luzac & Co.)

(Vol. III, Paris, 1971.)

١١ - زاهر رياض : الإسلام في إثيوبيا ، القاهرة ، ١٩٦٤.

١٢ - سبنسر ترمنجهام : الإسلام في شرق إفريقيا ، ترجمة وتعليق: محمد عاطف النواوي، القاهرة، ١٩٧٣.

١٣ - سليمان خاطر : مدن شمال إفريقيا ، دراسة تحليلية . مجلة البحوث والدراسات العربية - معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، العدد الثامن.

١٤ - سليمان خاطر : إفريقيا الإسلامية، دراسة للدول الإسلامية والمسلمون أفريقيا. «إفريقيا». مجلة معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٧٦.

١٥ ـ صابر طعيمة : الإسلام ومشكلات السياسة، بيروت، ١٩٧٤.

١٦ ـ عبدالرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا ، القاهرة، ١٩٦٥ (مجموعة محاضرات ألقيت في معهد الدراسات الإسلامية).

١٧ ـ عبدالرحمن زكى : المسلمون في العالم اليوم، (خمسة أجزاء)، القاهرة ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠.

١٨ ـ عبدالعزيز كامل : «وجهة الإسلام في القارة الإفريقية»، السياسية الدولية، يناير ١٩٦٦، السنة الثانية ص ص ٩٤ ـ ١١١.

١٩ ـ عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقا، «دراسة من خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار، القاهرة، ١٩٧٠.

٢٠ ـ فتحي غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ، القاهرة، ١٩٦٠.

٢١ ـ محمد صبحي عبدالحكيم: «خريطة إفريقيا السياسية في السنوات العشر الأخيرة (١٩٥١ ـ ١٩٦٠)» الجمعية الجغرافية المصرية/ المحاضرات العامة ـ الموسم الثقافي لسنة ١٩٦١.

٢٢ ـ محمد محمود الصواف: رحلاتي إلى الديار الإسلامية، القسم الأول: إفريقيا المسلمة، بيروت، ١٩٧٥.

٢٣ ـ محمد وطه أبو العلا: جغرافية العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٨، (الطبعة الرابعة):
(الفصل الأول: العالم الإسلامي ، ص ص ١ ـ ١٢).
الفصل الثاني: القارة الإفريقية، ص ص ٣١ ـ ٣٩).

٢٤ ـ مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠، (الفصل السابع: انتشار الإسلام والثقافة العربية في النوبة، ص ص ١٤٢ ـ ١٨٣).

٢٥ ـ هوبير ديشان : الديانات في إفريقيا السوداء ، القاهرة ، ١٩٣٥.

٢٦ ـ يوسف أحمد : الإسلام في الحبشة ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

ثانيا : المصادر الأجنبية :

1 - Baulin, J., The Arab Role in Africa, Penguin African Library, 1962.

2 - Boyd, Andrew, An Atlas of World Affairs, New York, 1962, (4th. Ed.).

3 - Boeman, I., "The Mohammedan World", The Geographical Review, Jan, 1944, PP. 164-65.

4 - Fage, J.D., An Atlas of African History, London, 1958.

5 - Fage, J.D., An Introduction to the History of West Africa, Cambridge, 1955.

6 - Gunther, J., Inside Africa, London 1955.

7 - Hazard, H. W., Atlas of Islamic History, U.S.A., 1954.

8 - Hashmi, A. A., Muslems in the World, Begun Aisha Bawamy, Educational Trust, Karachi, 1957.

9 - Horrabin, J. F., An Atlas of Africa, New, 1961, (2nd. & Rev. Edition).

10 - Jarrett, H.R., Africa, London, 1970.

11 - Kamel, A.A., "The Face of The Moslem World", Bul. Soc. De. Geog. d'Egypte, 38, 1965. PP. 129-153.

12 - Lewis, I. M., (Ed.), Islam In Tropical Africa, London, 1960.

A) - Trimingham, J. S., The Phases of Islamic Expansion and Islamic Culture Zones in Africa, PP. 127-143.

B) - Yusuf Fadl Hasan, The Penetration of Islam in the Eastern Sudan, PP. 144-159.

C) - Stevenson, R. C., Some Aspects of the Spread of Islam in Nuba Mountains, PP. 208-232.

13 - Proctor, J. Harris, Islam and International Relations, London, 1965.

A) - Majid Khadduri, The Islamic Theory of International Relations, PP. 24-39.

B) - Vernon McKay, The Impact of Islam on Relations Amongthe New African States, PP. 158-193.

14 - Prothero, R. M., (Ed.), A Geography of Africa, London, 1973.

15 - Trimingham, J. Spencer, A History of Islam in West Africa, London, 1970.

16 - Trimingham, J., A History of Islam In East Africa, Oxford, 1964.

- Trimingham, J., A History of Islam in Ethiopia, London, 1952.

- Spencer, Islam in The Sudan, London, 1949.

17 - "World Muslim Gaztter", 1975 Edition.

(Khalid Ikramullah Khan, Editor, Umma publishing House, Karachi, Pakistan.) - (Al-Karimi Press).

18 - Worldmark Encyclopaedia of the Nations, New York, 1963.

19 - United Nations, Demographic Yearbook, New York, 1962, & 1973.

المسالك والدروب التى انتشر عليها الإسلام

امين النفورى

مقدمـــة :

إن تناول أى موضوع وفهمه وتقديمه يختلف ونظرة كل باحث إلى الموضوع نفسه تبعا للجانب الذي يرى المبحث فيه مفيدا، وعلى هذا فإن فهمنا الذاتي وإدراكنا لهذا الجانب من المبحث أو ذاك ينطلق من الأوليات الأساسية التالية في نظرنا مع عدم المغالاة في العوامل الاقتصادية التي دفعت العرب إلى الانسياح في البلدان المجاورة والممالك حسبما تراه بعض المدارس التاريخية في البلاد الغربية، والتي لا تريد أن تعطي للانتشار الإسلامي في تلك الرقع الجغرافية المتادية البعد الروحي الصحيح، والمدى الإيماني ـ التوحيدي الذي قامت عليه الدعوة الإسلامية في نفوس معتنقي الدين الجديد.

إن هذه الأوليات الأساسية هي :

١ ـ **العقيدة الإسلامية** : أثرها ومستلزماتها الإيمانية والجهادية من المسلمين لنشر الدين الجديد وفق السنة والتنزيل.

٢ ـ **معنى الهجرة**، وتأسيس دار إسلام مكينة، والاستعداد لمجابهة دار حرب مجاورة، وتبليغ الدعوة، وتوجيه الكتب والوفود إلى قيصر وكسرى والمقوقس وغيرهم من الحكام، مما يعتبر دليلا لمن خلف النبي صلى الله عليه وسلم لإتمام الدعوة وتبليغ الرسالة على هذه الاتجاهات الجغرافية والدولية. فلم يكن على من أتى من بعده من الخلفاء إلا نشر الإسلام على هذه الاتجاهات التي حددتها رسائل النبي إلى الملوك. فكان لكل خليفة أسلوب للوصول إلى هذه الغاية.

٣ ـ الثوابت والمهيمنات في نشر الإسلام:

الدعوة لعبادة الله الواحد القهار، ونبذ الشرك والوثنية والدنيوية، وإخراج الناس من عبودية العبد، ونشر هذه الدعوة وتبليغها إلى الناس كافة بالحكمة والأسوة والموعظة الحسنة ولا انقطاع في تبليغ الدعوة.

٤ ـ **أثر التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية في السلم والحرب:** ومفاهيمها الدينية والحياتية المترسخة في نفوسها وعقولها وممارستها، وانقطاع المسلمين في أول الأمر في مهاجرهم وأمصارهم البعيدة إلى الجهاد دون الانصراف إلى الاقتناء أو العمل في الزراعة والتجارة وإشادة البنيان.

٥ ـ **الوسائل لنشر الإسلام وأهمها:** الجهاد بأنواعه، ويتوخى في النهاية الحسم الحضاري اجتماعيا وروحيا ولغويا بحكم اتباع كتاب الله.

٦ ـ **المتغيرات :** قوة الحكم الإسلامي وطاقاته، وما يطرأ عليها من عوامل القوة والضعف في الزمان والمكان باعتبارها المنفذ لغرض الجهاد وفق الوسائل السلمية والحربية المتوفرة لدى الحكم للاستمرار في الدعوة، وحسب طبيعة العدو ومجتمعه ونظامه السياسي ووسائطه المقابلة يتطلب الحسم الحضاري خوض الصراع المسلح الفاصل مع خصوم الدعوة ومعانديها وما نعي انتشارها، وذلك على الاتجاه الرئيسي الفاصل، وذلك بعد الإعذار والإنذار لهم ودعوتهم لشروط الإسلام.

يتولى ذلك أمرة واعية وقيادة مدبرة من أهل الحل والعقد، والذين يصدرون في آرائهم عن مشورة عامة فيما بينهم، ومداولة حرة في أمورهم وشؤونهم، حيث تنفذ متطلبات الدعوة وأغراضها تبعا لظروف الزمان والمكان وأحوالها، ويطبق أوامر ونواهي الدعوة المبينة في السنة والكتاب. رجال مؤمنون أقوياء بطاقاتهم الروحية والنفسية، وأسلحتهم المادية الفردية والجماعية، راجلين وراكبين، ينتظمون في القتال، ويقفون على مراتبهم في الصفوف أثناء الحرب حسب ترتيبهم في الديوان، ووفق نظام مواضعهم في القبائل، ولكل منهم ما يكفيه من العطاء، وما يصيبه الجميع من الغنائم والفيء في المعارك.

٧ ـ لقد كان للعوامل الجغرافية، وطبيعة الأقاليم التي انتشر عليها الإسلام ومناخها، ونوعية الأقوام والشعوب والأمم، ودياناتها المتوضعة على تلك الدروب والمسالك التي انتشر عليها الإسلام في الشمال والشرق والغرب حول الجزيرة العربية أثر كبير في تيسير نفوذ الدعوة أو تأخر دخولها إلى تلك المناطق والأصقاع حسب طبيعة الأرض وسكانها.

٨ ـ ولابد أن نذكر أثر القوى الدولية والعالمية في تلك الفترة، والتي وقفت على طريق الإسلام تصده وتمنعه كالروم والفرس والترك والبربر وغيرهم.

٩ ـ وأخيرا لا معدى لنا من أن نبين الأثر الكبير في نقل القبائل العربية وتوطينها الأمصار البعيدة لترسيخ الدين في تلك الأقاليم حسبما بدر من تلك القبائل من سلوكية أخلاقية ودينية واجتماعية وقدوة، إن عدلا وتسامحا ومساواة أو جورا واستعلاء وعصبية تبعا لسلوكية الولاة والعمال في تلك الأقاليم.

«تحديد اتجاه نشر الدعوة»

١ ـ فى العهد النبوي :

بعد أن أذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى يثرب عزم على إقامة دار إسلام في المدينة، يمتنع بها المؤمنون عن طغيان المشركين وبغي الكفار بالهجرة إليها، ونشر الإسلام في المدينة وما حولها من القبائل المجاورة، وعقد المحالفات والموادعات مع القبائل الضاربة ما بين مكة والمدينة على طريق قوافل قريش، ومنابذة المشركين وقتالهم، وتوجيه الرسل لدعوة ملوك الدول والأمم المجاورة إلى الدخول في الإسلام بعد أن يتم التمكين بصورة نهائية للإسلام في الجزيرة العربية، وإرسال السرايا والحملات لنشر الدعوة على الحدود الشمالية للجزيرة، ورد العدوان البيزنطي عن الحدود الإسلامية لإعاقتهم سير الدعوة الإسلامية.

وكان النبي في كل ذلك هو الذي يعين اتجاه السرايا والحملات للدعوة إلى الإسلام والتوحيد، بدءا من بدر وفتح مكة وحنين وانتهاء بتبوك ووادي القرى ومؤتة.

٢ ـ في عهد الخلفاء الراشدين :

كان الخليفة وكبار الصحابة يقررون في المسجد الاتجاه الذي تسير عليه الحملات لنشر الدعوة، ويعين الخليفة الوجه الذي يسير إليه المسلمون. وبعد وفاة الرسول الكريم كان الهدف الرئيسي للخليفة الحفاظ على وحدة العقيدة الإسلامية وسلامتها في الجزيرة العربية

بالقضاء على المرتدين أولا، ثم التصميم على نشر الدعوة باتجاه الشرق نحو فارس وباتجاه الشمال صوب الروم انطلاقا من يثرب قاعدة العمليات الأولى نحو الإمبراطوريتين الكبيرتين.

كان المحور المبدئي لغزو فارس المدينة ـ العراق مع البدء بأخذ ثغر الهند وهي الأيلة، وتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم، وتعويد العرب المسلمين على مناجزة الفرس، ـ وقد كان أكره وجه وأثقله على العرب ـ وضعضعة مسالح فارس في العراق التي دون الفرات حتى الطف، واستمالة العرب المقيمين في الحيرة وضواحيها، ثم التوجه على الأراضي ما دون دجلة إلى البادية، والإقامة في الحيرة بعد تدمير كل هذه المسالح والمناظر الفارسية والسيطرة عليها، وإسكان العرب المسلمين فيها، ثم عبور الدجلة والاتجاه نحو قلب السواد لحيازة محاصيله، وزعزعة النظام الإداري والجباية الفارسية، وإخضاع الدهاقين في الرساتيق في قرى السواد للشروط الإسلامية.

ولابد لفهم هذه الفترة وما تلاها وللتعرف على الطرق والاتجاهات التي انتشر عليها الإسلام في فارس ذكر نبذة مختصرة عن تنظيم الثغور الفارسية في تلك الفترة، لأنها كانت الطريق الذي اتبعه المسلمون في فتوحاتهم.

«النظام الحربي الفارسي» :

لقد أنشأت مملكة الفرس خلال قرون متعاقبة سلسلة من الثغور، أقيمت فيها الروابط والمدن المحصنة من حدود الصين والهند وما وراء النهر إلى الديلم وطبرستان والأبواب والبحر الأسود، حتى الجزيرة الشامية والأبلة والبحرين وعمان.

وأقام الفرس إزاء القبائل العربية التي كانت تغير على أرض السواد بين الفينة والفينة خندقا كبيرا، يمتد حتى حدود البادية، وقد حفر منذ زمن الملك سابور، ابتدأ من هيت وعانات على الفرات إلى كاظمة مما يلي الأبلة والبصرة.

وكان لشق هذا الخندق طف البادية وعليه المسالح والمناظر ليكون مانعا لأهل البادية من العرب من الغارة على السواد.

وكان حول المدائن محلة الملوك في كوتي وسورا ودير المسالح.

أما المسالح التي كانت بإزاء الجزيرة العربية فهي:

١ ـ ثغر الهند وفيه أكثر من خمس مسالح ، أشهرها الأبلة.

٢ ـ مسالح الحيرة ومنها خندق سابور، وفيها عدد كبير من المسالح ، ورابطة كثيفة من الخيل في ألف رجل. تشرف على المسالح بين فارس وبين العرب.

٣ ـ عدد من الأديرة المحصنة، يبلغ عددها أكثر من سبعة أديرة.

٤ ـ عدد من القصور المحصنة، يبلغ عددها أكثر من ستة قصور.

٥ ـ مناظر الطف ، وأكثرها حصون وأديرة.

٦ ـ مسالح كربلاء والأنبار، وأهمها حصن عين التمر، وكان بها مسلحة عظيمة، ورابطة خيل كثيفة.

٧ ـ مسالح كوتي والعذيب في البرية، وتشرف على الأرض ما بين القادسية والعزيب.

٨ ـ امغيشيا، ومن مسالحها أليس .

٩ ـ ثغر السيب. وكان بالفرات عسكر للأعاجم ، بالموصل رابطة من الجند الهمزانيين. ومع أن ثقل الجهاد الإسلامي كان يتجه إلى الشرق صوب فارس وإلى الشمال نحو الروم إلا أن مركز الثقل الرئيسي كان يميل دوما نحو الفرس، لأنهم شعب شرقي يخيم على تخوم الجزيرة العربية، وفي جوارها في عمان والبحرين وهجر واليمن، ولاسيا وأن المجوسية والمانوية كانت فاشية في فارس وتلك الأصقاع، مما يهدد بالخطر الدين الإسلامي، ولأن مادة الفرس في العراق وفي أقاليم فارس القريبة من العراق.

أما الروم فهم شعب عارض لا جذور لهم في المشرق، وأكثر ما حولهم في الشام من القبائل العربية التي تؤول في آخر الأمر إلى الدخول في الإسلام، ولأن مادة الروم فيا وراء خليج القسطنطينية.

فكان الجهد الأساسي منصبا على تخليص بلاد الشام من الروم وحفظها وحمايتها، بالوصول إلى الدروب والمعابر فيا وراء جبال طوروس، دون الطمع أول الأمر في القضاء على بيت ملكهم ودولتهم في القسطنطينية.

وعندما وجه الخليفة أبو بكر رضي الله عنه الجيوش إلى الشام من معسكر الجرف حول المدينة عين لكل أمير اتجاها يصل إليه، ومدينة يتمركز فيها ويقطنها بعد الفتح مع عسكره وعيالاتهم، إذ إن القبائل العربية كانت تنتقل في مسيرها نحو فارس والروم بأثقالهم وذراريها.

وكما يذكر التاريخ في صفحاته فقد وجه الخليفة عمرو بن العاص إلى فلسطين على طريق المعرفة، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق على طريق التبوكية، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، على أن يحمي هذه الأرتال السائرة ردئ يتمركز في تيماء.

وهكذا كان انتشار الإسلام على الطرق البرية المفضية إلى الشام، وفي قسمها الصحراوي الداخلي.

وكانت وقعة أجنادين ودخول دمشق، ثم معركة اليرموك للسيطرة على مناطق الشام الداخلية، تمهيدا لنشر الدعوة في شمال الشام وسواحلها فيما بعد انطلاقا من القاعدة العسكرية الكبيرة في الجابية على بعد ٩٠ كيلو مترا جنوب دمشق.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه استمرت تقوية جبهة العراق وجبهة الشام، غير أن الشام في تلك الفترة أصبحت مسرح الحرب الرئيسي، حيث ركز العرب جهودهم الحربية فيها، ولاسيما بعد انهزام الروم في اليرموك.

فطلب الخليفة من أبي عبيدة أن يتوجه إلى دمشق، لأنها حصن الشام وبيت مملكة الروم فيها، وأن يتم قبل كل شئ فتح الشام الداخلية، ثم تتوجه الجيوش إلى شمال الشام إلى أن تصل إلى الدروب لمنع الروم من دخول الشام وحفظ تخومها الشمالية. وبعد ذلك تعطف الجيوش إلى فلسطين والساحل ولاسيما القدس.

ولم يدع الخليفة للروم فرصة لالتقاط أنفاسهم، فوجه حملة لمصر لقطع المادة عن الروم في القسطنطينية، لكيلا يتقووا على حرب المسلمين في الشام. ولما فتح عمرو بن العاص مصر أوصاه الخليفة أن يقف عند حد إفريقيا في برقة، وأن يتخذ منزل جهاد ودار هجرة في الفسطاط، يقطن فيها المسلمون بقبائلهم وذراريهم، وسارت بعض السرايا باتجاه النوبة منطلقة من الفسطاط والفيوم. ولكي يتوطد سلطان الإسلام في الشام كان لابد من عزل الروم

عن الوصول إليها، وذلك بتنظيم الأجناد فيها، وإقامة الروابط في الحدود، وتحصين السواحل والثغور بالمسالح، ونقل الحرب إلى الروم والجهاد فيهم خارج الحدود بالصوائف والشواتي المتوغلة في بلادهم من الجزيرة وأنطاكية لتثبيت دار الإسلام في سورية، بفضل تلك الحرب الوقائية الدائمة التي استمرت حتى أواخر العهد الأموي وتتابعت في العصر العباسي.

ولم تتبدد جهود الإسلام وتضعف قوة اندفاعه على الرغم من انشغاله في مسرحي حرب متباعدين في العراق والشام، بل كان التنسيق تاما بين أعمال الجهاد في الجبهتين، وانتقل مركز الثقل من اليرموك إلى القادسية بعد أن توطدت السلطة الإسلامية على طول مجرى الفرات الأعلى والأدنى خلال «الأيام» والوقائع في الجسر والبويب والأبلة. فكانت القادسية وجلولاء تتويجا للجهاد الطويل الذي عاناه العرب وقبائلهم خلال عدة سنوات في صراعهم مع الفرس على تخوم الجزيرة الشرقية.

وكان عبور الدجلة إلى المدائن والأبواب بيت ملك الفرس والأكاسرة المرحلة الأولى الحاسمة لبسط الإسلام في تلك الربوع، ولاسيا بعد أن أمر الخليفة بأن يتخذ المسلمون في العراق دار هجرة ومنزل جهاد للقبائل المتوافدة في الجزيرة العربية.

فكانت البصرة والكوفة التي وصفها الخليفة عمر بأنها رمح الله وقبة الإسلام وجمجمة العرب، لكثرة من فيها من القبائل العربية العزيزة الجانب من أهل البأس والنجدة والحجى ومن أعلام العرب.

ورأى الخليفة عمر بعد القادسية أن يتريث المسلمون في الفتح ريثما يستقرون فيما فتح الله عليهم من الأرضين، وأن يحكموا أمرها، وأن تقام رابطة في جلولاء تكون بإزاء العجم، لتدفع عن المسلمين المقيمين بالكوفة، وأن يتم فتح أعلى وادي الفرات حتى يصل إلى الجزيرة الشامية. وكانت الكوفة قاعدة عمليات ومنطلق جهاد نحو الموصل والجزيرة وأذربيجان والباب، وكانت منطقة فارس تشكل الأقليم الجنوبي من مملكة الأكاسرة، وتعد أعظم الأقاليم أهمية وخطرا في المملكة. ففيها كرمان وكورها، ثم فارس وكورها، وأشهرها:
إصطخر، جنديسابور، شيراز، الرجان، جور، الأهواز ـ السوس، نهر تيرى، مناذر، تستر، إيذج، رام هرمز.

وكان ملك الفرس يزدجرد مايزال يبعث في كل عام حربا على المسلمين، ولاسيا بعد تجمع الفرس وتكثيف حشودهم في نهاوند، فاستقر رأي الخليفة بعد مشاورة الصحابة أن يأذن للمسلمين بالانسياح في أرض العجم حتى يغلبوا يزدجرد على ما كان في أيدي كسرى من الأراضي ويخرجه من مملكته لكي ينقطع رجاء أهل فارس.

فجعلت رابطة من قبل المسلمين على حدود فارس والأهواز، ورابطة أخرى في تخوم أصبهان وفارس، لتقطع هذه الروابط إمداد أهل فارس عن عسكر العجم في نهاوند، وكانت معركة نهاوند أو فتح الفتوح المعركة الفاصلة مع العجم. انطلق منها العرب لتوطيد سلطان الإسلام في كل إقليم فارس وفي إقليم الشمال وكوره: طبرستان، الري، قزوين، زنجان، ثم أصفهان، همدان، نهاوند، الدينور، حلوان، ماسبازان، شهر زور، الصامغان، أذربيجان. ثم في أجزاء متعددة من إقليم المشرق العظيم المتمثل في خراسان وكوره الكثيرة والبعيدة، وانفتح بذلك طريق الإسلام نحو حدود السند وسجستان وإلى أقصى خراسان، وطبرستان والديلم وخوارزم شمالا، وإلى إرمينه وأذربيجان والأبواب وبلنجر غربا. كان الخليفة عمر يهتم بالحفاظ على الأقاليم المفتوحة وحيطتها من بغتات العدو ومفاجآت غاراته على الثغور، ولاسيا على الطرق النافذة إلى دار الإسلام، فقد اهتم بإقامة الروابط من الخيل لهذا الغرض، فاتخذ في كل مصر خيولا لتكون عدة لمجابهة الطوارئ المباغتة، فكان بالكوفة أربعة آلاف فرس وبالبصرة نحو منها، وفي كل من الأمصار الثمانية على قدرها، فإن نابتهم نائبة ركب قوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس لمجابهة الأحداث.

وكانت ثغور الكوفة قبل نهاوند حلوان، ماسبازان، الموصل، قرقيسيا.

لقد كان لطبيعة الأراضي في فارس وغيرها أثر كبير في إعاقة الفتح بصورة تامة، مع الجهل بجغرافية تلك المناطق الوعرة وصعوبة الحياة في بعضها.

ولا أدل على ذلك مما تذكره كتب التاريخ لتلك الفترة بعد أن فتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران على ساحل بحر الهند في خلافة عمر بن الخطاب، فبعث صحارا العبدي إلى عمر بالخبر والمغانم والفيله، فسأله الخليفة عن الوجه الذى جاء منه، فقال صحار: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرها

طويل، والكثير فيها قليل، والقليل صنائع، ما وراءها شر منها. فقال عمر: أسجاع أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر. في سنة ۲۲ هـ توجه أهل الكوفة إلى الري وقومس وجرجان وطبرستان وأذربيجان والباب وبلنجر، وتوجه أهل البصرة إلى توج وإصطخر وهمذان وكرمان وسجستان ومكران، وخرج أهل البصرة مع الأحنف بن قيس إلى أصبهان وهراة ونيسابور وسرخس ومرو، بينا قدم أهل الكوفة وسارو إلى بلخ، وعلى المصرين الأحنف بن قيس، فاستعان يزدجرد بالترك وأهل الصفد، فعبروا النهر إلى بلخ، وعاد المسلمون مع الأحنف إلى مرو حيث ابتدأ الصراع الطويل الدموي بين العرب والترك فيا وراء النهر، واستمر بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي عهد الخليفة عثمان تابع المسلمون توطيد سلطانهم في أرض فارس وسجستان وبعض أقاليم خراسان والديلم وطبرستان، ومعالجة الانتفاضات الموضعية فيها دون أن يتجاوزوا نهر الشاش، وتشهطوا في أذربيجان وأرمينية للصوائف والشواتي التي كانت تنطلق من الكوفة والموصل والجزيرة الشامية باتجاه هذين الإقليمين، وبلغوا باب الأبواب (الدربند) وبلنجر وما وراءها، وكانت قاليقالا في الأناضول قاعدة لغزو الأبواب، وبعد أن كان نفوذ الإسلام إلى دار الحرب بالطرق البرية أصبح طريق البحر وركوب الأساطيل من المسالك الجديدة لنشر راية الإسلام وحماية السواحل الشامية والمصرية والإفريقية من غارات الأسطول البيزنطي. ونشأ أسطول قوي في عكا والإسكندرية، أشرف عليه الوالي معاوية بن أبي سفيان، ثم الخليفة بعد ذلك.

فكانت الصوائف والشواتي البرية والبحرية الأداة الحربية لمجابهة مقاومي الدعوة الإسلامية باتجاه القسطنطينية وجزر البحر المتوسط.

وقد سمح الخليفة باجتياز حد برقة والتوغل في إفريقيا على الطريق الوحيد المفضي إلى مدن محصنة وحولها بقايا الروم وقبائل البربر الكثيرة العدد، وقد لاقى العرب من البربر مقاومة شديدة، فكان في إفريقيا قبائل كثيرة، أشهرها: لواقة في أجدابية من جبال برقه، والمصالون في طرابلس، وهيلة غربي طرابلس، وبرفشانة في القيروان، وكتامة في تاهيرت، ونفوسة في سجلماسة، ومكناسة في طنجة.

وكانت درا مملكة زناقة في المغرب الأوسط وقاعدتها تلمسان، وفيها أكثر من ثلاثين بطنا، مثل كتامة، مصحودة، هوارة.

وبعد مقتل عثمان ركدت الهمم في التوجه إلى العدو الخارجي، ووجه العرب شوكتهم فيما بينهم في فتنة دامت زمنا، وانتهت بإقامة ملك شيده معاوية، قامت على أثره الدولة الأموية.

كانت خطة معاوية استئناف الفتح بعد إبعاد خطر الروم عن أرض المسلمين، فباشر بتحصين السواحل الشامية والمصرية وتدبير الثغور والمرابطة فيها، وإعداد أسطول ما بين عكا والإسكندرية، وغزو أرمينيه، وإقامة قاعدة فيها تغطي مجنبة الصوائف والحملات باتجاه القسطنطينية، والغزو على الدروب من الثغور الشامية الشمالية عبر الدروب باتجاه القسطنطينية، وفتح الجزر باتجاه السواحل الشامية، وإشغال الروم في إفريقيا، وفتح جربة وتونس .

وقد اهتم معاوية بالثغور الشامية في أنطاكية والجزيرة، لأنها كانت طريق الصوائف والشواتي إلى بلاد الروم وأرمينيه وأذربيجان والأبواب.

فكان جند قنسرين يتولى حماية هذه الثغور التي تنطلق منها الصوائف والشواتي البرية إلى الروم عبر دروب بفراس ودرب الحدث، وكان لأنطاكية مسلحة قورس وطرسوس، وكانت دابق قاعدة الغزو إلى الروم بعد أن انتقلت القاعدة من الجابية، وكان ينطلق للصوائف أيضا من الكوفة وقرقيسية والجزيرة والرها.

وكانت قواعد الغزو للروم في الجزيرة الشامية تتمثل في بالس على الفرات والرقة وملطية ومرعش الحدث وشمشاط ، كما توجه الحملات من الجزيرة أيضا باتجاه أرزن وبدليس وخلاط وأرمينيه. ومنذ سنة ٣٢ هـ فتح عبدالله بن عامر والي الكوفة والبصرة أجزاء كبيرة من خراسان: مرو الروذ، الطالقان، الفرياب، الجوزجان، طخارستان، ونيسابور، وطوس حتى بلغ سرخس.

فقد انطلق ابن عامر من البصرة إلى كرمان، ثم إلى الطبس ونيسابور وطوس وأبيورد ونساو وبيهق وهراة.

وكثرت ساحات الجهاد على العرب والمسلمين، وأصبحت دمشق عاصمة الدولة الأموية، فكانت الأجناد تستنفر في الأمصار لتوجيهها إلى الثغور من السند وسجستان وخراسان شرقا إلى أرمينه وأذربيجان والأبواب وبلنجر والقسطنطينية شمالا، وإلى إفريقيا وجزائر المتوسط

غربا، وإلى النوبة والبجة جنوبا. فكان يحشد المسلمون باستنفارهم كافة أول الأمر، أو بندبهم، أو بضرب البعوث عليهم وقطعها، أو بانتخابهم من بين الناس في الأمصار، أو بإخراجهم وحشرهم للجهاد، أو بالفرض لهم وتعيين جعالة تكفيهم للسير إلى عدو الإسلام وذلك بأمر الخليفة أو العامل.

فكان الخلفاء يضربون البعوث على الأمصار وعلى الأجناد لتتوجه إلى أرض العدو.

وكانت مغازى كل مصر واتجاه جهاد وتحرك الأجناد في كل قطر والجهة التي ينبغي أن يسيروا إليها معروفة تماما في العهد الأموي.

فكان أهل الكوفة والبصرة يوجهون إلى خراسان وسجستان وأذربيجان وأرمينية.

وأهل الشام إلى بلاد الروم وأرمينيه وأذربيجان وإفريقيا والأندلس. ويدعمون أمصار العراق وأجنادها في غزوهم للمشرق من السند إلى خراسان، وكان مغزى أهل الحجاز إلى بلاد الروم وإفريقيا، ومغزى أهل مصر إلى إفريقيا وبلاد الروم، وقد عبر المسلمون إلى ما وراء النهر.

وكان المسلمون في مسيرهم نحو دار الحرب يلاقون بلادا ومناطق جبلية وبوادي وصحاري، ففي الطرق الجبلية الشديدة الوعورة مثل سجستان والأبواب وجبال فارس وبلاد الروم كانوا يسيرون على البغال والبراذين ويجنبون الخيل، أما في القفار والمفاوز والجبال الجرد والأقاليم الحارة القائظة في سجستان وما وراء النهر وإفريقيا فكانوا يستقلون الإبل والنواضح لقوة تحملها العطش ويحملون الماء، ومعهم أحيانا الخيول التي تحمل الدروع، وتحميهم من مفاجآت العدو في شعاب الجبال، الخيول المدرعة والمجردة والمشاة الدراجة.

وكانوا يبنون الإيوان والآبار والمصانع لحفظ المياه في المفاوز التي تقع على طريق مسير الجيش من دار الإسلام وإلى دار الحرب.

وعلى الرغم من المسافات الشاسعة التي كانت تجري فيها ساحات العمليات وبعدها عن مقر الخلافة في دمشق فإن الاتصال كان يجرى بالبريد وبالرسل على النجائب، فكانت المسافات في تلك الأيام كما يلي:

دمشق ـ الكوفة : ٧ أيام .
المدينة ـ سبيطلة (فتح المغرب) : ٢٠ يوما.
المدينة ـ دمشق (اليرموك) : ١٢ يوما.
المدينة ـ الكوفة (القادسية) : ٧ أيام .
الكوفة ـ سمرقند (الحجاج) : ٢٠ يوما .
المغرب الأقصى ـ الأندلس ـ دمشق: ٣ أشهر.
دابق (حلب) القسطنطينية : ١٠ أيام .

وأثناء حكم معاوية نقل الربيع بن زياد الحارثي العرب وعائلاتهم إلى خراسان، ووطنوا بها عام ٥١ هـ ، وفتحت بلخ بعد ما صالحهم الأحنف بن قيس.

ووصلت طلائع المسلمين من مرو باتجاه نهر بلخ في تلك السنة.

وفي عام ٦١ هـ سكن المسلمون وعائلاتهم فيما وراء النهر، وتوطنوا بلخ، الترمذ، سمرقند، خوارزم بأعداد قليلة.

ووجه معاوية جهده السياسي والعسكري إلى بلاد الشام، وقال كلمته المشهورة:
شدوا خناق الروم فيها تضبطوا بقية الأمم.

فكثرت الصوائف والشواتي على درب القسطنطينية والسواحل الجنوبية من بيزنطة وبلاد سواحل البحر الأسود وحول القسطنطينية نفسها، ولاسيا بعد السيطرة على قبرص وقوص وجزر رودس على مداخل خليج القسطنطينية.

وكان الجهد الرئيسي على محور / الطوانة ـ أقرت ـ درولية ـ عمورية ـ برجمة ـ القسطنطينية. ويليه المحوران الثانيان:
ـ عماسة (ماسة) ـ هرقلة تيسارية ـ سوسنة ـ سبطية شمالا.
ـ طرسوس ـ أنطاكية المحترقة على الساحل الجنوبي.

مع عزل الروم من الشرق بإشغالهم في إرمينية بالصوائف والشواتي المنطلقة من الجزيرة الشامية. وكان المسجد رمز توطد الإسلام في الثغور وفي دار الحرب، فكانت منازل الجهاد ودور

الهجرة في الأمصار تنتظم في بنائها وفي أسواقها وفي منازل قبائلها حول المسجد الجامع الذى كان يتوسطها.

وبنى أبو أيوب الأنصاري مسجده بالقرب من سور القسطنطينية، وبقي على حاله حتى بعد عودة العرب عن حصارها.

وبعد وفاة معاوية وتولي يزيد الخلافة مدة قصيرة بدأت الفتن الداخلية، حتى تولى الخلافة عبدالملك بن مروان الذي وطد حكمه بعد القضاء على عدد من الانتفاضات والثورات في الحجاز والعراق ومصر وخراسان مع تفشي العصبية القبلية في بعض تلك الأمصار، واستؤنف الجهاد باتجاه بلاد الروم في البر والبحر وفي السند والهند وما وراء النهر في عهد عبدالملك والوليد وسليمان وعمر بن عبدالعزيز ويزيد وهشام، ولاسيما في الأندلس بعد أن أذعنت إفريقيا ودانت بالإسلام.

وبرز في تلك الفترة أمراء عظام، قادوا جيوش المسلمين شرقا حتى الصين، وغربا حتى أقصى المغرب والأندلس وأواسط بلاد الفرنجة، وشمالا حتى الباب والأبواب وبلنجير وبرجان (بلغاريا)، وأصبحت الثغور الإسلامية في المشرق والشمال عزيزة الجانب يهابها العدو، فكان المسلمون يسكنون الثغور، ويتخذون معهم النساء والذراري، لأنهم إذا أقاموا في ذلك الموضع كثروا بمرور الزمن حتى يصيروا ذلك الموضع مصرا من أمصار المسلمين، ثم يتخذ المسلمون وراء ذلك ثغرا جديدا بالقرب من العدو، تنطلق منه الصوائف والشواتي التي كان أميرها لا يمكّن أحداأن يتشاغل بتجارة أو زراعة لصرفه الاهتمام بها عن مصابرة العدو وصدق الجهاد، فكانت تلبى الحاجات المطلوبة بخروج التجار والأسواق مع الصوائف والشواتي إلى دار الحرب، وأصبحت المرابطة في الثغور تقليدا وجهادا ينصرف له التابعون وكثيرون من الناس احتسابا لله، وينطلقون منها إلى دار الحرب.

وقد قسمت الثغور في زمن الأمويين، وتوزعت كما يلي :

في الشمال : ثغر الروم ، ثغر إرمينيه، أذربيجان، الأبواب، والبحر الأسود.

في المشرق : ثغر خراسان، وسجستان، وثغر السند والهند.

في المغرب : ثغر مصر وإفريقيا والمغرب الأوسط والأقصى، وثغور الأندلس البرية والبحرية.

في الجنوب : ثغر النوبة والبجة.

وقد تفرد المسلمون في القوة البحرية في المتوسط ففتحوا إقريطس (كريت) وصقلية وأجزاء كثيرة من جزائر المتوسط الغربي، مثل سردينية وميتو رفة وميورقة، منطلقين من جربة وتونس وسبتة.

ومع اتساع الفتوحات كانت الحاجة إلى الأجناد والإمداد للثغور وللحملات إلى دار الحرب، وللمحافظة على الأمن في دار الإسلام، تستدعي وجود احتياط من الجند لتعزيز الأمصار المهددة بخطر مفاجئ.

ففي الشام كانت روابط الخيل متأهبة دوما في أنطاكية ومرعش والثغور الشامية حتى قفول الجيش ورجوعه إلى دار الإسلام من الصوائف والشواتي، وكانت روابط الجزيرة في خيولها الكثيفة متأهبة في الرقة وحران وشمشاط ، وكان يدعم ثغر الإسكندرية رابطة من الخيل في الرملة في أرض فلسطين فضلا عن رابطة في الإسكندرية ذاتها، وكان ينجد طرابلس إذا طرقها الأسطول البيزنطي رابطة في حمص، ورابطة أخرى في بيروت.

كان يتراوح عدد هذه الروابط ما بين ألف فارس وأربعة آلاف فارس، وفي أواخر الدولة الأموية بلغت روابط الجزيرة أكثر من أربعين ألف فارس.

أما في فارس فكان ثمة رابطة من الخيل في حلوان والمدائن وفي الري، فضلا عن خيل المناظر في الأماكن المرتفعة.

وكان في كرمان رابطة في أربعة آلاف فارس لإنجاد ثغري السند والهند وثغر سجستان.

وكان روابط من الخيل في الري وقزوين والموصل توجه إلى إرمينية وأذربيجان والديلم عندما يقوم أهل الكوفة بالغزو في تلك المناطق.

وكانت هناك رابطة عظيمة تتمركز بخراسان ما بين بلخ ومرو تحوطا للأخطار التي كانت كثيرة فيما وراء النهر.

وكان في سجستان روابط في بعض الشعاب الجبلية تكون ردءا لجيوش المسلمين الغازية، وتبقى في أماكنها حتى تقفول الجيش من مغزاه.

وعلى العموم كان خط توضع الإسلام وانتشاره والمسالك التي عبرها وسار عليها يقع على محور عمليات الجهاد المتمثل في أماكن العمران المعادية، وفي مراكز تجمع جيوش الخصم. وكانت المروج ومنابع المياه والوديان المعشوشبة تحدد وتعين تقريبا خط مسير الحملات والصوائف والشواتي في مختلف مسارح عمليات الجيوش الإسلامية في الشرق والشمال والغرب.

«ثغر الأندلس والغزو فيه»

لما فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى أرسل مولاه طارق بن زياد في السفن من سبتة، ودخل الأندلس باتجاه طليطلة، وعطف منها إلى سرقسطة بأجناد الشام والبربر، وأصبحت قاعدة الملك إشبيلية وثغورها برشلونة وسرقسطة، وأوغل موسى في بلاد الفرنجة، ووصل إلى «لوطون» ليون متجها إليها عبر المحور الجنوبي على ساحل البحر، وعاد إلى برشلونة، ثم استمرت الغزوات الإسلامية عبر جبال البرنس باتجاه نهر دوفة (الرون) ومرسيليا. وتوجه السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠٢ هـ إلى طرسوفة (طولوز)، ووصل عبدالرحمن الغافقي إلى بواتيه، وتوغلت بعض طلائع العرب والمسلمين حتى بلغت ضواحي باريز.

وفي عام ١١٦ هـ فتح عقبة بن الحجاج السلولي نربونة NARBONNE، وأسكنها اللخميين، كما فتح بتبلوقة فصارا ثغرين عظيمين للصوائف والشواتي التي كانت تعبر المحور الساحلي الجنوبي من ممرات جبال البرانس BYRENEES باتجاه ساحل المتوسط، وتخترق المحور الساحلي الشمالي نحو شمال غربي فرنسا عبر ممرات جبال البرانس أيضا على شواطئ المحيط الأطلسي من بلاد الباسك.

المعسكرات وأماكن التجمع للنفير ومنازل الجهاد ودار الهجرة في صدر الإسلام

كان المسلمون ينطلقون في جهادهم العدو من معسكرات وأماكن تجمع يستنفرون إليها، وكانوا يتخذون في الأقاليم المفتوحة بعد تمصيرها «منازل جهاد» أو قاعدة العمليات منطلقا لهم في جهادهم.

وكانت دار الهجرة المدن التي اتخذها المسلمون منزلا دائما ونهائيا للإقامة فيها والهجرة إليها والاستيطان فيها.

إن أهم هذه المواضع والتي كان ينطلق منها المسلمون للجهاد هي.

١ ـ «في العهد النبوي» :

المدينة : لجميع غزوات الرسول وسراياه وحملاته.
الجرف : معسكر لغزو حدود الشام وأطرافه ووادي القرى وتبوك ومؤتة.

٢ ـ «في عهد أبي بكر» :

الجرف : معسكر لغزو الشام.
ذو القصة : معسكر للتحشد لحروب الردة.
الأنبار، الحيرة، ذو قار: معسكرات لأهل الأيام في العراق (المثنى وخالد بن الوليد).

٣ ـ «في عهد عمر» :

الجرف : معسكر لغزو الشام .

ذو القصة، صرار: معسكران على طريق العراق لحرب الفرس.
الأبلة، الأنبار، الحيرة، ذو قار: قواعد تحشد لمعركة القادسية .
الجابيــــة : منزل جهاد في حوران لفتح الشام ومصر، وبعد معركة اليرموك أصبحت مراكز الأجناد في الشام.
دمشق، حمص، قنسرين، الجزيرة، فلسطين، الأردن، قنسرين، والثغور في أنطاكية والجزيرة: لغزو الروم.

بعد القادسية :

المدائن : منزل جهاد لحرب فارس.
الكوفة والبصرة: دار هجرة ومنزل جهاد لغزو الجزيرة الشامية ولغزو إرمينية وأذربيجان، وقاعدة جهاد لفتح فارس وجزء من خراسان وسجستان والديلم وطبرستان.
كرمــــان : منزل جهاد لغزو سجستان وخراسان.
مكــــــران : منزل جهاد لغزو ثغر السند.
الحديثة والموصل: منازل جهاد ودار هجرة لغزو الجزيرة الشامية وإرمينية وأذربيجان.
تــــوج : منزل جهاد لغزو سجستان .
مرو الشاهجان : منزل جهاد لغزو خراسان.
الفسطاط : دار هجرة لغزو إفريقيا.

٤ ـ «في عهد عثمان» :

قنسرين والثغور: منازل جهاد لغزو بلاد الروم، ودار هجرة المسلمين .
عكا والإسكندرية : منازل جهاد للغزو في البحر وفي إفريقيا .
الفسـطاط : دار هجرة ومنزل جهاد لغزو إفريقيا.
الكوفـة والبصــــــرة : دار هجرة ومنزل جهاد لغزو خراسان وسجستان والسند .
دبيــــــــــــــل : منزل جهاد لغزو إرمينية وأذربيجان والأبواب وبلنجير .
الموصــــــــــــل : دار هجرة ومنزل جهاد لغزو إرمينية وأذربيجان .

الـــــــــــري : منـزل جهـاد ودار هجـرة لغــزو خراســان وإرمينية وأذربيجان وطبرستان والديلـم .

مـــــــــــــرو : منزل جهاد لغزو خراسان .

بلـــــــــــخ : منزل جهاد لغزو خراسان .

بســـــــــــت : منزل جهاد لغزو خراسان .

كرمــــــــــان : منزل جهاد لغزو سجستان وخراسان .

مكـــــــــــران : منزل جهاد لغزو السند .

٥ ـ في عهد علي (الكوفة) مقر الخلافة :

الكوفة والبصرة : معسكر النخيلة لحرب صفين .

الموصل : منزل جهاد لأذربيجان وإرمينية .

الري، مرو : منازل جهاد لغزو خراسان وسجستان .

مكران وكرمان : منازل جهاد لغزو السند والهند وسجستان .

٦ ـ في عهد الدولة الأموية (دمشق) مقر الخلافة:

مراكز أجناد دمشق : دار هجرة ومنازل جهـاد لتـوجيه الجيوش إلى الشرق وإلى إفـريقيا والأندلس وبلاد الروم.

دابق ، بالس في قنسرين : منازل جهاد لغزو بلاد الروم .

الثغور الشامية (إنطاكية) : منازل جهاد لغزو بلاد الروم .

الثغور الجزرية (ملطية مرعش) : منازل جهاد لغزو بلاد الروم وأذربيجان وإرمينية .

عكا، طرابلس، الإسكندرية، جربة تونس: منازل جهاد وثغور في البحر باتجاه القسطنطينية والمتوسط المركزي والغربي وجزره: كريت، صقلية، سردينية، ميورقة، مينديرقة.

الفسطاط : دار هجرة ومنزل جهاد للغزو في إفريقيا .

القيروان : دار هجرة ومنزل جهاد للغزو في إفريقيا .

طليطله، صغور الأندلس الساحلية، ومداخل جبال البرانس: منازل جهاد وثغور لغزو بلاد إفرنجة (فرنسا).

الكوفة، البصرة، واسط : دار هجرة ومنازل جهاد لغزو خراسان وسجستان والسند وما وراء النهر.

قزوين ـ جرجان : منازل جهاد لغزو طبرستان والديلم وخوارزم.

بســـت : منزل جهاد لغزو سجستان.

كرمـان : منزل جهاد لغزو سجستان وخراسان وإنجاد ثغر سجستان.

مكـران : منزل جهاد لغزو السند والهند.

المنصـورة : دار هجرة ومنزل جهاد للغزو في السند والهند

المحفوظة (القصبة) : دار هجرة ومنزل جهاد في السند والهند.

مرو، بلخ، بخارى، سمرقند: دار هجرة ومنازل جهاد لغزو بلاد ما وراء النهر وخراسان والصفد والشاش وفرغانة وأشروسنة.

الجرجانيــــة : منزل جهاد في خوارزم.

الأقاليم والمناطق والطرق والمسالك التي انتشر عليها الإسلام

١ ـ في العهد النبوي :

المدينة وما حولها : الحديبية (مكة) .

المدينة ، وادي القرى : المدينة، معان، مؤتة .

المدينة ـ مكة (فتح مكة): عسفان، الكديد، أمج، مر الظهران، السقيا، قديد، ذي طوى، أذاخر.

حنيـــن : أوطاس، نخلة، قرن، بحرة الرغاء ، الصنيقة، نخب الطائف، الجعرانة، مر الظهران.

المدينـــة : ذو خشب، المرّ، ذو المروة، وادي القرى، الحجر، الأقرع، تبوك، الحجر، جربَاء، إذرح، دومة الجندل، بلاد طيّ، أيلة (العقبة).

المدينة ـ اليامة : صحراء الدهناء، دارين البحرين، عمان، دبا، مهرة، القطيف، هجر، صحار.

المدينة ـ نجْران، رمع، زبيد، همدان، صنعاء، مأرب، الجند.

٢ ـ طريق الرسول صلى الله عليه وسلم لما هاجر من مكة إلى المدينة:

عسفان، قديد، الخرّار، مدلجة، مجاج، مرحج، مجاج، ذات كشد، الأجرد، العثبانـة، القاحـه، العرج، ثنية الأعيار، رئم، قبا.

طريق المدينة مكة: الشجرة ملل، السيالة، السقيا، الأبواء، الجحفه، قديد، عسفان، بطن مرّ، مكة.

٣ ـ مساجد النبي صلى الله عليه وسلم بين المدينة وتبوك، وهي تحدد الطريق الذي اتبعه:

ذو خشب، الفيفاء، ذو المروة، الرقعة، وادي القرى، الصعيد، الحجر، صدر حوض، ذو

الجيفة، شق تارا، ذنب كوكب، آلاء، ذات الخطمي الأخضر، ذات الزراب، ثنية بدران، تبوك.

٤ ـ خلافة أبي بكر :

قتال المرتدين : ذي حسى، ذي القصة، الربذة، الأبرق سميراء، أجأ، الأنسر، بزاخة، البطاح.

اليامة طريق الدهناء: دبا، صحار عمان، مهرة (جيروت)، النجدة، الروضة، الساحل، الجزائر، المر، اللبان، ظهور الشحر، الصبرات، ينعب، ذات الخيم.

غزو العراق : اليامة، حفير كاظمة، الأبلة، المذار، الثني، العرجـة، أليس، أمغيشيا، المقر، الخورنق، القصر الأبيض، القدسيين، الحيرة، بانقيا، بسما، الفلاليج، البهقباذ، الأوسط والأسفل، العقر، السيّب، الأنبار، البوازيج، عين التمر، دومة الجندل.

عين التمر، الخباب، البردان، الحني، المضيخ، الزميل، الثني (شرقي الرصافه)، الرضاب، الغراض، قرار، سوى، أرك، تدمر، القريتين، حوارين، مرج راهط، غوطة دمشق، مرج الصفر، بصرى.

غزو الشام : طريق المعرقة، أيلة (العقبة) التبوكية البلقاء، مآب، الحربة، الداثنه، مرج الصقر، تيماء، آبل، زيزاء، القسطل، أجنادين، فحل، دمشق، بلعبـك، حمص، الجـابية، اليرموك، دمشق، حمص، قنسرين.

٥ ـ خلافة عمر بن الخطاب :

العـــراق : الحيرة، خفان، النمارق، بارق، درتا، السقاطية، كسكر، باروسما، الزوابي، زندرود، مرج السباخ، البويب، ساباط، ميسان، الخنافس، الكباث، صفين.

القادســية : المدينة، صرار، الأعوص، زرود، شراف، العذيب، القادسية، بلبل، دير قرة، سورا، كوثي، ساباط، المدائن (بهرسير)، النهروان، جلولاء، نهاوند.

جلولاء، حلوان، قصر شيرين، جلولاء ـ خانقين، جلولاء، السيروان، ماسباذان، المدائن، تكريت، الموصل، هيت، قرقيسية (الجزيرة الشامية).

البصــرة : الأهواز، رامهرمز، أرجان، إصطخر، السيرجان، كرمان.

البصــرة : ميسان، دست ميسان، مناذر، نهر تيرى، سوق الأهواز، رامهرمز، إيذج، تستر، السوس، جندي سابور، مهرجا نقذف.

الكوفة ـ قرقيسيه : الرقه، عصيبين، رأس العين، دارا، عين الوردة.
الكوفة ـ الموصل : الرها ، حران.
ثغور الكوفة : حلوان، الموصل، ماسباذان، قرقيسية .
انسياح المسلمين : مهرجا نقذف، الطبسين، هراة، مرو الشاهجان، نيسابور، سرخس .
في فارس : البصرة، مرو الروذ ، بلخ.
الكوفة : أردشير خرة، سابور، إصطخر، دارا بجرد، كرمان، سجستان، مكران.
البصرة : توج، جور، إصطخر، دارا بجرد، كرمان، جيرفت، مفازة شيرز، رنج، مكران.
بعد نهاوند : همزان ـ دستبي، الماهين، الري، قومس، دهستان، جرجان، دنباوند، الخوار، اللارز، الري: الرشت، قم، قاشان.
البصرة : كرمان ، أصبهان .
الكوفة : أصبهان، جي، همزان الري، جرجان، طبرستان، الري، الموصل، أذربيجان جرميذان، موقان، تفليس، الباب، اللان، بلنجر، حلوان، الموصل، أذربيجان.

٦ ـ خلافة عثمان :

البصرة : ميسان، سابور، إصطخر، كرمان، سجستان.
الكوفة : سرخس، نيسابور، قوهستان، طوس، مرو، زربخ، كابل، هراة، بوشبخ، بادغيش، الفارياب، الطالقان، الجوزجان، بلخ.
الجزيرة : الموصل، بلد، نصيبين، دارا، آمد (ديار بكر)، ميا فارقين، أرزن.
الجزيرة : الرقة، حران، الرها، شمشاط ، آمد .
الجزيرة : الرقة، سربوج، شميساط ، ملطية، الحدث، مرعش.
إفريقيا : الفسطاط ، الإسكندرية، برقة، سرت لبدة صبرة، طرابلس، جلولا، سبيطله، الجم، برقة، زويلة، ودان، فزان.
ـ الإسكندرية : صقيلية، الفسطاط ، الفيوم ، البجة.
طريق المدينة : سالكوفة : الطرف، بطن نخل، العسيلة، الحاجر، سميراء، فيد، الأجفر، زرود (الخزيمية)، الثعلبية، البطان، الشقوق، زبالة، الحلجاء، القاع، واقصة، القرعاء، وادي السباع، المغيثة، ذات عرق، العذيب.

«الدولـــة الأمويـــة»

١ ـ فارس وخراسان : جلولاء، خانقين، قصر شيرين، حلوان، مرج قريسين، نهاوند.

الكوفة ـ البصرة :

بعض أجناد الشام، همدان، الري، الخوار، قصر الملح، سمنان، الدامغان، آخرين، قومس، نيسابور، طوس، سرخس، مرو، آمل (نهر بلخ)، فربر (مفازة)، بيكند، بخارى، ربنجن، سمرقند، «مفازة»، زامين، (مفازة)، الشاش، أسبيجاب (مفازة).

طريق فرغانه، زامين، ساباط ، أشروسنة، خجندة، فرغانة .

طريق الشاش، زامين (مفازة)، الشاش، أسبيجاب (مفازة) .

مرو ـ طخارستان: مرو، أرسكن، الطالقان، الفارياب، الجوزجان، الشبورقان، بلخ، (الترمذ)، خلم آمل، زم.

طريق الصغانيان: الترمز، الصغانيان، شومان، الراست، بلخ ـ طخارستان: بلخ، خلم، بهار، بغلان.

مرو ـ الجرجانية (في خارزم) .

الطرق إلى السند : البصرة، الأهواز، كرمان، بم (مفازة) ، نهر مهران.

المعابر على نهر جيحون: زم ، الترمذ، آمل.

المفـــازات : مفازة ما بين الري، سمنان، مفازة ما بين مرو سرخس، مرو، بخارى، سمرقند، زامين ـ مرو، الجرجانية، خوارزم.

مفازة ما بين كرمان وسجستان، مفازة ما بين نهر بلخ (آمل) (وبيكند).

مفازة بين كرمان ومكران والسند، مفازة ما بين مرو ـ نهر (بلخ).

مفازة بين أصبهان ونيسابور، مفازة ما خوط ، الفارياب (مفازة القاع).

مفازة قاين ـ طبس ، مفازة الجوزجان ما بين القاع والشبورقان حتى أول مدينة بلخ.
مفازة طبس ـ نيسابور ، مفازة بعد مدينة بلخ ما بين سياكرد ونهر جيحون الترمذ.
مفازة ما بين بلخ وشعب خلم وبهار.

الطرق إلى أذربيجان وإرمينية :

بلاد العجم، الدينور، رزنجان، الميانج، أردبيل ، ورتان، البيلقان، بردعة. ـ الشماخية، شروان، سمور، باب الأبواب.
بردعه ـ شمكور ـ خنان، تفليس .
من الجزيرة : الموصل، حران، ماردين، ديار بكر (آمد)، ميا فارقين أرزن، بدلين.الرقه ـ حران، خلاط ، أرجيش، خوى، سلماس أرمية، المراغة، أردبيل.
من قاعدة المراغة إلى الخرقان: مرند، خوى، نشوى، دبيل.
الطريق إلى الروم: من الثغور الشامية ، ملطية، مرعش، وعبر الدروب، باتجاه القسطنطينية ووسط الأناضول.
أنطاكية، طرسوس، العليق، الرهوة، الجوزات، البندندون، لؤلوة، الصفصاف، أقرن، العلمين، عمورية، صاغرى، درولية، ملاحينة، الخليج فقيه، قسطنطينية.
البدندون، مرج الأسقف، درولية، الرنداق، أبدوس، الخليج، القسطنطينية.
في إفريقيا : برقة، زويلة، فزان، طرابلس، القيروان، جبال أوراس، تلمسان، الزاب.
تاهرت، طنجة، السوس، الزاب، تهوذة.
برقه، طرابلس، جربة، قابس، القيروان، الطريق الساحلي، حتى سبتة وطنجة.
الأندلس : الجزيرة الخضراء، جبل طارق، وادي لكة، شذونة، المدور «قرطبة»، قرمونة، إشبيلية، أكشونة، شذونة، قرموقة.
إشبيلية، القنت، ماردة لبلة، استجة، إلبيرة، جيان، طليطلة.
ماردة، سلمنقة، تمامس، سرقسطة، وشقة لاردة، طركونة، برشلونة، أربونة (فرنسا)، أبينيون لوذون (ليون).
ـ باجه يابرة، ستنترين، قلمرية، إسترقة، تدمير، غرناطة، مالقة، ريا.

ـ طليطلة ـ سرقسطة، تنيلونة، بلاد البشكنس (الباسك)، بورد، بواتيه، أوتان. (ضواحي بايز).
ـ طليطلة، سرقسطة، برشلونة، أربونة، طولوشة (تولوز)، أفينيون، آرل.
السند والهند : البصرة، الأهواز، كرمان، بم، نهر مهران، المنصورة، الديبل. صيمور ـ الديبل، الملتان، الديبل قندابيل.
جـــزر : مينورقة، ميورقة، صقلية، من مرافئ بنزرت، جربة، تونس، ومرافئ الأندلس.
جـــزر : صقلية ، كريت، من مرافئ الإسكندرية ، عكا.

الطبيعة الجغرافية للطرق والمسالك التي سار عليها الإسلام

١ ـ ما بين المدينة والعراق :

صحراء وبوادي لا مياه فيها سوى بعض الشعاب القليلة والغدران في الشتاء، وتتصل الصحراء حتى الأبلة، والقادسية وهيت وعانة إلى أن تصل إلى ضفاف نهر الفرات، حيث يبدو سواد العراق وأرضه الزراعية وما يليها إلى الدجلة.

كان يتم عبور الفرات والدجلة على جسورها يعقدها أبناء القرى والمدن المفتوحة أو بالسفن، ما عدا فتح المدائن فقد عبر عنوة.

٢ ـ بلاد العجم :

بلاد جبلية مشجرة، كان اللقاء في الميدان حول المدن المحصنة في ساحة المعركة، أو محاصرتها بحسم المعركة.

يقطع بلاد العجم من الشمال من حدود الري حتى الجنوب إلى حدود مكران وهرمز مفازات متصلة، تفصل بين فارس وخراسان وسجستان والسند في أرض جبلية باردة شتاء وحارة صيفا، أو ما كان يسمى بالصرود والجروم.

٣ ـ **السند** : والطريق إلى السند على خط مواز يبعد إلى الشمال في أرض جرداء شبه جبلية حارة، تتخللها مقاطع الوديان التي تتجه من الشمال إلى البحر.

٤ ـ **سجستان** : أرض جبلية وشعاب كثيرة باردة شتاء، يعترض الوصول إليها بعض المفازات التي تفصل بها عن مكران وكرمان من فارس وعن خراسان شمالا.

٥ ـ خراسان وماوراء النهر (الصفدفرغانة)، (نهر جيحون والشاس):

هذه الأراضي جبلية ذات شعاب وأودية سحيقة ومفازات متعددة على جانبي مجرى نهر جيحون، وتكثر المياه والمجاري الرافدة للنهرين الكبيرين والمنصبة عليهما، مما يحدد العبور إليهما من ممرات معينة هي «سرخس، الترمذ، زم، آمل».

تعد مدينتا مرو وسمرقند قاعدتي العمليات الأرضية في تلك البقاع النائية المترامية الأطراف، الكثيرة الشعوب، والمتعددة الأجناس في إقليم بارد شتاء وحار جدا صيفا، وتتصل المفازات ما بين مرو وخوارزم حتى بحر الخزر، حيث تجثم على خط مواز لقسمه الجنوبي المناطق الجبلية الوعرة الشديدة البرودة في طبرستان والديلم إلى أن تصل إلى حدود أذربيجان وإرمينية والأبواب في أراضي جبلية وعرة شديدة البرودة شتاء مع ما فيها من أنهار كثيرة ومجاري مياه دائمة ومراع وفيرة.

٦ ـ المدينة ـ الشام :

تعد الأراضي ما بين المدينة والشام صحراوية ليس فيها إلا موارد مياه ضئيلة جدا حتى بلوغ حدود الأردن وفلسطين، حيث تتغير المعالم الجغرافية من حيث طبيعتها البشرية والنباتية والمناخية، فتكثر أماكن العمران وموارد المياه، وتتنوع النباتات والأشجار، وتعترض طرق النفوذ الأماكن الجبلية وممراتها، والسهول المعشوشية والمراعي ومجاري الأنهار حتى بلوغ جبل اللكام في الشمال والجزيرة في الشمال الشرقي من الشام .

٧ ـ ويتم الدخول إلى بلاد الروم : ذات الأراضي الجبلية المشجرة، ومجاري المياه الكثيرة والمروج والشعاب المتعددة، والبحيرات والمراعي، من خلال الدروب المخترقة لجبال طوروس الشاهقة الارتفاع. وبلاد الروم ذات مناخ قارص في الشتاء، تغطيها الثلوج مثل مناطق إرمينية وأذربيجان وبعض مناطق إيران وخراسان. يتحدد المرور إلى القسطنطينية على الطرق الأرضية النافذة إلى العاصمة من الدروب (درب الحدث، درب بغراس) ومن الثغور الشامية والجزيرة، ومن الطريق الساحلي من طرسوس وأدنة حتى أنطاكية المحترقة، ملتفا إلى الشمال حتى أبيدوس وخليج القسطنطينية .

وأما الطريق البحري في الأسطول بعد تأمين السيطرة البحرية فمن عكا وطرابلس وصور والإسكندرية إلى قبرص وسواحل بلاد الروم الجنوبية وجزيرة رودس وقوص حتى خليج القسطنطينية.

٨ ـ طريق مصر :

أما الطريق من فلسطين إلى الفسطاط فيسير على خط قريب من الساحل، وأهم مدنه غزة الشهيرة في أرض صحراوية حتى بلوغ وادي النيل والفسطاط. ويمتد من الفسطاط إلى البجة والنوبة في الجنوب الطريق الوحيد الذي يساير مجرى النيل الأدنى، وتتوضع كثافة سكانية كبيرة على طول مجرى النيل حتى مصبه.

٩ ـ طريق إفريقيا :

وإذا سارت الجيوش من الإسكندرية إلى إفريقيا والمغرب الأدنى فإنها تساحل في أرض صحراوية رملية حارة جدا، يعترضها الجبل الأخضر في برقة وجبل نفوسة في طرابلس، وما يتوضع حولهما من قبائل البربر.

تعد الكثافة البشرية ضئيلة جدا في المغرب الأدنى، ولاسيا في المناطق الداخلية البعيدة عن الساحل، وتبدأ هذه الكثافة بالتصاعد اعتبارا من منطقة تونس وضواحيها.

وإذا ما تابعت الجيوش توغلها إلى الغرب على الطريق الساحلي إلى المغرب الأوسط والأقصى فإنها تسير على مقربة من الساحل، حيث تكثر المدن، ويزداد العمران والسكان من القبائل البربرية الكثيرة البطون والأفخاذ وتحف بها من الجنوب المرتفعات الجبلية المشجرة والأودية المنصبة إلى البحر، ولاسيا جبال الأطلس المشجرة في المغرب الأقصى، حتى تصل إلى المحيط الأطلسي. إن هذا الإقليم معتدل، ماعدا المرتفعات الجبلية الباردة شتاء.

وتقل الكثافة السكانية في الأجزاء الداخلية من المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وتبدأ الهضاب والمرتفعات البدوية الطابع، والغرود الرملية بالانحدار تدريجيا حتى تصل إلى الصحراء، مع ازدياد شدة الحرارة تبعا للانحدار نحو الجنوب.

١٠ ـ الأندلـس :

تجتاز الجيوش العدوة الجنوبية من سبتة وطنجة على ساحل المغرب الأقصى إلى العدوة الشمالية بالسفن، وتسلك الطرق الداخلية التي يزداد ارتفاعها عن سطح البحر كليا أمعنت في التوغل نحو الشمال الشرقي في إقليم تزداد برودته شتاء كلما اندفعت الجيوش إلى الشمال الشرقي، ويتخلل هذه الأراضي السهول والجبال المرتفعة والشعاب ومجاري الوديان، وتزداد الكثافة السكانية في المناطق الساحلية والداخلية ويصطدم تقدم الجيوش نحو الشرق إلى بلاد إفرنجه (فرنسا) بالمرتفعات الشاهقة لجبال البرانس ذات المناخ القارص شتاء، ولا يتم اجتيازها إلا من معبر بنبلونة في الشمال بالقرب من ساحل الأطلسي، ثم من معبر (أربوفة: في الجنوب على ساحل المتوسط ، وعندئذ تنفتح بلاد الإفرنجة نحو ساحل المتوسط شرقا حتى طولوتسة (تولوز) ومرسيليا و (أبينون) أفينيون على نهر الرون (ردونة)، وتسلك الجيوش المتجهة شمالا من بنبلونة على خط مواز قريب من الساحل حتى تبلغ بوردو وما وراءها إلى بواتيه بلاط الشهداء.

لقد رافقت الإبل وحملت المؤمنين لنشر رسالتهم للناس كافة في حلهم وترحالهم من المدينة وبوادي الجزيرة العربية إلى جبال فارس وهضاب الشام وشعاب سجستان ومفازات خراسان وسلالها المرتفعة الوعرة من جبال أذربيجان وإرمينية، وفي الحملات الصيفية عليها وعلى بلاد الروم وفي الأندلس، فكانت الإبل الواسطة الرئيسية لتحرك الإسلام شرقا وشمالا وغربا. أما الخيول فكانت الأداة الأساسية للحملة في ساحات المعارك المتصلة لتثبيت الإسلام وتوطيد أركانه في مختلف الأقطار والأمصار.

بحوث فى الجغرافيا التربوية

الارض فى القرآن

دكتور / فتحى عثمان

«الأرض فى القرآن الكريم»

« إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ »

(الجاثية : ٣ ـ ٦)،

« وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ »

(الذاريات : ٢٠ ـ ٢٣)

« وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » (يوسف : ١٠٥)

وردت كلمة «الأرض» في آيات القرآن الكريم زهاء ٤٦٦ مرة، ولا عجب فهي مقترنة بخلق الكون وخلق الإنسان :

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (النحل : ٣)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (البقرة: ٣١)

« وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ » (البقرة: ٣٦)؛

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ » (الروم : ٢٠).

ولست أرمي هنا إلى ذكر آيات الله التى تضمنت «الأرض»، فذلك حديث يطول، وكل من يقرأ القرآن لا يخطئ الآيات العديدة التي جاءت بها هذه الكلمة، وإنما أحاول أن أقدم في حديثي هذا تحليلا للمباحث الكبرى التي عرضت لها الآيات القرآنية الكريمة التى ذكرت فيها «الأرض»، وأهم الدلالات التي قصدت إلى بيانها تلك الآيات، مما يتعلق برسالة الدين في تقدير الحقيقة وإقرار الحق وهداية الإنسان إلى ذلك وتربيته عليه فكرا وخلقا وسلوكا.

أولا : الأرض فى الكون ـ الكواكب والنجوم والمجرات ـ لمحات فلكية :

حرص القرآن الكريم على أن يقرر في وضوح وجلاء أن الأرض ذرة في محيط ضخم من الكون خلقه الله جميعا:

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (فصلت: ١١)

« وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (هود: ٧)

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء : ٣٠)

« وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ
قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ
هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا
رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ »

(الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩)

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ »

(يوسف : ٤)

« فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »

(الأنعام : ٩٦ ـ ٩٧)

« يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ »

(الأعراف: ٥٤)

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

(النحل: ١٢)

« وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »

(النحل: ١٦)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ »

(الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦)

« فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ »

(المعارج: ٤٠)

« إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ (٤) رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ » (الصافات: ٤ ـ ٥)

وقد ميزت آيات القرآن بين الشمس باعتبارها مصدرا للضوء والحرارة بذاتها، وبين القمر المنير بغيره دون حرارة، فقال جل وعلا:

« هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟
عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (يونس: ٥)

« أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا » (نوح: ١٥ ـ ١٦)

وتعدد السموات قد يشير إلى تعدد المجموعات الشمسية وما فيهـا من مدارات أو تعـدد المجرات، كما قد يشير تعدد الأرضين إلى تعدد الكواكب المماثلة للأرض في وضعها أو وصفها، والتي توجد في مجموعات أخرى، فيعبر بالأرضين مثلما نعبر بالشموس والأقمار عن كواكب تقابل في مجموعات أخرى من الفلك ما يقابل في مجموعتنا الشمس والقمر، أو قد يشير إلى تعدد الطبقات الأرضية من القشرة إلى الأعماق حتى مركز الأرض:

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ » (المؤمنون: ١٧)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا » (الطلاق: ١٢)

وقد يكون ذكر الرقم سبعة هو لبيان التعدد لا للحصر، والله أعلم بمراده، وإنما يحاول عباده فهم آياته في الكون والكتاب وتدبرها.

ولا يفتأ القرآن يسكب في حس المؤمن ووعيه أن الكون حافل بالكواكب والنجوم، وأن للأرض في هذا الكون العملاق المعجز مكانها المعلوم، وذلك قبل قرون مما عبر عنه بالثورة في علم الفلك، التي كان من أقطابها كوبر نيكوس Copernicus ١٤٧٣ ـ ١٤٥٣م)، وجاليليو (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م)، وهي التي وصفت بأنها أنزلت الأرض من عليائها، فلم تعد مركز الكون لمجرد أنها موطن الإنسان، بل سيقت البراهين على دوران الأرض حول الشمس فضلا عن دورانها حول ذاتها. والقرآن على تقريره لمنزلة الإنسان وكرامته بين المخلوقات يقرر حقيقة مكانه الصحيح في الكون الهائل المعجز، فيقول سبحانه:

« لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (غافر: ٥٧)

والقرآن يشير إلى حركة الشمس، ويقرن ذلك في نفس الموضع بإشارة أخرى يفهم منها المستقر، فحركة الشمس الحقيقية المقصودة ليست هي حركتها الظاهرية المظنونة سلفا حول الأرض:

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (يس: ٣٧ ـ ٤٠)

فالقمر جرم سماوى تابع لكوكب الأرض، وله حول نفسه دورة، والأرض بنفسها جرم سماوي لها حول نفسها دورة، وللأرض والقمر حول الشمس دورة، وللشمس والأرض وكواكبها الأخرى الثمانية وما يتبعها من أقمار دورة كبرى فى المجرة، وللمجرة دورة وهكذا

« كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » (الرعد: ٢)

والشمس التي يبلغ قطرها ١٫٣٩٢٫٠٠٠ كم، ويكبر حجمها الأرض مليونا وثلاثمائة ألف مرة

قد لا يبدو دورانها حول نفسها بصورة محسوسة للإنسان على سطحها لأسباب معينة، وتتم الدورة عند خط استوائها خلال ٢٥ يوما، بينما تستغرق عند قطبيها ٣٣ يوما.

والآيات السابقة ناطقة مبينة أن لكل كوكب مدارا (وكل في فلك يسبحون)، وأن تعاقب الليل والنهار على الأرض مرتبط بالحركة في الفلك، وهو ما تبينه آيات متعددة من كتاب الله منها:

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الأنبياء: ٣٣)

كذلك تتعدد إشارات القرآن إلى التكوير عند الحديث عن الكواكب والنجوم وعن الليل والنهار:

« خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ » (الزمر: ٥)

« إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ » (التكوير: ١)

وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (النازعات: ٣٠)

وأوردت المعاجم أن الأدحي والأدحوة والأدحية بيض النعام في الرمل... ويشير القرآن الكريم إلى انفصال الأجرام عن بعضها:

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا » (الأنبياء: ٣٠)

كما يشير إلى اجتماعها بسبيل من سبل الاتصال وفق السنن والنواميس، ومنها ما قد نتوصل إليه طاقات الإنسان:

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ » (الشورى: ٢٩)

وقد أورد ابن جرير الطبري وابن كثير في تفسير قوله تعالى:

« فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ » (الانشقاق: ١٦ ـ ١٩)

رواية عن ابن مسعود والشعبي: (لتركبن يا محمد سماء بعد سماء). وقد قرئت: «لتركبن» بفتح الباء، في قراءة عمرو بن مسعود وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة. وعقب ابن كثير على ذلك التأويل طبقا لهذه القراءة بقوله «قلت: يعنون ليلة الإسراء». وواضح أن الأخذ بتأويل ركوب طبق عن طبق على أنه ركوب سماء بعد سماء مع قراءة «لتَركبُن» بفتح التاء بضم الباء يمكن أن يعطي دلالة تكون إنباء عما حدث في أيامنا. والقرآن الكريم يشير إلى تجاوز أقطار السموات والأرض بمقتضى سلطان قد يكون هو العلم بإحدى سنن الله الكونية:

« يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ

أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » (الرحمن: ٣٣ ـ ٣٦).

ولقد أشار القرآن إلى خصائص الزمن الفلكية مادام يترتب على حركات الأفلاك في أكثر من آية. يقول تقدست أسماؤه:

« وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى »

(الرعد: ٢)، (لقمان: ٢٩)، (فاطر: ١٣)، (الزمر: ٥)

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » (الرحمن: ٥)

وقد جلى القرآن أن عدد السنين وحسابها على سطح أرضنا مترتب على العلاقة بين الأرض والشمس، أو بين الأرض والقمر، وعلى الوحدة الزمنية التي يملأها النهار والليل حتى يعقبها شروق شمس يوم جديد تال:

« يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ». (الأعراف : ٥٤)

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ

لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ » (يونس: ٥)

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ
« ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ
وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ
تَفْصِيلًا » (الإسراء: ١٢)

« فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (الأنعام: ٩٦)

فالزمن حركة أو الحركة زمن، ودورة الأرض حول نفسها أمام الشمس حركة لها زمن هو اليوم، ودورة الأرض حول الشمس حركة لها زمن يترتب عليها وعلى ميل محور الأرض، هو الفصول الأربعة التى تشغل العام، كذلك للقمر دورة حول نفسه وأخرى حول الشمس، وكل منها حركة لها زمنها، وهكذا. ويبين الله لنا في كتابه المحكم نسبية الزمن في حساب عباده على الأرض والزمن عنده سبحانه:

« وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » (الحج: ٤٧)

« يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ » (السجدة: ٥ ـ ٦)،

« تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ »

(المعارج: ٤)

وأوضح القرآن أيضا اختلاف الزمن النفسي عن الزمن المادي الواقعي:

« كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ »

(الأحقاف : ٣٥)

« قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ » (الكهف: ١٩)

« قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن

لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » (المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤)

« وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ »

(الروم: ٥٥)

وقد عبر القرآن عن أجزاء الزمن بالساعة واليوم والشهر والسنة والفترة والحين والدهر والقرون والأحقاب، كما عبر بلمح البصر أو ما هو أقرب وما قبل ارتداد الطرف، ولكل تعبير دلالته ومداه وحيزه الزمني، وعلى غرار نسبية الزمن يمكن أن تفهم من الإشارات القرآنية كذلك نسبية الحركة وسرعتها:

« وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ »

(النمل: ٨٨)

والآية معبرة عن أهمية سرعة جسم ما بالنسبة للإحساس به وإدراك جرمه وهيئته، إلى جانب الأبعاد التقليدية من طول وعرض وارتفاع، وتأثير السرعة في إدراك الحركة والسكون، ودلالة الآية في ذلك قائمة، سواء كانت متصلة بما سبقها مباشرة من قول الله عن يوم القيامة:

« وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ »

(النمل: ٨٧)

أو كانت منفصلة عن الآية التي قبلها، وقد أتت لتقرر سنة كونية تجري في الكون والوجود بإطلاق واطراد. وقد يلفت النظر أن الآية السابقة على آية النفخ في الصور والبعث تعرض لتعاقب الليل والنهار في الدنيا:

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (النمل: ٨٦)

وهكذا قد تكون آية النفخ في الصور أتت في السياق للإبانة عن نهاية الزمان، وانقضاء ظاهرة الليل والنهار، وغيرهما من الظواهر الكونية بقيام القيامة، حين يوجد كون جديد بخصائص جديدة:

« يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ »

(إبراهيم: ٤٨)

ويكون المعنى تاما بذلك، ثم تستأنف آية مرور الجبال مر السحاب بيان ظاهرة كونية أخرى، يجمعها إلى ظاهرة الليل والنهار بعد السرعة في الحركة وما يترتب عليه من آثار ونتائج، سواء في حالة حركة الشمس الظاهرية، أو حركة الجبال، فكلاهما يردان إلى حركة الأرض التي تبلغ سرعتها حدا يخيل للإنسان معه أنها لا تتحرك في الحالتين.

وإن العقل الإنساني ليشده حين يتصور رحلة الظواهر الفلكية إلى أرضنا، وما تستغرقه من السنين الضوئية. والسنة الضوئية هي المسافة التي يجتازها شعاع من الضوء في سنة كاملة أي ٩٤٦٨ بليون (مليار) كيلومتر، إذ إن سرعة الضوء ثابتة دائمة، فإذا كانت المسافة بين القمر والأرض تصل إلى حوالي ٢٤٠ ألف ميل، فإن المسافات الكونية بوجه عام تعظم عن ذلك كثيرا، ولا تقاس عادة بالأميال وما إليها، إذ ستتصاعد الأرقام إلى حد يعسر معه تدوينها فضلا عن الإحاطة بها. فنحن فعلا على الأرض التي تقع على بعد ٣٠٠٠ سنة ضوئية من مركز المجرة، ويعني ذلك أننا إذا سرنا بسرعة ٣٠٠ كم في الساعة، فإنه يلزمنا ٢٣٣ مليون

سنة ضوئية لإتمام دورة واحدة حول الحقل المجري. وتستخدم الثانية الضوئية أيضا لقياس الأبعاد الكونية، وهي المسافة التي يقطعها شعاع من الضوء في الفضاء خلال ثانية واحدة، وتبلغ هذه ١٨٦ ألف ميل. والضوء الذي يصلنا من النجوم والكواكب يتألف من موجات كهرمغناطيسية، وهو سيالة من جزيئات ذات طاقة هي الفوتونات Photons، وتبلغ سرعتها ٣٠٠ ألف كم في الثانية. والمسافة التي يجتازها شعاع صادر من القمر لا يصل إلى أرضنا تقدر بما يستغرقه ذلك من زمن وهو ثانية وثلث تقريبا من الثواني الضوئية، بينما تقدر المسافة بين أرضنا والشمس بخمسمائة ثانية (حوالى ٨ دقائق)، والمسافة بين أرضنا وأقرب نجم إلينا بعد شمسنا المسمى Proxoma de Centature في حدود ١٤٠ مليون ثانية ضوئية، (أو أربع سنوات ضوئية). والمجرة المسماة أندروميد Andromede التي تعتبر من الأرض تفصلها ٢ مليون سنة ضوئية. والمجرة المعروفة بالطريق اللبني تضم ما بين مائة ومائتي مليار من النجوم، فماذا تكون في هذا المحيط الفلكي الخضم مجموعتنا الشمسية بكواكبها التسعة التي تطوف حولها ومنها أرضنا؟ وماذا تكون الأرض التي نعيش عليها؟ أما ما أمكن رصده من حافة الكون فيبعدنا ٤٠٠ مليون بليون(أو مليار) ثانية ضوئية، ومازالت هذه الحافة تجري مبتعدة في الفضاء الفسيح بسرعة يكفي لتخيلها القول بأن أجرامها تنطلق بسرعة تصل إلى ٥٠ ألف أو مائة ألف ميل في الثانية الواحدة، وعلاوة على ذلك فإن الكون من حولنا حافل بالطاقة وما سخره الله للإنسان من إمكانيات ومن موجات الراديو الكامنة حولنا (الموجة الحاملة) التي تضمن الإشارات الصوتية والبصرية، وتنقلها بسرعة الضوء، وهي التي أتاحت ظهور الراديو والتلفزيون.

فإذا انتقلنا من الأجرام الكبرى الفلكية إلى الأجرام الصغرى الذرية في المادة واجهتنا تلك الحركة المذهلة للإلكترونات داخل ذلك الحيز الدقيق غاية الدقة من المادة الذي هو الذرة، حتى إنه لو صفت عشرة ملايين ذرة لبلغ طولها ميليمترا واحدا. ويمكن مقارنة الذرة بالمجموعة الشمسية، إذ تتألف الذرة من نواة مركزية ذات شحنة كهربية موجبة، تدور حولها الإلكترونات ذات الشحنة السالبة، كما تدور الكواكب حول الشمس. ومن الذرات ما هو بسيط يتألف من نواة واحدة وإلكترون واحد كالهيدروجين، ومنها ما هو معقد التركيب يضم عشرات الإلكترونات، وبين النواة والإلكترونات يقوم فراغ فضائي. وفي الطبيعة ملايين الأنواع من الذرات المختلفة، واختلاف التراكيب من هذه الذرات في جزيء المادة يفسر اختلاف أنواع

المادة وأشكالها. وللذرات حركة ذاتية تتباين سرعتها حسب الحالة الفيزيائية للمادة صلبة كانت أو سائلة أو غازية. وقد أضاف علماء الفيزياء إلى تلك الحالات الثلاثة حالة أخرى رابعة، أسميت الحالة البلاسمية التي تظهر عندما تبلغ درجة حرارة الغاز ١٢٥٥° مئوية، وفيها تسبح الإلكترونات على نحو مضطرب، ولكن تبقى مع ذلك خاضعة للحقول الكهربية والمغناطيسية.

وتعمل البلايين من الخلايا الحية في أي عضو أو جهاز أو نسيج محدود من جسم الإنسان في حركة مذهلة. وينبض القلب بمعدل ٨٠ مرة في الدقيقة، أو ما يعادل مائة ألف نبضة في اليوم، و ٣ بليون نبضة في السنة. ويضخ القلب نحو ١٥ ألف لتر من الدم يوميا. أما بالنسبة للجهاز العصبي، وهو جهاز الاستقبال والانفعال، فإن فصي المخ على رأس هذا الجهاز يحويان أكثر من ١٣ بليون خلية، تسجل ما يصل إليها من أحاسيس ومعلومات عن طريق نوافذ الجهاز العصبي: السمع، والبصر، والذوق، والشم، وأحاسيس الجلد المختلفة. وهناك تيارات كهربية في تصاعد وانخفاض خلال بلايين الخلايا الحية، ويتدفق الأكسوجين ليغذي هذه الخلايا. وكل حركة من الجهاز العصبي قد حسبت طاقاتها بدقة، وانسابت من مراكز المخ شرارات كهربية إلى عضلات الإنسان، لتقوم بعمل ما مناسب للأحاسيس التي أثارت الخلايا العصبية، فأنتجت في خلاياه الداخلية تيارات نتيجة الانفعال، وجرت في أعصابه شرارات إلى عضلاته تثير العمل، وكل هذه الحركة الدائبة في أجرام الفلك وفي ذرات المادة وفي خلايا الإنسان والكائن الحي بوجه عام تنطق بتسبيح البارىء الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى:

« تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ » (الإسراء: ٤٤)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ

«وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ» (النور: ٤١)

«وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ» (الرحمن: ٦)

وتؤثر عوامل متعددة منها الحركة للأرض وطبيعتها وباطنها الملتهب بحكم أصلها وانفصالها عن الشمس على شكل الأرض وأطرافها ككل، كما تؤثر العوامل الجيولوجية الباطنية، وعوامل التعرية السطحية على وجه الأرض جزئيا، وتؤدي عوامل تتعلق بالتربة والمناخ إلى الجفاف والقحط أو امتداد الصحراء، كما تؤثر عوامل جغرافية ديموجرافية على توزيع البشر في أرجاء الأرض. وكل هذه العوامل الفلكية والجيولوجية والجغرافية والسكانية تجتمع دلالاتها في هذا القول الإلهي المجمل المعجز:

«أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ» (الرعد: ٤١)

«أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ» (الأنبياء: ٤٤)

كذلك أشارت آيات الكتاب الحكيم المحكم إلى انتظام سنن الكون واطرادها واستمرارها:

«لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» (يس: ٤٠)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الأنبياء: ٣٣)

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ » (إبراهيم: ٣٣)

وما أكثر الآيات التى أشارت إلى الاتساق والاتزان والانتظام في خلق الله بوجه عام:

« مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » (الملك: ٣ ـ ٤)

« ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » (الرحمن: ٥)

« وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ » (الرحمن: ٧)

« وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ » (الحجر: ١٩)

وما أكثر الآيات التي أشارت إلى الاطراد والاستمرار في سنن الكون ونواميس الوجود المادي والبشري:

« وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا » (الإسراء: ٧٧)

« وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا » (الأحزاب: ٦٢)

« فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا »

(فاطر: ٤٣)

ولم يفت رسول الله صلوات الله عليه، وهو محزون جريح القلب على فقد فلذة كبده إبراهيم، أن يعلم أمته ثبات سنن الكون واطرادها، ويثبت في وعيها أن لكل ظاهرة سببا صحيحا ينبغي الجد في البحث عنه لتعليل الظاهرة، كما ينبغي حجز النفس عن الجري وراء الظنون والأوهام، ومن ثم فإن الخسوف والكسوف آيتان من آيات الله في الكون الذي خلقه وقدر نواميسه تقديرا، وهذه لا ترتبط بموت إنسان أو حياته ولو كان فلذة كبد رسول الله، الحبيب إلى ربه القريب منه الذى أسرى به وعرج ليريه من آياته الكبرى.. يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته». ويسن لأمته صلاة الخسوف والكسوف سبيلا لاتصال المؤمن برب الكون عند الانفعال بظواهر الكون ودلائل إعجاز خلق الله.

وقد بين القرآن في جلاء أن في سنن الله الكونية ونواميسه المطردة الثابتة معجزة دائمة للمتأملين المتدبرين من ذوي البصر والبصائر وأولي الألباب والرشد:

« سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » (فصلت: ٥٣)

وأن هذه المعجزة الدائمة كافية للذين ينظرون ويتفكرون، وقد تكون لهم أشد غناء بحكم طوال بقائها واستمرار وجودها وإمكان تدبرها من المعجزة الموقوتة المفاجئة الصادعة القارعة:

« وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ
عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ
أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » (الأنعام: ٣٧ ـ ٣٨)

« وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾
لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ
ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ».

(الحجر: ١٤ ـ ٢٢)

« وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا
جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ». (غافر: ٧٨ ـ ٨٢)

« إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾»

(الجاثية: ٣ ـ ٦)

« تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ
وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »

(الإسراء: ٤٤)

ولقد سمى الله في كتابه ظواهر الكون ونواميسه «آيات»، كما سمى المعجزات والخوارق «آيات» أيضا، وفي هذا ما فيه من دلالة:

« قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى
ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ »

(يونس: ١٠١)

« وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » (يوسف : ١٠٥)

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ » (الأنبياء: ٣٢)

وتتوالى الآيات في صدر سورة الشعراء تستعمل «الآية» للخارقة الحسية الموقوتة وللظاهرة الكونية الدائمة، فيقول تعالى: « لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ »

(الشعراء: ٣ ـ ٤)

ثم يتوالى السياق بعد آيتين :

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ »

(الشعراء: ٧ ـ ٩)

كذلك فإن الفاصلة القرآنية من وحدات كتاب الإسلام المعجز هي أيضا آية، وكثيرا ما يقرن

الكتاب الكريم آيات الله في آفاق الكون بآيات الله في محكم تنزيله، ومن هذا القبيل ما ورد من ذكر النوعين من آيات الله متعاقبين في هذا السياق المعبر:

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »

(فصلت: ٣٩ ـ ٤٢)

وهكذا تقترن آيات الله وتتضافر فى الكون المشهود والكتاب المسطور المقروء .

والقرآن يفتح عين الإنسان وحسه ووعيه وفكره على ظواهر الكون ونواميسه في لمسات سريعة مجملة، محدودة معدودة، ويترك بعد ذلك لنفسه وإمكاناته وطاقاته أن تتوسع في المعرفة وتتعمق فى العلم. وإشارات القرآن مجملة خالية من زحام التفاصيل التي ترهق قارئ سفر التكوين مثلا كما ترهق عقله، إذ يحاول أن يوفق بينها وبين ما يكشفه العلم بمناهجه وأدواته. فالقرآن لا يزاحم العقل في مجال يستطيع أن ينهض بالعبء فيه كاملا. والإسلام يستحث جهود الإنسان وطاقاته بأن يقرر أن العلم بسنن الله في الكون، والكشف عن صنعه سبحانه،

وهو الذي أتقن كل شيء، والانتفاع بما أسبغه من نعم ظاهرة وباطنة وأعمال ما منح الإنسان من قدرات وطاقات هو عبادة لله وإشاعة لفضله وتحدث بنعمائه:

« إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ » (فاطر: ٢٨)

« وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » (العنكبوت: ٤٣ ـ ٤٤)

والقارىء لتفاصيل قصة الكون في كتابات علماء الفلك من المحدثين يزداد قلبه وفكره خشوعا لإشارات القرآن المجملة المحكمة المعبرة... وهذا هو السير جيمس جينز مثلا: لنرجع إلى الوراء في الزمن ٣٠٠٠ مليون نسمة، ثم لنسبح في الفضاء، ولنرقب السنين تمر بنا، إن السنين في ذلك الوقت لم تكن موجودة على وجه التدقيق، لأن السنة هي الزمن الذي تستغرقه الأرض لإتمام دورة كاملة حول الشمس، ولا أرض هناك في الوقت الذي قد صرنا إليه فقد عدنا إلى الوراء لا إلى ما قبل حلول الإنسان في الأرض فحسب، ولكن إلى ما قبل وجود أي أرض يصح أن يطأها إنسان... والآن ونحن نرقب أحداث هذه القصة العظيمة قد نلحظ نجما خاصا هو شمسنا تقع له حادثة غير عادية، يقترب منه نجم آخر اقترابا لم يسبق لأي نجم قط أن اقتربه، فينشىء فيه مدوداً أعلى من أي مد أنشىء فيه من قبل، مدودا كجبال عظيمة من غاز ناري تسير فوق سطح الشمس. وأخيرا يزداد اقتراب النجم الثاني من الشمس، وفيما هو يقترب هكذا تصير قوة جاذبيته من العظم بحيث تنتزع قمة الموجة المدية من الشمس وتتكاثف ذاتها قطرات، هذه القطرات هي السيارات، والأرض واحدة من أصغرها. وهي في أول الأمر تكون كتلة فوضى من غاز ناري، لكنها تأخذ تبرد فيستحيل وسطها إلى السائل، ثم تصير بمرور الزمن إلى درجة من البرودة تتكون معها قشرة صلبة على سطحها. ثم بعد ذلك

إذا ما ازدادت برودتها يبدو على هذه القشرة الصلبة ظاهرة جديدة عجيبة: تأخذ طوائف من الذرات تتحد، فتكون هيئات منظمة متماسكة من النوع الذي لم نعرف شيئا عن طبيعته ولا عن الطريقة التي ظهر بها لأول مرة فى الوجود يسمى الحياة.. ومهما تكن هذه الحياة فإنه تبدي مقدرة غريبة على تكرار نفسها، وفيما هي تفعل ذلك نجدها تكون على الدوام هيئات تزداد في التعقيد على مر الزمن، وفي النهاية نرى أنفسنا واقفين عند أبعد نقطة بلغها الزمن في إماطة اللثام عن نفسه، إذ تمثل أعقد الكائنات الحية التي تولدت للآن على سطح الأرض. (النجوم في مسالكها ـ ترجمة د. أحمد عبدالسلام الكرداني ـ ط ٢ ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ص: ٤٧، ١٤٢، ١٤٣).

وهذه كلها تفاصيل لم يعرض لها القرآن بطبيعة الحال، وليس من شأنه أن يعرضها، إذ هو كتاب هداية للإنسان فيما يعجز عنه عقله، وليس كتابا يختص بمباحث العلم التى يمكن لعقل الإنسان أن يضطلع بها وحده كما أشار حديث رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعلم بشئون دنياكم». ولكن يستطيع الذي يتعرف على الحقائق الفلكية التي توصل إليها العلماء بمناهجهم ووسائلهم، والتي أجمل عرض بعضها السير جيمس جينز فيما سلف أن يتدبر روعة الآيات المجملة المحكمة في الكتاب الحكيم التي تقرع الحس والفكر، إذ يقول سبحانه:

« ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ
إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ
سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْعَلِيمِ » (فصلت: ١١، ١٢)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ » (هود: ٧)

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء: ٣٠)

ويعرض باحث عربي معاصر هو قدري حافظ طوقان ملامح من «الكون العجيب» في كتيب صغير لطيف ممتع نافع، وقد كان مما احتواه هذه الحقائق: «والواقع أن للشمس حركة حول محورها، ولكن ليس لها حركة في الفضاء تشابه حركة الأرض، فهي لا تدور حول نجم من النجوم مثلا، بل إنها تتحرك كما تتحرك بقية النجوم، وتسير في الفضاء وبسرعة ٧٥٠ ميلا في الدقيقة أو ما يزيد على مليون ميل في اليوم. ولا نعني أن الشمس وحدها تسير بهذه السرعة، فهناك سياراتها وتوابعها والنجميات وكل ما في النظام الشمسي يسير معها بهذه السرعة» ص: ٤٨.

وصدق الله العظيم : « وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (يس: ٣٧ ـ ٤٠)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (الأنبياء: ٣٣)

ثانيا : وجه الأرض : لمحات في التضاريس والطبقات :

تتعدد آيات القرآن التي تجلي ملامح وجه الأرض المتباينة:

« وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (الرعد: ٣ ـ ٤)

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا

طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (النحل: ١٣ ـ ١٥)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

(فاطر: ١٢)

« مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ »

(الرحمن : ١٩ ـ ٢٠)

«... وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا » (النمل: ٦١)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ
مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (فاطر: ٢٨)

« وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا
مُعْرِضُونَ » (الأنبياء: ٣٠ ـ ٣١)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (الحج: ٦٥)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ
فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾
فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ »

(المؤمنون: ١٨ ـ ١٩)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ »

(السجدة: ٢٧)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ »

(الزمر: ٢١)

« أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا »

(المرسلات: ٢٥ ـ ٢٧)

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ »

(النازعات: ٢٧ ـ ٣٣)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » (نوح: ١٩ ـ ٢٠)

« وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ » (الذاريات: ٤٨)

وتتعدد آيات القرآن التي تجلي ملامح وجه الأرض المتباينة من سهول وجبال، وتعرض لأنواع التربة والصخور. يقول عز من قائل في الأرض وسهولها ووديانها ومسالكها:

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »، (الزخرف: ١٠)،

« وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ » (الذاريات: ٤٨)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » (طه: ٥٣ ـ ٥٤)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » (نوح: ١٩ ـ ٢٠).

وقد يسر الله أسباب الانتقال والاتصال في البر والبحر:

« وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ » (الإسراء: ٧٠)

وتعددت إشارات القرآن إلى الجبال:

« وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا » (النازعات: ٣٢)

ومنها ما يكون شاهق الارتفاع:

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ » (المرسلات: ٢٧)

والجبال على وعورتها وقاء من الحرارة والريح ومن مخاطر البشر أحيانا:

« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا » (النحل: ٨١)

وقد أشارت آية كريمة إلى ممرات الجبال ومسالكها بصفة خاصة:

« وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ »

(الأنبياء: ٣٠)

وتشير هذه الآيات التالية إلى السهول والجبال والأنهار، وإلى اختلاف أنواع التربة وآثار كمية الماء على النبات:

« وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ

ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ
مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ
وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (الرعد: ٣ ـ ٤)

« فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا
لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ..... كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ
أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ
فَطَلٌّ » (البقرة : ٢٦٤)

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأرض التي تمسك الماء وتنبت الكلأ، وإلى أخرى تمسك الماء فينتفع به ولا تنبت الكلأ، وثالثة رملية لا تمسك ماء ولا تمسك كلأ وضرب المثل بذلك على الهدى يسوقه الله إلى قلوب متباينة.

كذلك يشير القرآن إلى تباين الصخور وألوانها :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (فاطر: ٢٧ ـ ٢٨)

وقد تصيب القشرة الأرضية تغيرات فتنخفض جهة وترتفع أخرى من عوامل باطنية أو بفعل عوامل التعرية السطحية:

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ » (الإسراء: ٦٨ ـ ٦٩)

وقد تعددت الآيات التي تشير إلى الخسف، وهو وإن حدث عقوبة من الله لقوم على ذنوبهم فلا مانع أن يحدث ذلك بمقتضى ظاهرة كونية عادية كالـزلازل والبـراكين وطغيان البحـار وانخفاض اليابس بفعل التواء في القشرة الأرضية أو غير ذلك:

« ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ » (الملك: ١٦ ـ ١٧)

« أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ »

(النحل: ٤٥)

وإلى جانب الخسف بفعل عوامل باطنية للقشرة الأرضية فقد تأتي الشهب وتهبط قطع من أجرام سماوية على الأرض من أعلى فتحدث دمارا وهلاكا:

كقوله تعالى: « أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ »

(سبأ: ٩)

« وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا »

(الجن: ٨)

كما تأتي الصواعق من العواصف الرعدية:

كقوله تعالى: « وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ »

(الرعد: ١٣)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » (البقرة: ١٩)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ .... فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ .... فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ » (فصلت: ١٣ - ١٨)

وقد أودع الله الأرض كنوزا من المعادن والأحجار الثمينة قليلة الوجود عسيرة الاستخراج أو الأحجار الوفيرة الميسورة الرخيصة النافعة، وقد أشار القرآن للحديد:

« وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ »

(الحديد: ٢٥)

وللنحاس :

« وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » (سبأ : ١٢)

كما أشار لاستخدام الصخور في النحت والتشييد :

« وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ » (الشعراء: ١٤٩)

« وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ » (الحجر: ٨٢)

« تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »

(الأعراف: ٧٤)

« وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ » (النساء: ٧٨)

« فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ » (الحج: ٤٥)

وأشارت آيات القرآن المتعددة إلى الغلاف المائي، ومنها إشارة معبرة إلى الماء لها دلالتها على الزمن المبكر لوجوده، وذلك في الآية التر عرضت لانفصال الأرض عن السموات:

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء: ٣٠)

وثمة آية أخرى لها دلالتها أيضا في هذا المجال، وهي قوله تعالى:

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (هود: ٧)

وعرضت الآيات لمياه البحار والأنهار وثمراتها ومنافعها:

« وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (النحل: ١٤ ـ ١٥)

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

(فاطر: ١٢)

« وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ »
(القمر: ١٣)

وأشار القرآن إلى ما يستخرج من البحر من روائع إفرازات كائناته:

« يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »
(الرحمن: ٢٢ - ٢٣)

وللقرآن وصف بالغ الروعة لاضطراب البحر، نزل على أمة من الناس لم يتعاملوا مع البحر إلا قليلا، ولم يخبروا أنواءه وعواصفه:

« أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا »
(النور: ٤٠)

« هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ». (يونس: ٢٢ ـ ٢٣)

« وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ » (هود: ٤٢)

وأوضح القرآن كيف تحفظ نواميس الله الكونية المياه العذبة من الاختلاط بالمياه المالحة رغم تعدد مصبات الأنهار في البحار والمحيطات:

« مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ »

(الرحمن: ١٩ ـ ٢٠)

« وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا » (النمل: ٦١)

وأبرزت الآيات أهمية المياه الجوفية التي تختزن في باطن الأرض:

« وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ » (المؤمنون:١٨-١٩)

« أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ » (الزمر: ٢١)

« وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ » (يس: ٣٤)

وأبرز القرآن ارتباط الماء في أصله بالأرض حتى لو تبخر وتكاثف وعاد إلى الأرض مطرا:

« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا »

(النازعات: ٣٠ ـ ٣١)

وأوضحت الآيات ضرورة الماءة للحياة والأحياء من نبات وحيوان وإنسان:

« وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ » (الأنبياء: ٣٠)

« أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا
نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ » (السجدة: ٢٧)

« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾
مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » (النازعات: ٣٠ ـ ٣٣)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا
وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا » (النبأ: ١٤ ـ ١٦)

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » (عبس: ٢٤ ـ ٣٢)

« وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا » (المرسلات: ٢٧)

ويحيط بالأرض الغلاف الجوي ثم الفضاء ولعل هذا ما يعبر عنه بالسماء بلفظ المفرد في آيات القرآن والله أعلم:

« ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ » (النازعات: ٢٧ ـ ٢٩).

« وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ » (الأنبياء: ٣١)

وقد حفظت قوانين الغازات ومدى كثافة الغازات التي تكون الغلاف الجوى وجاذبية الأرض

العلاقة بين الغلاف الجوى والأرض، وسبحت الكواكب في الفضاء، وانتظمت مدارتها وعلاقاتها وفق قواعد محكمة لا تحيد، كما كفل قانون الطفو الإفادة من الغلاف المائي في تسيير السفن:

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ »

(الحج: ٦٥)

وقد أشارت الآية الكريمة في جلاء إلى ملاءمة الضغط الجوي للإنسان على الأرض ومواجهته العناء عند الصعود إلى طبقات الجو العليا، وهو ما استخرجه بحق الميتورولوجي المسلم الأستاذ محمود حامد ـ رحمه الله ـ من قوله تعالى:

« وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ »

(الأنعام: ١٢٥)

ودلالة الآية واضحة حقا دون أي اعتساف في التأويل، وهي تشبه الضغط النفسي للضلال بالضغط الحسي الذي يتعرض له الصاعد إلى الطبقات العليا عندما يخف الضغط الجوي الواقع على جسمه عما في داخل هذا الجسم من ضغط.

وقد أشار القرآن إلى تباين الحرارة باختلاف الفصول والأمكنة، وإلى ميزة اعتدالها بقوله عز من قائل:

« وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ » (فاطر: ١٩ ـ ٢١)

« لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا » (الإنسان: ١٣)

وأشارت آية من الكتاب المبين إلى أثر الارتفاع في تناقص درجة الحرارة وما يتبع ذلك من تجمد قطرات المطر، فقال الحق سبحانه:

« وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ » (النور: ٤٣)

كما بين تبارك وتعالى كيف يواجه الإنسان تقلبات الحرارة باللباس والمسكن:

« وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » (النحل: ٥)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ
سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا
وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم

مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ »

(النحل: ٨٠ ـ ٨١)

وقد عرض القرآن للرياح بآثارها النافعة والضارة:

« إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ »

(البقرة: ١٦٤)

فالرياح تدفع السفن، وتحمل المطر، وتلقح النبات:

« حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ »

(يونس: ٢٢)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا

فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن
مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ »

(النور: ٤٣ ـ ٤٤)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ
أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(الروم: ٤٨ ـ ٥٠)

« وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ

ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » (الأعراف: ٥٧)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ »
(الروم: ٤٦)

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا » (الفرقان: ٤٨ ـ ٤٩)

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ » (الحجر: ٢٢).

على أن الرياح قد تكون جافة عقيا خلوا من بخار الماء، تسفي الغبار والرمال، وقد تشتد فتأتي العواصف والأعاصير على الحرث، وتؤذي الحيوان والإنسان أو تهلكها أحيانا، كما قد تكون العواصف رعدية تصم الآذان، وبرقها يخطف الأبصار، أو تأتي مقترنة بالسيول الجارفة المدمرة:

« وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ » (الروم: ٥١)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (البقرة: ١٩ ـ ٢٠)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا » (الروم: ٢٤)

« هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ » (الرعد: ١٢ ـ ١٣)

« فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ » (البقرة: ٢٦٦)

« كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ » (آل عمران: ١١٧)

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ » (الشورى: ٣٢ ـ ٣٤)

« هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ »

(يونس: ٢٢)

« وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ » (لقمان: ٣٢)

وقد تكون الرياح العاصفة وآثارها المهلكة من جنود ربك التي يرسلها على القوم الظالمين:

« ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ » (فصلت: ١٦)

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ »

(الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥)

« وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ »

(الذاريات: ٤١ ـ ٤٢)

« إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » (القمر: ١٩ ـ ٢١)

« وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ » (الحاقة: ٦ ـ ٨)

« فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ » (القلم: ١٩ ـ ٢٠)

« فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ » (سبأ: ١٥ ـ ١٦)

وقد تكون العقوبة الإلهية ظاهرة طبيعية، لكن شاء الله أن يوجهها إلى قوم بأعيانهم، ولا يشترط أن تكون في أصلها خارجة عن السنن، فالله هو الذي يرسل الرياح، وله الخلق والأمر، وما يعلم جنود ربك إلا هو:

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا »

(الأحزاب : ٩)

« أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا »

(الإسراء: ٦٨ ـ ٦٩)

وتشير الآية الأخيرة إلى ما أصبح من المقررات الجغرافية من أن حالة سطح الأرض بعيدة عن الثبات، فعوامل التعرية والتحات تعمل في السطح، والعوامل الباطنية تحدث الالتواءات والانكسارات والزلازل والبراكين، وهكذا قد يغير النهر مجراه، ويختط طريقا مائيا في اليابس، بينما يجف وييبس مجراه القديم، وما يحمله النهر من ذرات اليابس له أثره على نحته وإرسابه، وعلى قاعه وجانبيه ومصبه، ولمياه البحر مد وجزر، وللصخور أعمار، ومجرى النهر، قد يوصف بالفتوة أو الشيخوخة، وللجبال دورها، وللأنهار دورها. وقد أشار القرآن إلى التغيير الدائب في خلق الله، فسبحان من له الدوام:

« كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

(القصص: ٨٨)

وهكذا أشارت الآيتان سالفتا الذكر من سورة الإسراء إلى خسف جانب البر وربما كان ذلك بعوامل باطنية، أو بطغيان الماء على اليابس وتراجع الشاطئ.

ثم أشارت إلى ارتفاع ما خسف من البر، وعودة الإنسان إليه، وتعرضه للرياح والسيول والماء سابق في تسلسل خلق الله:

« وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ » (هود: ٧)

وقد امتد على قشرة الأرض وهو يتبخر بفعل أشعة الشمس، صاعدا إلى طبقات الجو العليا، فتحمله الرياح، فإذا صادف البخار برودة تكاثف وسقط مطرا على الأرض من جديد، وقد يتغلغل الماء إلى جوف الأرض، فيكون خزانا تحت سطحها، وقد ينبثق ينبوعا أو يتوصل إليه الإنسان إذا حفر بئرا:

« أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا » (النازعات: ٣١)

فعوامل التغيير في باطن الأرض وعلى سطحها وفي الكون كله تعمل، ولكن وفق قوانين تكفل الانتظام والتوازن والتناسق، حتى يأذن الله بنهاية الدنيا، فتنشق السماء وتنفطر، وتكور الشمس، وتنكدر النجوم، وتنتثر الكواكب، وتفجر البحار وتسجر، وقد أوضح الله في آية منيرة هادئة من كتابه المعجز كيف يقترن في سنن الله التغيير المادي والاجتماعي، وكيف ينبغي أن ينتفع الإنسان قدر طاقته من هذا التغيير:

« أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ
مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ » (الرعد: ١٧)

وثمة آية في كتاب الله لها دلالتها بالنسبة للتغير الجغرافي والديموجرافي على السواء:

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » (الرعد: ٤١)

« أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ » (الأنبياء: ٤٤)

وثمة آيات تشير في وضوح إلى التغيرات السكانية والتطورات الاجتماعية والدورات الحضارية على الأرض:

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ » (ق: ٤)

« أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » (الأنعام: ٦)

« أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ »

(الأعراف: ١٠٠)

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ »

(طه: ١٢٨)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ » (غافر: ٨٢)

« فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ » (الحج: ٤٥)

« كَمْ تَرَكُوا

مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾

وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا

ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ » (الدخان: ٢٥ ـ ٢٩)

وقد يسوق القرآن آياته في هذا الصدد مساق القوانين المجردة الثابتة المطردة:

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً

وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (الأعراف: ٣٤)

« وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَـٰلَكُم »

(محمد: ٣٨)

« وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ » (آل عمران: ١٤٠)

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم

بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

ٱلْعَـٰلَمِينَ » (البقرة: ٢٥١)

ثالثا : الحياة على الأرض والبشر سكان هذا الكوكب :

أشار القرآن الكريم إلى الحياة وتوفير العوامل الضرورية لها منذ خلق الأرض وانفصالها عن السموات :

« أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ » (الأنبياء: ٣٠)

« * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ » (فصلت: ٩ ـ ١٠)

وقد وفرت القدرة الإلهية للأرض غلافها المائي وغلافها الجوي، مما كفل أهم مقومات الحياة على سطحها، فضلا عما وفرته من ظروف أخرى ضرورية وملائمة لهذه الحياة، وبخاصة حياة الكائنات العليا والأحياء، وأرقاها الإنسان.

وقد أشار القرآن إلى تعدد أنواع الكائنات الحياة :

« وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ

أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ »

(النور: ٤٥)

وتعبير «دابة» الذي يستعمله القرآن يمكن أن يوجه إلى وصف الكائن الحي بإطلاق دق أو عظم، ولا يشترط أن يكون دابة الركوب كما يتبادر إلى الذهن، فالآية الكريمة السابقة قد استعملته لما يمشي على بطنه وما يمشي على رجلين، وليس هناك مانع من الوجهة اللغوية البحتة لأن يتسع لفظ (الدابة) للفيروس والميكروب والجرثومة، فإن «الدبيب» قد يشير إلى علامة الحياة بإطلاق، وهي الحركة التي تكون ضئيلة أو مستخفية. ومن استعمالات العرب لهذا اللفظ ذات الدلالة في هذا المقام قولهم: «دب السقم في الجسم أو البلى في الثوب، أي سرى. ويقال: دبت عقاربه، أي سرت نمائمه وأذاه. والدبوب والديبوب: النمام الذي يدب أذاه، ودب دبا ودبيبا: مشى كالحية وعلى اليدين والرجلين كالطفل. يقولون: هو أكذب من دب ودرج، أي أكذب الأحياء والأموات، والديب : ولد البقرة أو ما تلده، والدبيب : كل داب، والدابة: مؤنث الداب، يقع على المذكر والمؤنث، والتاء فيه للواحدة تصغيره: الدويبة، مادب من الحيوان، وغلب على ما يركب ويحمل عليه، والدباب: الضعيف الذي يدب في المشي أو الشديد. الدبيب والدبب : الزغب أو كثرة الشعر، والإدب: ذو الدبب، وهو الجمل الكثير الشعر. فالمادة اللغوية كما ظهر في جلاء تتسع لدبيب السقم في الجسم والبلى في الثوب، ودبيب الشر والأذى، والمشي كالحية والطفل والمشي الضعيف والزغب الضئيل، بل هي تتسع للتعبير عن الحياة بإطلاق في قولهم: «من دب ودرج»، أي الأحياء والأموات، إذ يقال: درج القوم واندرجوا، أي انقرضوا وماتوا.

ويستأنس لذلك بما ذهب إليه المفسرون في تفسير الدابة، حتى جعلوها تشمل الملائكة أيضا، ففي قوله تعالى:

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ » (الشورى: ٢٩)

قال ابن كثير في تفسير: (وما بث فيهما من دابة): «هذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض». فهل يبعد عن هذا القول بأن الدابة تشير إلى مختلف الكائنات الحية بإطلاق.

وقد تعددت إشارات القرآن لأنواع متعددة من الدواب أو الأحياء، من نبات وحشرات وطير وحيوان، حتى تنتهي إلى الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأشار رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم إلى ما دون ذلك من كائنات تدق عن ذرات الغبار وتندس بينها، فقال: «اتقوا الغبار فإن فيه النسمة». ونهى عليه صلوات الله وسلامه عن التنفس في الإناء، وتحدث صلى الله عليه وسلم عن العدوى، وإن لم يفصل عواملها وكيفيتها، فقال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»، «إذا سمعتم بالطاعون في بلد فلا تدخلوه، فإن كنتم فيه فلا تخرجوا منه».

وعرض الكتاب المعجز لحياة النبات، وهو غذاء هام لغيره من الأحياء وعلى رأسها الإنسان، ولفت القرآن النظر إلى انبثاق الحياة عن انفلاق البذرة:

« ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ »

(الأنعام: ٩٥)

وأشار إلى مكان البذرة داخل التربة لتتغذى منها بما يحمله إليها الماء، وإلى توريق النبات وسائر مراحل الإنبات المتتابعة حتى الإثمار فالذبول والموت:

« وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ

إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ

وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » (الأنعام: ٥٩)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ

يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ

يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ » (الزمر: ٢١)

« وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ

حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ

مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ

ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (الأنعام: ٩٩)

« هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ
ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (النحل: ١٠ ـ ١١)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ
فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾
فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا
فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ
سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ »

(المؤمنون: ١٨ ـ ٢٠)

« زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ » (النور: ٣٥)

« وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ
أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا

جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ »

(يس: ٣٣ ـ ٣٥)

« وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا »

(النبأ: ١٤ ـ ١٦)

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا
صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾
مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »

(عبس: ٢٤ ـ ٣٢)

« وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » (الرحمن: ١٠ ـ ١٣)

وإن ما يجود النبات وثمراته بجودة البذرة، وليس فقط بتوفير غذائه من الماء والتربة:

« وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (الرعد: ٤)

وقد تهيأ ظروف الإنبات في بعض صخور الجبال، تحمل اليها الريح بذرة:

« يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ ». (لقمان: ١٦)

وإلى جانب البذرة والماء والتربة، للرياح دورها في حياة النبات:

« وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ » (الحجر: ٢٢)

وقد أشار القرآن إلى الزوجين أو التأنيث والتذكير في النبات، وهو ما يستلزم حدوث التلقيح:

« وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ » (الرعد: ٣)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ » (طه: ٥٣)

« سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » (يس: ٣٦)

« وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ » (ق: ٧)

« وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ » (الحج : ٥)

ولخضرة النبات أثرها في إمداده بالطاقة ، وإمداد الإنسان أيضا بوسيلة للحرارة والضوء:

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ » (يس: ٨٠)

وهكذا تتضافر عوامل طبيعية متعددة لتحقيق حياة النبات واستمرارها إلى أجلها الموقوف، إلى جانب عوامل بشرية اجتماعية تعين على التنمية والإنتاج:

« وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا

يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ »

(الأعراف: ٥٨).

فلقد هيأ الله للنبات عوامل تعين على انتصاب ساقه منذ انفلاق بذرته، وصموده أمام جاذبية الأرض وضغط التربة والماء والجو ودفع الريح وأثناء استمرار حياته، ومغالبته عوادي الحرارة والجفاف والآفات قدر إمكاناته، فيورق ويزهر ويثمر، ويحقق النبات رغم طفولته اللدنة الغضة الرخصة توازنا ميكانيكيا وكيائيا مذهلا، منحه إياه الذي خلق كل شيء بقدر، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وصدق الله العظيم:

« وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ »

(الحجر : ١٩)

وتتباين أنواع النبات وألوانه وأشكال نموه :

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ »

(النحل: ١٣)

« ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ
كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ »

(الأنعام: ١٤١)

وقد تكون الجنات المعروشات وغير المعروشات على ما قال المفسرون ما يزرعه الإنسان بيده، وما يخرج من نبات فطري بري بغير تدخل الإنسان وجهده.

كذلك عرض القرآن نماذج من الكائنات الحية الضئيلة المعروفة بالحشرات وصورا من حياتها وسلوكها، تبين كيف تضطلع أعضاؤها بوظائف حفظ حياتها وكفالة حاجاتها، وحمايتها من المخاطر التي تعرض لها بالصورة الملائمة لحجمها وطبيعتها وظروف معيشتها:

« كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ » (العنكبوت: ٤١)

وقد زود الله هذه المخلوقات الضئيلة بقدرات دفاعية بل هجومية أحيانا:

« وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ » (الحج: ٧٣)

والذباب قد يسلب الإنسان عافيته كما علمنا بعد قرون من نزول القرآن، فلا عجب إذن أن تكون هذه المخلوقات المحتقرة مضربا للأمثال:

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ

« أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا » (البقرة: ٢٦)

ذلك أن بديع صنع الله يتجلى في البعوضة والذبابة مثلما يتجلى في الجمل والفيل.

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ » (الحج: ٧٣)

وصدق الله العظيم:

« قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ »

(طه : ٥٠)

ولقد وصف الحق وجل وعلا قدرته المعجزة فى كتابه بعد كلامه عن خلق الذباب وهو أن الإنسان أحيانا إلى جانب الذباب الذي يقوى على سلب الإنسان مالا يستنقذه منه:

« ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ »

(الحج: ٧٣ ـ ٧٤)

ويبين القرآن أن لهذه الكائنات الدنيا لغة تتخاطب بها، وإن كنا لا نسمع أصواتها أو لا نفهم دلالاتها، ولكن يستطيع ذلك من حباه الله بوسائله:

« حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ

«... صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ».

(النمل: ١٨ ـ ١٩)

بل إن من هذه الحشرات الضئيلة ما يهيىء بما فطره الله عليه من غرائز ووظائف وسلوك منظم محكم دقيق منافع جليلة للإنسان:

«وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

(النحل: ٦٨ ـ ٦٩).

ويوجه القرآن النظر إلى اختلاف ألوان الأحياء وأنواعها:

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ».

(فاطر: ٢٨).

ويشير القرآن إلى تعدد فصائل الحيوان والطير:

«وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ».

(الأنعام: ٣٨).

ثم تبرز الآيات كيف وهب الله الطير من شكل الجسم وأعضائه، ومن الوظائف والقدرات والغريزة ما يعينه على الطيران:

« أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ
مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (النحل: ٧٩)

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ
إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ » (الملك: ٩)

وللطير لغته التي يتخاطب بها، ولقد كان من وظائف الطير التي هيأها الله له وكانت نافعة للإنسان، وما سخره الله لداود وسليمان عليهما السلام:

« وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ »

(الأنبياء: ٧٩)

« وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ
جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ »

(النمل: ١٦ ـ ١٧)

« وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩
* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ » (النمل: ٢٠ ـ ٢٨)

ولقد أدى الحمام الزاجل للبشر أجمعين طوال القرون مهمة الرسائل بين الجهات المتباعدة، لكنه اقتصر على ذلك، ولم يكشف عن مرئياته وخبراته كما فعل الهدهد سليمان عليه السلام، ولو فعل

لما فهم عنه الإنسان في يسر كما فهم عن الهدهد وغيره نبي الله الذي علم منطق الطير. وهكذا ينطق جسم الطائر وطيرانه وسائر وظائفه بإعجاز صنع الله الذي أتقن كل شيء

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ »

(النور: ٤١)

وإلى جانب ذلك فلطالما قدمت أنواع من الطير للإنسان على الأرض غذاء شهيا يأتيه منها في الآخرة مالا عين رأت، ولا خطر على قلب للبشر، كما يخبر الحق سبحانه:

« وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » (الواقعة: ٢١)

وقد أشار القرآن الكريم إلى الزواحف، وإلى الحيوانات بمعناها الأخص في سياق تعداده لأنواع الحيوان بوجه عام:

« وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(النور: ٤٥).

وقد يتسع معنى المشي على البطن لغير الزواحف من الكائنات الحية بشيء من التجوز. وقد أشارت الآيات الكريمة إلى تعدد فصائل الحيوان والطير:

« وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ »

(الأنعام: ٣٨)

« وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ »

(فاطر: ٢٨)

وتعددت الآيات من سورة الأنعام الضأن والمعز والإبل والبقر:

« وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ .... وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ »

(الأنعام: ١٤٢ ـ ١٤٣)

« وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ » (الزمر: ٦)

وقد أشارت الآيات إلى أن الله خلق الأنعام والحيوان بوجه عام كما خلق النبات أزواجا، وذكر القرآن أن هذه «الزوجية» و«الثنائية» هي سنة الله في كثير من خلقه مما نعلم وما لا نعلم:

« وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

(الذاريات: ٤٩)

« سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ » (يس: ٣٦)

« وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا » (الزخرف: ١٢)

وقد وجه القرآن النظر إلى أنواع الحيوان ومنافعها للإنسان، وبخاصة ما يعرف بالحيوانات الاقتصادية:

« وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ». (الأنعام: ١٤٢)

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا

بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾
وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ » (النحل: ٥ ـ ٨)

« وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ
مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ »
(النحل : ٦٦)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ
سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا
يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا
وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ » (النحل: ٨٠)

« وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا
وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيۡهَا
وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ » (المؤمنون: ٢١ ـ ٢٢)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً
فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ »

(غافر: ٧٩ ـ ٨٠)

وتعيش هذه الحيوانات الاقتصادية على الماء والنبات، كما قد يعيش غيرها على لحم حيوانات أخرى:

« وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا »

(الفرقان: ٤٩)

« أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا
نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ » (السجدة : ٢٧)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن

نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » (طه : ٥٤)

« وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾
مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ » (النازعات : ٣٠ ـ ٣٣)

وقد تعيش هذهٰ الحيوانات على مراعي طبيعية من الحشائش وثمار الغابات التي لم يزرعها الإنسان:

« وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ »

(الأعلى: ٤ ـ ٥)

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » (النحل: ١٠)

وقد يأكل الحيوان بعض ما يزرعه الإنسان كما أشارت الآية الكريمة:

« زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ » (السجدة : ٢٧)

وينتفع الإنسان من هذه الحيوانات ومن كل مركب يسخره الله له إلى يوم يلقاه، فيذكر نعمة الله عليه، ويحمده ويستهديه، ويسأله العافية في الدنيا والآخرة:

« وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ » (الزخرف: ١٢ ـ ١٤)

« وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ » (النحل: ٨ ـ ٩)

« وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(النحل: ١٨)

والقرآن يرهف إحساس المرء بالجمال في شتى الكائنات، سواء كانت من الطبيعة غير الحية أو من عالم الأحياء، إلى جانب إحساسه بعظمتها ودقة تركيبها وإحكام صنعها وأداء وظائفها:

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ » (الملك: ٥)

« إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ » (الصافات: ٦ ـ ٧)

« فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ
مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ
وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ » (فاطر: ٢٧ ـ ٢٨)

« وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ » (النحل: ١٣)

« يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ » (النحل: ٦٩)

والإنسان يستخدم حيوان الركوب للانتقال والتزين معا:

« وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » (النحل: ٦)

« وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً » (النحل: ٨)

ونصل إلى الإنسان الذي أحسن الله صورته :

« لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » (التين : ٤)

« وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ »

(غافر: ٦٤)، وانظر أيضا التغابن (٣)

« ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ » (الأنفطار ٧ ـ ٨)

والإنسان أرفع الأحياء :

« ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »

(السجدة: ٧ ـ ٩)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ

مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى
فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ

(الحجر: ٢٨ ـ ٢٩)

وهكذا يسمو الإنسان على مجرد الوجود البيولوجي، بما نفخ فيه الله من روحه، ووهبه من طاقات وقوى. ويشير القرآن إلى كيان الإنسان البيولوجي وتطور خلقه ونموه، ويقرن ذلك أحيانا بذكر النبات والحيوان، إذ يجمع الجميع الحياة من الوجهة البيولوجية، وإن كان الإنسان أعقد تركيبا وأرقى أعضاء وأجهزة ووظائف وطاقات:

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ
خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا
ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ
ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ »

(المؤمنون: ١٢ ـ ١٦)

« خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ » (العلق: ٢)

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾
يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ » (الطارق: ٥ ـ ٧)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ
فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن
مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ
مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟
أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ
يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

(الحج ٥ ـ ٦)، (وانظر أيضا النحل ٧٠)

« خَلَقَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ

ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ » (الزمر: ٦)

« وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ » (فاطر: ١١)

« ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ » (الروم: ٥٤)

ويستمر النوع الإنساني على الأرض عن طريق تزاوج الذكر والأنثى وما يأتي من نسلهما:

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ »

(النحل: ٧٢)

« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » (الفرقان: ٥٤)

« لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ »

(الشورى: ٤٩ ـ ٥٠).

أما ما رفع الإنسان عن مجرد الوجود البيولوجي فإنها روح الله التي نفخ سبحانه في الإنسان منها:

« فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ »

(الحجر: ٢٩)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »

(الاسراء: ٨٥)

وقد وهب الإنسان طاقة تتجاوز الإدراك الحسي المباشر للعمليات الفكرية العليا، بما فيه من ربط واستنتاج وتخيل وطاقة على العبير بالكلام واللغة التي تعكس فكره الراقي:

« وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ

إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ

أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ

إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ

تَكْتُمُونَ » (البقرة : ٣١ ـ ٣٢)

وقد منح الله آدم وبنيه القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ، والقدرة على الاختيار والإرادة على العمل، وهكذا لم يكن الانسان تكرارا للملائكة:

« لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ »

(التحريم: ٦)

ولا الحيوان الذى تحكمه الغريزة حكما مطلقا، فلا تخرج استجاباته للمؤثرات عن نسخة واحدة مكرورة في نفس الظرف بين مختلف الأفراد جيلا بعد جيل:

« وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ

ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن

كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ » (النحل: ٦٨ ـ ٦٩)

وإنما خلق الإنسان كائنا مختارا مميزا للخطأ والصواب، له إرادة وعليه مسئولية:

« وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَنْ زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّىٰهَا » (الشمس: ٧ ـ ٩)

وكما أن الإنسان ليس ملكا معصوما فهو ليس أيضا شيطانا رجيما هبط إلى الأرض، تطارده لعنة خطيئة أبي البشر آدم عليه السلام، فقد عصى آدم به، لكن تاب الله عليه قبل نزوله إلى الأرض، وإنما هبط مغفورا له مهديا ونبيا كريما:

« فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ
فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا
مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (البقرة: ٣٦ ـ ٣٨)

« وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ »

(طه: ١٢١ ـ ١٢٣)

وإذا عطل الإنسان مقوماته وطاقاته العليا، وألقى فكره وتمييزه وإرادته، وعاش على المستوى البيولوجي يأكل ويتناسل، فإن وجوده لا يختلف أو يزيد عندئذ عن سائر الحيوان...

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ
لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ »

(الأعراف: ١٧٩)

« أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ
هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ
هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا »

(الفرقان: ٤٤)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »

(الأعراف : ١٧٥)

وقد يبلغ مسخ الإنسان أن تلغى طبيعته الإنسانية تماما:

« فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ »

(الأعراف: ١٦٦)

هذه لمحات قرآنية عن الحياة والأحياء على الأرض، فهل عرض القرآن لاحتمالات الحياة على الكواكب الأخرى؟ هذا أمر يفصل فيه العلم بمناهجه ووسائله وأدواته، فالقرآن الذي سنعرض بعد قليل لمنهجه في الإشارة إلى ظواهر الكون وسننه لا يقدم المعارف الكاملة المتاحة بحيث يسد الطريق بمقولاته وتقريراته النظرية على البحث التجريبي، بل يلح على الملاحظة والنظر والتأمل والتدبر والخبرة المباشرة، على أن القرآن يسوق بصورة عامة ما يمكن أن يتسع لوجود حياة وأحياء في كواكب أخرى إذا رجحت احتمالات العلم ذلك، أو توصلت إلى إثبات قاطع له. يقول تعالى:

« وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا

«... مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ »

(الشورى: ٢٩)

والله أعلم بمراده من كلمتي (السموات) و(دابة)، وأعلم بحقيقة ما بث من دابة في السموات والأرض، وهل جاء ذلك في مجموعها بحيث يصدق على بث الدابة في أي من السموات والأرض دون اشتراط كليهما، أو جاء ذلك في جميعهما بحيث يتفرق ما بث من دابة على كل من السموات والأرض على حدة؟. والله أعلم بمراده والتأويل الحق لكلامه.

رابعا: وجهة الإسلام في ولاء الإنسان لموقعه من الأرض:

يألف الإنسان ما نشأ عليه من أرض، ويزيد في توثيق ارتباطه أنها تضم أهله وعشيرته من جهة، وتجتمع فيها مصالحه، وتأتي منها مكاسبه. والإسلام لا يقتلع الإنسان من المشاعر الفطرية، ولكنه يحول دون الغلو والشطط فيها. فهو يربط الإنسان بربه ودينه قبل كل شيء، كما يربط الأرض أيضا بالله الذي فطرها وبرأها. ويؤكد في هذا المقام أن الإنسان لن يخلد على أي موقع من الأرض مهما تعلق به:

« يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ
أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ
ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » (العنكبوت: ٥٦ ـ ٥٧)

ويقرر القرآن في جلاء عالمية رسالة الإسلام وعدم ارتباطها بأرض معينة:

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ
بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ » (الأنبياء: ١٠٥ ـ ١٠٧)

وإنما يقوم هذا المبدأ على عقيدة راسخة في قلب المؤمن أن الأرض كلها لله أولا وأخيرا:

« إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » (الأعراف : ١٢٨)

« قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » (الزمر: ١٠)

ومن ثمار هذه العقيدة أن يتنقل المؤمن في أرض الله كلها عابدا إياه على أي بقعة منها بطلب رزقه وفضله، أو بالدعوة إلى دينه، أو للفرار بعقيدته دون استسلام لضغوط العاطفة أو المصلحة التي تشده إلى موقعه من الأرض الذي نشأ عليه:

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ
وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا
غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى
ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا »

(النساء: ٩٧ ـ ١٠٠)

وهكذا وجهت رسالة الإسلام للحركة في مواقع الأرض المختلفة تبعا لمتطلبات الدعوة إذا استنفذت المرحلة اللازمة لدعوة الأقربين، وأعذرت إلى الله والناس ببذل القدر من الجهد في المدى الملائم من الوقت:

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ
ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى

يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » (الشعراء: ٢١٤ ـ ٢٢٠)

وجندت دعوة الإسلام كل المؤمنين بها للتحرك إلى موقع التجمع والاحتشاد في المرحلة التي تستدعى ذلك:

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (الأنفال: ٧٢)

وبلغ من تقدير الإسلام للحركة التي تستلزمها دعوته العالمية للناس أجمعين أن خفف على المؤمن الصلاة ـ وهي عماد الدين ـ إذا ضرب في الأرض، وهكذا أعقب الآيات التي تتوعد الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، إذ كانوا مستضعفين في الأرض، وتبشر الذين يهاجرون في سبيل الله، بما يجدون في الأرض من مراغم وسعة ـ أعقب تلك الآيات من سورة النساء مباشرة قول الله في نفس السورة:

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ

أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا » (النساء: ١٠١)

وعلمت الآية التالية في السورة نفسها المؤمنين أحكام صلاة الحرب، ثم بينت علتها بيانا هو درس للمؤمنين في كل زمان ومكان:

« وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ » (النساء: ١٠٢)

فإذا عاد الإنسان إلى مستقره عاد حكم الصلاة الثابت الأصيل دون تفريط أو تهاون:

« فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا » (النساء: ١٠٣)

وإذا كانت هذه أحكام الإسلام وتعاليمه عن الحركة في أرجاء الأرض فإن المؤمن مطالب بالتحرر من التثاقل إلى الأرض والانقياد لمشاعره ومصالحه التي تتركز حول أي موقع فيها إذا كان في ذلك مساس بعقيدته:

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ

أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (التوبة: ٣٨ ـ ٣٩)

ويلح القرآن على الاستجابة لدواعي الحركة وتلبية النفير، ولو لم يكن السفر قاصدا، وكانت الشقة بعيدة، ويشدد النكير على من يستأذنون في التخلف عن النفير العام:

« وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ » (التوبة: ٤٩)

« لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن
يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ
وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾
* وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ

ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ »

(التوبة: ٤٤ ـ ٤٦)

ويفضح الله المنافقين الانتهازيين في تلك السورة التي كان من أسمائها «الفاضحة»، فيكشف عن ارتباطهم بمكاسبهم الشخصية قبل كل شئ:

« إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ
تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن
قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ
فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ » (التوبة: ٥٠ ـ ٥٢)

وفي آية من سورة أخرى يقول الحق جل وعلا:

« سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ
أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ
أُرْكِسُوا۟ فِيهَا » (النساء: ٩١)

ويحذر القرآن صراحة المؤمن أن تعرقل حركته الواجبة ضغوط الأهل والعشيرة والمال والموطن:

« قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » (التوبة: ٢٤)

بل إن المؤمن مطالب بالضرب في الأرض ابتغاء فضل الله وطلبا للرزق إن عز عليه في موقعه، فطلب الدنيا بالحق من واجب المؤمن، واليد العليا خير من اليد السفلى، والعمل عبادة لله إن قصد به امتثال أمره وحفظ النفس والنسل بالمال الحلال، والكسب والإنفاق وفقا لأوامر الله :

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ » (الملك: ١٥)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (الزخرف: ١٠)

« فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ » (الجمعة: ١٠)

والقرآن الكريم يعتبر الضرب في الأرض عذرا مقبولا إلى جانب الجهاد والمرض إزاء الندب إلى قيام الليل أو نوافل العبادة:

« وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ
ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ
يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا
تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ »

(المزمل: ٢٠)

ولا يرخص القرآن في البقاء بأرض عند ضيق فرص الكسب فيها، واحتمال عناء الفقر في المسغبة بها إلا لضرورة قاهرة:

«لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ
أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ
إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ»

(البقرة: ٢٧٣)

ومسايرة لهذه الطبيعة (الحركية) التي لا تصر رسالة الإسلام على موقع بذاته من الأرض أو قوم من البشر بخاصة، فإن الأرض كلها مسجد للمسلمين، كما ورد في الحديث: «جعلت الأرض مسجدا لي وطهورا». والبيت الحرام إنما وضع للناس مباركا وهدى للعالمين:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَٰلَمِينَ»

(آل عمران: ٩٦)

وإذا كان للبلد الأمين مكان ومكانة عند المسلمين، إذ يحتوي البيت الحرام، فإن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم قد هاجر منها حين استلزمت دعوته ذلك، وإن كان عليه صلوات الله يؤثرها بالبقاء، وهي أحب بلاد الله إليه كما تحدث عليه الصلاة والسلام: «ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت». وهكذا يقوم التوازن في مشاعر المؤمن حتى بالنسبة للأرض المقدسة بحكم الدين والعقيدة فما بالك بغيرها؟! وهذا قول الله يسكب في نفوس المؤمن الولاء للعقيدة والكتاب قبل كل شيء حتى لا تنحصر نظرته في أرض بلد ولو كان مثوى البيت الحرام، يقول الحق عز وجل:

« إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا »

(النمل: ٩١)

وتقرير عبادة رب البلد الحرام هنا يصرف قصور النظر والتباس الأمر والانغلاق في أسوار المكان وحواجز الأرض والبلد، ويتبع باقي الآية وما أعقبها من آيات، فيجلي ذلك جلاء قاطعا إذ يقول سبحانه إثر هذا مباشرة:

وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ
وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ (النمل: ٩١ ـ ٩٣)

وهكذا كان القرآن عالميا إنسانيا حين تحدث عن «الأرض» بإطلاق، وخاطب «الإنسان» بإطلاق.. وقرر أن الإيمان يرفع مكانة أية بقعة من الأرض يعبد فيها الله، ويرفع مكانة المؤمن أيا كان حظه من الأصل والنسب. وهذه خطبة الوداع الخالدة يؤكد فيها رسول الله عليه صلوات الله هذه المبادئ، وهو يودع المؤمنين، ويودع الحياة الدنيا: «أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا الموقف أبدا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم...

أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلغت، اللهم فاشهد. فليبلغ

الشاهد منكم الغائب، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا: كتاب الله، وسنة نبيه».

وفي رواية «أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة». وتضمنت تلك الخطبة الجامعة حقوق الجنسين: الرجل والمرأة، كما تضمنت مساواة الأجناس والسلالات: «أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا... واستوصوا بالنساء خيرا، إنما أخذتموهن واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت».

وصدق الله العظيم إذْ امتن على عباده المسلمين في ذلك اليوم العظيم: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا). (المائدة: ٣).

خامسا : الإنسان وعمارة الأرض :

هبط أبو البشر آدم عليه السلام إلى الأرض تائبا مقبولة توبته ليتخذ هذه الأرض مستقرا، فيعمل في عمارتها وينتفع بمتاعها:

« وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ
فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ »

(البقرة: ٣٦ ـ ٣٩)

« فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ
أَعْمَىٰ » (طه: ١٢٣ ـ ١٢٤)

ولقد فطر الإنسان على دوافع نفسية تحثه على عمارة الأرض:

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ
ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ
وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ
عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ » (آل عمران: ١٤)

« ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ
ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (الكهف: ٤٦)

والإسلام يتطلب من المؤمن أن يستجيب لهذه الدوافع في حدود أوامر الله لا أن ينخلع من الدنيا ويعلن الرهبانية، فهي بدعة لا يرتضيها الإسلام:

« وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » (الحديد: ٢٧)

ولقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو أتقى الناس وأعبدهم لله: «أنا أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وما أروع قول الله يبين أن عبادة الله لا تعني الانخلاع من الطبيعة البشرية، ولا قتل الدوافع النفسية، ويقيم ميزان الحق لتلبية هذه الدوافع من جانب المتعبد دون قمع أو إسراف وفقا لأوامره سبحانه:

« أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » (البقرة: ١٨٧)

ولقد أودع الله في الكون من الثروات والطاقات التي سخرها للإنسان بما منحه عقل وعزم:

« ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » (الإسراء: ٧٠)

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ
رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ
وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ » (إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤)

« وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »

(النحل: ١٢ ـ ١٦)

« أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ »

(النحل: ٧٩)

« أَلَمْ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » (الحج : ٦٥)

« أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ »

(لقمان: ٢٠)

« وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ

ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ » (الزخرف: ١٢ ـ ١٤)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ » « كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ » (الحج: ٣٤ ـ ٣٧)

وتأتي هداية الله تنمية لطاقات الإنسان لعمارة الأرض بالحق، وتحقيقا لتوازن جهود الفرد وجهود الأفراد في المجتمع:

« هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » (هود: ٦١)

وقد وجه الإسلام إلى طلب الرزق وعمارة الأرض :

« هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ » (الملك: ١٥)

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن
نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرۡعَوۡا۟ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ » (طه: ٥٣ ـ ٥٥)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا » (البقرة: ٢٩)

« وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ
وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ »

(الأعراف: ١٠)

« وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ
يَسۡمَعُونَ » (الروم: ٢٣)

ولقد دعا الإسلام المؤمن إلى العمل في زراعة النبات ورعي الحيوان والإفادة من الثروة المائية ووسائل النقل:

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ
وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ ...... هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ
لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ
الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ...... وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)
وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)
...... وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ »

(النحل: ٥ - ١٨)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم
مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ
مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ »

(النحل: ٦٦ ـ ٦٩)

« وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ
سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا
وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » (النحل: ٧٩)

ومما يلفت النظر أن الآيات السالفة كلها قد تضمنتها سورة واحدة من كتاب الله هي سورة النحل. كذلك أشار القرآن إلى عدد من الصناعات:

« وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ » (النحل: ٨١)

« * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ » (سبأ: ١٠ ـ ١٣)

وقد أشار القرآن إلى منجزات الحضارات السابقة مع توجيه النظر إلى أهمية العقيدة الصحيحة بالنسبة إلى صرح الحضارة، فهي أساسها الراسخ العميق، وهي التي تحقق التوازن والتآزر في

داخل الحضارة بين النمو النفسي الأخلاقي الاجتماعي والبناء المادي، وبين الفرد والجماعة والدولة، فإذا ضعف الأساس العقيدي المعنوي للحضارة اختل صرحها وتداعى بنيانها:

« كَذَّبَتْ عَادٌ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾

...... أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم

بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟

ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾

وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ ...... فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ »

(الشعراء : ١٢٣ ـ ١٣٩)

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ

أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ...... أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ

ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾
ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ
أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
...... فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » (الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٩)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ...... وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »
(الأعراف: ٧٣ ـ ٧٤)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ

قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ---

------ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن
قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا » (الأعراف : ٨٥ ـ ٨٨)

« وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ
تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ------
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ .....
فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ » (الزخرف: ٥١ ـ ٥٦)

« لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ
عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
الْعَرِمِ ...... ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا
وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »

(سبأ: ١٥ ـ ١٩)

ويضع القرآن قاعدة الازدهار المعنوي والمادي للحضارة وللعمارة:

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (الأعراف: ٩٦)

وهو ينذر كل دولة قائمة أو حضارة ناهضة مغبة الانحراف وسوء عاقبة الفساد:

« أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ
مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » (الأعراف: ١٠٠)

والمؤمنون مطالبون بعمارة الأرض ورفع بناء حضارتهم على هدي عقيدتهم وتعاليم دينهم. وهكذا أقام داود وسليمان عليهما السلام ملكا وحضارة على أساس عقيدة التوحيد وأخلاق أهل الايمان:

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ..... وَشَدَدْنَا
مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ »

(ص: ١٧ ـ ٢٠)

« يَا دَاوُودُ إِنَّا
جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
الْحِسَابِ » (ص: ٢٦)

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ
إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ...... قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى
مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ » (ص: ٣٠ ـ ٣٧)

« وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ
وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ
مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ
جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ......
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ... .

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ
أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾
قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ .... قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ

لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » (النمل: ١٥ ـ ٤٤)

ولقد جاءت رسالات الله إلى التجمعات الحضرية العامرة في القرى:

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن
كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ....

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا
كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ »

(الأعراف : ٩٦ ـ ١٠١)

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟
فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ
رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ
ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ »

(هود: ١١٦ ـ ١٢١)

وتشيع آيات القرآن في النفس والفكر وعيا بوجوب الانتقال من البداوة إلى الحضارة والعمل على نشر العمران، ولقد كان أبو ذر الغفاري رضي الله عنه بعد أن خرج إلى الربذة يتردد على المدينة مخافة أن يغدو أعرابيا ويستغرقه التبدي. وقد كتب العلامة ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/١٠٤٦م) في مقدمته الرائعة بفصلها الأول عن «العمران البشري» : «إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لابد له من

الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران. وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء... ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحين والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة. وهب أن يأكله حبا من غير علاج، فهو أيضا يحتاج إلى أعمال أخرى من الزراعة والحصاد والدراس، ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة... فلابد من اجتماع القدرات الكثيرة من أبناء جنسه، ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف. وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه.... ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضا عن ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع... وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه، فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران...». ومضى ابن خلدون في الفصل الثاني عن العمران البدوي إلى القول: «إن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو اختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاجي والكمالي، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها... وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك. ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش، وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر.

ثم تزيد أحوال الرفه والدعة، فتجيء عدائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج

القوت واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة ومعالاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع... وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان، ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة، وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو، لأن أحوالهم زائدة على الضروري، ومعاشهم على نسبة وجدهم... (مقدمة ابن خلدون ـ دار البيان ببيروت ـ ص: ٤١ ـ ٤٣، ١٢٠ ـ ١٢١).

والحق أن الله أمر المؤمن بطلب الرزق في أرجاء الأرض وابتغاء فضل الله ونعمه، يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، فهذا من التحدث بها كما أمر القرآن:

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » (الضحى: ١١)

وفي حديث رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

والإيمان يحقق الاتزان والتوازن في إشاعة نعم الله، بحيث يتوقى المؤمن الكبر والبطر والتجبر في الوقت نفسه:

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ »

(القصص: ٧٧)

وقد حذر القرآن من تجاوز الحد المحمود من تحقيق يسر الحياة وعمارة الأرض إلى الترف المذموم الذي يدمر حيوية الفرد وإيجابيته، ويستغرقه في شهواته وأهوائه ذاته، كما يخل التوازن والعدل في المجتمع، إذ إن الإسراف في الحظوظ الفردية الذاتية هو افتئات على ما يجب للآخرين وللجماعة ككل:

« وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا »

(الفرقان: ٦٧)

« وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ . . . .

وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا »

(الإسراء: ٢٦ ـ ٣٠)

« وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا »

(الإسراء: ١٦)

« وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ »

(هود: ١١٦)

« لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ
حَصِيدًا خَٰمِدِينَ » (الأنبياء ١٣ ـ ١٥)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن
نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ
فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ
رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ »

(سبأ: ٣٤ ـ ٣٩)

وقد عرضت سورة الكهف صورة بليغة معبرة للفارق بين المؤمن الذي وفقه الله لعمارة الأرض، واستثمار المال، وآتاه من نعمته، فلم يبخل عن نعمة الله، ولم يبطر في الوقت نفسه، وصورة الكافر الذي أوتي مالا وولدا وطغى أن رآه استغنى:

« ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا
وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ
مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾
قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ
رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ

قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ
وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ
الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا »

(الكهف: ٣٢ ـ ٤٦).

وكما يبين القرآن الفارق والفاصل بين عمارة الأرض وما قد ينزلق إليه المرء من إسراف

وترف وكبر وبطر، ويقيم ميزان الحق في هذا الأمر، فإنه يحجز المؤمنين خلال عمارتهم للأرض وسعيهم للتمكن فيها عن الانزلاق إلى العلو في الأرض والفساد، وهما ما يتوقاه المؤمن صحيح الإيمان:

« تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » (القصص: ٨٣)

ومن صور الفساد ما يكون ماديا كإهلاك الحرث والنسل، ومنه ما يكون معنويا كنشر البغضاء والخصام وقطع العلاقات الاجتماعية.

والقرآن يبرز صورة هؤلاء وهؤلاء:

« وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » (البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦)

« وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ »

(البقرة ٢٦ ـ ٢٧)

والكفر ذروة العلو البغي والفساد في الأرض والكبر والبطر والإسراف:

« وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » (النمل: ١٤)

« مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ » (الدخان: ٣١)

« * إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ » (القصص ٧٦ ـ ٧٨)

ولطالما نهى رسل الله عليهم السلام عن الفساد في الأرض:

« وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا » (الأعراف: ٥٦)

« وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »

(الأعراف: ٧٤)، وانظر أيضا الشعراء (١٥١ - ١٥٢)

« وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ
ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا » (الإسراء: ٣٧)

وقد أخبر القرآن أن التمكين في الأرض وإحراز الثروة والسطوة قد يجر إلى الغرور والكبرياء والبطر:

« أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن
لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى
مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ » (الأنعام: ٦)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا

وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ
أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » (الأحقاف: ٢٦)

والمؤمنون مدعون لابتغاء الرزق وعمارة الأرض والسعي للتمكن فيها على توقي الانحراف والزيغ والزلل والضلال، وقد وعد الله المؤمنين بذلك ما آمنوا واتقوا:

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ »

(الأعراف: ٩٦)

« وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا »

(الجن: ١٦ ـ ١٧)

« وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » (القصص: ٥ ـ ٦)

« أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (القصص: ٥٧)

« وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (الأنفال: ٢٦)

وقد حذر القرآن من الانقياد للذل والهوان تحذيره من الانزلاق إلى الترف والكبر والتجبر:

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ
فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا »
(النساء: ٧٥ ـ ٧٦)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ » (النساء: ٩٧ ـ ٩٩)

ومقاومة التجبر والظلم والإذلال دفع للفساد في الأرض ولفتنة البشر، وإعلاء لكلمة الله الذي يريد الإنسان حرا كريما:

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » (البقرة: ٢٥١)

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ »
(الحج: ٤٠)

« وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ
إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ » (البقرة: ١٩٣)

« وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ
وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ
ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ »
(البقرة: ٢١٧)

والمؤمنون منهيون عن الفساد والاستعلاء في الأرض بغير الحق، ومطالبون بالسعي الحاد الدؤوب للتمكن من الأرض، والتوصل إلى ثرواتها، والتحكم فيها وفق أوامر الله وإعلاء كلمته فيها مع توقي الكبر والبغي:

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ
يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ
وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ » (يوسف: ٥٦ ـ ٥٧)

« وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ
قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا »

(الكهف: ٨٣ ـ ٨٥)

« قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا »

(الكهف: ٩٥)

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى
شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ »

(النور: ٥٥)

« ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ » (الحج: ٤١)

سادسا : القرآن ليس كتابا متخصصا فى الظواهر الكونية، وهو يدعو إلى المشاهدة والاستقراء :

إن القرآن كتاب دين وعقيدة بصفة أساسية، وهو يعرض لبعض الظواهر الكونية في إجمال، ويربط ذلك بدعوته الدينية، ويوظفها للدلالة على الإله الواحد رب كل شيء، وعلى البعث بعد الموت. فالقرآن لا يستوعب ظواهر الكون، وليس كتابا متخصصا في موضوع هذه الظواهر، والذين يحاولون أن يحملوا آيات الكتاب المبين نتائج العلم الحديث، باعتساف في التأويل، وخروج على اللغة وعلى أسلوب القرآن، بدعوى الحاجة إلى تقديم القرآن بلغة العصر، ليكون قريبا محببا إلى الناس، وبمقوله أن الله ما فرط في الكتاب من شيء، وأنه أنزله تبيانا لكل شيء، لم يتعرفوا على حقيقة رسالة القرآن، ولا على طبيعة مهمة العلم، ولم يتبينوا الفارق بينهما وبين غايتهما ومنهجيهما. وإنما يتضمن الإسلام وكتابه منهجا عاما شاملا حقا ولكن في إجمال، وهو يعرض لظواهر الكون الكبرى في سياق عرض دعوته الأساسية إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وهو يعرضها بأسلوب يفهمه كل قارئ وسامع، لأنه نزل بلسان عربى مبين لا باصطلاحات العلم، ولا يخوض في التفاصيل والدقائق التي لا يلحظها بحواسه ويعقلها بذهنه الشخصي العادي الذي هو في مستوى عامة الناس من حيث الحس والذكاء والثقافة. ولكن هذا لا يعني أن القرآن خلو من لمحات علمية ثاقبة يدركها المتدبرون، أو فيه توجيه منهجي علمي، بل الحقيقة هي كما أسلفنا. وآيات الكتاب المبين هي خير ما يعبر عن نهجه. والإسلام يترك لعقل الإنسان المجال بالنسبة لما هو في نطاق قدراته وطاقته، ويأتي لهداية الإنسان فيما يحتاج فيه إلى هداية الله. وإنما يعرض القرآن بعض ظواهر الكون استثارة لنشاط العقل واجتهاده، وربطا لظواهر الكون ببارئه ومبدعه الذي أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، دون أن يسد المنافذ على نشاط العقل بزحام من المعلومات والتقريرات

والمقولات والمصادرات، ومن ثم يأتي تركيز آيات القرآن على العقيدة في الخالق واليوم الآخر، لا على استيعاب الظواهر الكونية وإيراد تفصيلاتها ودقائقها:

«أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ
وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ
تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ
أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ
فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ »

(النمل: ٥٩ ـ ٦٦)

« أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ
ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل
لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ
ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ »

(الطور: ٣٥ ـ ٣٧)

« قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ....
مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ
كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ »

(المؤمنون: ٨٤ ـ ٩١)

« وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ
مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى
ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا
تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ
عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾

.... أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً
مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

.... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن
مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ
فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ....

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ

أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن
قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ » (الأنبياء ١٦ ـ ٣٦)

« وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ
فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ »

(فاطر: ٩)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ
فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن
مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ

مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ
أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ
يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ
ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ »

(الحج ٥ ـ ٧)

« وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ

ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ »

(يسۤ : ٧٨ ـ ٨٣)

« فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾
يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ » (الطارق: ٥ ـ ٩)

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ
ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ »

(المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٧)

ولا يفتأ القرآن يدعو حواس الإنسان إلى مشاهدة الظواهر الكونية مباشرة، ويؤكد أن هذه الحواس هي الموكلة باستقراء هذه الظواهر دون اعتماد على نقل مسبق أو تخمين، وأن على العقل

وحده أن يستخلص من هذه المشاهدات نتائجها، سواء في ذلك ظواهر السماء والكواكب والنجوم، أو ظواهر الأرض بما عليها من جبال وأنهار وبحار، وما يهب عليها من رياح وينزل من أمطار، وما يعيش عليها من نبات وحيوان وإنسان:

« أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ »
(الأعراف: ١٨٥)

« أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟
إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن
فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا
بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ
كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ »
(ق: ٦ ـ ١١)

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾
وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ

نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ
إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ » (الغاشية: ١٧ ـ ٢٠)

ويوجه القرآن النظر إلى دراسة الظواهر الحالية المستمرة والمتغيرة، وإلى التعرف على ما كان من ظواهر ماضية وتتبع أطوار الخلق ومراحله:

« قُلْ سِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (العنكبوت: ٢٠)

« هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا
مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا » (الإنسان ١ ـ ٣)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ
مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ »
(المؤمنون: ١٢ ـ ١٣)

« ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ
خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ »

(السجدة: ٧ ـ ٩)

وقد دعا القرآن إلى تأمل الظواهر الاجتماعية مثل الظواهر الكونية سواء بسواء وقرنها بها أحيانا، وأشار إلى أن لها سننا ونواميس تحكمها مثل ما للكون المادي:

« قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦
تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ
مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ »

(آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ
يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (الروم: ٧ ـ ٨)

« أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ
مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ »

(الرعد: ١٧)

« فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ
تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ

فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾
وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن
دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ » (فاطر: ٤٣ ـ ٤٥)

« قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ
ٱلْكَـٰفِرِينَ » (آل عمران: ١٣٧ ـ ١٤١)

« وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا »

(الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧)

« سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ
قَدَرًا مَّقْدُورًا » (الأحزاب: ٣٨)

« أَفَلَمْ يَسِيرُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
..... فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
ٱلْكَٰفِرُونَ »

(غافر: ٨٢ ـ ٨٥)

« يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

«وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا »

(النساء: ٢٦ ـ ٢٨)

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ »

(البقرة: ٢٥١)

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »

(الحج: ٤٠)

وقد وعى علماء المسلمين توجيه القرآن إلى المشاهدة والاستقراء، تشهد بذلك مراصدهم ومختبراتهم وأدواتهم وتجاربهم وأوصافهم ورسومهم. قدّم أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، الكاتب المعروف باليعقوبي، المتوفي سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م، لكتابه «البلدان» فذكر عن نهجه في تأليفه: «سافرت حديث السن، واتصلت أسفاري، ودام تغربي، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره، فإذا فكر لي محل داره وموضع قرارة سألته عن بلده ذلك

وزرعه ما هو، وساكنيه من هم، وشرب أهله، حتى أسأل عن لباسهم ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه، ومسافة ذلك البلد وما يقرب منه من البلدان، ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه، واستظهر بمسألته قوما بعد قوم حتى سألت خلقا كثيرا وعالما من الناس في الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب وكتبت أخبارهم... فلم أزل أكتب هذه الأخبار، وأؤلف هذا الكتاب دهرا طويلا، وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي معرفته، وعلمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية...». وقدم أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي، المعروف بالبشاري لكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الذي أنهى كتابته كما يقول سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥م على ما ذكره في مقدمته، وكان مما جاء فيها: «وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على النجوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي على المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها، مع ذوق الهواء، ووزن الماء، وشدة العناء، وبذل المال، وطلب الحلال، وترك المعصية، ولزوم النصح للمسلمين بالحسبة والمراقبة لله والخشية. ولم أودعه المجاز والمحال، ولا سمعت إلا قول الثقات من الرجال وأعاننا اللهعلى ما قصدنا، ووفقنا لما يحبه ويرضاه، فإنا له عابدون، وإليه راجعون». وقد بذل البيروني (٤٤٠ هـ/٨٥٠ م) جهدا دؤوبا ليتعرف على بصيرة وفي تعمق على مجتمع الهنود وأديانهم وعوائدهم، مما اضطره إلى تعلم لغاتهم. وهكذا أنجز كتابه الممتع «تحقيق ما للهند من مقولة ومقبولة في العقل أو مرذولة». وذكر عبدالرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) في صدر مقدمته الرائعة أن التاريخ «محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارفٍ متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن العزلات والمغالط، إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولاقيس الغائب فيها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من

المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا كان أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار».

وبعـــد :

فلعله قد تبين جليا لماذا خلا تاريخ الإسلام من صدام بين الدين والعلم، إن الإسلام يدعو إلى العلم بالكون، ويقرر أن الذين يخشون الله حق خشيته هم العلماء، إذ قد تعرفوا على صنع الله الذي أتقن كل شيء وسننه التى لا تجد لها تبديلا وتحويلا... وكتاب الإسلام يلفت النظر إلى إعجاز الله في الكون وآيات الله في الآفاق بلمحات مجملة منيرة هادية، دون تكديس تفاصيل من المقررات النظرية والمقولات التى تتخذ أساسا وحيدا لاستنباط العلم، مع تأكيد لوجوب الاعتماد على الحس والمشاهدة والاستقراء للوصول إلى حقائق الكون ويوضح نهج الإسلام وكتابه أحد علماء الإسلام المبرزين المعاصرين، هو الشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز، العميد الأسبق لكلية أصول الدين بالأزهر، أجزل الله مثوبته، وأفسح له في جنته، إذ يلفت النظر في كتابه الرائع النافع: «الدين: بحوث ممهدة في تاريخ الأديان» إلى أنه ليست هناك صلة وحدة في الموضوع أو الاشتراك في الأهداف بين العلم الإلهي وسائر العلوم، إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل فليس واحد منها يتصدى لعلاج المشكلة الكبرى التى انتهض الدين لحلها، إذ كلها تبحث عن الكائنات، وليس شيء فيها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى، غير أنها كلها تستطيع أن تزجي لهذا المطلب خدمة ما من قريب أو بعيد. ولن يستغني الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها. فكما أن المجهول لا يتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم، والغائب لا يدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا. فإذا بعدت صلة بعض العلوم بالدين فإنها بما تبدد من ظلمات الأوهام، وبما تبعث من النور في جوانب النفس، تقوم بوظيفة تطهير وتنقية لابد منها لتهيئة جو عقلي صالح لاعتناق العقائد السليمة، (فيكون) ركونه إليها على بصيرة وبينة لا مدفوعا بحمية الجهل، ولا منقادا بسذاجة المحاكاة:

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (الزمر: ٩)

ومهما يكن من أمر فالمعقول (أن يكون) بين العلم والدين على الأقل تفاهم وحسن تجاوز، إذ ليس يعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما في موضوع واحد. وهنا يحق لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة التي ظهرت في التاريخ غير مرة بين العلوم والأديان ـ (يقول صاحب هذا البحث: إن ما يشير إليه المؤلف مما يكاد أن يبدأ منه تاريخ الإسلام في مجمله وعمومه) ـ لا نعني بذلك الصراع الصوري الذي يستغل فيه اسم العلم أو الدين أحيانا ليكون ستارا للمقاصد الخفية والمطامح العاجلة، كما لا نعني الصراع الحقيقي الدائم بين النزعات الروحية السامية وبين النزعات المادية المضادة، إنما نطلب تفسير المعارضة التى تقع بحسن نية بين المعسكرين العلمي والديني، فيقف كل واحد منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر. والجواب أن هذه المعارضة تحدث فيما نعلم على إحدى صورتين:

الأولى: أن يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند الآخر، لا بناءً على حجة تدحضه أو شبهة تضعفه، بل عفوا وإعباطا أو لمجرد جهله به، وهذا من قصر النظر، وإنما الإنصاف أن يكون كل امرئ عارفا بقدر نفسه واقفا عند حده. وإذا كان من الخير للأديان أن تستثمر كافة المعارف البشرية وتتسلح بنتائجها، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص، وتملأ ما تتركه في النفوس من فراغ بما يملأ من الحقائق الروحية (يزيد صاحب البحث، وبما يؤكده الدين في ا لنفس، وهو أقدر عليه، من أمانة وإخلاص للحق والحقيقة، ودأب وصبر عليها، كلها فضائل هي خير رصيد نفسي وخلقي للعلماء) ـ فإن لم تفعل العلوم فلا أقل من أن تلتزم شقة الحياد، فلا تعادي الأديان، ولا تنكرها جملة، فإن إنكار الدين جملة إنكار ضمني لأمور واقعية تحتويها الأديان كلها ولا يحتويها علم من العلوم، ألا وهي عناصر الايمان بالحقيقة العليا. (فهذه) معان هي من مادة الحياة التي قد يفسرها العلم ولكنه لا يخلقها ـ على حد تعبير دوركايم ـ وقد ينقب عن أطوارها ويتفهم نشأتها ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل وجوبها، أو يدعي لنفسه أن يحل محلها.

والصورة الثانية (للتعارض الموهوم بين العلم والدين) : أن تكون هناك مسألة أو مسائل معينة، تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين، وإنما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحي شيئا من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات (أقول

بالتفصيل المعروف في العلم ودون استناد إلى مناهجه) وتذهب في ذلك مذهبا معينا تفرضه على المتدينين بها فرضا...». (محمد عبدالله دراز ـ الدين ـ ط: ٢ ـ الكويت ١٣٩٠ هـ ـ ض: ٧٥ ـ ٧٨).

وما ذكره الأستاذ الجليل رحمه الله هو ما شكا منه تاريخ المسيحية وكنيستها، وبرئت منه حضارة الإسلام. ولقد أدرك المسلمون أن العلوم لا تتقدم بإطلاق المقولات النظرية والتخمين كما فعل كثير من فلاسفة الإغريق، بل لابد من الاعتماد على الامتحان العملي والتجريب والرصد، واعتبروا الهندسة والرياضيات وسائل التفكير وآلاته، وحفلت مؤلفاتهم في المكيانيكا وعلوم السوائل والبصريات بوصف ما عملوا من تجارب وما استخدموا من آلات، وفي الطب والجراحة بوصف أدواتهم الجراحية، وفي الفلك بوصف أجهزتهم للرصد.

وهذا النهج التجريبي مكن المسلمين من ابتكار آلات التقطير والتصعيد والصهر والترشيح التي استخدموها في الكيمياء، ومن استعمال الميزان في تجاربهم الفيزيائية والكيمائية، وعمل جداول النقل النوعي، فضلا عن السير قدما في الآلات المدرجة والمقسمة كالربع المجيب والاصطرلاب. ولقد شهد بفضل المسلمين على العلم من باحثي الغرب كثيرون، في مقدمتهم جورج سارتون مؤرخ العلم المعروف،وأرنولد توينبي صاحب «تاريخ العالم»، فضلا عن ناللينو وميلي وغيرهما. وقرر برتراند رسل في كتابه «النظرية العلمية»: «كان العرب المسلمون أميل إلى التجريب من الإغريق وبخاصة في الكيمياء... وقد حمل العرب رسالة المدنية طوال عصور الظلام، وإليهم يرجع كثير من الفضل في أن بعض المسحيين مثل روجر بيكون قد حصلوا كل المعارف العلمية التي تهيأت في زمنهم». (برتراند رسل: النظرية العلمية ـ الترجمة العربية ـ نشر الإدارة الثقافية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية ـ بالقاهرة ص: ٩).

وفي مجال الدراسات الإنسانية أو العلوم الاجتماعية يقول دي بور في كتابه «تاريخ الفلسفة في الإسلام» عن ابن خلدون: «يرى ابن خلدون أن الجماعة تتقلب في صور مختلفة هي: حالة البداوة، ثم القبيلة، ثم دولة المدنية. وأول مسألة هي تحصيل القوت، وتختلف الأفراد والشعوب بحسب اختلاف حالتهم الاقتصادية بدوا أو رعاة مستقرين أو زراعا. والفقر يؤدي بالناس إلى النهب والحرب، وإلى الانضواء تحت لواء رئيس يقودهم، فتنشأ القبيلة، ثم تؤسس لنفسها

مدينة. وهنا يؤدي التعاون وتقسيم العمل إلى حياة الرغد، ولكن هذا الرغد يولد الدعة.. ويتكل الإنسان على غيره، وتزداد الحاجات، فتشتد المكوس، ويعم الفقر، ويزيد الترف، ويفقد الناس بأسهم الحربى القديم، ويفسد الدين في حالة انتقاض وتحلل، وعند ذلك تظهر من جديد قبيلة قوية أو شعب لم يبلغ منه الترف ذلك المبلغ، وفيه عصبيته القوية، فينقض على المدينة التي أنهكها الترف، وينشئ دولة جديدة، تستولي على الثروة المادية والعقلية. وشأن الدولة والجماعات الكبرى هو شأن البيوت، ينتهى تاريخها فيما بين ثلاثة أجيال وستة. ويرى أوجست مولر أن مذهب ابن خلدون ينطبق على تاريخ الأندلس والمغرب وصقلية فيما بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة (١١ ـ ١٥م)، ولكن يوجد في المقدمة كثير من الملاحظات النفسية والسياسية الدقيقة، وهي في جملتها عمل عظيم مبتكر. إن القدماء لم يوفوا المشكلة التاريخية حقها من الدرس العميق. وكانت الفلسفة المسيحية تعتبر التاريخ بوقائعه تحققا أو تمهيدا لمملكة الله على الأرض، ثم جاء ابن خلدون فكان أول من حاول أن يربط تطور الاجتماع الإنساني بعلله القريبة، مع حسن الإدراك لمسائل البحث وتقريرها مؤيدة بالأدلة المقنعة. فهو ينظر في أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب ونحوها، وهو يعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمي والعقلي في الإنسان (الفرد) وفي المجتمع. وهو يرى أن للمدنية والعمران البشري قوانين ثابتة، يسير عليها كل منهما في تطوره. وهو أبداً يتلمس العلل الطبيعية بأقصى ما يستطيع. وابن خلدون إذ يمهد السبيل لعلم جديد إنما يشير لمسائله الكبرى وهو يرجو أن يأتي من بعده فيواصلوا بحثه». (دى بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام ـ ترجمة محمد عبدالهادي أبي ريدة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ـ ط: ١ ـ ص: ٢٧٥ ـ ٢٨١).

والله المسئول أن يهدينا بالقرآن إلى الفكر والعمل المتوازنين الرشيدين لدنيانا وآخرتنا، وأن يعيننا على الرقي المتكامل للإنسان والعلم بالكون وعمارة الأرض والتمكن فيها بالحق، حتى تتجدد حضارتنا المهتدية الهادية المشرقة الزاهرة، حضارة الإيمان والأمن والرشد، وترث حضارة العصر، وتنفي عنها خبث الأهواء والشهوات، وبلايا الدورات الاقتصادية والأزمات العصبية والسلوك السيكوياتي والانحلال الأخلاقي والحروب الدائمة الكبيرة والصغيرة والساخنة والباردة بأسلحتها المدمرة الرهيبة استراتيجية وتكتيكية، كيمائية وبيولوجية ونفسية، وحتى يتابع الخلف المؤمنون في كل مجال للعلم النافع والعمل الصالح سيرة السلف من علمائنا الذين يخشون ربهم ويخافون يوم الحساب.

« فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » (يونس: ٣٢)

« وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

(الأنعام: ١٥٣)

« فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (البقرة: ١٨٦)

« وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

(الحجرات: ٧ ـ ٨)

دور الجغرافيا فى تعضيد التضامن الإسلامى

محمد الرابع الحسنى

لقد كانت معرفة العرب قبل الإسلام بالمعلومات ضئيلة وسطحية كالمعارف الأخرى، فهم لم يكونوا يهتمون بها إلا بقدر حاجاتهم العملية في حياتهم المحدودة. ونزل القرآن الكريم فكانت فيه إشارات ونصائح بالسير في الأرض والنظر في شعوبها وأممها الخالية، وذلك للموعظة والاعتبار، فقد قال الله تعالى: (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون. وعلامات وبالنجم هم يهتدون). (النحل: ١٥ ـ ١٦).

وقال: (سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين). (النمل ـ ٦٩). وهي بمثابة إشارات جغرافية تبعث نفس المؤمن على الاستطلاع والبحث بقوله سبحانه وتعالى: (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله). (البقرة: ١١٥)، (فلا أقسم برب المشارق والمغارب). (المعارج: ٤٠)، (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان). (الرحمن: ٣٣)، (والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها، متاعا لكم ولأنعامكم). (النازعات: ٣٠ ـ ٣٣)، (ألم تر أن الفلك تجري بنعمة الله ليريكم من آياته). (لقمان: ٣١)، (وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي). (هود: ٤٤)، (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما). الكهف: ٨٦).

فكل هذه الآيات تبعث على حب الاستطلاع لنواحي الأرض في الأجواء والسموات، وتحدث الرسول عليه السلام أيضا عن أشياء كثيرة، يعالج بها أمورا تهم المسلمين، وكانت هذه الأشياء ذات اتصال بالمعرفة الجغرافية، ولم يخل الشعر العربي القديم كذلك من شئون ذات صلة بالمعرفة الجغرافية، وإن كان كلها مقصورا في نطاق حياة العرب المحدودة.

ولذلك نرى أن المسلمين في عهدهم الأول قد اهتموا بالمعرفة الجغرافية، ولكن اهتمامهم كان في نطاق محدود، لأنهم لم يستخدموا هذا العلم إلا في معرفة الأماكن والطرق والجهات المتصلة بأوطانهم ومراكزهم.

ولم يهتموا أيضا من الأقطار الأخرى غير العربية إلا بما كانت تجارتهم البحرية في حاجة إلى المعرفة بها، فكان أبطال ملاحتهم البحرية يصلون سواحل جنوبي الجزيرة وشرقيها في

جانب بسواحل إفريقيا الشرقية، وفي جانب آخر بسواحل الهند الغربية والشرقية الجنوبية، وبسواحل أقطار البحور الصينية، كانوا ينقلون البضائع من إفريقيا والهند والصين إلى جزيرة العرب، ثم منها إلى شمالي الجزيرة العربية، وإلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية والجنوبية، وينقلونها من هذه الأخيرة إلى السواحل الأولى.

ولكن ذلك كله لم يكن إلا بدافع حبهم التجاري، أو التنقل لأغراض اقتصادية محدودة، ثم اقتضت حاجتهم السياسية منذ القرن الثاني الهجري أن يهتموا أيضا بمعرفة البلدان الواقعة تحت حكمهم الواسع والأقطار المجاورة لها كذلك، واهتموا بنقل كتب العلوم المختلفة ومنها العلم الجغرافي من لغات اليونان والفرس إلى اللغة العربية، فعرف المسلمون من خلالها مقداراً مهما من أحوال البلاد المختلفة وصورة الأرض وأجزائها، وعكفوا على هذا العلم، كما عكفوا على علوم أخرى كانت تنفعهم عقليا، وعلميا، وبذلك توسع نطاقهم العلمي، ونقلوا كتاب بطليموس إلى اللغة العربية فكان مصدرا كبيرا لمعرفتهم للاكتشافات اليونانية في هذا العلم، ثم نبغ فيهم رجال لهم مكانة سامية في العلوم الجغرافية في القرن الثالث والرابع والخامس، فكان من أهمهم في هذه القرون وبعدها بقليل أمثال ابن خردازبة عبيدالله بن أحمد صاحب «المسالك والممالك» المتوفى ٢٨٠ هـ ، واليعقوبي أحمد بن إسحاق صاحب «كتاب البلدان» المتوفى ٢٩٢ هـ والحسن بن أحمد الهمداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب المتوفى ٣٣٤ هـ ، والمسعودي علي بن الحسين صاحب المؤلفات القيمة العديدة المتوفى ٣٤٦ هـ ، والإصطخري إبراهيم بن محمد صاحب صور الأقاليم وكتاب «مسالك الممالك» المتوفى ٣٤٦ هـ ، والرحالة المشهور محمد بن حوقل صاحب «المسالك والممالك» المتوفى ٣٨٠ هـ ، والمقدسي محمد بن أحمد شمس الدين أبو عبدالله صاحب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» المتوفى ٣٨٠ هـ ، والبيروني محمد بن أحمد صاحب التآليف القيمة العديدة المتوفى ٤٤٠ هـ ، والشريف محمد بن محمد الإدريسي أبو عبدالله صاحب «نزهة المشتاق» وكتاب «المسالك والممالك» المتوفى ٥٩٠ هـ ، وشهاب الدين أبو عبدالله الحموي، المعروف بياقوت، صاحب الكتاب القيم «معجم البلدان» المتوفى ٩٢٩ هـ ، وغيرهم من العلماء ممن ساهموا في النهضة، وأضافوا إلى العلم الجغرافي نتائج فكرهم وجهدهم، وألفوا كتبا مختلفة في جوانب منوعة للعلم الجغرافي، ونبغ فيهم من أبطال الملاحة والرحلات البحرية كأسد البحر مخترع الإبرة المغناطيسية أحمد بن ماجد المتوفى ٩٠٤ هـ ، والذي قطع البحر الواقع بين

إفريقيا والهند مرارا وتكرارا بمغامرة نادرة، وقام بالملاحة في البحور المجاورة، بالإضافة إلى ما ألف في هذا الاختصاص من الكتب التي تبلغ في عددها نحو ثلاثين كتابا.

ولكن همة العرب وأصالتهم العملية بدأت تتضاءل بل وتضعف منذ القرن السادس، مع أن عددا من الرجال الجغرافيين قد زانوا هذه العهود الأخيرة أيضا ببحوثهم واكتشافهم.

وفي القرون الأخيرة لما كان المسلمون يتأخرون عن السبق والامتياز في كل مجالات الحياة المعاصرة ومنها المجالات الجغرافية أيضا، كانت الدول الأوربية تتقدم فيها بخطى واسعة، فاكتشفت القارة الأمريكية واستعمرتها، كما وضع علماؤها خرائط جغرافية دقيقة، وقاموا بجولات جغرافية إلى البر والبحر، حتى استطاعوا من توسيع الرقعة الأرضية التي عرفوا كيف يدخلونها بتجاراتهم، ثم يفتحونها بسياستهم ثم بجيشهم وأسلحتهم.

وجاءت هذه القرون الأخيرة من التاريخ المتأخر كقرون تخلف وضعف واستكانة لشعوب المسلمين جميعاً، لم يكن منها في هذه المدة الطويلة الأخيرة من حياتها إلا الانصياع لما يصب عليها من الشعوب الأوربية القوية، وبقيت منصرفة عن إصلاح نفسها فضلا عن أن تهتم بشؤون أخواتها وشقيقاتها، مع أن المجال كان واسعا للتدبر في ظروفها وأوضاعها، والاعتبار بما كان لها من مجد سابق وبما آل إليه أمرها.

وكانت الأمم الأوربية تريد أن تبقى الشعوب الإسلامية متفرقة متحاربة فيما بينها، حتى لا يحصل لها تجمع يكون سببا لوحدتها وقوتها وصمودها أمام الأعداء، وبهذا التفرق الشديد الذي أصيبت به الشعوب الإسلامية فيما بينها استطاعت الدول الأوربية إسقاط دولة إسلامية بعد دولة إسلامية أخرى في العالم.

فكانت الشعوب الإسلامية في هذه الظروف أحوج ما تكون إلى التضامن بينها، وتضافر الجهود لعودتها إلى الحياة الشريفة.

وقد جاءت الأوامر الصريحة في كتاب الله وسنة رسوله بتضافر الجهود وتوحيد الصفوف وتكوين وحدة شاملة حافلة، يقول الله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم). (الحجرات: ١٣)، وجاء فيه:

(إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون). (المؤمنون: ٥٢)، وجاء في الحديث الشريف: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». (رواه مسلم فى صحيحه واحمد في مسنده).

وما أكثر ما يقع الاشتكاء لأطراف من هذا الجسد الواحد، وهو ما يقتضى من الجميع أن يتفاعلوا مع هذه الشكوى بالسهر والحمى، ولكن كيف يمكن هذا بدون أن تكون هناك معرفة للأخ عن أخيه وعن أوضاعه، وهذا هو موضوع التضامن الإسلامي الذي يخصّ المسلمين الاهتمام به أكثر من غيرهم من الأمم والشعوب الأخرى، لكثرة ما ورد في شأنه من أوامر ربهم ونصائح رسولهم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (رواه البخاري عن أنس مرفوعاً). ولما بزغت شمس الإسلام في جزيرة العرب وفي مكة بوجه خاص كان من المعقول أن يكتفي الرسول عليه السلام بالإقامة في بلده الأول، ويجعله مقرا وحيدا، ولا يهاجر إلى بلد بعيد من بلده الأول بأكثر من أربعمائة كيلو متر، ولكنه هاجر فجمع في حبه وطنه بلدين مختلفين، ثم لما قوى أمر الإسلام لم يكتف رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم بحصر جهوده في منطقة محدودة، بل أرسل كتبا ورسائل دعوة إلى الملوك والأمراء من حوله، بعيدين كانوا أو قريبين من مركز حكمه صلى الله عليه وسلم، فأشار بذلك إلى عالمية الإسلام، ومن ذلك اقتبس خلفاؤه من بعده الروح والهداية، وأرسلوا جيوشا إلى الغرب والشرق، فانفتح لهم الطريق إلى إفريقيا الشمالية وإلى الأندلس في الغرب، ودانت لهم فارس والسند في الشرق، واتسعت رقعة البلاد الإسلامية بالصورة العالمية، ووُجدت أمة الإسلام في كثير من المناطق والأقاليم المختلفة جغرافيا وعمرانيا، ثم توزعت هذه المناطق المختلفة إلى حكومات ودول ووحدات سياسية مختلفة، لم يكن يربط بينها إلا رباط واحد وهو رباط الأخوة الإسلامية الدولية، ويجمعها مركز واحد وهو محط رحال الحجاج مكة أم القرى.

إن المناطق الإسلامية المختلفة في هذه الأرض ذات خصائص وإمكانيات مختلفة، ولها ظروف وأوضاع متباينة، بعضها بحكم طبيعة هذه المناطق، وبعضها بتأثير الضغط الاستعماري الغاشم، كما أن الله سبحانه وتعالى وهب مناطق منها صلاحيات ضخمة وقوى جبارة، يمكن أن تكون أداة إغاثة ومواساة فيما بين المناطق الشقيقات الإسلامية، فلو أن كل المناطق شعرت

بمسئولياتها نحو شقيقاتها لكانت الأمة الإسلامية أمة واحدة حقا، وتحقق الوصف القرآني للمسلمين بالأمة الواحدة.

ثم إنه ليست وحدة الأمة وحدة نظرية، بل إنه وحدة الآلام والآمال، ووحدة العلم والقوة، ووحدة الوزن السياسي على الصعيدين العالمي والمحلي جميعا، ولذلك رأينا أن قوى الاستعمار لم تهتم بشيء ضد المسلمين كما اهتمت بالتفريق بين أجزاء كيانهم العالمي أو شبه العالمي، فما كان تفتيت الخلافة العثمانية في أوائل هذا القرن إلا نتيجة لهذه السياسة، وما كان خوف المستعمرين لقيام التضامن الإسلامي الواحد إلا نتيجة لسياسة الاستعمار المفرقة، ولو لم تكن جهود الملك الراحل جلالة فيصل بن عبدالعزيز المتوالية، وتعاون حكام من المسلمين معه في هذه الجهود مثل الشهيد أحمد وبللو وغيره لما ظهر على الأفق العالمي هذا الاتحاد الكريم بين دول الإسلام وأقطاره في العالم، الذي هو مقصد آمال المسلمين وأمانيهم اليوم، ثم إن ثروات الأقطار الإسلامية وإمكانياتها تمهد للوحدة والتضامن تمهيدا لائقا، وتسهل لها تسهيلا عظيما، فإن خامات عديدة لثروات عظيمة توجد أغلب مقاديرها في عدد من أقطار الإسلام بحيث يمكن معها إذا تضامنت هذه الأقطار أن يجد العالم نفسه مضطرا لاحترام الصوت الإسلامي ومراعاة الانفعال الإسلامي، ولقد شهدنا صورة من ذلك في منع ضخ البترول إلى الدول المعارضة لمصالح الدول الإسلامية، وكان ذلك يرجع إلى بطولة القائد الشهيد فيصل بن عبدالعزيز.

وفي الوقت نفسه نرى أمما أخرى غير الأمة الإسلامية تعمل بالتضامن بين أفرادها وأجزائها كلما لزم ذلك، فنرى دول الغرب تساند الواحدة أخراها إذا كانت هناك مصلحة تتصل بالقومية الغربية أو الدين المسيحي، مع أنها تكون في غير هذه الحالة عدوة لها متحاربة معها على أهداف معينة.

وتسير الأمة اليهودية على مبدأ التضامن بصورة أقوى، فإن حادثة ليهودي تقع في ناحية من العالم تثير الحمية اليهودية في أفراد هذه الأمة مهما كانوا بعيدين عن هذا اليهودي المصاب، وتمتاز الجالية اليهودية في أميركا بهذه الحمية، فما إن يبدو لها أن سوءا قد يصيب اليهود في إسرائيل إلا ويبدأ مفكرو هذه الجالية وأدباؤها ورجال الإعلام والسياسة منها بحملة أدبية عاتية في الصحافة والإذاعة والتلفزيون بالمقالات والتعليقات، وبرسائل الاستنكار والإيضاح

إلى رجالات الفكر والسياسة والحكم، ويقيمون ضجة ينخدع أو يتأثر بها المسئولون والمواطنون في الولايات الأميركية، فيصبح اتجاه الرياح السياسية والبرلمانية في صالح إسرائيل واليهود، في الوقت الذي نجد الجالية العربية والإسلامية في تلك البلاد لا تقوم حتى بالدعاية الشرعية الضرورية.

ليس اليهود في الولايات المتحدة الأميركية إلا نحو ٤٪ من مجموع السكان، ولكنهم يستخدمون جميع طرق التأثير الأدبية منها والسياسية، فيتمكنون من البلوغ إلى أهدافهم في نصرة إسرائيل بالقدر الذي لا تنجح به إلا جالية ضخمة ذات عدد كبير وطاقات واسعة، وذلك لمجرد أنهم يتفانون في استغلال الإمكانيات المتوافرة لهم من علمية وأدبية ونفسية، ويجندون طاقاتهم الإنسانية في هذا المجال، فقد كانوا يرسلون أكثر من طائرة مملوءة أدوية وأدوات طبية مع جماعة من الأطباء الأخصائيين كل مساء من يوم الجمعة من نيويورك إلى تل أبيب لمدة يومي العطلة الأسبوعية وذلك أثناء الحرب الإسرائيلية لمداواة جرحاهم في الحرب لأجل الإسعاف الطبي نحو إخوانهم في الدين والعنصر، يرجعون إلى نيويورك صباح الاثنين ليعودوا إلى أعمالهم. أليس هذا تضامنا أخويا ينشط فيه من يجد في تعاليمه الدينية توصيات بها كما يجدها المسلمون في قرآنهم وسنة رسولهم وحياة أسلافهم العظماء.

ولما وجب علينا التضامن والتعاون والمواساة الأخوية على الصعيد الإسلامي الواحد، فعلينا أن نجعل العلم الجغرافي يلعب دورا هاما في تحقيق هذا التضامن، لأن أوضاع الشعوب الإسلامية القاطنة في مختلف أرجاء المعمورة ليست كوضع شعب واحد، ولا يمكن معرفة الأوضاع المختلفة لهذه الشعوب إلا باستعراض الأحوال الجغرافية لها، ومن هنا تتشعب فروع جديدة لأحوال هذه الشعوب، فمنها ما يتصل بالوضع الاقتصادي والطبيعي، ومنها ما يتصل بالوضع العمراني والمدني، ومنها ما يتصل بالوضع الثقافي والديني، ومنها ما يتصل بالوضع السياسي والدولي.

ويستطيع التضامن الإسلامي أن يؤدي في كل فرع من هذه الفروع مسئوليته وواجبه، وإذا تيسر له العمل الكامل لأداء مسئوليته وواجبه نحو هذه الفروع المختلفة فإذن يحصل للأمة الإسلامية مناعة وقوة لا تعادلها قوة ومناعة، وذلك لأن عدد المسلمين في العالم ما يقارب ربع سكان المعمورة في عدد النفوس وفي عدد الأصوات في جمعية الأمم المتحدة أيضا، ويوجد

لهذا الربع من سكان الأرض من أسباب الوحدة والتضامن ما لا يوجد لغيره في العالم، فثلاثة أرباع سكان هذه الأرض وهم غير المسلمين موزعة بين أديان ونزعات مختلفة متباينة، بحيث لا يرجى التقارب فيما بينها، وهي بتفرقها تصبح أقليات مختلفة، أما المسلمون فيصبحون بوحدتهم الإسلامية بالنسبة إلى غيرهم أغلبية وقوة كبيرة، ويدل تاريخ المسلمين في قرونهم الماضية أنهم غلبوا دائما بطاقتين عظيمتين: طاقة الايمان، وطاقة الوحدة. وقد جاء في كلام الله سبحانه وتعالى: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين). (آل عمران: ١٣٩)، (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا). (آل عمران: ١٠٣). ويدل تاريخ المد والجزر في الإسلام على هذه الحقيقة الناصعة، فما فقد المسلمون الأندلس إلا لأن الأقطار الإسلامية الأخرى كانت مشغولة بنفوسها، غير عابئة بما يقع في قطر من أقطار الإسلام. وما كانت غلبة التتار في بغداد إلا لأن أغراض المسلمين في أنحاء العالم كانت موزعة إلى جهات مختلفة، وما استعاد السلطان المجاهد صلاح الدين أرض القدس المقدسة إلا بعد نجاحه في توحيد كلمة المسلمين وجمع الملوك المتفرقة تحت لواء إسلامي واحد، أفليس المسلمون اليوم قادرين على أن يستعيدوا القدس وكل أرض مسلوبة منهم بتوحيد كلمتهم وجمع أنفسهم تحت لواء إسلامي واحد، ترفعه الأيدي المؤمنة؟ فهل يعد غريبا إذن نجاح المسلمين وبلوغهم إلى تحقيق وعد الله سبحانه وتعالى: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).

ونحن إذا جندنا العلم الجغرافي في مجالات الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد التي يسكنها المسلمون، لعرفنا ما هي جوانب الضعف في بلد من هذه البلدان، وكيف يمكن إزالتها أو معالجتها بمعونة بلد إسلامي آخر، يقدر أن يتداركها بطاقة فائضة من طاقاتها، فهناك أقطار إسلامية وشبه إسلامية في العالم أغلب أراضيها قاحلة، لا تخرج لأهلها ما يكفيهم من قوت وغذاء، وهناك أقطار أكثر أراضيها رمال أو فياف جرداء، لا تملك نهرا يفيض طول السنة، ولا تنال من ماء السماء ما يزيل كربتهم وبؤسهم، ولكنه توجد بجنبها أقطار فيها أراض خصبة وطمي غني وأنهار فائضة، أفليس من الممكن أن يتضامن هذا القسمان من الأقطار فيما بينهما في هذه المجالات التي تحتاج إلى عمليات الأخذ والإعطاء؟ بل توجد من بين أقطار المسلمين في العالم بلدان تملك من ذخائر بعض الخامات ما تسد بها خلل العالم كله. فلننظر في هذا المجال إلى مكانة الماليزيا من ثروات المطاط والقصدير، وإلى مكانة الشمال الإفريقي وسواحل البحر المتوسط الشرقية من ثروات العنب والزيتون، وإلى مكانة سواحل الخليج العربي

المختلفة والمنطقة الشمالية الغربية لإفريقيا من ثروات الذهب الأسود، وهناك أمثلة أخرى من هذا القبيل لا داعي هنا إلى الإفاضة فيها.

وهناك أقطار في العالم الإسلامي لم تتمكن من بناء كيانها الثقافي والديني بناء لائقا، فهي بسبب إمكانياتها الضعيفة وهممها الواهنة لا تستطيع أن تهتم بهذه الناحية من الحياة، وهي بضعفها في هذه الناحية لا ترى أنها جزء مهم من الأسرة الإسلامية الدولية الواحدة، فلا يتبادل فرد من أفرادها آلام الفرد الآخر وآماله، ولا يتبادل أحزانه وأفراحه، ولا يصبح جزءا لائقا للجسد الإسلامي الواحد الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

فلو أن الأقطار الإسلامية التي تملك من ذخائر الثقافة والعلم الديني في صورة رجال أو مشاريع وأعمال بذلت فائض ذخائرها للأقطار التي لا تملك منها شيئا ذا بال، وتضامنت معها تضامنا مخلصا حكيما، لحصل تقارب كبير بين أجزاء الأسرة الإسلامية الواحدة في الآمال والآلام، وفي وجهات النظر والاتجاهات العقلية، وهي إذا توحدت وتضامنت لاستطاعت أن تشكل قوة جبارة، لا يمكن أن تتقهقر أو تندحر في أي جبهة من جبهات الحياة الدولية الواسعة. إن عيون المسلمين ترى اليوم بوضوح ما يقع في القطر الأندونيسي المسلم من تنصير شامل، وتحويل هذا الشعب الإسلامي العظيم الذي يعد أكبر شعب إسلامي في العالم من جهة عدد أفراده إلى شعب غير إسلامي كافر، فقد تمكن الأعداء من أن يتملكوا ناصية هذا الشعب الفقير المسكين، واستغلوا ظروف فقره وضعفه في الثقافة الإسلامية، فوضعوا المشرحة عليه ليقطعوا هذا العضو الكبير من جسد الأمة الإسلامية، وكل ذلك يقع على مرأى من شعوب الإسلام الأخرى في العالم ومسمعها، وهي لا تقدم نحو ذلك إلا كلمات الأسف والتأبين وحدها، كأن شعوب الإسلام الأخرى في العالم لا تملك من الإمكانيات الدعوية والمعدات الاقتصادية والوسائل العملية المفيدة ما تستطيع به معالجة هذا الخطر وتدارك الأمر قبل فواته، مع أن العالم الإسلامي اليوم يشتمل من المنظمات الإسلامية ذات الطاقات الكبيرة والإمكانيات الهائلة على ما لم يكن يشتمل عليه قبل اليوم، ولا داعي هنا إلى سرد أسمائها وذكر إمكانياتها ووسائلها الجبارة.

لقد أصبح التنصير اليوم أكبر خطر على الإسلام بعد أن نظمت ضده المنظمات التنصيرية

في العالم حملة دعوة وتنصير شديدة، يسندها من ورائها الحكومات الأوربية وأميركا والفاتيكان بطرق خفية، وفي نفس الوقت يكثر دعاة التنصير لفت نظر المسلمين إلى وحدة الأديان، وضرورة تضامنها على صعيد وحدة ورودها من السماء، وهم يتوخون بذلك أن يكسبوا من المسلمين المهادنة معهم، مع أنهم يسعون في نفس الوقت إلى تحويل شعوب بأكملها من الإسلام إلى النصرانية، ويستخدمون في ذلك طرق المواساة الطبية والاقتصادية، وطرق الدسائس والسياسات الغاشمة.

فقد يتعجب رجل من تفصيل الكلام في هذه النقطة، ويسأل عن ارتباطها الوثيق بموضوع البحث، ولكن هذه النقطة من صلب الموضوع، لأن الطريقة الأوربية في احتلالها السياسي للأقطار الضعيفة، واحتلالها الديني للشعوب الفقيرة والجاهلة، تعتمد على الوسائل الجغرافية أكثر من اعتمادها على أي أمر آخر، فإن علماء أوربا يقومون أولا بالتحقيقات الجغرافية الشاملة لجوانب هذه الشعوب والأقطار، يجمعون معلومات عن طقس البلاد وتضاريسها التي قد تواجهها البعثات والإرساليات المسيحية، وعن خصوبة البلاد واقتصادها وفقرها حتى يمكن استغلال الظروف والاستفادة بها في الوصول إلى الغرض المطلوب، وعن وضع الشعوب الثقافي والديني والفكري حتى يمكن تحديد مواضع النفوذ العقلي، وأساليب التأثير والإقناع، وعن وضع البلاد السياسي والحكومي حتى يمكن للإرساليات اجتناب خطر المواجهة السافرة، والقيام في نفس الوقت بطريقة يحصل بها التغلب العملي على منابع القوة والغلبة في البلاد، فتكون الإرساليات بعد ذلك في مأمن من أي اصطدام خطير مع القوى المعارضة.

إنه لا يمكن معرفة الطرق الخفية الحكيمة التي يستخدمها أعداؤنا في الأمم القوية إلا بعد فحص دقيق لمن لم يكتووا بنارها سابقا، ولكن الشعوب التي خضعت خلال فترة واسعة للاحتلال والاستعمار تعرف هذه المكائد في أغلب الأحوال، فنحن إذا بحثنا في الحياة المدنية والعلمية لهذه الشعوب لوجدنا أن المدنية والعلم قد سارا في زمن الاحتلال خطوات واسعة، فنرى أن المسح الجغرافي الشامل للبلاد قد تم على أحسن صورة ، ووضعت خارطات دقيقة للإمكانيات المادية للبلاد وللظروف والحالات الخاصة لها، ثم بدئ عمل تطوير البلاد وتنشئة الأجيال على أساسها. لماذا كل هذه المواساة والتطوير؟ ولماذا كل هذه الخدمة الكبيرة للعلم والمعرفة؟ هل في سبيل الإنسانية ولمجرد الإخلاص لهذه الشعوب؟ لا، بل لأن في ذلك

ضمانا لترسيخ أقدام الاحتلال والاستغلال في البلاد، وهو مقتضى حكمة التنظيم وطلب التمكين في أرض الشعوب المحتلة.

ومن المؤسف جدا أن الأقطار الإسلامية البحتة لم يأخذها المسح الجغرافي الكافي إلى اليوم، أما القدر الذى حصل منه والذي نستفيد به في كتبنا ودراساتنا أكثره بجهود المستشرقين، وأغلبهم وكلاء الشعوب القوية التي تستهدف في كل أعمالها الاستعمار والاستغلال، ثم إن أكثر أعمال المسح الجغرافي لأقطار الإسلام إنما هي مساندة ومدعمة من منظمات الدول الاستعمارية، ومن الوضوح بمكان أن التضامن قوي وخفي بين منظمات الدول الاستعمارية، وهو يعد في سبيل العلم، ولكنه يكون في غالب الأحوال في سبيل الاستعمار والاستغلال.

تسعى روسيا السوفيتية أن يتعلم شباب الشرق وخاصة الشرق الإسلامي منه في جامعاتها ودور التربية والتعليم فيها، ومنظمات أميركية تسخو بإعطاء المنح وتوسع رحاب جامعاتها ودور تربيتها وتعليمها لرواد العلم الشباب من الشرق، وتمتلئ جامعات بريطانيا وفرنسا بشباب الشرق، وكل ذلك بمجالات حسنة وأدب جم.

وتسخو الدول الكبيرة بالبذل في مجالات نشر العلم والمعرفة في الأوطان الإسلامية، مع أن هذه الدول الكبيرة قد عرف عنها مرارا أنها تتوخى أهدافا غير متفقة مع مصالح الشعوب الشرقية، وتنجح الدول الكبيرة في البذل والتعاون في هذه المجالات، لأن دول الشرق متهاونة في أداء مسئولياتها فيها، ومادام المكان يكون شاغرا فلابد من أن يملأه من لا يكون تواجده في هذا المكان في صالح أهله الحقيقيين.

إنه يجب أن تملأ دولنا ومنظماتنا كل مكان شاغر في المجالات الثقافية والفكرية لأمتنا الكبيرة المنتشرة في بقاع العالم وأقطاره، وتستغل هذه الطاقات والنتائج الحاصلة منها في مصالح أمتنا الإسلامية المجيدة، فإن مجدنا من مجد أمتنا وليس نابعا من مجد أمة أخرى غير أمتنا، ولابد من التضامن الإسلامي الشامل في جوانب الحياة الثقافية والدينية للأمة الإسلامية، فإنه لا يمكن الوصول إلى القوة والمجد بدون تضافر الجهود والآمال للغرض المطلوب.

أما في جوانب الحياة السياسية فغير خفي أن الوحدات الصغيرة بتفرقها لا تقوى على

صيانة أنفسها وعلى الدفاع عنها كما تقوى على ذلك بتضافر جهودها والتضامن المخلص في أعمالها.

لقد اتبع المسلمون في عهودهم الأولى أسلوب الخلافة في الحكم والسياسة، وكانت هذه الطريقة تنظم جميع الوحدات السياسية والحكومية في سلك واحد، فكانت تنشأ أسرة سياسية واحدة محكمة في ترابط أجزائها وأفرادها، فما كان يجرؤ واحد من الأعداء أن ينظر بعين الإساءة والازدراء إلى وحدة من وحدات هذه الأسرة إلا وتنبض كل وحدة من وحدات الأسرة للذب عن الجزء المصاب من كيانها الكبير، فقد ارتفع صوت من زبطرا: وا معتصماه، فأصاب الخليفة العباسى المعتصم بالله الغيرة، فنهض لتلبية الصوت والذب عن المظلوم، مع أن الطقس لم يكن ملائما لمثل هذه الخطوات، وكان أهل العلم والحزم ينهونه عن الإسراع في هذه التلبية، ولكن الخطوة كانت بالإخلاص ولغرض نبيل، فكانت موفقة وناجحة.

لقد قام بدعوة التضامن الإسلامى قبل عقدين من السنين الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، وساعده وناصره الحاج أحمد وبللو في نيجيريا، فبدأت الدعوة تخط طريقها إلى الأمام، وإن كان أعداؤها من الشرق والغرب كانوا يناوئونها بكل معداتهم ووسائلهم، ولكن الخطوة كانت مزدانة بالغيرة وطلب الخير للأمة الإسلامية، فقطعت شوطا واسعا إلى أن بلغت إلى حد الإنتاج المفيد، وإلى مبلغ القوة والتمكن، ونشأت أسرة إسلامية دولية في المجال السياسي الدولي، يرجى أن تقوى وتزدهر فتصبح يوما من الأيام دوحة مختلفة الفروع والأغصان وافرة الظلال بعد أن كانت غرسا وفسيلة في بداية أمرها.

هذه الفكرة الجليلة التى نادى بها وعمل لها الملك العربى الشهيد والزعيم الإفريقي الشهيد أصبحت اليوم بحيث يفهمها الناس فهما جيدا، وأصبحت تستساغ في العقول والأذهان، ولم تعد فكرة مجهولة أو خطة نظرية مجردة، فيجب أن تتقدم وتزدهر وتؤتي أكلها المطلوب. ويجب أن نعرف أن تطبيق هذه الفكرة وتنفيذها مرتبط بالجوانب الجغرافية لتلك الشعوب الإسلامية التي يؤدي التضامن الإسلامي عمله فيها، وعندما يوضع التضامن الإسلامي في المحل الصحيح من هذه الجوانب الجغرافية فإنه سيأتي بخير النتائج في هذا المجال.

دور المجموعة الاسلامية فى المؤتمر العالمى لتنميط الأسماء الجغرافية

دكتور / عبدالهادى التازى

عندما سعدت بدعوة جامعة الإمام محمد بن سعود للمشاركة في المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول تراقصتْ أمامي طائفة من الموضوفات المطرفة التي كنت أهتم بها في تلك الأثناء، فلقد فكرت في تقديم مجموعة نبيور (Neibuhr) وميكاليس (Michaelis) حول المعلومات الجغرافية التي قدماها عن الجزيرة العربية أواسط القرن الثامن عشر(١).

كما فكرت في تحقيق لما ورد في (نزهة الآفاق) مما يتعلق ببلاد المغرب باعتباره من عيون تراث الجغرافيين المسلمين المتقدمين(٢).

لكني، وقد عشت في صيف ١٩٧٧ مع المؤتمر العالمي لتنميط الأسماء الجغرافية، آثرت أن ينصبَّ تدخلي على موقفنا كمجموعة إسلامية من هذا المؤتمر. وهل أننا سنظل مكتفين بالحديث عن جهود الجغرافيين المسلمين القدامى أم أن واجبنا ـ كما أحسست ذلك من ورقة العمل لمؤتمر الرياض ـ يقضي أن نلتفت إلى الحاضر ونتطلع لآفاق المستقبل.

لقد كانت منظمة الأمم المتحدة أول من شعر، أو بالأحرى أول من فكر في أهمية البحث حول الوسائل الناجحة لضمان التراث الثقافي للأمم وحمايته من التهجين المشوّه وفي آن واحد جمع الرأي على «قاموس دولي لأسماء البلدان» مكتوبا بالطريقة الصحيحة السليمة، وهكذا اتخذ المجلس الاقتصادي والاجتماعي (E.C.O.S.O.C) قراره بتاريخ ١٦ يولية ١٩٦٥م لمعالجة الموضوع.

ومن هذا المنطلق تم عقد المؤتمر الأول بجنيف في سبتمبر ١٩٦٧م، وكان المؤتمر الثاني بلندن في شهر مايو ١٩٧٢م، وكان المؤتمر الثالث الذي انعقد أخيرا بأثينا في ١٧ اغسطس ١٩٧٧م والذي كان لي شرف رئاسة الوفد المغربي فيه.

وحتى أعطى فكرة عن النظرة الجدية التي ينظر بها العالم إلى ذلك المؤتمر أذكر أن عدد المشاركين فيه من الوفود الحكومية بلغ نحوا من ستين دولة، تنتمي لكبريات الأمم، وأكثرها إدراكا لأهمية الموضوع، هذا إضافة إلى إحدى عشرة مؤسسة علمية متخصصة ممن كانت ترى أن حضورها ضروري في ذلك اللقاء.

ولست هنا بصدد الحديث بتفصيل عن جدول أعمال المؤتمر ولا عن اللائحة الداخلية.. ولكني مع ذلك أرى من المفيد أن أثير الانتباه إلى بعض النقاط التي علقت بالذهن مما يبرز أهمية.. ومدى صلته ببعض موضوعات مؤتمر الرياض.

لقد عالج جدول الأعمال في صدر ما عالج تقارير الدول المشاركة حول التقدم الذي أحرزته فيما يتعلق بتنميط الأسماء الجغرافية ببلادها. بعد المؤتمر السابق، وفي هذا الصدد توفرت لدينا بعض المعلومات التي قدمتها معظم الدول حول الموضوع على الصعيد الوطنى سواء ما يتعلق بالبحث عن المعطيات المتعلقة بالأسماء الجغرافية أو ما يتعلق بالهياكل الإدارية للمنظمات التي تهتم بتلك الأسماء.

وقد عالج جدول الأعمال كذلك موضوع تكوين الأطر اللازمة لتحقيق تلك الأهداف على الطريقة العلمية والفنية الصحيحة متحدثا عن التدريبات المعلقة بالتكوين وعن مناهجها وتحسباتها...

كما عالج جدول المؤتمر ما يمكن أن نسميه «المدونة» (Nomenclature) : مدونة أو لائحة الأسماء الجغرافية التي تشتمل عليها الأقاليم والدوائر والجماعات حيث وقفنا على نماذج من تلك المدونات واستمعنا إلى طائفة من الآراء حول التعاون المتبادل من أجل إعداد المدونات المفصلة.

ومن هنا عالج جدول المؤتمر استخدام الوسائل الأتوماتيكية للاستفادة من نتائج البحوث التي تتوصل إليها الجهات المختصة بحيث يصبح في متناولنا أن نحصل على معلومات مدققة على أى موقع جغرافي بمجرد ضغط على زر في جهازٍ اليكتروني! وقد كان فيما اهتم به المؤتمر الدولي مشكلة الأسماء الجغرافية الدخيلة (Exonymes) ووسائل القضاء عليها للعودة إلى الأسماء الأصلية...

وأخيرا كان مما تناوله المؤتمر طريقة نقل الأسماء الجغرافية من لغة إلى أخرى الأمر الذي كان محل لقاءات عربية إقليمية على ما نعرف... أما عن النظام الداخلي للمؤتمر العالمي فإنه يشتمل على عدد من الفصول والبنود وهكذا فعلاوة على ضرورة الاستدلال برسائل الاعتماد التي تخول المشاركين الصلاحيات اللازمة، وعلاوة على ذلك ينص الفصل السابع على أن اللغات المستعملة في المؤتمر وهي الإنجليزية والإسبانية والفرنسية.

وإذا ما انتقلنا إلى التوصيات التي صدرت عن هذا المؤتمر فسنلاحظ من بينها توصيات تتعلق بتدوين الأسماء الجغرافية حتى يكون هناك نموذج واحد تصطلح عليه سائر الدول سواء في الشرق أو في الغرب.

كما أن هناك توصية تتعلق بتكليف الخبراء للعمل من أجل تسهيل الاستفادة من معطيات «المدونة» عن طريق الأجهزة الإليكترونية ونظرا للأهمية التي تعلق دوليا على نظام موحد لنقل الحروف العربية إلى اللاتينية، ونظرا للجهود المبذولة في هذا الموضوع... وتقديرا للنتائج التي توصل إليها بهذا الصدد مؤتمر بيروت لعام ١٩٧١م ونظرا للتعديلات التي أدخلت على نظام بيروت أثناء مؤتمر لندن وتسجيلا للصعوبات التقنية والعملية التي حالت دون تطبيق نظام بيروت المعدّل.. فإن المؤتمر الثالث لتنميط الأسماء الجغرافية يدعو الفريق العربي للاجتماع من أجل مدارسة المقترح المغربي بهدف الوصول إلى حل مقبول يعتمده خبراء الأمم المتحدة للأسماء الجغرافية لدى دورته الثامنة..

وقد اتخذ المؤتمر توصيات هامة فيما يتعلق بإعداد قواميس من شأنها تمكين الذين يستخدمونها من الوقوف بسهولة على الاستعمال الوطني للأسماء الجغرافية إلخ....

كما اتخذ المؤتمر توصيات جدّ هامة حول تكوين الأطر التي تقوم بمثل هذه التدوينات والتحديدات مشيداً بالتعاون الدولي في هذا الصدد ومهيباً بالأمم التي تتوفر على الخبرة في هذا الصدد أن تسدي العون للآخرين....

وقد تبنى المؤتمر توصية تقضي بإعداد لائحة بالأسماء الجغرافية الدخيلة كخطوة أولى لتصحيح الأوضاع.

وقد أولى المؤتمر عناية كبرى في توصياته للأسماء التي ستعطى لأعماق البحار وطبقات القضاء....

ذلكم عرض مقتضب عن المؤتمر الذي انعقد في صيف سنة ١٩٧٧م بالعاصمة اليونانية... فماذا كان دورنا نحن المسلمين العرب في هذا التجمع الضخم؟.

من بين المجموعة الإسلامية والعربية حضر المؤتمر عدد محدود من الدول:

المملكة العربية السعودية والسودان وإيران والأردن وتركيا والعراق والجزائر وموريتانيا والمغرب وقد كان من هذه الدول خمس دول حضر ممثلوها دون أوراق الاعتماد الأمر الـذي عثـر مشاركتهم بصفة فعالة، بل وأثار بعض الاستغراب من اللجنة المشرفة على المؤتمر!! وبالإضافة إلى هذه المساهمة البتراء، لاحظنا أن الجامعة العربية مع الأسف لم تول المؤتمر اهتماما، الأمر الذي دعا المجموعة الحاضرة إلى تكليفي بالاتصال بالسيد مندوب الجامعة العربية المقيم بالعاصمة اليونانية لأشرح له خطورة المؤتمر والآثار التي تتمخض عنه وخاصة فيما يتعلق بالأسماء الجغرافية التي أخذت إسرائيل تفرضها فرضا على الخريطة العالمية فيما يتعلـق بالأراضي المحتلة.

وهكذا نرى أن الوجود العربي والإسلامي في المؤتمر لم يكن في مستوى طموحنا لاسيما إذا أضفنا إلى كل هذا أن بعض الدول التي كتب لها أن تسهم في المؤتمر كانت تقوم بذلك وهي على حال من الحضور المتقطع بل فيها من حضر المؤتمر دون أن يكون مزودا لا بتقارير ولا خرائط ولا مستندات وإنما كانت تكتفي بالاستماع في أحسن الحالات.

ومن هنا يسوغ القـول بأن المجموعـة الإسـلامية كانـت شبـه متغيّبـة عن المجلس الاقتصادي والاجتماعي ولعل أكبر شاهد على ذلك أن هذا اللقاء العالمي صادف أيام شهر رمضان المعظم، ولو أنه كان لنا وجود بالمجلس المذكور لاستطعنا أن نعجل أو نؤجل المؤتمر إلى ما بعد هذا الشهر الذي لم يكن بحال مناسبا لانعقاد مؤتمر على هذه الدرجة من الخطورة وعلى أرض كأرض اليونان!

شيء ثان برز فيه الغياب الإسلامي، ذلك عندما طرحت بعض القضايا الحساسة التي تمس مبادئنا وعواطفنا، فهنا أيضا كنا محل امتحان واختبار أمام المجموعة الدولية.

وهكذا فعندما أثار الجانب اليوناني قضية الأسماء الجغرافية المستعملة من طرف تركيا لتعيين بعض المواقع في قبرص، شاهدنا صراعا عنيفا بين تركيا واليونان حول الآثار المترتبة على ما سمّـي بالاحتلال العسكري للجزيرة.

وكانَ الأمر محيرا بالنسبة للمشاركين من دول العالم الإسلامي، فقد كانت التـوصية المقترحة من طرف اليونان على صياغة حاذقة بحيث إنها تخدم قضيتنا نحـن مع الأسماء

الجغرافية التي حوّرتها إسرائيل في أعقاب سطوها على الأراضي العربية، وكانت شبه إدانه مغلّقة لإسرائيل بالرغم من أنها لم تذكرها صراحة.

لكن التوصية من جهة أخرى كانت مثار احتجاج من الجانب التركي الذي كان يتصل بكل طرف من الدول الإسلامية الحاضرة مؤكدا أن الهدف كان هو اسطانبول وليس تلّ أبيب، وعبثاً كان تدخلنا لدى الوفد اليوناني من أجل سحب هذه التوصية باعتبارها عملا سياسيا يتجاوز مهمتنا كعلماء ـ وتعلمون أن المؤتمر كان يجرى على أرض أثينا ـ وعبثاً كان تدخلنا لمطالبة الوفد اليوناني بالنص على إسرائيل، الأمر الذي كان الوفد يتحاشى عنه لما أن قصده كان واضحا لدى العموم.

وأعتقد أنه لو كانت المجموعة الإسلامية ممثلة على أوسع نطاق لكان لنا ما نريد في الضرب على يد الذين يساندون إسرائيل في تعسفها وفي تهويدها لأسماء عتباتنا المقدسة في الأرض المحتلة، ولكان لنا ما نريد في مساندة إخواننا الأتراك في قضيتهم بقبرص.

لكن المساهمين من عالمنا وهم قلّة لم يستطيعوا أن يتخذوا موقفا يميزهم عن المجموعات الأخرى بل إنهم على قلتهم توزّعوا إلى ثلاث مواقف فكان هناك المصوتون مع التوصية باعتبارها شجبا أيضا لتصرفات إسرائيل، وكان هناك المصوتون ضدها باعتبارها تمس تركيا أولا بالذات، وكان هناك الممتنعون عن التصويت!

لقد تعمدت تقديم هذه اللقطة للمؤتمر لأنها فعلا أخذت من الاجتماعات كثيرا من الوقت الذي مضى في المراشقات والمهاترات وطرح نقط النظام، وتعمدت كذلك بإيرادها إلفات النظر بصفة أكثر إلى إحدى نقاط الصراع الساخنة، لاسيا ونحن نعيش مع جيش الاحتلال الإسرائيلي هذه المشكلة. بل إن المشكلة الأساس بيننا وبين الذين سطوا على أرضنا وأخرجونا من ديارنا كانت مشكلة عدوان على الجغرافية والتاريخ.

وليس من حقي ـ مع كل هذا ـ أن أغفل النواحي الإيجابية لمشاركة الوفود الإسلامية في لقاء أثينا، فقد استمع المؤتمر لأول مرة إلى ملتمس يهدف لجعل اللغة العربية ضمن لغاته الرسمية فلقد فوجئنا هناك بأن اللغة الروسية والصينية واليونانية استعملت أيضا في المؤتمر، بالرغم من أن لغاته الرسمية تقتصر على الإنجليزية والأسبانية والفرنسية. كما ولقد ارتفع

الصوت العربي يندّد بالعدْوان على التراث العربي بأرض الإسلام في القدس. وأصغى المؤتمر لعدد من التدخلات الهادفة البناءة التي تقدم بها بعض المندوبين العرب.

وقد أشادت سكرتارية المؤتمر بالملفات الكاملة التي تقدمت بها بعض الوفود والتي كانت تستجيب لسائر النقاط والعناصر الواردة في جدول الأعمال، وكانت أيضا لا تتردد في طرح المشكل ولا تترفع عن البحث مع المجموعة الدولية عن الحلول المناسبة.

إنما مع كل ذلك. فنحن نطمح لأن تكون إفادتنا وإستفادتنا مع المؤتمر على مستوى يجعلنا نسهم في أعماله تيسيرا وتسييرا.

ومما تنبغي ملاحظته بهذا الصدد أن نسجل ترحيب الخبراء والعلماء ممن عرفتهم زوايا المؤتمر منذ سنوات، بكل المعلومات العربية الأصيلة التي تقدم لهم عن عالمنا. إنهم فعلا يتوقون إلى معرفة الأشياء على حقيقتها يريدون أن يقفوا بجدّ على مختلف الجوانب التي كانوا ينظرون إليها من زاوية غير التي تستحق القصد.. وهم يعزون قلة استعدادهم فيما يتعلق مثلا باستعمال اللغة العربية إلى أن التقارير العربية لم تصلهم في الوقت المناسب وأن المؤتمر إلى جانب هذا يشكو العجز المادي فلو أن المجموعة الإسلامية تنبهت في الوقت المناسب أيضا لأمكن ترديد الحرف العربي بين جدران شاندريس.

ولهذا فاننا نعتقد أن في أهم واجبات (لجنة التراث الجغرافي) أن تولى اهتمامها للمؤتمر الدولي لتنميط الأسماء الجغرافية باعتباره مجالا صالحا ومفيدا وخصبا لإبراز جهود الجغرافيين والرحالة المسلمين ولإثراء (المدونة) الجغرافية العربية بالأسماء الحقيقة للمصطلحات..

إن على مؤتمرنا الاسلامي المنعقد بالرياض أن يصدر توصية إلى سائر الدول الإسلامية لكي تشارك من الآن فصاعدا في هذا المؤتمر العالمي للأسماء الجغرافية حتى يكون تمثيلنا الرابع الذي سينعقد في إيران سنة ١٩٨٢ تمثيلا كاملا يحقق أمانينا في التعريف بتراثنا، وفي فرض الأسماء التي نتفق عليها على العالم الآخر فلا يبقى له عذر في التحريف والتزييف.

على مؤتمر الرياض أن يحصل على جميع الوثائق المتعلقة بالمؤتمرات السابقة، فإن فيها زاداً لا يمكن الاستغناء عنه لمن يهتم بأسماء المدن والمواقع والأمكنة الاسلامية بل ان فيها جوانب

هامة تتصل بترابنا وتراثنا وسيكون من الإهمال عدم تطلعنا إلى استيعاب ما راج تلك المؤتمرات...

على مؤتمرنا الدولي المنعقد بالرياض أن يصدر توصيته إلى مختلف الجهات المعنية في الحكومات الإسلامية حتى تعقد لحضور المؤتمر القابل على النحو الذي يجب، أن تعمل تلك الجهات من الآن على إنشاء اللجان الوطنية لتنميط الأسماء في دولها، وعلى إعداد «مدونة» للأسماء الجغرافية الموجودة في أقاليمها وفي دوائرها... وعلى جرد بالأسماء الدخيلة التي تسربت إليها من خارج البلاد عن طريق الاحتلال أو التسلّل...

على مؤتمرنا الدولي المنعقد بالرياض أن يصدر توصية إلى الحكومات الإسلامية بضرورة التشاور فيما بينها حول إعداد الملفات حتى تظهر الوفود الإسلامية أكثر التحاما وأقوى انسجاما!

إن حضورنا في مثل تلك المؤتمرات ليعبر بصفة لا تقبل الجدل عن اهتمامنا أولا بتقدير التراث الذي نمتلكه وهو ثانيا يعزز إحدى واجهات نضالنا ضد المسخ الذي لحق بعض البلاد الإسلامية في أعقاب احتلالها من الدول الاستعمارية، وفي أعقاب المسخ كذلك الذي يلحق اليوم بمواقعنا في القدس الشريف ثم ومن جهة ثالثة يجعل العالم العربي ينطق بأسماء قواعدنا ومدننا على النحو الذي ننطق به نحن ونختاره نحن... وأخيرا فإنه يجعل العالم كله على جلّية من درجة تعلقنا بأماكننا ومواقعنا وبالتالي فإن حضورنا يفرض على العالم الاحترام للبقاع المقدسة التي شاهدنا ـ مع الأسف ـ ذوي النزعات الصليبية يسمحون بإطلاق اسمها على بعض الأندية الليلية في أوربا.

كم يكون مفيدا أن نوصي سفراءنا في مختلف البلاد الأجنبية أن تقوم من خلال أدلة الهاتف، وأدلة الفنادق والمقاهي والملاهي بجرد لتلك الأسماء للاحتجاج على المتساهلين فيها.. «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة» (آل عمران: ٩٦). ولذلك فمن حقنا على كل الذين يخطبون ودنا أن يكون اسم (مكة) عندهم منقوشا في سجلاّتهم حتى لا يتفكهوا به ولا يتندروا.

وإن على (لجنة الجغرافيا السياسية) وهي تدرس مشكلة فلسطين وكشمير والفلبين أن لا

تنسى إخوة لنا يعانون من كتم الأنفاس في جهات أخرى تتضايق من أن يذكر الإسلام على أرضها، وتعمد إلى محو كل أثر من آثاره على أرضها حيث أصبح المسجد متحفا والحيّ العربي مقصفا.

وإن على (المؤتمر الجغرافي الإسلامي) أن يخرج بتوصية تدعو لإعداد أطلس إسلامي يكون حصيلة للبحث العلمي الدقيق وللمعطيات الوطنية لكل قطر في العالم الإسلامي.

وستطالبنا المؤتمرات اللاحقة بإعداد مئات الأسماء التي تعطى لمناطـق القمر، وطبقات المياه فما هي الأعلام العربية التي سنُسهم بها في تعيين هذا الموقع أو ذاك في الجو أو البحر؟.

وأخيرا فإن لي رجاء أعرب عنه في ختام عرضي، ذلك أن يتخذ من هذا المؤتمر (مؤسسة دائمة) تتوفر على هيئة إدارية مستمرة وأمانة عامة، تظل على صلة بمختلف الجهات المهتمة بالجغرافيا الإسلامية. أي أن يوضع لهذا المؤتمر قانون تأسيسي ولائحة داخلية تجعل منه ملتقى للتشاور حول ما يهم الخريطة الإسلامية سواء في أوضاعها بالماضي أو في آفاق المستقبل.

الحواشـــي

(١) المجموعة عبارة عن أربع مجلدات عن رحلة فى الجزيرة العربية أواسط القرن الثامن عشر ، وهى مترجمة عن الالمانية طبعت فى أمستردام بين سنة ١٧٦٢ ، ١٧٧٩ ، منها ثلاثة برسم كارسطن نيبور ، والرابع برسم ميكايليس وهى نادرة وقفت على نسخة منها فى مكتبة الاستاذ أحمد الطيبى بن هيمة فى الرباط

(٢) الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق طبع ليدن بمطبعة بريل ١٨٩٤ .

بحوث فى الجغرافيا السياسية

تهـويد فلســطين

دكتور / محمد الفرا

تمهيـــد :

فلسطين قلب العالم الإسلامي الذي يمتد فيشمل مساحات شاسعة في كل من آسيا وإفريقيا، ومدينة القدس عاصمة فلسطين هي أحد مراكز الإسلام الثلاثة الرئيسية، إذ تأتي في الأهمية الدينية بعد كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، ففيها المسجد الأقصى قبلة الإسلام ومسرى النبي الكريم، وقد كرم الله سبحانه وتعالى القدس وما حولها، بقوله:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١)

وإلى جانب القدس توجد في فلسطين الكثير من المدن التي تضم العديد من الآثار والمقدسات الإسلامية، كمدينة الخليل التي اتخذها أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام محلا لإقامته، إلى أن اختاره الله إلى جواره فدفن فيها هو وزوجته سارة وأبناؤه من بعده، وعلى هذا المكان أقام المسلمون مسجدا أطلق عليه اسم الحرم الإبراهيمي.

وفي أقصى الجنوب من فلسطين حيث مدينة غزة التي كانت محط قوافل عرب الحجاز في تجارتهم إلى الشام، دفن هاشم أحد أجداد النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ولذلك ليس بمستهجن أن تحظى فلسطين باهتمام المسلمين على مر العصور، فكانوا يدافعون عنها بالنفس والنفيس، لأنهم كانوا يعتقدون أن التفريط فيها تفريط في دينهم وعقيدتهم. ولاشك في أن احتلال اليهود لفلسطين وتهويدهم لها أمر بالغ الخطورة، لأنه يهدد العالم الإسلامي بأسره، وهي ظاهرة خطيرة لم يسبق لها مثيل في جميع عصور التاريخ، اللهم إلا تلك الحملات الصليبية المسعورة التي رفعت شعار الصليب مخفية وراءه أطماعها الاستعمارية والعدوانية، وشهواتها الانتقامية من الإسلام والمسلمين.

ويمكننا اعتبار المأساة الفلسطينية مثلا حيا للواقع الإسلامي الذي يشهد اليوم جميع أنواع التحدى والتهديد، إذ لولا هذا الواقع المؤلم للعالم الإسلامي لما ضاعت فلسطين، ولما تجاسر العدو على اغتصابها، ولذلك فإن هيبة الإسلام والمسلمين رهينة بعودة فلسطين عربية إسلامية.

وإلى جانب الأهمية الدينية لفلسطين، فإنها ذات موقع استراتيجي هام، فهي تقع على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط بين درجتي عرض ٣٠ و ٢٩° و ١٠ و ٣٣° شمالا، وبين خطي طول ١٥ر٣٤° و ٤٠ر٣٥° شرقا، ويحدها لبنان شمالا والجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية شرقا، وجمهورية مصر العربية جنوبا.

وموقع فلسطين هذا هام ، فهي تتوسط العالم القديم وقاراته، وفلسطين هي المعبر الطبيعي والطريق الوحيد الذي يربط وادي النيل بوادي دجلة والفرات وبلاد الشام. ولذلك كانت على مر العصور مكانا للاقتتال، وممرا للجيوش والغزوات.

وتبلغ مساحة فلسطين ٢٦٣٠٥ كيلو مترا مربعا، وإذا أضفنا إلى ذلك نحو ٧٠٤ كيلو مترا مربعا، وهي مساحة بحيرتي طبريا والحولة التي جففت، وكذلك نصف مساحة البحر الميت، تصبح مساحة فلسطين كلها مع البحيرات المذكورة نحو ٢٧٠٠٩ كيلو مترا مربعا.

قيام إسرائيل وسياسة تهويد فلسطين

إن إعلان إسرائيل في ١٥ مايو (أيار) ١٩٤٨ كان بمثابة تجسيد للحركة الصهيونية التي ظهرت ونمت بين اليهود في مختلف أنحاء العالم. وهذه الحركات نشأت على أساس وجود فروق جوهرية، وانفصام كامل بين اليهود والشعوب التي يعيشون بينها ويؤلفون جزءا منها. وهي تنادى بإقامة دولة يتجمع فيها كل يهود العالم أو أكبر عدد منهم(١).

وقد اتخذت الحركة الصهيونية لها استراتيجية خاصة، تستند على أربعة عوامل مرحلية، وهي: أولا إنشاء دولة يهودية، وثانيا خلق الانفصام بين اليهود وغيرهم من الشعوب أو تعميقه، وهذا يؤدي إلى العامل الثالث، وهو تهجير اليهود إلى هذه الدولة اليهودية، وأخيرا ضرورة توسيع هذه الدولة باستمرار لاستيعاب الهجرة اليهودية المستمرة(٢).

إن تأسيس دولة يهودية فكرة قديمة، نبتت في أذهان المفكرين الصهاينة من أمثال «ليو بنسكر Leo Pinsker» (١٨٢١ ـ ١٨٩١) المؤسس للحركة الصهيونية، و «أحد هاعام Ahad Ha'Am » (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧) الذي يعتبر المفكر الأول للصهيونية بمفهومها الحديث، والتي تركز على النواحى الفكرية والحضارية وخلق الروح القومية واتخاذ اليهودية وليس اليهود محورا لها وهدفا(٣).

أما «تيودور هرتزل Theodor Herzl» (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) فيعتبر المؤسس الحقيقي للصهيونية السياسية، لأنه رأى أن حل المشكلة اليهودية يكمن في إقامة دولة يهودية بحماية وضمان القوى الأوروبية، وهذا يمكن تحقيقه بواسطة الدعم الدبلوماسي القوي، والنفوذ اليهودي العالمي(٤).

وتستند الصهيونية السياسية «لهرتزل» على تحليل اللاسامية، والتي تقوم على عدة افتراضات، منها أن اليهود يتفردون من حيث الشعور الميتافيزيقي، ولا يمكن أن يمتزجوا مع غيرهم، لأنهم يؤلفون شعبا على الرغم من انتشارهم وتشتتهم وتباين ظروفهم(٥).

وأخذ «هرتزل» يعمل بكل الطرق والوسائل لإخراج فكرة الدولة إلى حيّز الوجود، ففي

أغسطس ١٨٩٧ عقد المؤتمر الأول للحركة الصهيونية، والذي أطلق عليه مؤتمر «بازل»، حيث وضع فيه الحجر الأساسي لفكرة الدولة الصهيونية، وقد قال «هيرتزل» في يومياته بهذا الصدد ما نصه:

«لو طلب مني تلخيص مؤتمر بازل في كلمة ـ وعلي أن أحرص على عدم تلفظها بصوت عال ـ لكانت هي: «في بازل أسست الدولة اليهودية»[٦].

وقد ركز الصهاينة هدفهم نحو استخلاص أرض فلسطين وتهويدها كاملا، وأعلنوا عن نياتهم بكل وضوح ودون مواربة. فقبل الحرب العالمية الأولى وضع «ماكس نوردو» أحد مشاهير خطباء الصهيونية الأوروبيين الشعار الشهير: «الأرض التي بدون شعب لشعب لا أرض له Das Land Volk-Dae Volk ohne Land»[٧]. على الرغم من أنهم يعلمون بأن فلسطين التي كانوا يطالبون بها لم تكن خالية من السكان، بل كانت مأهولة ومستغلة تمام الاستغلال من قبل العرب سكانها الأصليين منذ فجر التاريخ، إلا أنهم كانوا دوما يقولون: «نريد فلسطين يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية».

وحتى يتم للصهاينة تهويد فلسطين عملوا بكل الوسائل والإمكانيات المتاحة على تنفيذ مخطط خطير ودقيق، مستغلين كل الظروف والأحوال المحلية والعالمية، وهذا المخطط يعتمد عدة وسائل، غايتها في النهاية الوصول إلى مرحلة التهويد الكامل للتراب الفلسطيني. وقد شرع الصهاينة باستخدام هذه الوسائل منفردة ومجتمعة على حسب الظروف والمعطيات المتاحة. ويمكننا أن نجمل هذه الوسائل في النقاط الآتية:

١ ـ الهجرة اليهودية إلى فلسطين .
٢ ـ امتلاك الأراضي ومصادرتها .
٣ ـ طرد السكان العرب .
٤ ـ إزالة القرى والمعالم العربية والإسلامية.
٥ ـ إقامة المستعمرات اليهودية.
٦ ـ تهويد التعليم .
٧ ـ الأطماع التوسعية .

وفيما يلي نتكلم عن كل بند من هذه البنود بشيء من الشرح والتحليل بقدر ما يسمح به

المقام، على الرغم من أن البند الواحد يشكل في حد ذاته بحثا مستفيضا، تعجز هذه الصفحات القليلة عن استيعابه.

أولا ـ الهجرة اليهودية والتحول السكاني كخطوة من خطوات التهويد:

لقد أولى الصهاينة مسألة الهجرة إلى فلسطين جل عنايتهم، فقد أخذوا يدفعون باليهود دفعا، تارة بالإغراء والتشجيع، وتارة أخرى بالوعيد والترهيب من أجل السفر إلى فلسطين والإقامة بها والاستيطان فيها، وذلك كخطوة هامة من خطوات تهويد البلاد، فهم يعلمون بأن العرب يشكلون الغالبية الساحقة من سكان فلسطين، فالبلاد بلادهم، والوطن موطنهم.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر وعدد اليهود في فلسطين يزداد بسرعة بسبب وصول العديد من المهاجرين، وبخاصة على أثر الاضطهاد في روسيا في عام ١٨٨٢. ففي عام ١٨٤٥ كان عدد اليهود في فلسطين نحو ١٢ ألف نسمة، وفي عام ١٨٨٢ وصل عددهم إلى ٢٤ ألف نسمة، وفي عام ١٨٩٥ قدروا بنحو ٤٧ ألف نسمة، ثم تزايدوا إلى ٨٥ ألف نسمة في عام ١٩١٤[٨].

وبناء على بعض التقديرات كان يقطن فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر نحو نصف مليون نسمة، منهم ٨٠٪ عرب مسلمون، و ١٠ عرب مسيحيون، أي إن العرب كانوا يؤلفون ٩٠٪ من جملة السكان، في حين أن نسبة السكان اليهود كانت تتراوح بين ٥ إلى ٧٪ من جملة السكان، أما الباقي فيتألف من عناصر سكانية أخرى[٩].

وقد كانت الهجرات اليهودية إلى فلسطين على شكل موجات، كل موجة منها تتم عقب حدث من الأحداث العالمية أو المحلية، أو نتيجة خطة صهيونية موضوعة. فالموجة الأولى مثلا حدثت بين عامي ١٨٨٣ و ١٩٠٣، وكان معظمها من روسيا القيصرية، حيث قدرت بما يتراوح بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف مهاجر يهودي[١٠]. ومع حلول عام ١٩٠٠ كان حوالي ٥٠ ألف يهودي يقطنون فلسطين، معظمهم على شكل أقليات تستوطن القدس ويافا.

وفي الفترة من ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ جاءت الموجة الثانية، وكان معظم أفرادها من روسيا أيضا، وقد بلغ عددهم بما يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ ألف يهودي. هذا وقد استوطن المهاجرون

الأوائل في مدن أربعة، هي: القدس، والخليل، وصفد، وطبريا. ولكن منذ عام ١٩١٤ أنشأ اليهود ٤٤ قرية، استوعبت نحو ١٤٪ من مجموع السكان اليهود بفلسطين[١١].

وفيما عدا القدس وضواحيها انحصرت المستعمرات اليهودية في الأساس في مناطق صغيرة جنوب شرق يافا، والسهل الساحلي في الجزء الممتد من مدينة يافا حتى حيفا، وسهل مرج بن عامر وشرق طبريا. ويبدو أن ثلثي السكان اليهود استوطنوا تل أبيب والقدس وحيفا. وقد بدأت مدينة تل أبيب في عام ١٩٠٩ كضاحية لمدينة يافا، أصبحت بفضل الهجرة أكبر المدن الفلسطينية سكانا، إذ بلغ سكانها في عام ١٩٣٦ نحو ١٥٠ ألف نسمة كلهم يهود[١٢].

وفيما بين عامي ١٩١٤ و ١٩٣٦ تزايد عدد اليهود بفلسطين بنحو ٤٠٠٪، واتسعت المساحة المملوكة لليهود بنحو ٢٠٠٪، أي من ١١٠ ألف فدان إلى ٣٠٨ ألف فدان، وهذا يشكل نحو ٦ر٤٪ من مساحة البلاد[١٣].

ومعظم اليهود بفلسطين كانوا من أوروبا الشرقية، ويطلق عليهم «الأشكينازيم Ashkenazim»، ويشكلون أكثر من ثلاثة أرباع السكان اليهود، بينما «السيفارديم Sefardim» أو يهود بلدان البحر المتوسط فكانوا يشكلون أقل من عشر اليهود بفلسطين. أما اليهود القادمون من اليمن وكردستان وإيران وبخارى وغيرها من البلدان الشرقية فكانوا يمثلون النسبة المتبقية[١٤].

هذا وقد أخذت هذه الهجرات تتوالى على فلسطين، بتشجيع ودعم من حكومة الانتداب البريطانى التي أخذت على عاتقها تنفيذ مخطط التهويد، وبخاصة بعد تعيين السير «هربرت صموئيل» اليهودي الديانة، البريطاني الجنسية، كأول مندوب سام لفلسطين، والذي في عهده أنشئت الوكالة اليهودية (وهي بمثابة دولة داخل دولة) ـ لتتدرب على شئون الحكم والإدارة في البلاد. وقامت هذه الوكالة بتسهيل مهمة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وافتتحت لها فروعا ومكاتب في كبريات المدن الأوروبية، وكانت تركز على استقدام الشباب الصهيوني الذي يتقن الفنون الزراعية والأعمال اليدوية وتتكلم اللغة العبرية، وكانت تدرب هؤلاء الشباب في معكسرات خاصة. وبناء عليه كان نحو ٨٥٪ من يهود فلسطين تقل أعمارهم عن ٤٥ سنة.

وقد موّل هذه الهجرات في بادئ الأمر كبار الرأسماليين اليهود مثل البارون «أدموند

روتشيلد» الذي أنفق نحو ٥ر٦ مليون جنيه إسترليني بين عامي ١٨٨٣ و ١٩٣٧ على الاستيطان اليهودي بفلسطين، وكذلك البارون «دي هرش De Hirsch» الذى خصص نحو عشرة ملايين جنيه لبناء الوطن القومي في فلسطين[١٥].

وبطبيعة الحال أدرك عرب فلسطين خطر الهجرة اليهودية، وأثرها على عروبة بلادهم، وانعكاس ذلك على الوطن العربي، فقاوموا ذلك بكل الوسائل الممكنة والمتوفرة لديهم من احتجاجات ومظاهرات وإضرابات وثورات، تطورت إلى اصطدامات دموية عنيفة بينهم وبين اليهود من جهة، وبين السلطات البريطانية من جهة ثانية، والتي كانت تقاوم جميع المحاولات العربية بالشدة والعنف. ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه الاحتجاجات والثورات العربية التي تستحق بحثا قائما بذاته يتسع للعديد من المجلدات، فمنذ العهد العثماني وعرب فلسطين يقاومون هذا الغزو الصهيوني، فتألفت الوفود واللجان التي أطلعت المسئولين الأتراك على خطورة الأوضاع وأثر هذه الهجرات اليهودية على مستقبل البلاد[١٦]. وفي عهد الانتداب قامت العديد من الثورات التي سجل فيها عرب فلسطين أروع صفحات الجهاد والتضحية في سبيل الذود عن عروبة بلدهم. والقارئ الكريم يمكنه الرجوع إلى العديد من الكتب التي تبحث في القضية الفلسطينية، ليرى الكثير من الأمثلة عن جهاد عرب فلسطين وكفاحه ودفاعه عن وطنه.

وعلى كل حال فنتيجة لهذه الهجرات اليهودية المتتالية، والتي لم ينقطع سيلها، بل أخذت في الزيادة المستمرة، مستغلة الأوضاع المحلية والأحداث العالمية، ارتفع عدد اليهود على حساب العرب، وحدثت تحولات ديموغرافية كبيرة لصالح اليهود. وقد قسمت الباحثة «جانيت أبو لغد» هذه التحولات إلى مراحل نوجزها على النحو التالي:

المرحلة الأولى ١٩٠٠ ـ ١٩٢٢ :

بناء على نتائج الإحصاء التركي الذي ورد ملخص عنه في كتاب إحصاء فلسطين لعام ١٩٢٢، بلغ عدد سكان فلسطين في عام ١٩١٤ نحو ٦٨٩٫٢٧٢ نسمة، منهم حوالي ٦٠ ألف يهودي، أي إن اليهود آنذاك لم يزيدوا عن ٨ر٧٪ من سكان البلاد، في حين أن العرب كانوا

يشكلون الأغلبية الساحقة، أي ٩١٫٣٪، على الرغم من الهجرات اليهودية الكثيرة التي غزت البلاد.

وفي ٣١ ديسمبر ١٩٢٢ أجرت حكومة الانتداب أول إحصاء رسمي لفلسطين، ومنه تبين أن سكان فلسطين تزايدوا فبلغوا نحو ٧٥٧٫١٨٢ نسمة، منهم نحو ٥٩٠٫٨٩٠ عربيا مسلما، أي نحو ٧٨٪ من سكان البلاد، ونحو ٧٣٫٠٢٤ عربيا مسيحيا، أو ما يوازي ٩٫٦٪ من السكان، وبذلك أصبح العرب يمثلون ٨٧٫٦٪، في حين بلغ عدد اليهود ٨٣٫٧٩٤ نسمة، أو حوالي ١١٪ من سكان البلاد، والباقي ومقداره ٩٤٧٤ نسمة أو نحو ١٫٢٪ للمذاهب الأخرى.

وهذا يعني أنه على الرغم من تزايد السكان العرب في الفترة الواقعة ما بين ١٩١٤ و ١٩٢٢ بنسبة ٥٫٥٪، وهي نتيجة الزيادة الطبيعية الصرفة، نجد أن اليهود تزايدوا في نفس الفترة بنسبة ٣٩٫٦٪ بسبب الهجرات اليهودية التي تدفقت إلى فلسطين. وبمعنى آخر فإن تحولا ديموغرافيا بدأ يظهر بوضوح لصالح اليهود، ففي حين تراجعت نسبة السكان العرب من ٩١٫٣٪ من جملة السكان في عام ١٩١٤ إلى ٨٧٫٦٪ في عام ١٩٢٢، نجد أن نسبة السكان اليهود تزايدوا في نفس الفترة من ٨٫٧٪ إلى ١١٪، وهذا يعود إلى الهجرة بعد خضوع فلسطين للانتداب البريطاني، والذي ترتب عليه فتح السلطات المنتدبة أبواب فلسطين على مصاريعها لليهود القادمين من مختلف أنحاء العالم. ففي عام ١٩١٩، وإبان الحكم العسكري، قدم فلسطين نحو ١٨٠٦ مهاجر، منهم نحو ٨٠٦ من الاتحاد السوفييتي. وفي ٢ يونيو ١٩٢٤ اعترف وكيل وزارة المستعمرات البريطانية «أورمسبي غور» بأن نحو ٤١٩٥ يهوديا دخلوا البلاد أثناء الاحتلال العسكري. وفي عام ١٩٢٠ هاجر إلى فلسطين ٨٢٢٣ يهوديا، وهو نفس العام الذي عين فيه «هربرت صموئيل» كأول مندوب سام بريطاني بفلسطين[١٨].

وفي ٧ يوليو عام ١٩٢٠ ألقى هربرت صموئيل أول خطاب له في القدس بعد أسبوع من توليه الحكم، وأتى على ذكر المشاريع التي يزمع القيام بها، وأن تنفيذها لن يتم «بدون ناس آخرين يأتون من الخارج، وستفتح الموانئ والحدود عما قريب لعدد محدود من المهاجرين، يكون مناسبا للعمل الذي يحتاجهم، وما تساعد عليه المساكن». وتنفيذا لذلك أصدر في أول سبتمبر ١٩٢٠ قرارا بإنشاء دائرة الهجرة التي تولي رئاستها «البرت هيامسون» Hyamson، وهو يهودى صهيوني[١٩]. ويبدو أن أرقام الهجرة المذكورة أعلاه لم تتضمن أعدادا كبيرة من اليهود

الذين كانوا يدخلون البلاد بصورة غير مشروعة، وهؤلاء كانوا يلقون الدعم والمساعدة من الحكومة المنتدبة، ومن الوكالة اليهودية التي تأخذ على عاتقها تدبير المساكن والعمل لهم.

المرحلة الثانية ١٩٢٣ ـ ١٩٣٢ :

في ٣١ ديسمبر ١٩٣١ أجرت حكومة الانتداب الإحصاء الثاني، حيث تبين بأن عدد سكان فلسطين تزايدوا إلى ١٫٠٣٥٫٨٢١ نسمة، منهم ٧٥٩٫٧١٢ عربيا مسلما أو نحو ٧٣٫٣٪ من السكان، وحوالي ٩١٫٣٩٨ مسيحيا (٩٠٪ منهم عربا) أو نحو ٨٫٨٪ من جملة السكان. في حين ارتفع عدد اليهود إلى ١٧٤٫٠٠٦ نسمة أو حوالي ١٦٫٨٪ من سكان فلسطين، أي إنه حين تزايد السكان المسلمون بنسبة ٢٨٫٥٪ في مدى عشر سنوات أو بمعدل ٢٫٨٪ سنويا، نجد أن تزايد اليهود بلغ ١٠٧٫٧٪ أو بمعدل ١٠٫٨٪ سنويا، أي إنهم بلغوا أكثر من الضعف في بحر عشر سنوات، وهذا يعكس حركة الهجرة المكثفة في هذه الفترة والتي بلغت الأوج، إذ لم يسبق أن وفدت إلى فلسطين هجرة يهودية واسعة النطاق على هذا النحو. ففي عام ١٩٢٥ فقط هاجر نحو ٣٤ ألف يهودي إلى فلسطين[٢٠].

وقد أثرت هذه الهجرة على التركيب السكاني لفلسطين، فبموجب إحصاء ١٩٣١م المذكور نجد أن نحو ٦٨٪ من اليهود في عام ١٩٣٠م تركزوا في الشريط الممتد من مدينة يافا على البحر المتوسط حتى القدس في وسط البلاد. وإليك نسب التوزيع السكاني ليهود فلسطين بحسب المناطق:

١ ـ منطقة يافا ـ تل أبيب ٥٠٪ من جملة سكان المنطقة، إذ بلغ عدد اليهود نحو ٦٥ ألف يهودي، وهذا يساوي نحو ثلث مجموع السكان اليهود في كل أنحاء فلسطين.

٢ ـ منطقة مدينة القدس: بلغ مجموع سكانها آنذاك ١٣٣ ألف نسمة، منهم نحو ٥٥ ألف يهودي، وبذلك شكلوا ٤١٪ من سكان تلك المنطقة، وقد أقام معظمهم في القطاع الجديد من المدينة خارج السور.

أما في أقضية فلسطين الشمالية فقد كان اليهود يؤلفون أقلية ملفتة للنظر، لكنهم تجمعوا هناك في مناطق المدن. ففي قضاء حيفا فقد كانت نسبتهم إلى السكان نحو ٢٥٪ (وهي نفس

النسبة في عام ١٩٢٢م). وفي قضاء طبريا ٢٨٪. هذا وقد تركزت أقليات يهودية في مدن بيسان ١٣٪ من جملة السكان، والرملة ١٢٪، والناصرة ١١٪، وصفد ٩٪.

وفي الأقضية التالية كان اليهود يشكلون أقلية لا تزيد عن ١٪ من جملة السكان، وذلك على النحو التالي:

١ ـ قضاء عكا ٧ر٠٪ من جملة سكان القضاء .

٢ ـ قضاء غزة ٤ر٠٪ من جملة سكان القضاء .

٣ ـ قضاء الخليل ٢ر٠٪ من جملة سكان القضاء .

٤ ـ قضاء طولكرم ٤ر١٪ من جملة سكان القضاء .

٥ ـ قضاء بيت لحم ١ر٠٪ من جملة سكان القضاء .

أما بالنسبة لأقضية بئر السبع ورام الله ونابلس فلم يقطن بها آنذاك أي نفر من اليهود[٢١].

المرحلة الثالثة ١٩٣٢ ـ ١٩٤٧ :

ابتداء من عام ١٩٣٢ وحتى عام ١٩٣٦ أخذت تتدفق على البلاد أفواج عديدة من المهاجرين بشكل لم يسبق له مثيل، مما أثار شعور الاستياء والغضب لدى عرب فلسطين، وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية التي فجرت ثورة ١٩٣٦م الشهيرة. وفي مدى الأربع سنوات هذه (١٩٣٢ ـ ١٩٣٦) دخل البلاد ما لا يقل عن ١٧٤ ألف مهاجر يهودي، مما رفع عدد السكان اليهود إلى ٣٧٠ ألف، وذلك بناء على تقدير لجنة «بيل» التي أرسلت للتحقيق في المأساة الفلسطينية في عام ١٩٣٦، في حين أن الوكالة اليهودية قدرت اليهود بفلسطين في نهاية عام ١٩٣٦ بنحو ٣٨٤ ألف نسمة، وبذلك أصبح اليهود يشكلون أقلية كبيرة، بلغت نسبتها ٢٨٪ من جملة سكان البلاد[٢٢].

ويمكننا القول بأن الذين دخلوا البلاد في مدى أربع سنين فقط يزيد عن ما دخلها في قرابة مائة عام، وأن هؤلاء القادمين بلغوا نحو نصف اليهود الذين كانوا بفلسطين منذ منتصف القرن التاسع عشر.

وفي نهاية عام ١٩٤٣ قدرت حكومة الانتداب سكان فلسطين بنحو ١٫٦٧٦٫٥٧١ نسمة، منهم نحو نصف مليون يهودي، وكانت هذه الزيادة بسبب الهجرات المستمرة، مما جعل نسبتهم تقترب من ثلث مجموع سكان فلسطين.

وفي عام ١٩٤٦ وصل عدد سكان فلسطين إلى ١٫٨٨٧٫٢١٤ نسمة، منهم نحو ٥٨٣٫٣٢٧ يهوديا، أي إنهم أصبحوا يشكلون نحو ٣١٪ من سكان البلاد[٢٣].

المرحلة الرابعة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ م :

أجرت حكومة الانتداب في ٣١ مارس ١٩٤٧م آخر تقدير رسمي لسكان فلسطين، فكان نحو ١٫٩٠٨٫٧٧٥ نسمة، موزعين على النحو التالي:

عدد المسلمين ١٫١٥٧٫٤٢٣ نسمة، أي إنهم شكلوا ٦٠٫٦٪ من جملة السكان.

عدد اليهود ٠٫٥٨٩٫٣٤١ نسمة، أي إنهم شكلوا ٣٠٫٨٪ من جملة السكان.

عدد المسحيين ٠٫١٤٦٫١٦٢ نسمة، أي إنهم شكلوا ٧٫٦٪ من جملة السكان.

المذاهب الأخرى ٠٫٠١٥٫٨٤١ نسمة، أي إنهم شكلوا ٠٫٨٪ من جملة السكان.

وفي عام ١٩٤٨ قدر عدد سكان فلسطين بنحو ٢٫٠٦٥٫٠٠٠ نسمة، منهم نحو ١٫٤١٥٫٠٠٠ عربي، أي حوالي ٦٩٪ من جملة السكان[٢٤].

وعقب إعلان إسرائيل في ١٤ مايو ١٩٤٨م زاد عدد اليهود زيادة كبيرة نتيجة الهجرة المكثفة إلى فلسطين، وبخاصة من الشباب المدرب على حمل السلاح من أجل المشاركة في الحرب التي قامت نتيجة قيام هذه الدولة على أرض فلسطين العربية، وما ترتب على ذلك من طرد وتشريد عرب فلسطين. وقدرت وكالة الغوث الدولية «الأونروا» بأن حوالي ١٠٠ ألف فلسطيني طردوا وشردوا من وطنهم نتيجة حرب ١٩٤٨[٢٥].

وبعد توقف القتال قامت إسرائيل في نوفمبر ١٩٤٨م بإجراء إحصاء للسكان، تبين منه أن عدد العرب الذين ظلوا في فلسطين المحتلة نحو ١٢٠ ألف نسمة، وبذلك أصبحوا أقلية بعد أن كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة. هذا وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين المحتلة في عام ١٩٤٨ نحو ١٠١٫٨٢٨ شخصا، مما رفع عدد السكان اليهود في ذلك العام إلى نحو ٧١٦٫٧٠٠ نسمة[٢٦].

المرحلة الخامسة ١٩٤٩ وما بعدها :

بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ أخذت إسرائيل تعمل بكل الوسائل على استقدام المزيد من المهاجرين اليهود من الخارج لبناء اقتصادها المنهار، وإصلاح التدمير الذي سببته هذه الحروب، وتقوية جيشها الذي أنهكته المعارك. وحتى تسير قدما في إكمال سياسة التهويد أخذت إسرائيل في إسكان هؤلاء الوافدين في المساكن والأماكن التي طردت أصحابها العرب منها، وصارت تهدم بعض القرى والأحياء والمدن العربية وإزالة معالمها وبناء المجمعات السكنية والمستعمرات لتستوعب هؤلاء القادمين الجدد.

وفي عام ١٩٤٩ استقبلت فلسطين المحتلة نحو ٢٣٩٫٥٦٧ يهوديا جاؤوها من الخارج، مما رفع عدد اليهود إلى ١٫٠١٣٫٩٠٠ نسمة، وبذلك أصبحوا يشكلون نحو ٩٠٪ من جملة سكان فلسطين. هذا ولم ينقطع سيل الهجرة إلى فلسطين طيلة السنوات التي تلت قيام هذه الدولة، إذ بلغ مجموع اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٧ نحو ١٫٢٦٩٫٩٦٦ نسمة، وبذلك وصل عدد اليهود في فلسطين المحتلة في ذلك العام نحو ٢٫٣٨٣٫٦٠٠ نسمة[٢٧].

وفي الفترة الممتدة من عام ١٩٦٧ م إلى عام ١٩٧٠م هاجر إلى فلسطين المحتلة نحو ١٠٣٫١٦٠ يهوديا[٢٨]. وبذلك وصل عدد المهاجرين اليهود في الفترة من ١٩٤٨ ـ ١٩٧٠ نحو ١٫٣٧٣٫١٢٦ نسمة[٢٩]. وبناء عليه ارتفع عدد اليهود في فلسطين المحتلة فى أول يناير ١٩٧١ إلى نحو ٢٫٥٦٠٫٠٠٠ نسمة[٣٠]. وبذلك يمكننا القول بأن الصهيونية استطاعت تحقيق أسلوب التهويد عن طريق جعل اليهود يشكلون غالبية السكان في فلسطين المحتلة.

وتتطلع إسرائيل اليوم إلى استقدام كل يهود العالم والبالغ عددهم نحو ١٦ مليونا[٣١]، وترى أن هناك إمكانية لإسكانهم في فلسطين المحتلة وفي الأراضي المحتلة بعدعدوان ١٩٦٧م. وما دامت إسرائيل تقوم في الأساس على التوسع واحتلال أراضي الغير مرحليا، فإنها تتطلع إلى ضم المزيد من الأراضي العربية القريبة والبعيدة، وهي في سبيل تحقيق هذا الهدف تتسلح بأحدث الأسلحة التي تتخطى عامل المسافة والبعد، مما يجعل أبعد البلاد العربية عن إسرائيل سهلة المنال.

ثانيا : امتلاك أراضي فلسطين ومصادرتها :

بذل اليهود جهودا مكثفة من أجل تملك أقصى قدر ممكن من أراضي فلسطين بعد فشلهم في شرائها من السلطان العثماني يوم أن كانت البلاد تحت السيادة العثمانية واعتبر اليهود تملك الأرض من أقوى الوسائل التي تمكنهم من تهويد فلسطين توطئة لتأسيس دولتهم.

ولاشك في أن مسألة الاستيلاء على أراضي فلسطين كان قد خطط لها بمهارة وذكاء منذ ظهور الحركة الصهيونية، فقد كتب «ثيودور هرتزل» في يومياته في عام ١٨٩٥ في هذا الصدد ما يلي: «إنه يتوجب نزع الملكية الخاصة بلطف... سوف نحاول تسريب السكان المعدمين عبر الحدود، بتأمين مجالات الاستخدام لهم في بلدان العبور، على أن نسد أمامهم كل مجال للعمل في بلادنا... العمليتان: عملية نزع الملكية، وعملية إبعاد الفقراء يجب تنفيذهما بحذر واحتراس وتكتم. لا بأس إن اعتقد أصحاب العقارات والأراضي بأنهم يغشوننا فيبيعوننا الأشياء بأسعار تفوق قيمتها المستحقة، نحن لن نبيعهم شيئا على الإطلاق متى جاؤوا لاسترداده بالشراء»(٣٢).

ومع حلول عام ١٩٠١م أنشأ «هرتزل» وزملاؤه في زعامة الحركة الصهيونية ما يسمى بالصندوق اليهودي «كيرن كاييمت» لتنفيذ مخطط شراء الأراضي «كملك لا تنتهك حرمته للشعب اليهودي». وفي عام ١٩٢٠م تأسس الصندوق التأسيسي «كيرن هايسود» والذي أصبح أكثر جهاز مالي للعمل الصهيوني في فلسطين(٣٣).

ولكن على الرغم مما بذله اليهود من مختلف الوسائل والإغراءات، وعلى الرغم من تسخير حكومة الانتداب لتنفيذ مخططاتهم، فإنهم لم يتمكنوا من أن يتملكوا إلا نحو مليوني دونم، أي ما يعادل ٧٪ فقط من مجموع أراضي فلسطين البالغة ٢٧ مليون دونم، وذلك منذ أن بدأوا بالهجرة إلى فلسطين، وحتى انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ مايو ١٩٤٨. وقد استطاع اليهود الاستيلاء على المليوني دونم بالوسائل الآتية(٣٤):

٦٥٠٫٠٠٠ دونم استولى عليها اليهود في عهد الحكومة العثمانية (خلال حقبة طويلة) بحجة إنعاش الزراعة وإنشاء مدارس زراعية.

٣٠٠٫٠٠٠ دونم منحتها حكومة الانتداب البريطانية لليهود دون مقابل (وهي من أملاك الدولة).

٢٠٠٫٠٠٠ دونم منحتها حكومة الانتداب البريطانية لليهود لقاء أجرة اسمية (وهي من أملاك الدولة).
٦٣٥٫٠٠٠ دونم اشتراها اليهود من بعض اللبنانيين والسوريين الذين كانوا يملكون أراضي في فلسطين (كمرج ابن عامر ووادي الحوارث والحولة وغيرها).
٢٢٥٫٠٠٠ دونم باعها عرب فلسطين معظمها في ظروف قاهرة، وبعضها ذهب نتيجة نزع الملكية.

وكان نتيجة ذلك أن أصيبت الصهيونية بخيبة أمل كبيرة، لأنها لم تنجح في تحقيق شراء أراضي فلسطين، فلم تجد أمامها غير وسيلة واحدة، وهي استعمال القوة، فأخذت تحتل الأماكن والمناطق التي تنسحب عنها قوات الانتداب البريطاني تدريجيا بتخطيط وتنسيق تام مع الحكومة المنتدبة. ولما توقفت حرب ١٩٤٨م ووقعت الهدنة العامة، كانت إسرائيل تحتل نحو ٢٠٨٥٠ كيلو مترا مربعا من فلسطين، أو نحو ٧٧٫٤٪ من مساحة البلاد الكلية. وقد اشتملت المنطقة الإسرائيلية على أكثر من ٩٥٪ من التربة الجيدة، وعلى ٦٤٪ من التربة المتوسطة، وأقل من ٣٩٪ من التربة الفقيرة باستثناء النقب(٣٥).

وبمجرد أن هدأت الأحوال نسبيا، وصفا الجو لإسرائيل، أخذت تعمل على نزع ملكية الأراضي العربية التي تقع تحت سيطرتها، وقد استعانت على ذلك بوضع تشريعات وقوانين اتخذتها كوسيلة لتحقيق ذلك(٣٦). فبعد قيام إسرائيل مباشرة صدر قانون الطوارئ، والذي منح بموجبه وزير الدفاع صلاحيات خطيرة جدا، منها إخراج العرب الذين يسكنون في مناطق من فلسطين حيث أطلق عليها مناطق الأمن، وترحيلهم خارج هذه المناطق بصورة دائمة.

وتخضع مناطق التجمعات العربية في فلسطين المحتلة إلى حكم عسكري له سلطات مطلقة لا يجوز الطعن فيها، ولا يحق حتى للقضاء مجرد مناقشة الحاكم العسكري فيما يعمل. وقد وضعت محكمة العدل العليا لنفسها قاعدة تقول: «إنه ليس في إمكان هذه المحكمة التدخل في وجهة النظر المطلقة للحكم العسكري حين يتصرف مستندا إلى أسباب (أمنية)، وإنه لا يجوز التحقيق مع الحكام العسكريين في المحكمة فيما يتعلق بماهية (الأسباب الأمنية)، لأن مثل هذا التحقيق بحد ذاته قد يضر بأمن الدولة».

وقد استغل الحكم العسكري هذه السلطات المطلقة أسوأ استغلال، فأباح لنفسه التصرف في العرب كيفما شاء وبحسب أهوائه ورغباته ونزواته، وتنفيذا لمخطط صهيوني خبيث، وألزم السكان بالبقاء في الأماكن التي خصصت لهم، وصار يراقب تحركاتهم ويمنعهم من دخول المناطق المغلقة إلا بتصريح خاص. والمناطق المغلقة عبارة عن أراض عربية انتزعت من أصحابها، ووضعت الدولة يدها عليها تمهيدا لاستغلالها وإقامة المستعمرات عليها. هذا ويجوز للحاكم العسكرى إلقاء القبض على أي عربي وإيداعه السجن بمجرد الاشتباه به، أو ترحيله من البلاد فورا.

القوانين التي تخول سلطات الاحتلال الاستيلاء على أراضي العرب فى فلسطين:

بعد قيام إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨م أخذت حكومتها تعمل على مصادرة الأراضي العربية التي نزح عنها سكانها نتيجة الإرهاب الصهيوني والحرب الفلسطينية. وعلى أثر ذلك قام الجيش الإسرائيلي بهدم القرى العربية وإزالة معالمها، وإجبار من تبقى من سكانها على النزوح عنها وضمها للمستعمرات اليهودية. وقد أثارت هذه الأعمال ردود فعل محلية وعالمية، بعد أن استطاع العرب أن يثبتوا للعالم حقيقة النوايا والأطماع الإسرائيلية. ولذلك لجأت إسرائيل إلى طرق أخرى، منها إصدار قوانين تهدف إلى تبرير مصادرة الأراضي العربية، وتخول السلطات صلاحيات إضافية لنهب ما تبقى من أراضي في أيدي العرب. وقد بدأ صدور هذه القوانين في أواخر عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٥٨م، وهذه القوانين كانت المسئولة عن سلب نحو مليون دونم من أراضي العرب الذين ظلوا في البلاد بعد قيام إسرائيل. وبناء عليه تمت مصادرة الأراضي العربية إما باستخدام القوة وبدون الاستناد إلى قانون، كما حدث لقرى «إقرت» و «كفر برغم» وغيرها من عشرات القرى العربية التي أجلي سكانها عنها بالقوة، أو بتنفيذ القوانين الجائرة التي تعطي لعملية المصادرة صبغة شرعية. وفيما يلي نتكلم بإيجاز عن أهم القوانين التي سنت خصيصا لسلب الأراضي العربية ونهبها:

١ ـ قانون أملاك الغائبين لعام ١٩٥٠ :

صدر هذا القانون لأول مرة في ١٢ ديسمبر ١٩٤٨م، وكانت وظيفته تحديد الوضع القانوني

لأملاك الغائبين الذين تركوا البلاد، ونقل هذه الأملاك إلى «القيم على أملاك الغائبين». وبموجب هذا القانون فإن كلمة الغائب تعني ما يلي:

أ) أي إنسان كان مواطنا في أرض فلسطين وغادر محل سكناه العادي في الأرض المحتلة في أي وقت بين ٢٩ نوفمبر ١٩٤٨ وبين اليوم الذي يعلن فيه أن حالة الطوارئ قد ألغيت.

ب) يعتبر غائبا إذا غادر الشخص البلاد (في الفترة المذكورة أعلاه)، إما إلى مكان خارج الأرض المحتلة قبل اليوم الأول من سبتمبر ١٩٤٨م، أو إلى مكان داخل الأرض المحتلة كانت تسيطر عليه في تلك الساعة قوات أرادت منع قيام إسرائيل أو حاربتها بعد قيامها. ومعنى هذا أن كلمة غائب تنطبق على سكان بعض المناطق في الجليل والمثلث، والتي كانت تحت سيطرة القوات العربية، والتي احتلتها إسرائيل فيما بعد، أو ضمت إليها بموجب اتفاقيات الهدنة.

وبمقتضى هذا القانون الجائر صودرت عشرات الآلاف من الدونمات التي كانت مملوكة للعرب. هذا وقد خول هذا القانون للقيّم أو الحارس على أملاك الغائبين سلطة تقرير مفهوم كلمة «غائب» حسبما يريد، ولا يجوز التحقيق معه عن الأسس التى ارتكز عليها في تقرير مفهوم كلمة «غائب» حتى ولو كان المفهوم خاطئا. يقول أحد بنود هذا القانون ما يلي: «كل صفقة جرت بصورة عفوية بين القيم وبين إنسان آخر فيما يتعلق بملك ظنه القيم في ساعة إجراء الصفقة ملك غائب لا تعتبر باطلة، بل تبقى نافذة المفعول حتى لو ثبت بعد ذلك أن هذا الملك لم يكن في تلك الساعة ملك غائب».

ومن المؤلم حقا أن هذا القانون المجحف تم تطبيقه على أملاك الوقف الإسلامي، على الرغم من أن هذا الوقف مخصص لوجه الله، هذا مع العلم بأن أملاك الوقف الإسلامي كانت كبيرة جدا، فبناء على تقرير لجنة التحقيق بفلسطين لعام ١٩٣٦م قدر بأن نحو ١/١٦ من مساحة فلسطين الكلية كانت تابعة للوقف الإسلامي، وفي مدن مثل يافا وعكا تشكل الحوانيت التابعة للوقف ٧٠٪ من مجموع الحوانيت في المدينتين.

٢ ـ قوانين الدفاع (حالة الطوارئ) :

وبموجب هذا القانون منح الحكام العسكريون صلاحية الإعلان عن مناطق معينة كمناطق مغلقة لا يسمح بدخولها أو الخروج منها إلا بتصريح خطي من الحاكم العسكري أو من يمثله. وقد استغل هذا القانون أيضا لمنع الكثيرين من القرويين العرب من العودة إلى قراهم التي طردوا منها، أو على أثر المعارك في عام ١٩٤٨م.

إن عملية تنفيذ هذه المادة سهلة وبسيطة جدا، فإذا كان هناك سكان قرية معينة تركوها أو طردوا منها ومنعوا من العودة إليها ـ فإنه يقترح عليهم قبول تعويضات مقابل التنازل عن أملاكهم. وفي الغالب يرفضون ذلك أملا في العودة إلى أماكنهم. ولكن الحاكم العسكري يعلن بأن القرية منطقة مغلقة بعد ذلك حتى يمنعهم من تحقيق أمل العودة، ويترتب على هذا أن الحصول على تصريح لدخول القرية يصبح أمرا مستحيلا لأسباب تتعلق بأمن الدولة.

٣ ـ قانون المواد لساعة الطوارئ (مناطق الأمن) لعام ١٩٤٩م:

لقد منحت مواد هذا القانون وزير الدفاع صلاحية تحديد مناطق الأمن، وبمجرد نشر هذا الإعلان فإنه يحظر على كل إنسان السكنى بصورة ثابتة في منطقة الأمن هذه، أو حتى دخولها، أو التواجد فيها إلا بتصريح خاص من السلطات المختصة التي عينها وزير الدفاع لتطبيق مواد القانون. وقد طبق هذا القانون بشكل مجحف على قرية «إقرت» في ٣١ أكتوبر ١٩٤٨م، وهذه القرية تقع في الجليل الغربي قرب الحدود اللبنانية.

٤ ـ قانون ساعة الطوارئ لاستغلال الأراضي غير المفلوحة :

كان الهدف من هذا القانون مصادرة المزيد من الأراضي العربية بطريقة قد تبدو للشخص أنها مشروعة، وأنها من أجل استغلال الأراضي الزراعية، ومن أجل تنفيذ هذا القانون، وحتى يكتسب الصفة المشروعة من وجهة النظر الإسرائيلية يقوم وزير الدفاع بتحديد بعض المناطق المغلقة وإعلانها رسميا، ويطرد سكانها منها، ولا يسمح لهم بالعودة إليها تحت ستار الأمن، وهكذا تتحول الأرض خلال مدة قصيرة من أرض مزروعة إلى بور لأن

مالكها لا يستطيع الوصول إليها. وبناء عليه يعتبر وزير الزراعة أن هذه الأرض غير مستغلة، ويصدر قرارا بتسليمها إلى المستعمرات اليهودية القريبة لفلاحتها وتنتقل ملكيتها للدولة.

٥ ـ قانون الاستيلاء على أرض في ساعة الطوارئ لعام ١٩٤٩ م :

عينت الحكومة بموجب هذا القانون إدارة خاصة ذات صلاحية معينة، من حقها إصدار الأمر بالاستيلاء على الأرض، أو إصدار أمر إسكان، حسبما ترى هذه السلطة أن ذلك من مقتضيات الأمن والدفاع عن الدولة، وما يلزم مشاريعها وخططها المستقبلية الخاصة، بأغراض الخدمات وإسكان المهاجرين الجدد أو الجنود المسرحين أو مشوهي الحرب. وتؤول ملكية هذه الأراضي في النهاية إلى الدولة.

٦ ـ قانون استملاك الأراضي لعام ١٩٥٣ م :

كانت إسرائيل تزعم دوما وتدعي بأن القوانين الخمسة السابقة مؤقتة ومرتبطة بحالة الطوارئ التي لاتزال سارية في البلاد. وحتى تضمن عدم عودة هذه الأراضي التي صادرتها القوانين المؤقتة السابقة لأصحابها الشرعيين، وحتى يحق للدولة استملاكها بصورة أبدية، صدر هذا القانون السادس والذي يعتبر ملخصا للقوانين الخمسة السابقة. ويتلخص في أنه يحق لوزير المالية نقل أراض صودرت بموجب القوانين السابقة إلى ملكية إسرائيل. وقد ترتب على هذا القانون مصادرة أراضي ما يزيد على ٢٥٠ قرية عربية.

٧ ـ قانون تقادم الزمن لعام ١٩٥٨ م :

ويهدف هذا القانون إلى استملاك أراضي عرب الجليل وأراضي عربية أخرى غير مسجلة في دائرة تسجيل الأراضي (الطابو)، على الرغم من أن بعض مواد القانون العثماني لعام ١٨٥٨، وقانون تنظيم حق الملكية في عهد الانتداب لعام ١٩٢٨م أعطى المزارعين العرب حق تملك هذه الأراضي. وقد نص هذان القانونان على أن كل من يستغل أرضا ويفلحها عشر سنوات متتالية يحق له تملكها وتسجيلها بعد ذلك، وهذا ما يطلق عليه بتقادم الزمن. وقد جاء قانون تقادم الزمن الإسرائيلي لينسف هذا النص، إذا اشترط المدة خمسين سنة، ونتيجة لكثرة

الاحتجاجات عدل إلى ١٥ سنة، ولكن أدخل في القانون بند ينص على أنه بالنسبة لشخص بدأ بفلاحة الأرض بعد تاريخ الأول من مارس ١٩٤٣ فإن الخمس سنوات التي تبتدئ من يوم سن هذا القانون تعتبر غير محسوبة، وذلك حين تقدير فترة تقادم الزمن.

ومن الناحية العملية فهذا معناه أن فترة تقادم الزمن مددت بموجب هذا البند بالنسبة لمن ابتدأ بفلاحة أرض في ١٩٤٣/٣/١م أو بعدها إلى عشرين سنة بدلا من ١٥ سنة حسب النص الأساسي للقانون.

وقد تبين فيما بعد بأن الدوافع الحقيقة لإدخال هذا البند هي الإعلان عن الأراضي التي لا تستحق ميزة تقادم الزمن، والتي تعتبر سارية المفعول ابتداء من ١٩٦٣/٣/١. وقد بادرت سلطات الاحتلال بإخضاع جميع المناطق لعملية المسح كي تمنع إمكانية تقادم الزمن، (أي مسح الأراضي قبل أن تمر فترة ٢٠ سنة بين ١٩٤٣/٣/١م ـ ١٩٦٣/٣/١م)، وبذلك استطاعت السلطات الإسرائيلية أن تصادر الكثير من أملاك العرب.

وأما فيما يتعلق بمساحات الأراضي التي صودرت بموجب هذه القوانين السابقة فالمصادر تختلف في تقديرها، ولكن البعض يقدرها بنحو مليون دونم.

٨ ـ قانـــون الأحـــراش :

تحيط ببعض القرى العربية أحراش كثيرة مسجلة باسمها، يستطيع السكان استعمالها كمراع أو لقطع الأخشاب وخلافه. ولكن عمدت الحكومة إلى اعتبار مساحات واسعة من هذه الأحراش كمناطق غابات حكومية، ومنعت الناس من دخولها، على أن تعود ملكيتها للحكومة، وتوكل لمواطنيها الإسرائيليين بعد ذلك استغلالها.

٩ ـ قانون استملاك الأراضي للصالح العام ١٩٤٣ م :

وهو قانون يدل ظاهره على أنه لا غبار عليه، إذ يحق لكل دولة من دول العالم أن تنزع ملكية أي أرض بعد تعويض صاحبها لأجل النفع العام، ولكن السلطات الإسرائيلية طبقت هذا القانون بخبث شديد، واستخدمته وسيلة من وسائل مصادرة الأراضي العربية. وعلى سبيل

المثال صادرت تحت ستار ما تزعمه بالصالح العالم نحو ١٢٠٠ دونم من أفضل أراضي مدينة الناصرة، بحجة الحاجة إليها لإقامة الأبنية والمكاتب الحكومية المختلفة، ولكن تبين فيما بعد أنها خصصت لبناء مساكن للمهاجرين اليهود، وبناء مصانع للغزل والنسج والشيكلاته والبسكويت. وهكذا أثبت الواقع أن هدف السلطات كان إقامة مستوطنة يهودية جديدة في قلب الناصرة تسمى بالناصرة العليا، وهدفها خنق المدينة العربية. وقد طبق هذا القانون على كثير من القرى العربيه.

ومما لاشك فيه بأن عملية مصادرة الأراضي العربية في المناطق المحتلة مسألة خطيرة جدا، لأنها تهدف إلى محو عروبة فلسطين، وتهويدها بالكامل، وطرد ما تبقى من سكانها. ذلك لأن إسرائيل تخشى في الوقت الحاضر من زيادة السكان في منطقة الجليل والمثلث، وتعتبر ذلك خطرا كبيرا يهدد كيانها، ولذلك وجدت أن أفضل حل لهذه المشكلة هو مصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات اليهودية عليها، من أجل إزالة عروبة هذه المناطق، كما أنها تريد أن تفقد العرب مستقبلا مطالبتهم بهذه المناطق في حالة حدوث محادثات سلام. إن إسرائيل تريد بذلك أن تفرض واقعا جديدا تفرضه على العرب، فتقضي على كل أمل في عروبة هذه المناطق.

ثالثا : طرد السكان العرب :

بعد أن اشتد ساعد الصهيونية اتخذت العنف مظهرا من مظاهرها، والقوة من وسائل تحقيق أهدافها وأطماعها. وقد نسب إلى «دافيد بن غوريون» حينما كان في عنفوان شبابه وفي عهد الانتداب البريطاني لفلسطين الشعار الذي تبناه يهود فلسطين، ومؤداه بأن «القوة، وبالقوة وحدها سوف نكسب الاحترام»(٣٧). ومنذ ذلك الوقت اتخذت الصهيونية الخطوات العملية من أجل تنظيم أول قوة مسلحة لها، أطلق عليها «الهاشومر»، لتكون رائدة الجيش السري في عهد الانتداب، والتي والتي كان اسمها «الهاجاناه».

وبما أن هدف الصهاينة كان نحو هجرة جماعية إلى فلسطين التي سعوا إلى تهويدها، فقد خططوا منذ البداية لطرد السكان العرب واحتلال البلاد الخالية من أهلها. وقد أسس الصهاينة مدرسة لتعليم النخبة اليهودية بفلسطين، أطلقوا عليها «هرتزليا جيمنازيوم»، والتي تخرج منها قادة المستقبل لإسرائيل. وفي هذه المدرسة طبقوا في أذهانهم عبارة كانت تردد على

مسامعهم باستمرار، وهذه العبارة تقول: «إن أرض الوطن يجب أن تصبح لنا مطهرة من الأجانب، نظيفة من الغير (أي العرب)» (٣٨).

ولم تمض عشر سنوات على القول السابق الذكر لـ: بن غوريون الذي أصبح فيما بعد أول رئيس لحكومة إسرائيل إلا وكانت فلسطين مفرغة عمليا من أصحابها الشرعيين. والحقيقة أن هذا التفريغ السكاني سبق الإعداد له منذ أكثر من خمسين عاما لقيام إسرائيل، فقد كان «هرتزل» يفاوض ويساوم ويتآمر منذ عام ١٨٩٦م على أن تكون فلسطين للشعب اليهودي خالية من سكانها. وقد بذل مع السلطان العثماني عبدالحميد أقصى ما يستطيع من الإغراءات والوساطات وعرض الأموال لشراء فلسطين، ولكن السلطان رفض جميع هذه المحاولات بكل شجاعة وإباء، وأبلغ مندوب هرتزل ما نصه: «إذا كان هرتزل صديقك... فانصحه أن لا يسير أبدا في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدا من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغذيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا... الامبراطورية التركية ليست لي، وإنما للشعب التركي، لا أستطيع أن أعطي أحدا أي جزء منها. ليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. إنما لن تقسم إلا على جثتنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان» (٣٩).

ولما فشلت جهود هرتزل جاء من بعده صهاينة حاولوا طيلة الفترة الممتدة من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٤٧م تفريغ البلاد من سكانها، وأخذوا يضعون أفكارهم وتصوراتهم التي ستصبح رهن التنفيذ حال قيام الدولة. غير أن الحركة الصهيونية مع بداية عام ١٩٤٨م وجدت فرصتها المناسبة، فاتخذت قرارها النهائي، إذ إنه قبل أن تصوت الجمعية العامة للأمم المتحدة على مسألة التقسيم، أمر بن غوريون بالتعبئة السرية لكل الطاقات البشرية اليهودية في فلسطين، وأرسل الوفود إلى أوروبا لشراء كميات ضخمة من السلاح.

وكانت الخطط الرئيسية للقوات الصهيونية جاهزة، فاشتملت على تفاصيل مرسومة ومبوبة لكل قرية عربية في فلسطين بأكملها (٤٠). وقد استخدمت المستعمرات اليهودية في تنفيذ هذه الخطة، فالمدن العربية مثل طبريا وعكا وحيفا كانت محاطة بالعديد من المستعمرات. أما المستعمرات الواقعة في صميم المنطقة العربية فقد أصبحت بمثابة قواعد أمامية، وظيفتها

الرئيسية الصمود مهما كان الثمن إلى حين وصول التعزيزات إليها. وقد أطلق على هذه الصمود بالخطة «ج» « C » Plan، والتي تعني أيضا ضمان جميع المناطق الصهيونية، والإبقاء على المواصلات مفتوحة بين كافة المستعمرات أو المستوطنات اليهودية، وبعد ذلك يمكن الانتقال إلى الخطة «د» أو «دالت» Plan Dalet [٤١]، والتي تقول: «إن ساعة الصفر للخطة دالت تصبح جاهزة للتنفيذ عندما يكون الجلاء البريطاني قد وصل إلى نقطة تصبح الهاجاناه عندها بمأمن معقول من التدخل البريطاني، وعندما تكون التعبئة قد تقدمت إلى نقطة يصبح معها ممكنا تنفيذ خطة واسعة النطاق»[٤٢].

ومنذ أن تعرضت مسألة النزوح العربي في عام ١٩٤٨م لشيء من الدراسة والتحليل بشكل علمي في الغرب من قبل عدد من الكتاب الصهاينة، بدأ اليهود يرددون القول بأنه لم تكن هناك نية واضحة لطرد العرب قبل شهر أبريل ١٩٤٨م. ويبدو أنه على ضوء المعلومات المتوفرة وشبه المؤكدة بأنه لم يغادر فلسطين في الفترة من ديسمبر وأبريل سوى ثلاثين ألف فلسطيني، وأغلبهم من العائلات الميسورة. والثابت المؤكد أن غالبية عرب فلسطين صمدوا في أراضيهم ومنازلهم لشهور طويلة، استجابة لمناشدة الزعامة الرسمية لعرب فلسطين في البقاء في وطنهم، وعدم الاستماع إلى الأصوات المتاجرة بالرعب.

ولكن من ناحية أخرى فإن إذاعة الصهاينة أخذت تبث الخوف والذعر بين العرب وتشككهم في زعامتهم. وفي الوقت نفسه كانت وحدات من الهاجاناة والبالماخ (الوحدات العسكرية الرسمية للصهاينة) تشغل نفسها في شن غارات هجومية ليلية إرهابية ضد القرى العربية.

وفي أواخر مارس أصدر قائد عمليات الهاجاناة تعليماته بأن «الحل الأوحد هو أن نأخذ زمام المبادرة في أيدينا، ونحاول تحقيق قرار عسكري بالانتقال إلى الهجوم». وكانت كل عملية هجومية تبدأ حالما يخلي البريطانيون منطقة معينة. وأخيرا أصدر بن غوريون أوامره بالهجوم في كافة أنحاء فلسطين وخارجها «حيثما يوجد العدو» كما زعم، وبوشر بالفعل بتنفيذ الخطة «دالت».

ومنذ شهر أبريل ارتفع عدد النازحين من عرب فلسطين بمعدل تصاعدي حتى وصل الأوج. وفي هذا الصدد أرسل الكاتب اليهودي «ناثان خونشي» رسالة في سنة ١٩٥٩م نشرت

فـي «رسالة الأنباء اليهودية Jewish Newsletter» معبرا عن احتجاجه على الصيغة المعطاة للنزوح العربي في مقابلة بقلم الحاخام «موردخاي كابلان»، ويقول «ناثان»: «إذا كان الحاخام كابلان راغبا بالفعل في معرفة ما حصل فنحن قدماء المستوطنين اليهود بفلسطين شهدنـا القتال، وباستطاعتنا أن نخبره كيف وبأي وسيلة قمنا نحن اليهود بإرغام العرب على مغادرة المدن والقرى التي لم يرغبوا في مغادرتها بملء إرادتهم. بعضهم طرد بقوة السلاح، والبعض الآخر حملوا على النزوح بواسطة الخداع والكذب والوعود الزائفة، يكفي أن نذكر مدنا مثل يافا واللد والرملة وبئر السبع وعكا من بين المدن الأخرى التي لا تحصى ومما يندى له الجبين خجلا بنوع خاص تلك الظروف التي أحاطت بالهرب من القرى التالية: برعم وربا نصيبا وبطباط ومجدل جاد»(٤٣).

أما الوسيط الدولي في فلسطين الكونت «فولك برنادوت» فقد أورد في تقريره المنشور قبيل اغتياله على يد العصابات الصهيونية في ١٧ سبتمبر ١٩٤٨م هذين الوصفين عن إخـلاء فلسطين من أهلها العرب:

«إن نزوح عرب فلسطين جاء نتيجة للرعب الذي خلفه القتال الدائر في مجتمعاتهم، وللشائعات المتعلقة بأعمال الإرهاب الحقيقية أو المزعومة، أو بفعل الطرد»

«ان كل السكان العرب تقريبا هربوا أو طردوا من المنطقة الواقعـة تحـت الاحتـلال اليهودي»(٤٤).

ويقول الصحفي الإسرائيلي «أوري أفنيري» الذى اشترك في حرب ١٩٤٨ ما يلي: «إن القاعدة العامة هي أنهم (أي القادة اليهود المحليين) شجعوا العرب على إخلاء مدنهم وقراهم. وأنا أعتقد أن إجلاء المدنيين العرب أصبح هدفا للحرب في المرحلة الثالثة والأخيرة منها»(٤٥).

ويقول المؤرخ العسكري البريطاني الميجور «ادغار أو بالانس»:
«كانت السياسة اليهودية تقوم على تشجيع العـرب على مغـادرة بيوتهـم، واستخدمـوا (الصهاينة) الحرب النفسية على أوسع نطاق لحثهم على الخروج»(٤٦).

هذا وقد استغل الصهاينة حادثة مذبحة دير ياسين، والتي راح ضحيتها نحـو ٢٥٠ شخصا من الشيوخ والنساء والأطفال، أسوأ استغلال في هذه الحرب النفسية. وفي هذا الصدد

يقول مندوب الصليب الأحمر الدولي بفلسطين آنذاك «جاك دي رينيه» ما نصه: «إن أنباء مذبحة دير ياسين نشرت رعبا واسع النطاق، ولجأ اليهود ببراعة فائقة إلى الإبقاء على هذا الرعب دوما»(٤٧).

وفي الأسابيع اللاحقة لهذه المذبحة البشعة أنذر اليهود سكان القدس، وبناء على شهادة أحد أعضاء الإرسالية الطبية المسيحية بالقدس «برثاسبا فورد فسبر» أنها سمعت مكبرات الصوت الإسرائيلية تنادي بالعربية: «إذا لم تغادروا بيوتكم فسوف يحل بكم ما حل بدير ياسين»(٤٨).

إن ما سبق ذكره عبارة عن مجرد بعض الشواهد والإثباتات التي تبرهن على مخططات الصهيونية الرامية إلى طرد أهل فلسطين كوسيلة من وسائل تهويد البلاد، وهذه الشواهد والإثباتات كثيرة وعديدة، وهي تدحض المزاعم الإسرائيلية القائلة بأن عرب فلسطين تركوا بلادهم طوعا بتشجيع من زعماء العرب.

وبعد عدون ١٩٦٧م وما نجم عنه من استيلاء إسرائيل على المزيد من الأراضي العربية واظب اليهود على طرد السكان العرب بعدة وسائل، إما بإلصاق مختلف التهم ببعض الشخصيات، أو بوضع البلاد في ظروف اقتصادية واجتماعية تساعد على خروج الأهالي منها. وقد عملت إسرائيل بمختلف الوسائل على تفريغ سكان قطاع غزة لتخفيف الضغط السكاني فيه، وحتى يمكنها ضمه إن أمكن بأقل قدر من السكان. كما حاولت وتحاول تهجير سكان الضفة الغربية إلى الأقطار العربية المجاورة. ومن الأمور التي أقلقت بال إسرائيل زيادة نسبة السكان العرب في منطقة الجليل بشمال فلسطين، وهي من المناطق بعد حرب ١٩٤٨م، وتعمل إسرائيل اليوم بكل ما أوتيت من قوة على تشتيت العرب من الجليل، وتهجير غالبيتهم حتى لا يكونوا مصدرا لإزعاجها في المستقبل، وحتى لا يختل التوازن السكاني الذي ينبغي أن يكون لصالح اليهود، إذ إن أي زيادة عربية معناها وضع عقبات وعراقيل أمام مستقبل إسرائيل، قد تؤدي إلى نسف سياسة التهويد التي طبقت على مراحل.

رابعا : هدم القرى والمعالم العربية والإسلامية :

من الوسائل التي استخدمتها ولا تزال تستخدمها إسرائيل في تنفيذ مخطط تهويد فلسطين

هدم القرى العربية، وإزالة المعالم العربية والإسلامية، حتى لا يبقى في المستقبل ما يثبت عروبة فلسطين. وقد نحت إسرائيل هذا المنحى بعد قيامها مباشرة، وبعد أن تم لها السيطرة على قسم كبير من أرض فلسطين. وقد ذكر الوسيط الدولي في فلسطين آنذاك الكونت «فولك برنادوت» في تقريره الذي رفعه للأمم المتحدة ما قامت به إسرائيل من تدمير للقرى العربية بعد احتلالها فقال:

«ولقد كانت هناك تقارير متعددة من مصادر موثوقة عن أعمال واسعة النطاق للسلب والنهب والسرقة، وعن حوادث تدمير للقرى بدون ضرورة عسكرية ظاهرة، وأن مسئولية الحكومة المؤقتة في إسرائيل عن رد الأملاك الخاصة إلى أصحابها العرب، وتعويض المالكين عن الأملاك التي دمرت عمدا مسئولية واضحة»[٤٩].

وفي التقرير نفسه قال «برنادوت» : إنه حقق بنفسه في مسألة تدمير قريتي عين غزال وجبع، وأنه احتج لدى حكومة إسرائيل على ذلك. وقال مستطردا:

«بعد تحقيق واسع قام به المراقبون الذين نجحوا في حصر أكثر من ثمانية آلاف قروي، والتأكد من أن ما لا يقل عن ١٣٠ قد قتلوا أو فقدوا، تبين للمجلس المركزي للإشراف على الهدنة أن القرى هاجمها اليهود بين يومي ١٨ و ٢٥ من يوليو من الجو والأرض، وأن السكان أكرهوا على الجلاء، وبعد الجلاء دمرت قريتا «عين غزال» و «جبع» على أيدي القوات الإسرائيلية»[٥٠].

ولكن إسرائيل لم تهتم باحتجاج الوسيط الدولي ولا بإدانة الأمم المتحدة، بل استمرت في تنفيذ مخطط تدمير القرى العربية على نطاق واسع حتى لا يعود إليها أصحابها. وقد بلغت موجة الهدم والتدمير أوجها في الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٣م، ففي هذه الفترة تم تدمير ١٦١ قرية عربية[٥١].

ولما سيطرت إسرائيل على مزيد من الأراضي العربية بعد عدوان ١٩٦٧م اتبعت أسلوب الهدم والتدمير نفسه الذي طبقته على الأراضي التي احتلت منذ عام ١٩٤٨م. فحالما توقفت حرب ١٩٦٧م قامت إسرائيل بهدم منطقة اللطرون غرب القدس، وثلاث قرى عربية، هي: عمواس، ويالو، وبيت نوبا. وفي ديسمبر ١٩٦٧م قام الجيش الإسرائيلي بهدم قرى العوجة، وجفتلك قرب نابلس.

وبعد أيام قلائل من سقوط القدس العربية حيث يسكن أكثر من ٩٠ ألف عربي أرسلت

إسرائيل البلدوزرات إلى حي المغاربة في المدينة القديمة، وهدمت ١٣٥ بيتا تابعاً للوقف الإسلامي، وكذلك أزالت مسجدين صغيرين ومصنع بلاستيك. وفي الأسبوع الثاني من الاحتلال أرسلت البلدوزرات لهدم وإزالة حي عربي تسكنه ١٢٥ أسرة عربية، يقع في مواجهة حائط البراق (حائط المبكى)، وذلك من أجل عمل ساحة تتسع لليهود الذين أصبحوا يأتون باستمرار لزيارة هذا الحائط. هذا وقد تم ترحيل ٣٠٠ أسرة عربية من حي كان يطلق عليه الحي اليهودي قبل عام ١٩٤٨.

ويمكن القول بأنه في السنوات الأولى من احتلال المدينة صادرت إسرائيل ١٣٠٠ منزل، ودمرت أكثر من ٧٠٠٠ منزل في الأرض المحتلة و ٢٠٨ منازل في القدس، ورحّلت أكثر من مائة شخصية بارزة[٥٢].

ولإسرائيل أطماع واضحة في الأماكن المقدسة في كل من القدس والخليل، وللقدس مكانة خاصة عند الإسرائيليين، لأنها مهوى أفئدتهم، ومحط أنظارهم، ولا تكتمل لهم دولة - كما يقولون - إلا إذا كانت القدس عاصمة لها. والدليل على ذلك أن موشي دايان أعلن في اليوم الثالث من حرب ١٩٦٧م مع رئيسه ليفي إشكول على حائط المبكى مانصه: «لقد عدنا إليك يا بيت المقدس، ولن نفترق عنك أبدا... إنك لست عاصمة إسرائيل، ولكنك عاصمة الشعب اليهودي بأسره»[٥٣].

وحائط المبكى هو عبارة عن الحائط الغربي للمسجد الأقصى، والمسمى بالبراق، هذا ولليهود أطماع واضحة في المسجد الأقصى نفسه، وليس أدل على ذلك من أنه بمجرد سقوط القدس بعد حرب ١٩٦٧م قامت الجرارات الإسرائيلية بعمليات حفر واسعة تحت هذا المسجد بحجة البحث عن الآثار، مما عرض هذا المسجد للتصدع. ولا تزال إسرائيل توالي عمليات الحفر وتفجير الألغام، مما أدى إلى تهدم وتصدع المدارس الأثرية كالمدرسة العثمانية والمدرسة الجوهرية، وأسوار المسجد الأقصى وحيطانه والعقارات الملاصقة له. كما تخطط السلطات الإسرائيلية لإجلاء حوالي ثمانية عشر ألف عربي من سكان الأحياء الإسلامية حول الحرم الشريف والمسجدين الأقصى المبارك والصخرة المشرفة وهدم الممتلكات العربية والإسلامية في القدس. كما قررت السلطات اليهودية ضم المقابر الإسلامية الواقعة خلف الحرم الشريف شرقا إلى أراضي منتزه إسرائيل الوطني[٥٤].

وفي عام ١٩٧٠ قام نفر من الصهاينة المتعصبين بحرق المسجد الأقصى. ويزعم اليهود بأن هذا المسجد أقيم فوق هيكل سليمان، والذي يخططون لإعادة بنائه مكان الأقصى. وقد ورد في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثانية لعام ١٩٢٦ تحت كلمة الصهيونية ما نصه: «إن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل، واجتماع الشعب في فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة عرش داود في القدس ثانية، وعليه أمير من نسل داود»[٥٥].

وجاء في دائرة المعارف اليهودية المطبوعة باللغة الإنجليزية تحت كلمة الصهيونية ما يلي: «إن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم، وأن يقدموا إلى القدس ويتغلبوا على قوة الأعداء، وأن يعيدوا العبادة إلى الهيكل (أي مكان المسجد الأقصى) ويقيموا ملكهم هناك»[٥٦].

وأعلن الزعيم اليهودي «كلوزنر» رئيس جمعية الدفاع عن المبكى في جريدة «بالستاين ويكلي» اليهودية في ٦ أغسطس ١٩٢٩ ما يلي:
«المسجد الأقصى القائم على قدس الأقداس في الهيكل إنما هو لليهود»..
كما صرح دافيد بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل الأسبق بأنه «لا معنى لإسرائيل بدون القدس، ولا معنى للقدس بدون الهيكل»[٥٧].

وتتركز المطامع الصهيونية أيضا في مدينة الخليل حيث الحرم الإبراهيمي الشريف ومدفن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة وأبنائه وزوجاتهم. ولهذا الحرم مكانة سامية عند المسلمين الذين يعتبرونه أحد مقدساتهم في فلسطين، ولكن اليهود يزعمون أن لهم حقا في هذا الحرم، فيريدون وضع اليد عليه، والسماح لليهود بالدخول إليه وبناء كنيس لهم فيه. ويتزعم هذا الاتجاه ويقوده جماعة يهودية دينية متطرفة تسمى بجماعة «جوش إيمونيم Gush Emunim»، بمؤازرة ومساعدة الحكومة الإسرائيلية، وبخاصة حكومة «مناحيم بيغن» التي فازت إلى حد ما بتأييدها.

هذا وقد قسمت السلطات الإسرائيلية الحرم الإبراهيمي، فخصصت مكانا فيه لليهود، وسمحت لهم بالدخول إلى الحرم، واستباحت ما فيه من مقدسات إسلامية، ولطخت نسخا من القرآن الكريم، مما أثار حفيظة المسلمين، وألهب حماسهم، فهبوا للدفاع عن مقدساتهم والذود عن دينهم، فأطلقت السلطات المحتلة النار على المتظاهرين، وسقط العديد من الشهداء،

وألقت في السجون العديد من الغيورين، وأهانت العديد من رجال الدين الذين سلطت عليهم الكلاب إمعانا في احتقارهم.

خامسا : إقامة المستعمرات اليهودية :

منذ أن بدأت الصهيونية في تنفيذ مخططاتها للاستيلاء على فلسطين وتهويدها، أخذت في بناء المستعمرات (والتي يطلق عليها أحيانا بالمستوطنات) في مختلف أنحاء البلاد لتحقيق أهداف رئيسية ثلاثة: وهي أمنية، وسياسية، واقتصادية، ولذلك كانت حريصة كل الحرص في اختيار المواقع المناسبة لهذه المستعمرات. وبعد حرب ١٩٦٧م نشطت إسرائيل في إقامة العديد من هذه المستعمرات في الأراضي العربية التي احتلت في تلك الحرب، حتى تزيد من قبضتها على ما تبقى من فلسطين والأراضي العربية المحتلة. وفيما يلي سنذكر بإيجاز أهم المستعمرات التي أقامتها إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧م في كل من الضفة الغربية ومنطقة مدينة القدس وقطاع غزة وسيناء والمرتفعات السورية.

١ - ففي الضفة الغربية بدأ اليهود ببناء مستعمرة «جوش عتسيون»، والتي تقع على منتصف الطريق بين بيت لحم والخليل، وقد بنيت على أنقاض مستعمرة قديمة أزالها الفلسطينيون والجيش الأردني في عام ١٩٤٨م، وكانوا يطلقون عليها مستعمرة «كفار عصيون».

وقد أحاط اليهود هذه المستعمرة بعدد من المستعمرات، فصادروا لهذا الغرض منذ يونيو ١٩٦٩ نحو ١٢٠٠ دونم كانت تابعة لبلدة أرطاس العربية، وأزالوا بيوتها، وطردوا سكانها منها، وأنشأوا أول مستعمرة، وأطلقوا عليها «كيبوتز روش تسوريم»، وتم افتتاحها في ١٩٦٩/٧/٣٠م. وبعد ذلك بنيت المستعمرة الثانية «هاكيبوتز هواتي»، ثم الثالثة في منطقة «أدوم» مكان قرية عولام. أما المستعمرة الرابعة «جبل جاك» فأقيمت على رأس بيت جاك القريبة من بيت لحم[٥٨].

وعلى مقربة من مدينة الخليل أنشأ اليهود مستوطنة أطلقوا عليها «قريت جبرون»، أي قرية الخليل[٥٩]. وفي عام ١٩٧٠م وافقت الحكومة الإسرائيلية على إقامة مستعمرة «قريت

أربع» Kiryat arba المحصنة على تل يشرف على مدينة الخليل، بناء على إصرار بعض الجماعات الدينية المتطرفة في إسرائيل (٦٠).

ويرى «موشي دايان» بأن من حق اليهود أن يستوطنوا في أي مكان في الضفة الغربية، وأن يشتروا الأرض. وفي يونيو **١٩٧٥**م بدئ العمل ببناء مستعمرة دينية للعسكريين الزراعيين في «تكوا» Tekoa بالقرب من بيت لحم. كما أقيمت في ذلك العام مستعمرة «بيت هتزور» Bet Hatzor جنوب مدينة رام الله، بدعوى أن العمال الذين يعملون من طرف الحكومة العسكرية في الضفة الغربية يحتاجون إلى سكن بالقرب من عملهم، على الرغم من أن المسافة بين القدس، ومراكز عملهم لا تزيد عن نصف ساعة (٦١).

٢ - وفي غور الأردن بنى الإسرائيليون مستعمرة «بيت هاعارباه» بالقرب من مدينة أريحا، وعلى مقربة من الشاطئ الشمالي الغربي للبحر الميت في موقع مستعمرة حملت نفس الاسم، واحتلها الجيش الأردني في مايو ١٩٤٨م. وكذلك أنشئت مستعمرات أخرى هي «ناحال كالية» في موقع مشروع البوتاس، سابقا، و «محولة» جنوب بيسان، وجنوب مخاضة أم السوس بنحو خمسة كيلو مترات في المنطقة الشمالية من الغور (١٩٦٨)م، ثم مستعمرة «ارجمان» بين أريحا وبيسان شمال جسر دامية (٦٢).

٣ - وفي منطقة مدينة القدس يختلف الوضع تماما عما هو عليه في الضفة الغربية، ففي ٢٧ يونيو **١٩٦٧** تبنى الكنيست الإسرائيلي قانونا يخول لوزير الداخلية بموجبه إعلان القدس مدينة تحت الإدارة الإسرائيلية، ومنح وزير الشئون الدينية سلطة منفردة في الأمور الخاصة بالأماكن المقدسة. وقد حلت إسرائيل المجلس البلدي لمدينة القدس العربية بعد ضمها إلى القسم اليهودي. ولاشك في أن إجراءات ضم القدس كانت انتهاكا صارخا لقرار الأمم المتحدة بتاريخ ١١ ديسمبر **١٩٤٨**م، والتي وضعت المدينة تحت سيطرة الأمم المتحدة «نظرا لارتباطها بالأديان العالمية الثلاثة» وفي ٤ يوليو **١٩٦٧**م تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا تطلب من إسرائيل إبطال الإجراءات التي اتخذت لضم القسم العربي من القدس، ولكن إسرائيل عارضت القرار وما تلاه من قرارات (٦٣).

وعلى الرغم من الرفض العالمي استمرت إسرائيل في تهويد القدس بإنشاء مستعمرات في

القطاع العربي. وقد أعلن رئيس البلدية اليهودي في ٢ يوليو ١٩٦٧م بأن الغرض من هذه المستوطنات التأكيد على أن جميع القدس ستبقى إلى الأبد جزءا من إسرائيل [٦٤]. وتنفيذا لمخطط تهويد القدس أصبحت الحكومة تشجع آلاف اليهود على الاستيطان في المدينة. ولإنجاح هذا المخطط صارت إسرائيل تصادر الأراضي العربية، فقد أصدر وزير المالية أمرا في ١١ يناير ١٩٦٨م بمصادرة نحو ٨٣٨ فدانا بجبل المشارف (سكوبس)، والتي يملك العرب منها ٩٣٪ وبعد ثلاثة شهور، أي في ١٧ أبريل ١٩٦٨ تمت مصادرة ٢٩ فدانا بجوار حائط المبكى.

وسارت إسرائيل في بناء المستعمرات والأحياء السكنية في القدس، منها واحدة على تل الذخيرة في شمال شرق المدينة. وفي ربيع ١٩٦٩م أنشأت حيا جديدا في شعفاط إحدى ضواحي القدس، وأطلقت عليه حي «ليفي إشكول» وسميت المنطقة بأسرها «رامات إشكول»، أي مرتفعات إشكول. كما بنت المساكن على جبل المكبر ووادى الجوز والشيخ جراح وكرم لوين. هذا وقد نفذت مخطط القدس الكبرى التي تشمل مدن القدس ورام الله والبيرة وبيت جالا [٦٥].

وفي ١٤ أبريل ١٩٧٥م كشفت صحيفة «دافار» الإسرائيلية عن مخطط آخر للقدس الكبرى، بحيث يشمل تسع مدن عربية في الضفة الغربية، وكذلك ستين قرية. وتقدر مساحة هذه المناطق التي تخطط إسرائيل لاقتطاعها بحوالي ٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية، ويسكنها حاليا نحو ربع مليون عربي. وتمهيدا لتنفيذ هذا المخطط صادرت إسرائيل في عام ١٩٧٠ مساحات واسعة من أراضي قرى بيت حنينا، والرام، والنبي صمويل، وقلنديا، والجيب، وبيت اكسا، وشعفاط ، وبيت صفافا، وصور باهر، وشرفات، وبيت جالا. وفيما بين عامي ١٩٧٢م و ١٩٧٥م صادرت إسرائيل مساحات واسعة من الأراضي التابعة لقرى عناتا، والعيزرية، وأبو ديس، وسكاريا، وعرب التعامرة والعبيدية، والخليل. وأقامت على هذه الأراضي بعض المستعمرات التي ستكون نواة لمشروع القدس الكبرى. ومن أمثلة هذه المستعمرات، مستعمرة «هناني» شرق العيزرية، التي أنشئت في عام ١٩٧٥م، ومستعمرة «أفراتا» جنوب شرقي القدس، والمقامة على أراضي عرب السواحرة (١٩٧٥م)، ومستعمرة «عوفرة» قرب عين يبرود شمالي رام الله (١٩٧٥م)، وغيرها من المستعمرات [٦٦].

٤ ـ **في شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة** : في نوفمبر ١٩٦٧ باشرت دائرة الإسكان في الوكالة اليهودية ببناء المساكن في أول ناحال في سيناء، والذي يطلق عليه اليوم باسم «ناحال يام»، أي الناحال البحري، ويقع على الساحل الشمالي لسيناء إلى الجنوب الغربي من سبخة البردويل، على بعد ٧٠ كم غربي مدينة العريش، وعلى منتصف الطريق بينها وبين بورسعيد. وقد أسس هذا الناحال نفر من الخبراء في صيد الأسماك، ولكن منذ عام ١٩٦٨م أنشئت به معامل لتحلية مياه البحر لاستخدامها في الشرب والري.

أما الناحال الثاني فهو ناحال سيناء، والذي أعلن عن بنائه في ديسمبر ١٩٦٧، وبني في موقع مزرعة نموذجية كان المصريون قد أنشأوها من قبل بموجب قوانين الإصلاح الزراعي، ويقع هذا الناحال في القسم الشمالي من سيناء على الطريق البري بين العريش والإسماعيلية، وقد تخصص هذا الناحال في زراعة الخضروات.

وفي ٢٩ مايو ١٩٦٩م بدئ بإنشاء مستعمرة ثالثة سميت «ناحال ديكالم» أو ديكالا، أي ناحال الدخيل، نسبة إلى أشجاره التي تحيط بالموقع. ويبعد نحو ١٣ كم غربي رفح (موقع الشيخ زويد)، وقد خصص للزراعة وتربية الماشية.

وفي قطاع غزة أقيم ناحال «كيرم شالوم» ، أي كرم السلام، ويقع شمالي مدينة غزة. هذا وهناك مشروع من أجل عمل مدينة وميناء «ياميت» yamit قرب غزة لتتسع لنحو ٢٥٠ ألف نسمة.

٥ ـ **أما في المرتفعات السورية الجولان** : فقد أنشأت إسرائيل العديد من المستعمرات بمجرد احتلالها للمنطقة، بهدف ضمها وعدم الانسحاب منها. وأهم هذه المستعمرات هي: «ناحال هابانياس»، و«ناحال ماتة عوز». وقد تم بناء هاتين المستعمرتين في عام ١٩٦٧ في المنطقة المجردة من السلاح سابقا، وعلى الحدود السورية ـ الإسرائيلية جنوبي مستعمرة «كفار هناسي». وقد تغير اسم الناحال الأول إلى «شيريون أو ليش أو لشهام» وأخيرا أصبح يطلق عليه قرية «موسى شاريت».

وفي ٢٤ أكتوبر ١٩٦٧ بنى الإسرائيليون الناحال الثالث في الجولان بالقرب من بانياس اسمه «سنير»، وعلى طرق مدينة القنيطرة السورية عاصمة الجولان بنى الإسرائيليون كيبوتز

«هاجولان»، نقل بعد ذلك إلى جوار تل عرم غرب القنيطرة. وعلى مقربة من تل أبوندى بني ناحال آخر في ٢٨ ديسمبر ١٩٦٧ اسمه ناحال «هاجولان». وفي فبراير ١٩٦٨ تم بناء ناحال عين زيوان على أنقاض بلدة عين زيوان السورية جنوب القنيطرة بخمسة كيلو مترات.

أما الناحال «العال» فقد بني قرب رفيد على منتصف الطريق بين القنيطرة والحمة، على بعد ١٦ كم عن الحمة شرق بحيرة طبريا.

وفي ٨ أبريل ١٩٦٨ افتتح رسميا ناحال جيشور، ويقع على سفح تل الفرس جنوب القنيطرة، على الطريق منها إلى الحمة غرب خط وقف إطلاق النار بكيلو مترين ونصف.

ومن المستعمرات الأخرى نذكر أيضا مستعمرة «مافوجمة»، أي مداخل الحمة، ثم رامات شالوم التي أنشئت في ٢٣ أبريل ١٩٦٩ عند سفح جبل الشيخ في أرض قرية جباتا الزيت العربية على بعد كيلومترات قليلة من حدود لبنان وسط منطقة من الجبال والمرتفعات، ثم مستعمرة «موشاف جفعات يوآب» أي رابية يوآب.

هذا ولا تزال إسرائيل توالي تنفيذ مخططاتها بتهويد الأراضي الفلسطينية وطمس معالمها، وإقامة العديد من المستعمرات. ففي عام ١٩٧٦ قرر المتطرفون الصهاينة إقامة مدينة صناعية يهودية في قلب السامرة متحدين المشاعر العربية، مما سبب الاضطرابات في المدينة[٦٧]. وفي ديسمبر ١٩٧٥ اتجهت نحو ٣٠ أسرة يهودية إلى قرية سبسطية العربية القريبة من نابلس بزعامة الحاخام «موشي لفنجر» Moshe Levinger من أجل إقامة مستعمرة في هذه المنطقة، وقد أحضروا معهم لهذا الغرض مساكن جاهزة ومعدات، وباشروا ببناء كنيس يهودي[٦٨].

قائمة تشمل عددا من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ بأنواعها المختلفة(٦٩).

اسم المستعمرة بالعربية والإنجليزية		نوعهـــا	تاريخ بنائها
أولا : مرتفعات الجولان السورية :			
ميروم هاجولان	Merom Hagolan	كيبوتز	١٥ يوليو ١٩٦٧
أفيـق	Afiq	كيبوتز	١٧ ديسمبر ١٩٦٧
ســـنير	Snir	كيبوتز	سبتمبر ١٩٦٧
			ديسمبر ١٩٦٨
ناحال الإلياد	Nahal El,Eliad	موشاف تعاوني	٢١ يناير ١٩٦٨
عيـن زيفـان	Ein Zivan	كيبوتز	٢٣ يناير ١٩٦٨
مافو حمـة	Mevo Hamma	كيبوتز	٢٢ يناير ١٩٦٨
جيفات يوآب	Givat Yoav	موشاف تعاوني	٣ مارس ١٩٦٨
رامات ماجشيميم	Ramat Magshimim	موشاف	١٥ يوليو ١٩٦٨
نيوط هاجولان	Neot Hgolan	موشاف	يوليو ١٩٦٨
جيشور	Gshor (Geshur)	ناحال	٨ أبريل ١٩٦٩
راموت	Ramot	موشاف تعاوني	٥ يونيو ١٩٦٩
آلية ٧٠	Aliyah 70	كيبوتز	١٩٧٣
نيفي آليف	Neve Aliv	موشاف تعاوني	فبراير ١٩٧١
إلـروم	Elrom	كيبوتز	٩ يوليو ١٩٧١
بري يهودا	Brei Yehuda	مركز ريفي	أغسطس ١٩٧٢
كفار جينات	Kfar Ginat	موشاف تعاوني	٩ مايو ١٩٧٣
نوف (أو نيف)	Nov (or Niv)	موشاف تعاوني	١٩٧٣
هيروف	Heruv	كيبوتز	١٩٧٣
هيركاز هسبن	Herkaz Hiwspin	كيبوتز	١٩٧٥

قائمة تشمل عددا من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ بأنواعها المختلفة(٦٩).

اسم المستعمرة بالعربية والإنجليزية		نوعهـــا	تاريخ بنائها
تل زايت	Tel Zayit	كيبوتز	١٩٧٥
كيشيت (نيهوشا)	Keshet (Nehusha)	كيبوتز ديني	١٩٧٣
يوناتار هار أودم	Yonatar Har Odm and Shelach	كيبوتز	١٩٧٥
ثانيا : وادي الأردن :			
كاليه	Kalia	ناحال	١ فبراير ١٩٦٨
أرجامان	Argaman	ناحال	٣٠ نوفمبر ١٩٦٨
أرجامان	Argaman	موشاف	٨ مايو ١٩٧١
ميكولا	Mechola	ناحال	٦ ديسمبر ١٩٦٨
ميكولا	Mechola	موشاف	١٣ نوفمبر ١٩٦٩
ميسوا	Mesuah	ناحال	١ يناير ١٩٧٠
جلجال	Gilgal	كيبوتز	١٥ يناير ١٩٧٠
فاتسائيل	Phatsael	موشاف	٧ ديسمبر ١٩٧٠
متسفة شالم	Mitazpeh Shalem	ناحال	٧ ديسمبر ١٩٧٠
نآران	Naaran	ناحال	٢٤ ديسمبر ١٩٧٠
حمرة	Hamrah	موشاف	٥ مايو ١٩٧١
بيكاوط	Bekaot	موشاف	٢٨ يوليو ١٩٧٢
جيتيت	Gitit	ناحال	أغسطس ١٩٧٢
ميخورا	Mekhora	ناحال	١٩٧٣
معاله أفريم	Maaleh Ephraim	موشاف	يوليو ١٩٧٢

قائمة تشمل عددا من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ بأنواعها المختلفة(٦٩).

اسم المستعمرة بالعربية والإنجليزية		نوعهـــا	تاريخ بنائها
بيكاوط «ب» (بيت)	Bekaot "B" (bet)	ناحال	١٩٧٤
ناتيف هاجدود	Nativ Hagdud	ناحال	١٩٧٥
كوشاف هاشاكر	Kochav Hashachar	كيبوتز	١٩٧٥
ثالثا : مجموعة عتسيون بين بيت لحم والخليل:			
كفار عتسيون	Kfar Etzion	كيبوتز ديني	٢٥ سبتمبر ١٩٦٧
روش تزورين	Rosh Tzurin	كيبوتـز	٣٠ يوليو ١٩٦٩
ألون شيفوت	Alon Shevut	مركز ريفي	٣٠ يوليو ١٩٦٩
أليزار	Alazar	كيبوتز	أبريل ١٩٧٤
رابعـا : الخليــل :			
كريات أربع	Kuryat Arba	مستوطنة حضرية	١٩٧٠
خامسا : منطقة اللطرون :			
مافو هورون	Mevo Horon	كيبوتز	٤ يناير ١٩٧٠
سادسا : قطاع غزة وشمال سيناء :			
ديكلا	Dikla	ناحال	من ٣ فبراير ٦٩ ناحال ثم

قائمة تشمل عددا من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ بأنواعها المختلفة(٦٩).

اسم المستعمرة بالعربية والإنجليزية		نوعها	تاريخ بنائها
			تحول إلى موشاف ابتداء من ١٧ مارس ١٩٧١.
كفار داروم	Kfar Darom	ناحال	١١ أكتوبر ١٩٧٠
ناحال سيناء	Nahal Sinai	ناحال	ناحال من ١٥ ديسمبر ١٩٦٧ وموشاف من ١٧ مارس ١٩٧١.
سادوت	Sadot	موشاف	٣ يناير ١٩٧١
ناحال يام	Nahal Yam		ناحال من ١٨ اكتوبر ١٩٦٧ ثم قرية سمكية ٧٣
نتساريم	Netzarim	ناحال	فبراير ١٩٧٢
موراج	Morag	ناحال	٣٠ مايو ١٩٧٢
قطيف	Katif	ناحال	١٩٧٣
نتيف حسارا	Netiv Hassara	موشاف	١٩٧٣
مركاز ياد أون	Merkaz Yad on		١٩٧٣
ياميت	Yamit	مستوطنة مختلطة مخطط لها لتكون ميناء رئيسي ومدينة	
اجدا، هاروفيت، ساكوت	Ugda, Haruvit, Succot		١٩٧٥

قائمة تشمل عددا من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ بأنواعها المختلفة(٦٩).

اسم المستعمرة بالعربية والإنجليزية		نوعهـــا	تاريخ بنائها
سابعا : شرق وجنوب سيناء :			
نيفوت	Neviot	موشاف	١٠ فبراير ١٩٧١
دي زاهوف	Di Zahav	موشاف	١٣ سبتمبر ١٩٧١
أوفيرا (شرم الشيخ)	Ophira	ميناء	١٩٧٠ ـ ١٩٧١
ثامنا : منطقة القدس :			
رامات إشكول	Ramat Eshkol	ضاحية حضرية	١٩٦٨
التل الفرنسي	French Hill	ضاحية حضرية	١٩٦٩
نيفي ياكوف	Neve Yaacov	ضاحية حضرية	١٩٧٣
رامات	Ramat	ضاحية حضرية	١٩٧٣
إيست تالبيوت	East Talpiot	ضاحية حضرية	١٩٧٣
جيلو	Gilo	ضاحية حضرية	١٩٧٣
معالوت دفنة	Maalot Dafina	ضاحية حضرية	١٩٧٣
جيفات هاميفتار	Givat Hamivtar	ضاحية حضرية	١٩٧٣
تاسعا : طريق القدس أريحا :			
معاله أدوميم	Maale Adumim	مدينة ومستوطنة صناعية	١٩٧٥
تكـواه	Tekoah	ناجال	١٩٧٥

قائمة تشمل عددا من المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ بأنواعها المختلفة(٦٩).

اسم المستعمرة بالعربية والإنجليزية		نوعهـــا	تاريخ بنائها
عاشرا : مستعمرات متفرقة :			
قدوم (قرب نابلس)	Kaddoum	معسكر ديني	١٩٧٥
أوفرا (قرب رام الله)	Ofra	معسكر عمل	١٩٧٥

إن هذه المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية هي بمثابة عقبة في سبيل السلام. ورغم ذلك تخطط إسرائيل للمضي قدما على افتراض أنه ليس هناك تغييرات سياسية رئيسية، وأن هذه الخطط ترمي إلى زيادة عدد اليهود في المناطق المحتلة، ليتفوقوا على السكان العرب، وبذلك تتحقق سياسة التهويد(٧٠).

سابعا : التعليم كوسيلة من وسائل تهويد فلسطين :

استخدمت إسرائيل التعليم كوسيلة من وسائل تهويد فلسطين، على الرغم من أن فرص التعليم محدودة للغاية للعرب المقيمين في الأراضي المحتلة. وترمي سياسة إسرائيل إلى تجهيل الشعب الفلسطيني، فقد صرح أحد المسئولين الصهاينة بقوله: «لعله من الأفضل ألا يكون هناك طلاب عرب، فلو ظل العرب حطابين لكان من السهل تدميرهم»(٧١).

وإذا قمنا بعملية تحليل ودراسة للمناهج والكتب المدرسية المقررة على الطلبة في الأراضي المحتلة نجد أن هناك سياسة وخطة مدبرة تستغل التعليم أسوأ استغلال، من أجل تحقيق النوايا والأغراض الصهيونية. وفيما يلي نذكر بإيجاز هذه الملاحظات(٧٢):

١ - التركيز على تعريف الطلاب بالشعب اليهودي بصفة خاصة والشعوب الأوروبية بصفة عامة، وإهمال تدريس الأمة العربية والشعوب الإسلامية من حيث الكم والكيف.

٢ - إبراز وتضخيم مكانة ودور علماء ومشاهير اليهود، والتغاضي عن ذكر علماء العرب ومشاهيرهم، بهدف إظهار الأمة العربية والإسلامية على أنها خاملة لم تسهم في الحضارة العالمية.

٣ - تسليط الأضواء على بعض الأحداث التاريخية كالفتن وحركات الانقسام، وإظهارها على أنها مساوئ وعيوب في الأمة العربية التي يريدون إثبات أنها أمة مفاسد وفتن ومكائد، وأنها لم تكن في يوم من الأيام أمة موحدة وتخضع لسلطان واحد، وإن خضعت لفترة محدودة من الزمن فسرعان ما تقوم الحركات الانفصالية فيما بينها.

٤ - تصوير الوطن العربي على أنه مؤلف من مجموعة الدول المختلفة المتنافرة وغير المتجانسة، وأن العوامل الطبيعية والبشرية لا تساعد بأي حال من الأحوال على إيجاد أي نوع من أنواع الوحدة أو التكامل بين بلدان الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه. فالعرب كما تقول الكتب الإسرائيلية يختلفون فيما بينهم أصلا وتاريخا ودينا وحتى لغة، ذلك أن اللهجات المحلية عند إسرائيل هي لغات قائمة بذاتها، كما أن مذاهب الدين الواحد عبارة عن عدة أديان.

٥ - إبراز الوطن العربي ودوله وأقطاره على أنه متخلف اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وعلميا وثقافيا، وهو عبارة عن عالم يسوده الفقر والجهل والمرض.

٦ - إيهام الطالب العربي بأن فلسطين أرض يهودية منذ القدم، وذلك بإبراز تاريخ اليهود فيها، وطمس معالم عروبتها، واستبدال جميع أسماء الأماكن والأنهار بأسماء عبرية.

٧ - إيهام الطلاب بأن الشعب اليهودي هو أول من استوطن فلسطين.

٨ - محاولة تهيئة نفسية الطلاب العرب لتقبل النوايا التوسعية لإسرائيل، وإظهار أن هذا التوسع شيء طبيعي بحسب حاجة السكان.

٩ ـ تصوير التاريخ العربي على أنه عمليات غزو وقرصنة للبلدان التي احتلوها، مع التأكيد على الخلافات بين الحكام والخلفاء والأمراء والسلاطين.

١٠ ـ إظهار عظمة اليهود في الماضي والحاضر، ومدى أحقيتهم في فلسطين، سواء من حيث الزعم بالحق التاريخي، أو إيهامهم بالحق الإنساني والحق الحضاري إلى غير ذلك من حقوق زائفة.

١١ ـ حذف جميع الأحاديث والآيات القرآنية التي تدعو للجهاد أو التي تتعرض لليهود أو التي تنادي بالعزة والكرامة إلى غير ذلك من آيات وأحاديث تحاول بناء المؤمن على أسس من القوة والشجاعة.

سابعا : أطماع إسرائيل التوسعية :

لو تأملنا وتفحصنا أهداف الصهيونية وأغراضها لوجدنا أن سياسة التوسع استخدمت وستظل تستخدم للحفاظ على ما تم تهويده من فلسطين، وكل أرض عربية تستولي عليها. وعلى الرغم من أن التوسع وضم الأراضي الجديدة يدخل ضمن ما يسمى بالأطماع التوسعية لإسرائيل ـ والتي لا حد لها ـ إلا أنها تعتبر إحدى وسائل التهويد، وأحد مرتكزاته بل ومثبتاته. فكلما توسعت إسرائيل ضمت على الأقل الحد الأقصى للرقعة الأرضية التي تسمح بها الظروف والأحوال المحلية والدولية. ولهذا كله يجدر بنا أن نتعرض لسياسة إسرائيل التوسعية، ونبين أهدافها وأخطارها على الأمة العربية والإسلامية.

إن الذين خططوا لإقامة إسرائيل اعتبروا فلسطين مجرد مرحلة من مراحل دولتهم، ومنها يستطيعون التوسع لضم مزيد من الأراضي العربية المجاورة، فلليهود مطامع في كل من مصر وسوريا ولبنان والأردن وحتى نهر الفرات في العراق، تمشيا مع شعارهم الذي لازالوا يسعون إلى تحقيقه، وهو أن حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات.

ويمكننا تتبع هذه المطامع منذ مطلع القرن العشرين، وأثناء المشاورات والمداولات السرية المتعلقة بإيجاد صيغة لتصريح «بلفور» المشئوم آنذاك. ففي ١٠ سبتمبر ١٩١٩م دعا رئيس وزراء بريطانيا آنذاك «لويد جورج» إلى اجتماع لرسم حدود فلسطين، ضم عددا من

الشخصيات الرسمية البريطانية، ناقشوا فيه الحدود التي ينبغي أن يشملها الانتداب البريطاني على فلسطين، وذكروا أهمية منابع مياه نهر الأردن لفلسطين وضرورة ضمها لهذا القطر، ذلك لأن الحدود بين سوريا وفلسطين لم تكن واضحة. وقال اللورد اللنبي بأن نهر اليرموك ضروري لأنه يمد نهر الأردن بنحو ثلثي مائه. وقال بأن الصهاينة وسعوا فلسطين إلى الشمال كثيرا ويرون ضم حماة، وأنهم يرون بأن تتمشى الحدود مع حدود امبراطورية سليمان(٧٣).

ولكن الصهاينة أنفسهم لم يريدوا أن يصرحوا بحدود واضحة ومحدودة، بل وجدوا أن من الأنسب لهم آنذاك جعلها مرنة، حتى يعطوا الفرصة لأنفسهم حرية الحركة والمناورة بحسب مقتضيات الظروف. وفي هذا الصدد وصف الكابتن الصهيوني المعروف «نورمان بنتويش» Norman Bentwich مرونة المطالب الصهيونية فيما يختص بالحدود بقوله: «يقارن الحاخامات فلسطين بغزال ينمو حينما يعلف جيدا.. وهكذا كلما زاد سكان فلسطين فإن مساحة الأرض المطلوبة تزداد»(٧٤).

وقد فاوض هرتزل بنفسه متمشيا مع نظرية جلد الغزال هذه، ففي سنة ١٨٩٨ سئل عن حدود الدولة اليهودية في فلسطين، وفيما إذا كانت هذه الحدود تسير شمالا حتى بيروت أو بعدها، فأجاب: «سنسأل عما نحتاج ـ كلما كان هناك مهاجرون أكثر احتجنا إلى أرض أكثر»(٧٥).

ولكن هذا السؤال جعله يفكر أياما بعد ذلك، وبحث مطالب الصهيونية مع صديق له، وقال بأن حدود إسرائيل هي: «المنطقة من النيل إلى الفرات».

هذا ويمكننا أن نحلل مطالب الصهيونية المتعلقة بالأرض، ونقسمها إلى فئات ثلاث، هي: دينية، وتاريخية علمانية، وسياسية. فالمطلب الديني يرى بأن حدود إسرائيل ينبغي أن تكون من وادي العريش إلى الفرات، لأن هذا ينطبق ـ كما يقولون ـ على فكرة الأرض الموعودة، أي التي وعدها «يهوه» لشعبه المختار.

أما المطلب التاريخي العلماني فهو في الأساس لكافة فلسطين التي احتلت تاريخيا من قبل اليهود، أي من دان شمالا حتى بئر السبع جنوبا. في حين أن الصهيونية السياسية تريد

فلسطين مضافا إليها الأراضي المجاورة، وذلك لمواجهة المتطلبات العصرية، وحتى تشكل اقتصادا قابلا للحياة، وفي نفس الوقت تحقق الأمن العسكري (حدود آمنة). فبموجب المفهوم الاقتصادي يجب أن تشمل الدولة منطقة حوران السورية ذات الأرض الخصبة الصالحة لزراعة القمح، كما تشمل منابع نهر الأردن، ومرتفعات جبل الشيخ، ونهر الليطاني، ونهر اليرموك. وكل هذه الأجزاء تقع الآن في لبنان وسوريا والأردن. وهذه الأراضي تراها الصهيونية لازمة لأنها تمد مياه الري، وضرورية لتوليد القوة الكهرمائية. كما ينبغي من وجهة النظر الصهيونية ضم منطقة «جلعاد» وهي الواقعة شرقي نهر الأردن، ذلك لأنها في رأيهم المصدر الوحيد المتبقي للأخشاب.

أما بحسب الاعتبارات العسكرية فيجب أن تشمل الحدود الطريق الذي تسلكه الغزوات، وهو عبر البقعة الشمالية، والذي يقع حاليا في لبنان، بالإضافة إلى حوران واليرموك والمنطقة التي تجرى خلالها سكة حديد الحجاز سابقا، أي من مدينة عمان إلى درعا. ويرون بأن هذه المنطقة (سكة حديد الحجاز) ضرورية لدعم الجبهة الشرقية.

وفي الجنوب تمتد المطالب الصهيونية إلى شرم الشيخ ومضائق تيران، بالإضافة إلى أجزاء من سيناء، حتى تحمي الدولة من أي خطر مصري. ولاشك في أن هناك مطامع قديمة للصهاينة في سيناء، ففي ٣٠ يناير ١٩١٩م صرح الدكتور «وايزمن» لصديقه البريطاني الكولونيل «ماينز هيجن» عضو مؤتمر السلام ما يلي: «لابد من ضم كامل سيناء إلى الدولة اليهودية، لأن لليهود حقوقا في سيناء من الناحيتين التاريخية والدينية... لأن الشعب اليهودي هو الشعب الوحيد الذي تاه هناك لمدة أربعين عاما، ولأننا تلقينا الوصايا العشر من على جبل سيناء»[٧٧].

وبهذا نرى بأن الصهاينة رسموا في نوفمبر ١٩١٨م خرائطهم لدولتهم اليهودية، وكانت عبارة عن أرض أكبر بكثير من المساحة التي خصصت في النهاية لفلسطين المنتدبة. فخارج حدود فلسطين طالب الصهاينة بكل ما يطلق عليه الآن جنوب لبنان حتى نهر الليطاني، وجميع مصادر مياه الأردن، وكل منطقة حوران في الجنوب الغربي لسوريا «حتى نقطة تقع جنوب دمشق»، وتسير الحدود من الشمال إلى الجنوب بحيث تشمل الأراضي الواقعة غرب سكة حديد الحجاز حتى خليج العقبة، ومن هنا حتى مدينة العريش.

إن هذه الخريطة الموسعة للدولة اليهودية التي تم رسمها في عام ١٩١٨م، وأحضرت إلى مؤتمر السلام في عام ١٩١٩م لإقرارها واعتمادها، ولم يأخذ المجلس بها كليا، إلا أنها ظلت هدفا إسرائيليا تسعى إلى تحقيقه في كل مرحلة وفي كل حرب، إلى أن جاءت الفرصة وتحققت إلى حد كبير في حرب عام ١٩٦٧م. فبعد إعلان وقف إطلاق النار على الجبهة السورية في يونية ١٩٦٧م تقدمت القوات الإسرائيلية بسرعة لتحكم قبضتها على منابع نهر الأردن، وعلى جزء لا بأس به من منطقة حوران، وكذلك تقدمت على الجبهة المصرية أيضا لتحتل ٩٩٫٩٪ من شبه جزيرة سيناء.

إن الأطماع الصهيونية لم ولن تقف عند حد، إنها مرنة بحسب كل عصر وكل ظرف، ولذلك فلم تعد تلك الأطماع محصورة في الأراضي والمناطق التي رسموها في عام ١٩١٨، والتي تم لهم تحقيق معظمها، لقد أصبح اليهود اليوم يطمعون في المزيد، ويتطلعون نحو الأراضي العربية القاصي منها والداني، ويخططون إما للاستيلاء عليها أو على الأقل السيطرة وجعلها تحت نفوذهم. ومن هذا المنطلق بدأ لعاب إسرائيل يسيل إلى مناطق النفط حتى تضمن لها مثل هذا المورد الحيوي الذي أصبح عصب حياة هذا العصر وأساس نهضته، وحتى تحرم العرب من أمضى سلاح يمتلكونه، وأقوى مورد اقتصادي في أيديهم. إنها تلوح دائما وتهدد بالقيام بغارات على منابع النفط ، والسيطرة على حقول النفط وآباره، بعد أن دخلت الدول النفطية المعركة بأموالها وجيوشها ونفطها. وإن امتلاك إسرائيل لأحدث الأسلحة تطورا، وتفانيها للحصول على الطائرات البعيدة المدى، هي ولاشك وسائل لتحقيق هدفها للوصول إلى منابع النفط . ومن هذا المنطقل، وإزاء هذا الخطر المحدق بالأمة العربية والإسلامية، فإن الواجب الديني والقومي يفرضان علينا الانتباه واليقظة لمثل هذا الخطر، والعمل الجماعي لإحباط هذه المؤامرة، واقتلاع هذه الجرثومة من قلب الأمة العربية والإسلامية.

الخاتمـــة

مشكلة فلسطين هي أخطر المشاكل وأهمها، واجهت ولا تزال تواجه العالمين العربي والإسلامي، وهي أكبر امتحان تعرضت له الشعوب العربية والإسلامية، ولعلها تكون فريدة في نوعها، إذ لم يسبق لبلد أن تعرض أهله للطرد، وأرضه للتهويد، ومعالمه للطمس. وربما كان هناك العديد من أوجه الشبه بين الغزوة الصهيونية الحالية، وبين الحملات الصليبية التي غزت المشرق الإسلامي في العصور الوسطى. ذلك أن هدف الجميع كان واحدا، فهو يرمي إلى اقتطاع جزء هام من الوطن الإسلامي، واتخاذه كقاعدة للانطلاق والسطو والسيطرة على باقي أجزاء الوطن العربي والإسلامي. ولقد نجح الصليبيون في وقت من الأوقات في احتلال فلسطين وأجزاء أخرى من الوطن العربي، واستطاعوا أن يكونوا ممالك ظلت على اتصال دائم بالغرب الذي كان يمدها بالجيوش والأسلحة وبكل مقومات الحياة، وبها تمكنت من مهاجمة ديار المسلمين كلما سنحت لها الفرصة. وكذلك استطاعت الصهيونية أن تحتل فلسطين وأجزاء من الأقطار العربية المجاورة، ولا تزال تتطلع إلى ضم المزيد، وهي في عدوانها هذا تعتمد على الدعم العالمي والمدد الغربي الذي لا ينقطع. وكما استغلت الحملات الصليبية الأوضاع المتردية في العالم الإسلامي، تمكنت الصهيونية من أن تستثمر نفس الأوضاع، وتستغلها لصالح أهدافها وأغراضها. وقد نجحت الحملات الصليبية في إيهام الرأي العالمي الغربي بأن هدفها ديني محض، وغايتها إنقاذ القبر المقدس، وتحرير الديار المقدسة من المسلمين، وكذلك استطاعت الصهيونية أن تضلل الرأي العام العالمي زاعمة بأن هدفها هو عودة اليهود إلى ديارهم، وإعادة بناء هيكلهم، وتأسيس دولتهم. ففلسطين كما يدعون كانت منذ الأزل موطنا لليهود، ولكن الزمن غدر بهم فطردوا من وطنهم، وتشتتوا في الآفاق. وليس من العدل والإنصاف أن يظل هذا الشعب طريدا بعيدا عن أرضه التي وعده الله بها.

وقد استخدمت الصهيونية هذا السلاح مع غيره من الأسلحة في سبيل تحقيق أهدافها وأطماعها الخبيثة. وبعد أن تم لها تحقيق ما تريد بدأت تظهر على حقيقتها، وصار العالم يدرك

أغراضها الحقيقية، ولكن بعد أن ثبتت أقدامها وعززت مكانتها العالمية، وأصبحت تعتمد القوة وسيلة لتحقيق أهدافها ومراميها.

وحتى تطمئن الصهيونية إلى الأبد، وكي تكون بمأمن من أي خطر يتهددها في المستقبل، رأت أن من الأفضل تنفيذ مخطط محكم ومدروس لتهويد فلسطين أرضا وشعبا وحضارة، وعملت على محو عربية فلسطين، وطمس كل معلم من معالمها الإسلامية، حتى لا يبقى للعرب أي سند أو حجة يتمكسون بها في المستقبل من أجل تحرير ديارهم. وقد اعتمد الصهاينة عدة وسائل نفذوها على مراحل، وكلها تؤدي في النهاية إلى التهويد الكامل للتراب الفلسطيني. وهذه الوسائل يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية:

١ ـ **الهجرة اليهودية إلى فلسطين** : وذلك حتى يتحقق لليهود التفوق العددي على السكان العرب. وقد بدأ تنفيذ هذا المخطط منذ منتصف القرن التاسع عشر، ففي ذلك الوقت كانت نسبة اليهود تتراوح ما بين ٥ و ٧٪ من جملة السكان في فلسطين، في حين أن العرب تجاوزوا ٩٠٪ من السكان. ولكن الهجرة اليهودية نشطت بشكل رهيب منذ أن وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وبناء عليه طرأت تحولات ديموغرافية لصالح اليهود في فلسطين، فأخذت في الزيادة سنويا، حتى أصبحوا يشكلون نحو ٣١٪ من سكان البلاد في عام ١٩٤٧م. وقبيل جلاء القوات البريطانية عن فلسطين، وفي أثناء فترة انتهاء الانتداب، تمكن اليهود من الاستيلاء على أراضي كثيرة. وحينما أوقفت الحرب العربية ـ الإسرائيلية، وفرضت الهدنة على العرب فرضا في عامي ١٩٤٨م و ١٩٤٩م وفدت إلى البلاد أعداد كثيرة من اليهود، حتى أصبحوا يشكلون في عام ١٩٤٩ نحو ٩٠٪ من جملة السكان داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة.

٢ ـ **امتلاك الأراضي العربية بالشراء** في أول الأمر، ولما فشلت هذه السياسة نظرا لتمسك العرب بأراضيهم، وبخاصة بعد كشفهم للمخططات الصهيونية، لجأ اليهود إلى الحكومة البريطانية المنتدبة التي سهلت لهم عملية التملك، فمنحتهم الكثير من الأراضي الحكومية. وعلى الرغم من كل هذه المساعي والجهود فقد فشل اليهود في تنفيذ هذا المخطط، إذ لم يتمكنوا من أن يتملكوا إلا نحو ٧٪ من مجموع أراضي فلسطين منذ وطئت أقدامهم البلاد وحتى نهاية الانتداب في ١٥ مايو ١٩٤٨م.

ولكن بعد قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م أخذ اليهود في تنفيذ برنامج الاستيلاء على الأراضي العربية عنوة، عن طريق إصدار العديد من القوانين والتشريعات التي كان هدفها مصادرة المزيد من أراضي فلسطين ونزع ملكية العرب لها.

٣ ـ **طرد السكان العرب** من أجل أن تحافظ إسرائيل على التفوق العددي لليهود، وحتى تتخلص من العرب الذين بقوا فيها خشية أن تطرأ تحولات ديموغرافية لغير صالحها، أخذت تطرد من تبقى من العرب مستخدمة في ذلك مختلف الأساليب كالإرهاب والعنف والترحيل وخلافه. وكانت كلما احتلت أرضا عربية طردت سكانها منها، لأن مطلب اليهود هو الأرض خالية من سكانها.

٤ ـ **هدم القرى والمعالم العربية والإسلامية**؛ وهو أسلوب نفذته إسرائيل بدهاء، إذ قامت بهدم العديد من القرى العربية، وازالت الكثير من المعالم الإسلامية حتى تقطع خطة الرجعة أمام كل عربي يريد العودة لوطنه، وحتى لا تظل هذه القرى والمعالم كشواهد على عروبة فلسطين، ومن ثم تعطي الحق للعرب في المستقبل للمطالبة ببلادهم، وهي تريد فوق هذا وذاك وضع العالم أمام واقع جديد فرضته فرضا.

٥ ـ **إقامة المستعمرات اليهودية** : وحتى يتم للصهيونية تهويد الأرض الفلسطينية قامت ببناء العديد من المستعمرات اليهودية كإجراء متمم لسياسة هدم القرى وإزالة المعالم العربية والإسلامية. ومن بين أهداف المستعمرات أن تكون مراكز هجومية للعدوان على البلاد العربية المجاورة، وفي نفس الوقت تصد أي حركة ترمي لتحرير فلسطين. وبعد حرب ١٩٦٧م قامت إسرائيل ببناء العديد من المستعمرات في الضفة الغربية وسيناء والجولان حتى تؤكد وجودها في هذه المناطق، وكي تفرض على الأمة العربية وعلى العالم واقعا جديدا. وهي بهذه السياسة تهدف إلى عدم الانسحاب من أي أرض عربية احتلتها، بل ترى أن من حق اليهود الاستيطان في أي جزء من الأراضي المحتلة والتي تطلق عليها بالأراضي المحررة.

٦ ـ **تهويد التعليم عن طريق التدخل** في المناهج والكتب المدرسية، فشوهت التاريخ العربي والإسلامي، وأظهرت للتلاميذ العرب أن قومهم لا تجمعهم أمة، ولا يوحدهم هدف، وأنهم عبارة عن شعوب متنافرة ومتناحرة، يشغلون أنفسهم في صراع دائم فيما بينهم، كما

صورت لهم الفتح الإسلامي على أنه غزو للأقطار المختلفة، وسلب ونهب لخيراتها، وطمع في مواردها وإمكانياتها. وفي مقابل ذلك ركزت المناهج والكتب على عظمة الشعب اليهودي وعبقريته، وما قدمه للبشرية من جلائل الأعمال وعظيم الخدمات، وأبرزت الشخصيات اليهودية في كل علم وفن.

وغرست المناهج والكتب في أذهان التلاميذ مزاعم اليهود في حقهم بفلسطين، وأن العرب غزوا البلاد في فترة من التاريخ، كما فعل اليونان والرومان والفرس. وبدلا من تلقين التلاميذ الأسماء الصحيحة للمدن والقرى والأماكن صاروا يصرون على ذكر أسمائها العبرية التي أطلقوها عليها بعد احتلالهم لفلسطين.

وتهدف إسرائيل من وراء هذا كله إلى زعزعة ثقة الطالب العربي بأمته وبدينه، والتسليم بالزعم القائل بأن فلسطين يهودية، وأن الشعب اليهودي هو النموذج لشعوب العالم. وغايتها أن يفقد النشء الأمل حتى بمجرد التفكير بتحرير وطنه.

٧ ـ **الأطماع التوسعية** : وهو وسيلة وهدف في نفس الوقت، إذ تستخدم إسرائيل التوسع المرحلي للمحافظة على أكبر قدر من الأراضي التي احتلتها وتم لها تهويدها، وتتخذ من الأراضي الجديدة مناطق حامية عن المناطق التي احتلتها من قبل. وفي نفس الوقت تطمع إسرائيل في احتلال المزيد من الأراضي العربية، فشعارها لازال قائما وهو من النيل إلى الفرات على الرغم من أنها أصبحت تتطلع اليوم إلى منابع النفط الذى تعتبره السلاح القوي المتبقي في أيدي العرب.

إن القضية بين العرب وإسرائيل ليست سياسية ـ كما يتوهم البعض ـ وإنما هي قضية قومية، وصراع على قطعة واحدة من الأرض، إنها في الواقع صراع فريقين يطالب كل منهما ـ عن عقيدة ـ بالسيطرة والسيادة على نفس الأرض، لذلك فلا يمكن أن تكون نتيجة هذا الصراع ـ مهما طال ـ إلا بانتصار أحد الفريقين، وبالتالي، أن يكون أحد الفريقين مالكا لهذه الأرض.

وهذه الأرض التي هي فلسطين ليست نهاية المطاف بالنسبة للأطماع الصهيونية، إنها بمثابة نقطة انطلاق، منها ينطلقون إلى الوطن العربي الكبير الذي يريدون له أن يصبح تحت

نفوذهم وسيطرتهم. والمجتمع الإسرائيلي هو مجتمع حرب لا مجتمع سلم، لأن زعماء إسرائيل يدركون أن السلم خطر على مجتمعهم. وهم إن رفعوا شعار السلم فإنما يخدعون العالم، لأنهم يخفون وراء هذا الشعار استعدادهم للحرب. إنهم يريدون أن يوهموا العرب بهذا السلم المزعوم حتى يركنوا إلى السكينة والهدوء، فيأخذونهم على حين غرة. ولذلك فلا حل للقضية الفلسطينية إلا بالحرب، ولا بديل للعرب سوى الاستعداد لخوض معركة المصير، واسترداد أراضيهم وتحرير قدسهم. فما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة. ولم يعرف التاريخ شعبا استرد حقه وأرضه بغير القوة، ولا سبيل للعرب في تحقيق النصر الكاسح على إسرائيل إلا بتوحيد صفوفهم، وجمع كلمتهم، وتقوية جيوشهم، وحشد كل طاقاتهم. ومما لاشك فيه أن الرأي العام العالمي دائما مع القوى، ولا قيمة في حق لا تسنده قوة. والعرب يملكون كل مقومات القوة ومفاتيح النصر، وما عليهم إلا شحذ الهمم وتقوية العزائم، وأن يحيوا سنة السلف الصالح في الجهاد لتحرير ديار الإسلام، ويسيروا على كتاب الله وسنة رسوله الكريم مؤمنين بقوله الكريم:

(إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

(محمد ٧)

ooo

الحواشـي

(١) مؤسسة الدراسات الفلسطينية «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني» بيروت ١٩٧٣ صفحة ٤٩٥ .

(٢) المرجع نفسه .

(3) Lucas, N., The Modern History of Israel'', Weidenfeld and Nicolson, London, 1974, P. 27.
(4) Ibid, P. 29.
(5) Ibid, P. 30.

(٦) تيودور هرتزل «يوميات هرتزل» ترجمة هلدا شعبان صايغ ـ مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية، ط ٢، بيروت ١٩٧٣، صفحة ٨٩.

(٧) أرسكين تشيلدرز «الرغبة الخرساء : من مواطنين إلى لاجئين» بحث ضمن كتاب تهويد فلسطين، إعداد وتحرير إبراهيم أبولغد، وترجمة الدكتور أسعد رزق ـ مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٢، صفحة ١٨٦.

(8) Hurewitz, J.C., ''The Struggle for Palestine'' Greenwood Press, New York, 1968, P.27.

(٩) جانيت أبو لغد «التحول الديموغرافي لفلسطين» بحث في كتاب تهويد فلسطين، مرجع سابق ـ صفحة ١٥٦ .

(١٠) كامل محمود خله «فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩» مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤ صفحة ٤٩٨.

(11) Hurewitz, J.C., op. cit, P. 28.
(12) Hurewitz, J.C., op. cit, P. 28.
(13) Hurewitz, J.C., op. cit, P. 28.
(14) Hurewitz, J.C., op. cit, P. 28.

(١٥) كامل محمود خلة ـ مرجع سابق .

(١٦) لمزيد من المعلومات عن مقاومة عرب فلسطين للهجرة اليهودية في العهد العثماني يحسن الرجوع إلى: خيرية قاسمية «النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨» مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية بيروت ٧٣.

(١٧) جانيت أبو لغد ـ مرجع سابق .

(١٨) كامل محمود خله ـ مرجع سابق .

(١٩) المرجع نفسه .

(٢٠) جانيت أبو لغد ـ مرجع سابق صفحة ١٦٣ .

(٢١) المرجع نفسه .

(٢٢) المرجع نفسه .

(٢٣) المرجع نفسه .

(24) Blake, G., "The Wandering Arabs" Geographical Magazine, Vol. LV, No. 3, December 1972, PP. 179-182.

(٢٥) الياس سعد «الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة» مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٩، صفحة ٢٢٤.

(٢٦) المرجع نفسه .

(٢٧) المرجع نفسه .

(٢٨) تيسير النابلسي «حركة الهجرة اليهودية بعد عدوان ١٩٦٧» مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧١ صفحة ٤٣.

(29) The Statesman's Year Book, 1972/73, P. 1078.

(٣٠) المرجع نفسه .

(31) Black, G. OP. Cit.

(٣٢) يوميات هرتزل ـ مرجع سابق صفحة ٧٦.

(٣٣) كامل محمود خله ـ مرجع سابق صفحة ٤٨١ .

(٣٤) محمد أمين الحسيني «حقائق عن قضية فلسطين» الهيئة العربية العليا بفلسطين، القاهرة ١٩٥٤، صفحة ١١ ـ ١٢.

(٣٥) جون رودي «حركيات استلاب الأراضي» في كتاب تهويد فلسطين ـ مرجع سابق صفحة ١٥٠.

(٣٦) يعتمد هذا الجزء من البحث اعتمادا كليا على كتاب «العرب في إسرائيل» للمحامي صبري جريس.

(٣٧) أرسكين تشيلدرز ـ مرجع سابق صفحة ١٨٦.

(٣٨) المرجع نفسه .

(٣٩) يوميات هرتزل ـ مرجع سابق صفحة ٣٥ .

(٤٠) أرسكين تشيلدرز ـ مرجع سابق صفحة ١٩٦ .

(٤١) المرجع نفسه ـ صفحة ١٩٩ .

(٤٢) المرجع نفسه .

(٤٣) المرجع نفسه ـ صفحة ٢٠٣ .

(٤٤) المرجع نفسه .

(٤٥) المرجع نفسه .

(٤٦) المرجع نفسه ـ صفحة ٢٠٤ .

(٤٧) المرجع نفسه .

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩) هنري كتن «فلسطين في ضوء الحق والعدل» مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٠ ـ صفحة ٤٥.

(٥٠) المرجع نفسه .

(٥١) المرجع نفسه ـ صفحة ٤٦ .

(52) Association of Arab-American University Graduates, Inc. Information Papers, No.2, Sept., 1970, PP. 4-5.

(٥٣) المرجع نفسه .

(٥٤) لمزيد من التفاصيل في هذا الموضوع يحسن الرجوع إلى التقارير الآتية:

أ ـ روحي الخطيب «تقرير أمانة القدس حول مواصلة سلطات الاحتلال العسكري الإسرائيلي اعتداءاتها لتغيير مدينة القدس خلافا لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي ومنظمة اليونسكو»، عمان ١٩٧٦.

ب ـ روحي الخطيب «تقرير مواصلة سلطات الاحتلال العسكري الإسرائيلي اعتداءاتها لتغيير أوضاع مدينة القدس والمدن والقرى الفلسطينية المحيطة بها وتهويدها جميعا كمرحلة لتهويد المناطق المحتلة أجمع» عمان ١٩٧٧.

(٥٥) محمد أمين الحسيني ـ مرجع سابق ـ صفحة ١١٤ ـ ١١٥ .

(٥٦) المرجع نفسه .

(٥٧) المرجع نفسه .

(٥٨) أنيس صايغ «المستعمرات الإسرائيلية الجديدة منذ عدوان ١٩٦٧» دراسات فلسطينية ـ مركز الأبحاث الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٦٩ صفحة ٥١ ـ ٥٣.

(٥٩) المرجع نفسه ـ صفحة ٥٥ .

(60) The Times, June 25, 1976.

(61) The Sunday Times, July 13, 1973.

(٦٢) أنيس صايغ ـ مرجع سابق صفحة ٥٦ .

(63) Association of Arab-American Univ. Granduates, op. cit, P.5.

(٦٤) المرجع نفسه .

(٦٥) أنيس صايغ ـ مرجع سابق ـ صفحة ٥٩ .

(٦٦) روحي الخطيب ـ مرجع سابق .

(67) The Times, November 25, 1976.

(68) The Times, December 18, 1975.

(69) The Times, June 25, 1976.

(70) The Sunday Times, July 13, 1975.

(٧١) نزيه قورة «تعليم الفلسطينيين: الواقع والمشكلات ـ مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية» بيروت ١٩٧٥ ـ صفحة ٨٠.

(٧٢) لمزيد من الاطلاع على التعليم في الأراضي المحتلة يحسن الاطلاع على المراجع الآتية:

أ ـ منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف «التعليم في إسرائيل»، مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٦٩.

ب ـ صالح عبدالله سرية «تعليم العرب في إسرائيل» مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٣.

جـ ـ نزيه قورة «تعليم الفلسطينيين» ـ مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٧٥.

د ـ صبري جريس «العرب في إسرائيل» مركز الأبحاث ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ بيروت ١٩٦٧.

(73) Palestine Papers 1917-1922, Seeds of Conflict, Compiled and Annotated by Doreen Ingrams., John Murray, 1972, P.P. 75-76.

(74) Jansen, G.H. ''Zionism, Israel and Asian Nationalism'', The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1971, P. 141.

(٧٥) المرجع نفسه.

(٧٦) المرجع نفسه ـ صفحة ١٤٢.

(٧٧) محمد الفرا «ما هي حقيقة الأطماع الصهيونية في سيناء» صحيفة الأهرام المصرية ١٩٧٥/٤/٥.

ما طرأ على حدود فلسطين منذ الحرب العالمية الثانية

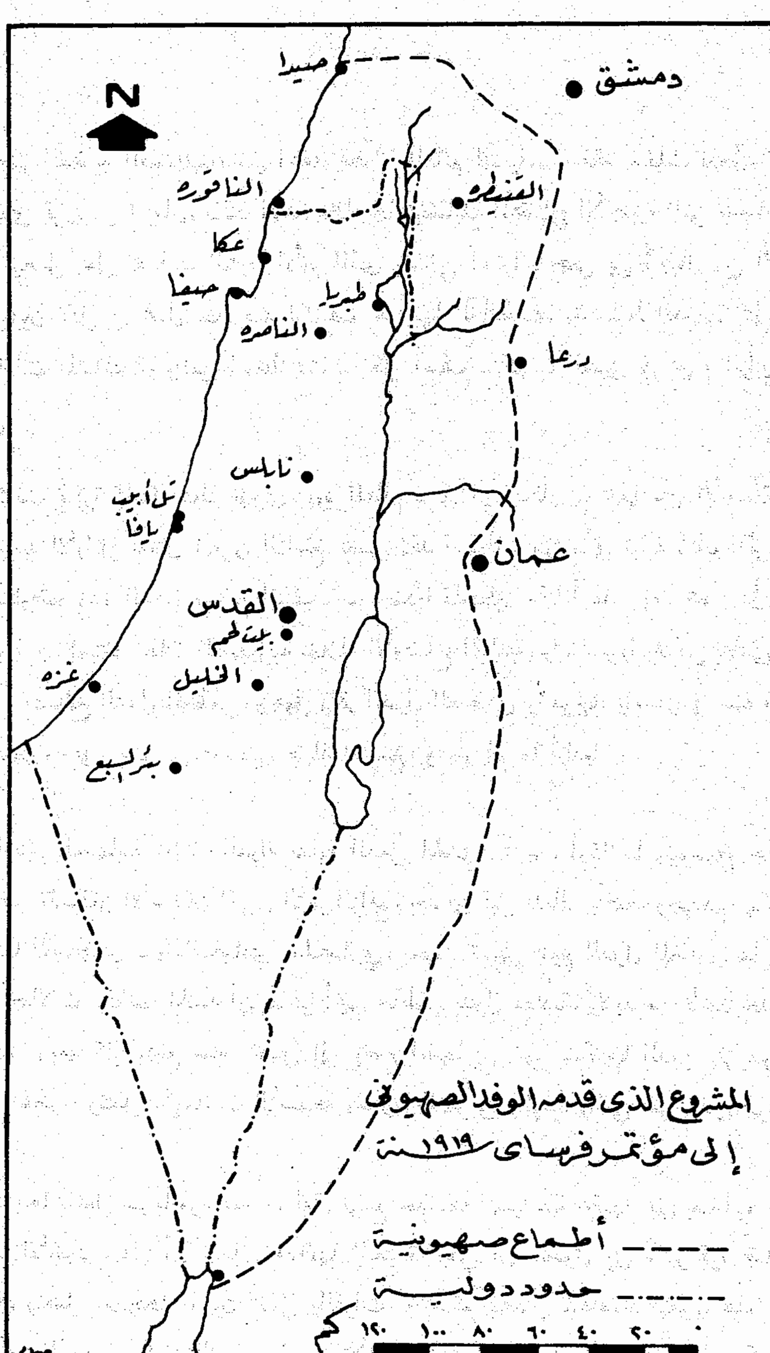
دكتور / عبدالرحمن الشريف

تعتبر القضية الفلسطينية من أعقد قضايا العالم السياسية، فقد شغلت أذهان الملايين على مدى قرن من الزمان، وذلك لتعدد مظاهرها، وتشابك المصالح الأجنبية التي تتصارع من حولها، وتعمل على تصاعد التأزم، الأمر الذي يقتضي اشتراك جيل بل أجيال من الباحثين الموضوعيين، كل في مجال تخصصه لكشف جوانبها الغامضة، وتسليط الضوء على زيف الادعاءات المتناقضة، والتي استطاعت ـ بكل أسف ـ كسب السبق في إيهام الرأي العام العالمي.

كانت فكرة إنشاء دولة تؤوي يهود العالم ـ في أي مكان ـ حلما من الأحلام يراود الصهيونية الأوائل خلال القرن التاسع عشر. وقد استطاع هؤلاء في نهاية ذلك القرن رسم الخطط لوضع هذه الفكرة موضع التنفيذ، ثم حددوا فلسطين مكاناً لها. وبعد عمل دؤوب دام نصف قرن، استغل غلاة الصهيونية خلاله الأوضاع العالمية، واستثمروا بشكل علمي ومنظم تناقض مصالح الدول العظمى، وجهل وفقر الدول الصغرى وشعوبها، وانشأوا في سنة ١٩٤٨م دولة صغيرة على جزء من فلسطين قابلة للتوسع، وصار لهم ما أرادوا.

اعتبر الصهاينة انشاء الدولة بداية العمل الجدي لتثبيت أركانها وترسيخ جذورها، وترويض السكان الأصليين لقبول الأمر الواقع، بعد أن قبل العالم بأجمعه وجودهم، وذلك برفع مستواها العسكري ـ والاقتصادي والحضاري، بحيث تسبق جميع الدول المجاورة لها في جميع هذه المجالات. وكانت الخطة أن يدعوا أنهم محاطون بدول معادية، ولابد من تأمين حدود آمنة لدولتهم. وبعد كل بضع سنين تصل إلى وضع انفجاري تنوء بسكانها الذين يتزايدون عن طريق الهجرة، وتثقل بترسانات الأسلحة ومخازن التموين والوقود والتي تخزن ليوم موعود.

عندها تفتعل حربا موضعية خاطفة، توسع حدودها السياسية عقبها على حساب جاراتها مرة تلو الأخرى، إلى أن تصل أهدافها البعيدة، وهي أن تتحول إلى أكبر قوة ضاربة في المنطقة، وتصل حدودها ما بين النيل والفرات، وتتحكم بمصائر واقتصاد شعوب هذه المنطقة الأصليين الذين يتحولون بالتدرج إلى مستضعفين، كما حصل للهنود الحمر في أمريكا.


N
دمشق
صيدا
الناقورة
القنيطرة
عكا
حيفا
طبريا
الناصرة
درعا
نابلس
تل أبيب
يافا
عمان
القدس
بيت لحم
الخليل
غزه
بئر السبع
المشروع الذى قدمه الوفد الصهيونى
إلى مؤتمر فرساى سنة ١٩١٩
أطماع صهيونية
حدود دولية
كم
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ ١٢٠

(١)

ورغبة في إلقاء مزيد من الضوء على زيف شعار الحدود الآمنة لدولة إسرائيل، هذا الشعار الذي ينال تعاطفا من معظم دول العالم، بل يجد ضمانا من بعض الدول العظمى، رأيت أن يقتصر حديثي على تتبع خلق وتغير خطوط الحدود باستمرار، ولصالح توسيع دولة إسرائيل بأسلوب موضوعي.

ومن هنا كان عنوان هذا البحث «ما طرأ على حدود فلسطين منذ الحرب العالمية الأولى»، أي منذ وجود إقليم فلسطين ضمن حدود سياسية، بعد أن انسلخ عن الدولة العثمانية وحتى الآن.

ولما كانت لمشكلة الحدود أبعاد جغرافية وتاريخية وحقوقية، وهي لا تتضح الا في ضوء تطور الأحداث التاريخية في المكان، وجدت لزاما عليّ الإلمام - ولو بإيجاز - بالفقرات التالية:

١ - موجز لجغرافية فلسطين.
٢ - ظهور الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر.
٣ - الاستعمار يرسم الحدود خلال القرن العشرين.
٤ - إيجاد دولة إسرائيل ضمن حدود مؤقتة سنة ١٩٤٨م.
٥ - محاولات إسرائيل المستمرة لتوسيع الحدود.
٦ - الحدود الآمنة كشعار زائف.
٧ - الخاتمة.

١ - موجز لجغرافية فلسطين :

تشغل فلسطين الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الشام أو (سوريا الكبرى)، وتقع فيما بين الساحل الشرقي للبحر المتوسط ونهر الأردن. وتبلغ مساحتها حسب حدودها زمن الانتداب البريطاني ٢٧٠٠٩ كم^2، بما في ذلك ٧٠٤ كم^2 مساحة بحيرتي الحولة وطبريا ونصف البحر الميت. وتمتد فلسطين بشكل طولي على هيئة الإسفين من الشمال إلى الجنوب، بطول ٤٣٠ كم، ويختلف عرضها بين ٥٠ كم في الشمال و ٩٠ كم في الوسط و ١١٧ كم[1] عند عرض رفح، ثم تضيق باتجاه الجنوب على شكل مثلث رأسه على خليج العقبة.

وتتكون فلسطين من أربع مجموعات فزيوغرافية مميزة في مظاهرها الطبيعية والبشرية (شكل ١) هي:

١ ـ السهل الساحلي: ويمتد من رأس الناقورة عند الحدود مع لبنان شمالا حتى رفح عند الحدود مع مصر جنوبا، أي بامتداد يبلغ ٢٢٤كم. ويتكون السهل من رسوبيات حديثة رباعية، انحدرت إليه من المرتفعات المجاورة، وكذلك من الرسوبيات الشاطئية والبحرية خاصة تلك التي تقذف بها التيارات البحرية من الغرب، والتي جاءت أصلا من النيل، وقد تشكلت بعض الكثبان الرملية الشاطئية. وتبلغ مساحة هذا السهل نحو ٣٢٢٠ كم^2 معظمه صالح للزراعة[٢].

ويقسم جبل الكرمل الذي يمتد من حيفا باتجاه الجنوب الشرقي السهل الساحلي إلى قسمين: سهل عكا في الشمال وهو ضيق إجمالا، وسهل يافا (سهل شرعون) في الجنوب، والذي يزداد اتساعا حتى يصل عرضه إلى نحو ٢٢كم في منطقة غزة.

٢ ـ الهضاب الوسطى: وهي في الأصل جزء من المحدب الجيولوجي الغربي في بلاد الشام، والذي نتج عن الحركة الالتوائية المرافقة للحركات الألبية في الزمن الثالث. وهي إجمالا قليلة الارتفاع، تمتد طوليا من الشمال إلى الجنوب. ويمكن أن نقسمها إلى قسمين: القسم الأول جبال الجليل في الشمال، وتعتبر امتدادا لجبل عامل في لبنان، وفيه أعلى قمة في فلسطين قرب صفد (جبل جرمق ويصل ارتفاعه إلى ١٢٠٨م عن سطح البحر). والقسم الثاني جبال نابلس والخليل، وتمتد طوليا ١٣٥كم، بعرض يقرب من ٢٠كم. ويفصل القسمين عن بعضهما أراض منخفضة مختلفة، نتجت عن حركات انكسارية، أنتجت هضاب الناصرية وسهول مرج ابن عامر وبيسان. وتتكون الهضاب بوجه عام من صخور كلسية، تتضح فيها المظاهر الكارستية إذ تكثر فيها الكهوف، وتختفي المياه السطحية بسرعة، وتكثر الينابيع.

٣ ـ الغور: وهو المنطقة المنخفضة التي تفصل هضاب فلسطين عن هضاب شرق الأردن، وقد نتج الغور في الأصل عن الانكسارات الثلاثية في منطقة المقعر الالتوائي الموجود بين المحدب الشرقي والمحدب الغربي، وقد انخفض فيها السطح إلى دون مستوى سطح البحر (ـ ٤٠٠م عند سطح البحر الميت).

ويجري في الغور نهر الأردن الذي ينبع من سفوح جبل الشيخ، وينحدر إلى منطقة الحولة (وهي بمستوى سطح البحر) ثم يتجه جنوبا إلى بحيرة طبريا (ـ ٢٠٠م عن سطح البحر)، وبعد خروجه من طبريا يستقبل مياه نهر اليرموك القادم من الشرق وهو

أهم روافده، ثم يواصل مجراه بطريق شديد التعرج إلى أن يصب في البحر الميت الغني بأملاحه لاسيما البوتاسيوم. ويشغل الجزء الواقع جنوب البحر الميت وادي العربة.

يبلغ متوسط عرض الغور بين ٨ ـ ١٦ كم، ولذلك تنحدر الأرض باتجاهه بشدة من الجانبين الشرقي والغربي، وتتكون أرضيته من سهول رسوبية حديثة ذات تربة تميل للملوحة. ويبلغ طول البحر الميت ٧٦كم وأقصى عرض له ١٦كم[٣]، وترتفع فيه نسبة التبخر، ولذا ارتفعت نسبة ملوحته إلى ٣٤٠ غم/لتر.

٤ ـ النقب: ويتكون من هضبة واسعة قليلة الارتفاع، تحتل الجزء الجنوبي من فلسطين، وتبلغ نحو ثلث مساحتها، تبدأ من منطقة بئر السبع، وتتجه جنوبا إلى العقبة. وتعتبر هذه الهضبة امتدادا طبيعيا لشمال صحراء سيناء باتجاه الشمال الشرقي.

المناخ وموارد المياه في فلسطين:

يسود فلسطين مناخ حوض البحر المتوسط المعتدل، والذي يميل إلى الحرارة والجفاف صيفا وإلى البرودة والأمطار شتاء، غير أن موقع فلسطين بين خطي عرض ٣٠° ـ ٣٣° ش، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط، جعلها تقع على حدود المنطقة شبه الجافة، ففي جنوب فلسطين (النقب)، وفي منطقة الغور التي تقع في ظل مطر الهضاب، تقل الأمطار الساقطة عن ٢٠٠ ملم سنويا، وتبلغ مساحتها نحو نصف مساحة فلسطين.

أما النصف الآخر فتختلف أمطاره حسب الموقع والتضاريس، حيث تتراوح في الساحل بين ٦٥٠ ملم في عكا و ٣٠٠ ملم في غزة. وتختلف في الجبال بين ١٠٠ ملم في المطلة على الحدود الشمالية و ٥٠٠ ملم في الخليل. وقد يتساقط الثلج في المناطق الجبلية في الشتاء[٤].

ومن هنا كانت موارد المياه في فلسطين محدودة على عكس ما كان يشيع غلاة الصهيونية، فغير نهر الأردن الذي يحد فلسطين من الشرق، والذي ينبع من سفوح جبل الشيخ، ويستقبل عددا محدودا من السهول من الأرض الفلسطينية، لا يوجد سوى نهرين صغيرين في السهل الساحلي، هما: نهر المقطع ويصب شمال حيفا، ونهر العوجا ويصب شمال يافا، وعدد من السيول غير الدائمة الجريان. ولكن تكثر العيون الفكلوزية في المناطق الجبلية بسبب طبيعة الصخور الكلسية، وتحوي السهول الساحلية غشاء مائيا كافيا لتقوم عليه الزراعة.

ويغلب وجود (تربة البحر المتوسط) في جبال وسهول فلسطين، وكلها ترب غنية إجمالا، مما ساعد على انتشار الزراعة اعتمادا على الأمطار منذ أقدم الأزمنة. ولكن هذا لا ينفي أن محدودية موارد المياه تحدد مجال التوسع الزراعي على نطاق كبير، ولهذا خطط الصهاينة منذ البداية وقبل وجودهم في فلسطين لاستغلال مياه نهر الأردن والأنهار والسيول الساحلية من أجل مشاريعهم الاستيطانية.

وضع فلسطين قبل الانتداب البريطاني :

كانت فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي عام ٦٣٦م، بلادا عربية خالصة شعبا ولغة وديانة. وكانت تشكل جزءا صغيرا من الدول الإسلامية المتعاقبة، تتبع الحكم المركزى في المدينة أو دمشق أو بغداد أو القاهرة أو إسطانبول مركز الخلافة العثمانية. وبالتالي لم تعرف فلسطين الحدود السياسية. وحتى في عهد الدولة العثمانية كانت أراضيها جزئين من إيالتين مركزاهما دمشق وبيروت، وليس جزءا في إيالة واحدة. وفي عام ١٩١٨م، ولأول مرة في التاريخ سلخت فلسطين عن بلاد الشام، وصار لها حدود سياسية ترسم ويعاد رسمها حسب مخططات الاستعمار والصهيونية. وكان يعيش فيها نحو ٧٠٠٠٠٠ من العرب، يملكون نحو ٩٧٫٥٪ من مساحة فلسطين، ويعيش معظمهم من إنتاج أراضيهم أو حيواناتهم. ولم يتجاوز عدد يهود فلسطين إذ ذاك ٥٠٠٠٠ نسمة، ولا يملكون سوى ٢٫٥٪ من مساحة الأرض. وكانت ثلث مساحة أرض فلسطين صالحة للزراعة.

٢ ـ ظهور الصهيونية العالمية في القرن التاسع عشر :

ظهرت القوميات في أوروبا في القرن التاسع عشر وكرد فعل لانعزالية اليهود تنشط غلاتهم للترويج ليهوديتهم، وراحوا يدعون يهود العالم للتنظيم ليبعثوا فيهم روح إسرائيل ومجدها، مستمدين من التوراة والتلمود شواهد القوة والانبعاث.

أعلنوا أن اليهودية دين وشعب وقومية، ودعوا اليهود إلى التكتل كشعب، وإلى تعلم اللغة العبرية، وإلى ربط ولائهم إلى قوميتهم الجديدة لا إلى القوميات التي خلقوا فيها. وكان هذا هو بدء ظهور اليهودية بمظهرها الجديد الذي أطلق عليه اسم (الصهيونية)، نسبة إلى جبل صهيون في مدينة القدس. فنشأت المشكلة اليهودية في معظم دول أوروبا، وتعمقت هذه المشكلة في

النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حتى تحولت إلى صراع وطني داخلي، حيث كانت عنصريتهم تظهرهم بمظهر الأجانب، وتظهر احتكاراتهم ورأسمالهم كالاحتكارات ورؤوس الأموال الأجنبية. ولقد أثار ذلك حفيظة الشعوب ضدهم فحاربوهم، وقد تطور هذا الصراع أحيانا إلى درجة الاضطهاد.

وعلى أثر الاضطهادات التي حلت باليهود في رومانيا وروسيا وبولونيا في عام ١٨٨١م أصدر سمحا بينكر ـ أحد زعمائهم ـ كتابا أسماه (التحرير الذاتي)، أوضح فيه أن العالم يحتقر اليهود لأنهم ليسوا أمة، ولأنهم أجانب في كل بلد يعيشون فيه، وليس من علاج لهذا الداء إلا بإيجاد قومية يهودية لشعب يعيش في أرض الوطن[٥]. فأثار هذا النداء حماس غلاة اليهود، فألفوا جمعية باسم (عشاق صهيون) تدعو إلى إحياء اللغة العبرية وإلى الهجرة إلى فلسطين والسيطرة على أراضيها[٦].

أعلن اليهود إثر اجتماع عقدوه في عام ١٨٨٢م : «إن فلسطين يجب أن تكون وطنا للشعب اليهودي، وإن بالإمكان نقل أهل فلسطين العرب إلى الأقطار العربية المجاورة، لأنها بلاد واسعة وقليلة السكان». ولم يكن في فلسطين وقتها أكثر من ١٢ ألف يهودي. ثم أعلن إسرائيل زانكويل مؤسس المنظمة الصهيونية: «إن فلسطين وطن بلا شعب، فيجب أن تعطى لشعب بلا وطن. وإن واجب اليهود في المستقبل أن يضيقوا الخناق على سكان فلسطين العرب حتى يضطروهم إلى الخروج منها»[٧].

وأعلن تيودور هرتزل الصحفي النمساوي في كتابه (الدولة اليهودية) في عام ١٨٩٥م: «إن الحل لجميع مشكلات اليهود المضطهدين في هذا العالم هو قيام الدولة اليهودية على رقعة من الأرض متسعة، تصلح لإنشاء وطن محدد لها»[٨]. وفي المؤتمر الصهيوني العالمي الذي عقد في بال في سنة ١٨٩٧م الذى ترأسه هرتزل أجمعت الصهيونية العالمية على إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي، ونص في قراراته أن تكون مساحة البلاد كافية لحاجات خمسة عشر مليونا من اليهود المشتتين في أنحاء العالم[٩]، وأقر المؤتمرون علم الدولة المنتظرة ونشيدها القومي، ورسموا هيكل الوكالة اليهودية التي ستتولي تنظيم يهود العالم وقيادتهم للعمل على تحقيق هذه الدولة.

غير أن هرتزل فشل في سنة ١٩٠١م في إقناع السلطان عبدالحميد لمنح اليهود امتيازات

دينية، تخولهم إنشاء المستعمرات وشراء الأراضي في فلسطين، رغم إغراءات اليهود المالية والاقتصادية ودعاياتهم الخادعة.

٣ ـ الاستعمار يرسم حدود فلسطين ويطورها في القرن العشرين:

لو لم تتفق أحلام الصهيونية مع مصالح الاستعمار وخططه منذ مطلع القرن العشرين خاصة بريطانيا لبقيت جميع قرارات الصهيونية ومخططاتها كأماني وأحلام. وعلى سبيل المثال حاولت بريطانيا منذ مطلع القرن إيجاد جبهة استعمارية موحدة تضم بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإيطاليا وإسبانيا لتحاشى الصدام فيما بينها، ولقطع الطريق على حركات استقلال المستعمرات، والوقوف أمام ألمانيا وحليفاتها. واتفقوا على تأليف لجنة من خبراء هذه الدول، تتولى دراسة الحلف الجديد، ضمت مشاهير المؤرخين وعلماء الاجتماع والجغرافيا والاقتصاد والنفط والزراعة وغيرهم. وقد اجتمعت هذه اللجنة في لندن سنة ١٩٠٧م. وقد جاء في الخطاب الافتتاحي لرئيس وزراء بريطانيا (هنرى كامبل بندمان) في تحديد مهمتها[١٠] ما يلي:

«إن الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما، ثم تنحل رويدا رويدا ثم تزول، والتاريخ ملئ بمثل هذه التطورات، فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها... فهل لديكم أسباب أو وسائل يمكن أن تحول دون سقوط الاستعمار الأوروبي أو انهياره أو تؤخر مصيره وقد بلغ الآن الذروة، وأصبحت أوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاخت معالمها، بينما العالم الآخر لايزال في شبابه، يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية...؟ هذه هي مهمتكم أيها السادة، وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا....».

بعد دراسة مستفيضة دامت أشهرا قدمت اللجنة تقريرها إلى وزارة الخارجية البريطانية التي أحالته إلى وزارة المستعمرات لخطورته. وقد جاء في مقدمة التقرير تصنيفا لمصالح الدول الاستعمارية في العالم، ثم انتقل إلى إثبات أهمية البحر المتوسط كشريان حيوي، وضرورة السيطرة عليه لحماية المصالح الأوروبية المشتركة. واستعرض التقرير الأخطار المحتملة على الاستعمار، وصنفها إلى أولويات، ووجد الباحثون أن الخطر يكمن في البحر المتوسط، صلة

الوصل بين الشرق والغرب. وعلى طول ساحله الجنوبي والشرقي وعلى جانبي البحر الأحمر وقناة السويس بينهما، والبحر العربي والخليج العربي يعيش شعب واحد، تتوفر له من وحدة تاريخه ودينه ولغته وثقافته وآماله كل مقومات الترابط والاتحاد، وتتوفر في نزعاته التحورية وفي ثرواته الطبيعية، ومن كثرة تناسله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض. ثم تساءل الباحثون في تقريرهم عن وضع المنطقة إذا توحدت فعلا آمال شعبها، وإذا دخلت الوسائل الفنية الحديثة والمكتسبات الصناعية إليها، وإذا انتشر التعليم وعمت الثقافة في أوساط أفرادها، وإذا استغل أهلها ثرواتها.

يجيب التقرير على هذه التساؤلات: عند ذلك ستحل الضربة القاضية حتما بالإمبراطوريات الاستعمارية، وستتبخر أحلام الاستعمار بالخلود، فتتقطع أوصاله ثم يضمحل وينهار كما انهارت الإمبراطوريات الغابرة. ثم يضع التقرير توصياته لتلافي هذا المصير، ومؤداها أن تعمل الدول ذات المصالح المشتركة على بقاء وضع هذه المنطقة المجزأ المتأخر، وإبقاء شعبها على ما هو عليه، ومحاربة اتحاده بأي رباط. وكوسيلة مستعجلة لدرء الخطر أوصى التقرير بضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي، واقترح لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذى يربط آسيا بإفريقيا، ويربطهما معا بالبحر المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة(١١).

وعلى ضوء هذه التوصيات سارت سياسة الدول الاستعمارية جميعا في الوطن العربي منذ مطلع القرن العشرين، وعلى هديها يمكننا تفسير مواقفهم من جميع القضايا العربية وتصرفاتهم فيها قبل استقلال دول هذه المنطقة وبعده، ويوضح محتواها التقاء فكرة الصهيونية مع مصالح الاستعمار، هذا الالتقاء الذي استغله زعماء الصهيونية بذكاء، واستثمروه إلى أقصى حد.

اتفقت بريطانيا بادئ ذي بدء مع زعماء الصهيونية على تأسيس دولة إسرائيل في فلسطين، فقد عرضت على مصر في سنة ١٩٠٧م اقتراحا يقضي باستيطان اليهود في سيناء، عرضت على الصهيونيين استيطان اليهود في أوغندة كمنطقة تجمع مؤقتة قبل نقلهم إلى فلسطين، لأن فلسطين كانت خارجة عن النفوذ البريطاني، وفشلت في ذلك. وأثناء الحرب

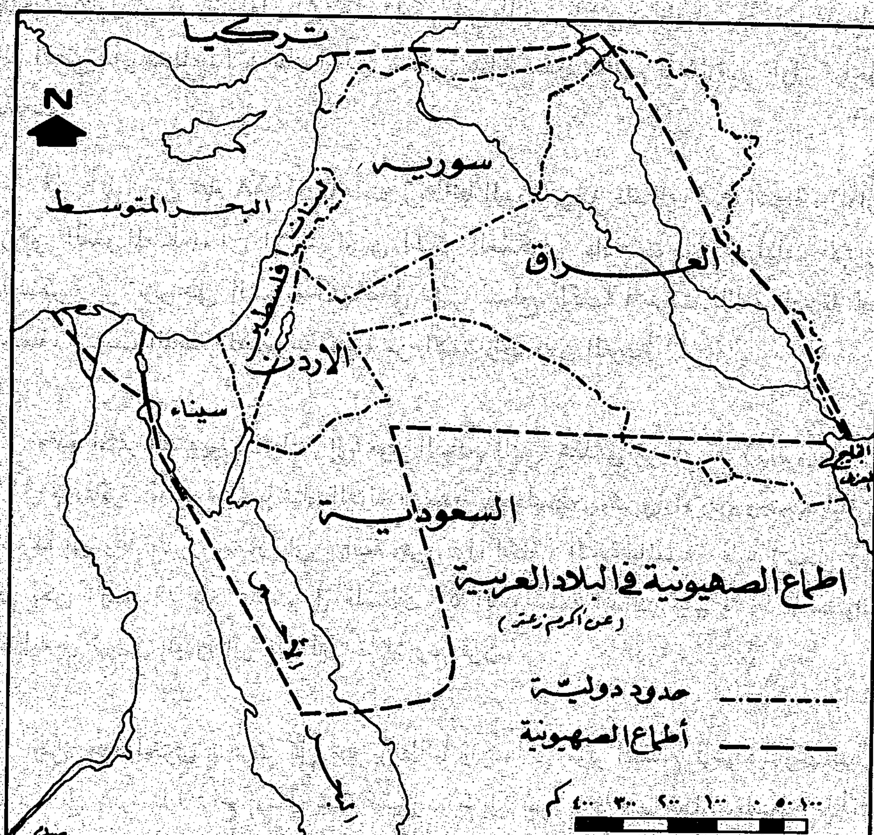
العالمية الأولى ألزمت بريطانيا نفسها بثلاثة اتفاقات أو عهود متناقضة مع ثلاثة جهات مختلفة تتعلق بالمنطقة العربية[١٢]، ومنها فلسطين، وهي:

- مباحثات حسين ـ مكماهون من تموز سنة ١٩١٥م حتى آذار سنة ١٩١٦م. وقد تعهدت بريطانيا من خلالها للحسين بتمكينه من تأسيس مملكة في جميع المشرق العربي، تمتد من أضنة ومرسين في الشمال، ومن حدود إيران والخليج العربي في الشرق، إلى المحيط الهندي جنوبا، والبحر الأحمر وسيناء غربا، بما في ذلك فلسطين بطبيعة الحال، مقابل مساعدة العرب لجيوش الحلفاء في القضاء على الدولة العثمانية. وقد ساهم العرب فعلا في زعزعة تركيا، لكنهم لم يحققوا شيئا من أمانيهم.

- اتفاقية سايكس ـ بيكو: أبرمت بريطانيا في آذار سنة ١٩١٦م مع فرنسا وروسيا معاهدة بطرسبرج لتقسيم أملاك الدولة العثمانية بعد القضاء عليها. وتنفيذا لهذه المعاهدة أبرمت بريطانيا وفرنسا اتفاقا تفصيليا لاقتسام الممتلكات العربية بينهما، أطلق عليها اسم اتفاقية «سايكس ـ بيكو»، في أيار سنة ١٩١٦م. وكان من نصوصه: تنشأ إدارة دولية في فلسطين، يعين شكلها بعد استشارة روسيا، وبالاتفاق مع بعض الحلفاء وممثلي شريف مكة. وتظهر في هذا النص نية بريطانيا المبيتة لمحو عروبة فلسطين ومن ثم تهويدها.

- وعد بلفور: وهو تصريح سياسي صدر عن وزير خارجية بريطانيا، وموجه إلى أدموند روتشيلد أحد زعماء الصهاينة في ١٩١٧/١١/٢م، وكان قد اقترن بموافقة حكومات الحلفاء قبل نشره، وبصورة خاصة ويلسون رئيس الولايات المتحدة. وينص الوعد على ما يأتي: «إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودى. وسوف تبذل أفضل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لا يجوز عمل شيء قد يغير الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين، ولا الحقوق أو المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلاد غيرها»[١٣].

وما إن انتهت الحرب العالمية الأولى بفوز الحلفاء واحتلال فلسطين حتى بدأت بريطانيا جديا في تنفيذ ما أضمروه لفلسطين. وكانت خطواتهم مدروسة، وتحظى بإقرار وتأييد دول الحلفاء، بحيث كان «يدور البحث فيا بينهم فقط حول حدود هذه الدولة وموعد إعلانها»، حسب تصريح المستشار السياسي للجنرال اللنبي الكولونيل ماينز تساغن[١٤]. وكانت الدولة


تركيا
N
سوريه
البحر المتوسط
العراق
فلسطين
الاردن
سيناء
السعودية
اطماع الصهيونية في البلاد العربية
(عن أكرم زعيتر)
حدود دوليّة
أطماع الصهيونية
١٠٠ ٥٠ ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ كم

(٢)

العربية التي نشأت عقب الحرب بزعامة فيصل بن الحسين تسيطر على سوريا الداخلية من حلب إلى العقبة.

نشط زعماء الصهيونية مستخدمين كل السبل للتأثير على مؤتمر الصلح الـذي أعقب الحرب، وللاشتراك في تخطيط المعاهدات والمواثيق التي انبثقت عنه، موجهين اهتمامهم نحـو هدفين: الأول محاولة وضع فلسطين تحت الحكم البريطاني، والثاني محاولة توسيع حدود فلسطين إلى أقصى ما يستطاع، لأن تلك الحدود ستكون بمثابة حدود دولتهم المنتظرة في أول مراحل تكوينها.

ففي أيلول من عام ١٩١٨م فاجأت بريطانيا العرب بوضع فلسطين تحت إشراف (إدارة أراضي العدو المحتلة)، أي الاستمرار في الحكم العسكري، وادعـت أن إجـراءات الإدارة العسكرية لن تؤثر على التسوية النهاية في مؤتمر الصلح. لكنها اعترفت باللغة العبرية لغة رسمية، ومنحت اللجنة الصهيونية كثيرا من الامتيازات دون العرب[١٥].

وقدم المؤتمر الصهيوني العالمي إلى مؤتمر الصلح الذي عقد في فرساي في (كانون الثاني ١٩١٩م مذكرة طالب فيها بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين وشرق الأردن وجنوب لبنان، مستندا إلى وعد بلفور، ومشيرا إلى موافقة جميع دول الحلفاء التامة والمسبقة عليه. (شكل ٢) ولم يكن اليهود قد بلغ عددهم في فلسطين ٥٠ ألف نسمة آنذاك، رغم نشاط الصهيونية العالمية في تهجير اليهود إلى فلسطين خلال ربع قرن.

ومن جهة أخرى تنكرت كل من بريطانيا وفرنسا في مؤتمر الصلح لوعودهما وعهـودهما للعرب، بل عارضتا اقتراح إرسال لجنة تحقيق دولية إلى سوريا بما فيها لبنان وفلسطين للتأكد من رغبات السكان الحقيقية في الحكم. وقد وصلت إلى المؤتمرات قرارات المؤتمر السوري ومئات العرائض التي تعبر عن رغبات سكان فلسطين، لكنها أهملت، كما أهمل تقرير لجنة كنج - كرين الأمريكية التي زارت المنطقة، واتصلت بسكانها، ورفعت تقريرها الموضوعي إلى مؤتمر الصلح.

وقد انتهى مؤتمر الصلح في فرساي في ٢٨ حزيران من وضع ميثاق عصبة الأمم ومن

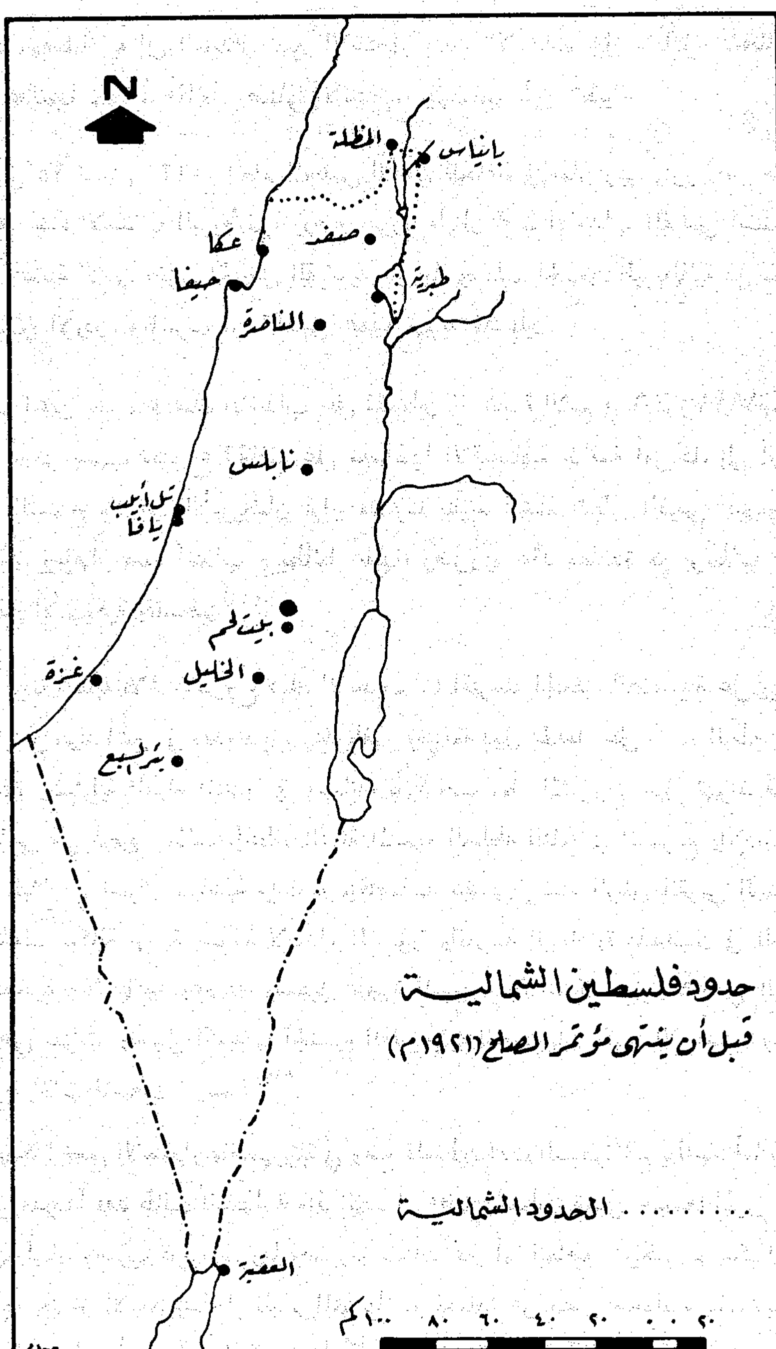
توقيعه، وتوصلوا فيه إلى استبدال تعبير الاستعمار بتعبير الانتداب لحل مشاكل الأقطار التي كانت تحكمها تركيا أو ألمانيا، وصنفوا الانتداب، وأوضحوا طرق تطبيقه.

وفي ٢٥ نيسان ١٩٢٠م انعقد المجلس الأعلى للحلفاء فى سان ريمو، وقرر وضع فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني، ووضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى استنادا إلى ميثاق عصبة الأمم. فغزت الجيوش الفرنسية سوريا، ودخلت الجيوش البريطانية من فلسطين إلى شرق الأردن، وباشرت من القدس عملية تهويد فلسطين.

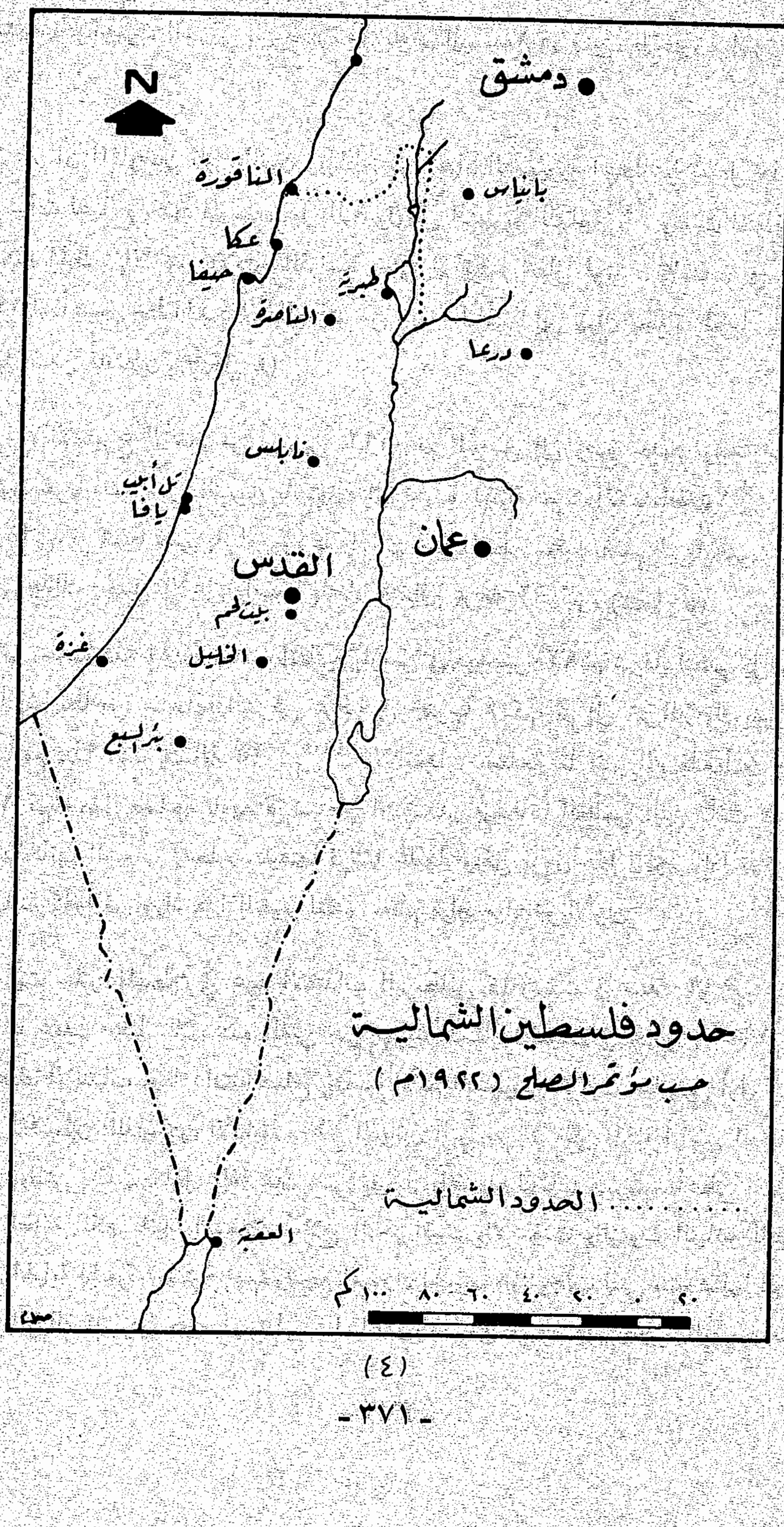
ثم أعلن مشروع صك الانتداب على فلسطين في عصبة الأمم في ٦ تموز ١٩٢١م، ولكن إقراره تأخر بسبب تصارع الحلفاء على مصالحها الاقتصادية خاصة أمريكا، إلى أن اتخذ مجلسا الشيوخ والنواب الأمريكيان قرارا مشتركا بتأييد إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وبإقرار صك انتداب بريطانيا عليها، وضرورة عقد معاهدة مع بريطانيا تضمن المصالح الأمريكية بفلسطين[١٦].

أقرت عصبة الأمم مشروع صك الانتداب كما اقترحته الجمعية الصهيونية على بريطانيا دون تبديل، وقد أشير فى مقدمته إلى وعد بلفور وموافقة دول الحلفاء على إنشاء الوطن القومي اليهودي ومسئولية الدولة المنتدبة في إنشائه، وأوضحت مواد المشروع سبل تهويد فلسطين والتخلص من شعبها، وذلك بإعطاء الدولة المنتدبة السلطة التامة فى التشريع والإدارة حتى تضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي... والاعتراف بوكالة يهودية صالحة لإسداء المشورة والمعونة إلى إدارة فلسطين فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وتسهيل هجرة اليهود، والاستيلاء على الأراضي الأميرية والأراضي الموات، وتسهل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود، وأن تكون الإنجليزية والعربية والعبرية لغات فلسطين الرسمية[١٧].

وهكذا نجح الاستعمار والصهيونية في وضع فلسطين تحت السيطرة البريطانية. أما بالنسبة لتقرير حدودها فقد طالب الصهاينة منذ البدء أن تضم فلسطين ضمن حدودها شرق الأردن وجنوب لبنان وجنوب غرب سوريا وصحراء سيناء. غير أن اتفاقية سايكس ـ بيكو اعتبرت فلسطين بين نهر الأردن وساحل البحر المتوسط، ويفصلها عن مصر صحراء سيناء، ويفصلها عن لبنان خط يبدأ من رأس الناقورة على البحر إلى منتصف المسافة بينها وبين بحيرة الحولة،


N
المطلة
بانياس
صفد
عكا
حيفا
طبرية
الناصرة
نابلس
تل أبيب
يافا
بيت لحم
الخليل
غزة
بئر السبع
العقبة
حدود فلسطين الشمالية
قبل أن ينتهي مؤتمر الصلح (١٩٢١م)
.... الحدود الشمالية
٢٠ ٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠ كم

(٣)


N
دمشق
الناقورة
بانياس
عكا
حيفا
طبرية
الناصرة
درعا
نابلس
تل أبيب
يافا
عمان
القدس
بيت لحم
غزة
الخليل
بئر السبع
حدود فلسطين الشمالية
حسب مؤتمر الصلح (١٩٢٢م)
.... الحدود الشمالية
العقبة
١٠٠كم ٨٠ ٦٠ ٤٠ ٢٠ ٠ ٢٠

(٤)

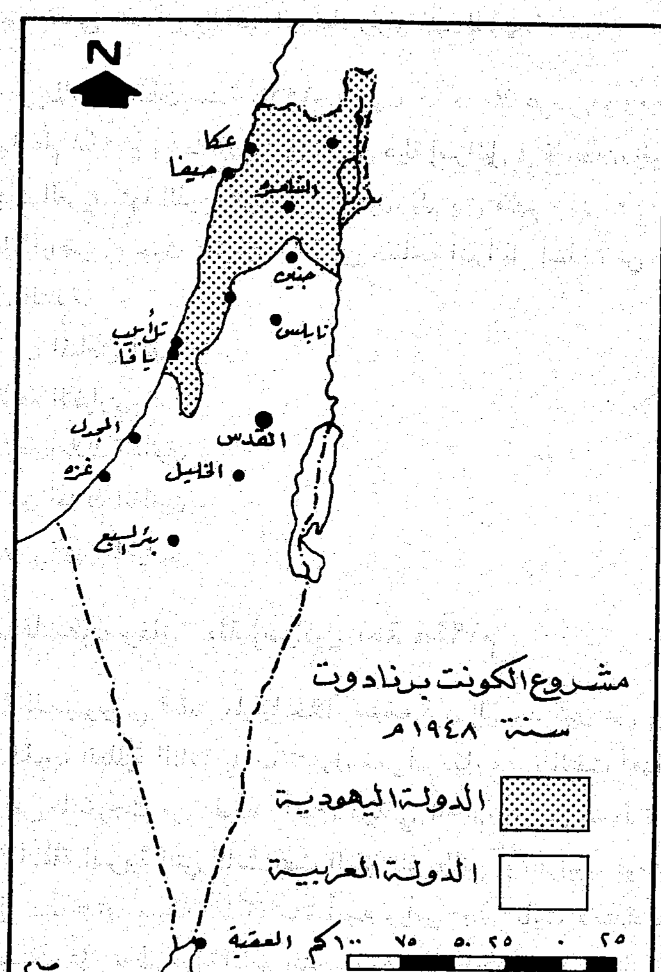
ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي إلى بحيرة طبريا، ثم إلى سمخ في جنوب البحيرة مباشرة (شكل ٣)

غير أن المفاوضين البريطانيين وبإلحاح من زعماء الصهيونية استطاعوا تعديل هذا الخط عدة مرات لصالح حدود فلسطين قبل الوصول إلى التسوية النهائية[١٨]. وكانت المنطقة التي تلي هذا الخط شمالا تتبع الإدارة الفرنسية حتى تم توقيع اتفاق لويد ـ كلمنصو في سبتمبر ١٩١٩م، فأصبح خط الحدود الشمالي يمتد من رأس الناقورة إلى شمال بحيرة طبريا، وأدخلت طبريا ضمن فلسطين. (شكل ٤)

وفي الأسبوع الأخير من أكتوبر ١٩٢٠م تم التوصل إلى وضع حدود مؤقتة، تبدأ من الناقورة غربا وتسير إلى الشرق باستقامة إلى مقربة الحولة، ثم شمالا مسافة ٢٥ كم إلى نهر الحاصباني، ثم شرقا حتى بانياس وبركة رام، ثم جنوبا بخط مستقيم يقسم طبريا حتى سمخ ـ وضمت بذلك الجليل الأعلى واصبعا باتجاه الشمال عرضه ١٢ كم. (شكل ٥)

ثم زحفت هذه الحدود حسب اتفاقية باريس في ديسمبر ١٩٢٠م شرقا، لتضم كل بحيرة طبريا وشريطا من ساحلها الشرقي عرضه في جنوبها ٤ كم، ثم إلى نهر اليرموك يسير خط الحدود مع هذا النهر مسافة ١٥ كم[١٩]. ولا تتجاوز مساحة ما ضم إلى فلسطين جميعا ١٠٠٠ كم^{2}، وهي مساحة تافهة لا تستحق أن تنحدر بريطانيا العظمى التي كانت لا تغيب عن ممتلكاتها الشمس وتساوم حليفتها فرنسا عليها. ولكن يزول هذا العجب إذا تذكرنا أن الصهاينة كانوا من وراء هذا التغيير لتضم معظم موارد مياه نهر الأردن.

بقيت حدود فلسطين في عهد الانتداب البريطاني كما رسمت في سنة ١٩٢٠م، غير أن بريطانيا عملت علنا خلال هذه الفترة على تهويد فلسطين، فعينت في حزيران ١٩٢٠م، أي قبل صك الانتداب ومعاهدات الصلح وعصبة الأمم الصهيوني هربرت صاموئيل أول مندوب سامي لفلسطين، الذي هود الإدارة، ووضع القوانين التي سهلت نقل ملكية أراضي الدولة إلى اليهود، والتي أثقلت كاهل الفلاحين حتى يبيعوا أراضيهم لتسديد ديونهم، وأعطى امتيازات توليد الطاقة الكهربائية واستغلال أملاح البحر الميت والإسمنت والزيوت النباتية لليهود، وفرض الحماية الجمركية لمنتوجاتهم، وشجع استيراد الحبوب والمنتوجات التي ينتج مثلها العرب، واعتبر الوكالة اليهودية هيئة استشارية للسلطة، وأهم من هذا سهل الهجرة اليهودية بشتى


N
عكا
حيفا
الناصرة
جنين
نابلس
تل أبيب
يافا
المجدل
القدس
غزة
الخليل
بئر السبع
مشروع الكونت برنادوت
سنة ١٩٤٨ م
الدولة اليهودية
الدولة العربية
٢٥ ٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠كم
العقبة

(٥)

الوسائل[٢٠]، حتى بلغ عدد المهاجرين في عهده وحتى سنة ١٩٢٨م ١٠٣ آلاف مهاجر[٢١].

واستمرت سياسة بريطانيا على هذا النسق حتى نهاية عهد الانتداب سنة ١٩٤٨م، رغم استنكار العرب وكفاحهم وثوراتهم ضد الانتداب والصهيونية، ورغم وعود بريطانيا وسياسة لجان التحقيق وتقصي الحقائق والكتب البيضاء ومراوغاتها للعرب.

دخلت بريطانيا فلسطين سنة ١٩١٨م، وفيها ٧٠٠٠٠٠ عربي و ٥٠٠٠٠ يهودي، وخرجت منها عام ١٩٤٨م بعدما نجحت في تكوين دولة إسرائيل في فلسطين، وفيها ٦٢٩٠٠٠ يهودي، وطردت العرب منها الذين تحولوا إلى لاجئين، ولم يبق منهم سوى ١٨٠٠٠٠ عربي، واستولت على أراضيهم، حيث قدر أن ٨٠٪ من مساحة إسرائيل أخذت من العرب حسب أحد القوانين التالية:

١ ـ قانون المناطق المهجورة .

٢ ـ لائحة الطوارئ .

٣ ـ لائحة أملاك الغائبين .

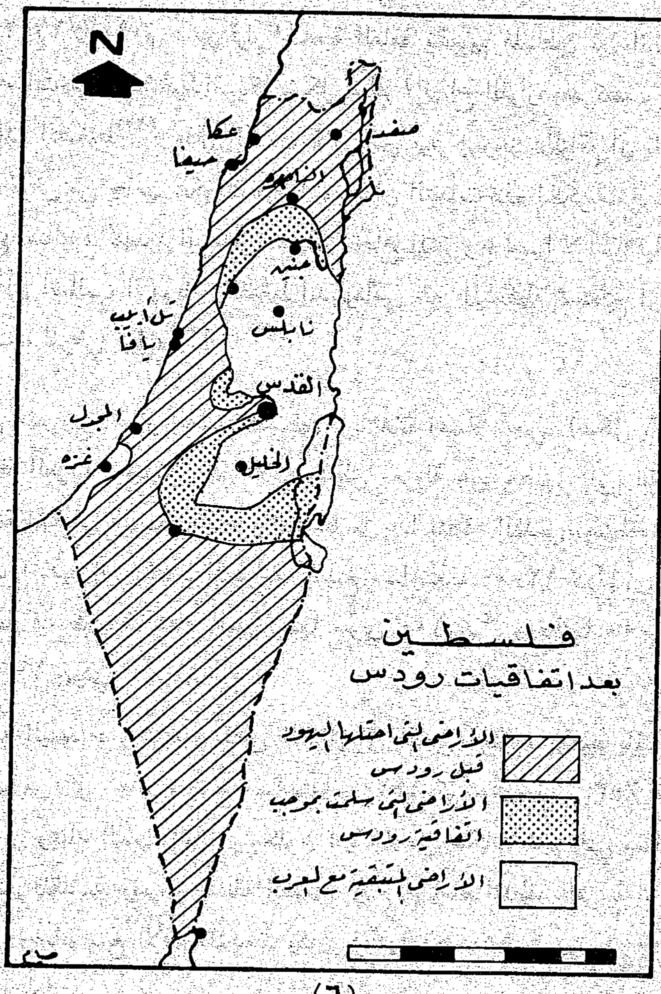
٤ ـ قانون أملاك الغائبين .

٥ ـ قانون نقل الملكية .

٤ ـ تقسيم فلسطين وخلق دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م :

اعتمدت الصهيونية في تحقيق مآربها خلال نصف قرن إلى حد كبير على بريطانيا، غير أنها منذ بدء الحرب العالمية الثانية بدأت تتحول نحو أمريكا، حيث التقت أهدافهما في خط واحد ، وأن أمريكا خرجت من الحرب كأقوى دولة في العالم، وتسعى لبسط نفوذها في كل مكان، ومنها المنطقة العربية التي كانت تحت النفوذ البريطاني أو الفرنسي. فوجدت في خلق كيان إسرائيل بمساعدتها مدخلا لها كقاعدة أمينة ورأس جسر ثابت لامتدادها وسيطرتها. وكانت قد هيمنت على معظم دول الأمم المتحدة، وصارت تتحكم في قراراتها.

وأثناء الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا وكل دول الحلفاء قد تنكرت لوعودها وعهودها المقطوعة للعرب، وبدأت تتسابق في إرضاء الصهيونية وكسب ودها متذرعة بمأساة اليهود في ألمانيا. وبذلك بدأ عهد التحالف الأنجلو ـ أمريكي ـ الصهيوني.


N
صفد
عكا
حيفا
الناصرة
جنين
نابلس
تل أبيب
يافا
القدس
المجدل
غزه
الخليل
فلسطين
بعد اتفاقيات رودس
الأراضي التي احتلها اليهود قبل رودس
الأراضي التي سلمت بموجب اتفاقية رودس
الأراضي المتبقية مع العرب

(٦)

وحينما اطمأنت بريطانيا أنها هيأت فلسطين لتكون وطنا لليهود، وبعد دراسة المشكلة مع أطراف المؤامرة الثلاثة، أرسلت في نيسان ١٩٤٧م مذكرة للأمم المتحدة ذكرت فيها أنها عجزت عن التوفيق بين شعبي فلسطين العربي واليهودي، وطلبت إعفاءها من الانتداب على فلسطين، وكانت قد بدأت بسحب جيوشها قبل ذلك التاريخ بشهرين.

وفي ١٩٤٧/١١/٢٩م صدر قرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود بأغلبية الأصوات نتيجة لضغوط أمريكا بشكل سافر لإنجاح القرار، وقد كشف الفرد ليلينتال جانبا من هذه الضغوط[٢٢]. وقال الكاتب الأمريكي ميلر بوروز: «الواقع أن التصويت على التقسيم إنما فرض من جانب حكومتنا فرضا، وبعد أن التجأت هذه الحكومة من غير أن تخجل إلى اصطناع أساليب التهديد السياسي... وكان نجاح المشروع نصرا لا أخلاقيا، وكان برهانا مخجلا على أن أساليب التهويل والضغط الدبلوماسي غير المتحفظة تستطيع أن تسيطر على مؤسسة أنشئت لغرض نبيل»[٢٣].

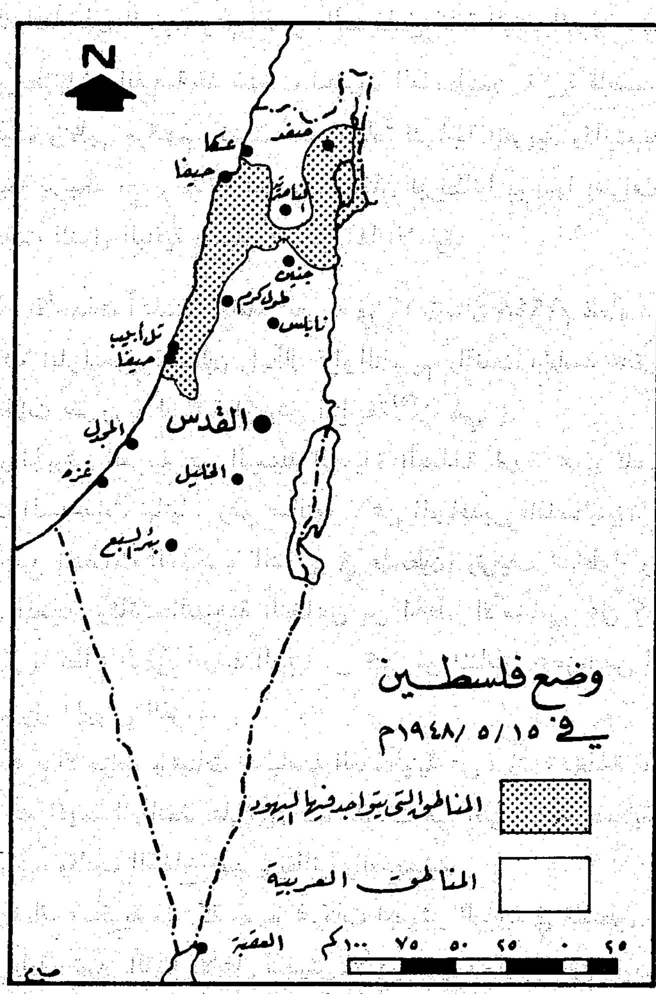
ويقضي مشروع القرار بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام ، هي: (شكل ٦)

١ ـ المنطقة العربية : وتتكون من ثلاث مناطق معزولة عن بعضها، هي: الجليل الغربي، ومنطقة الهضاب الوسطى والغور الأوسط ما عدا منطقة القدس، ومنطقة الساحل من جنوب أسدود إلى الحدود المصرية. وتبلغ مساحتها ١٢٠٠٠ كم^{2}، أي ٤٤٫٤٪ من مساحة فلسطين، لا يملك اليهود منها سوى ١٠٠ كم^{2}، ويقطنها ٦٥٠٠٠٠ عربي و ١١٠٠٠ يهودي.

٢ ـ المنطقة اليهودية: وتمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وتحيط بالمناطق العربية الثلاث من كل جانب، وتبلغ مساحتها ١٤٢٠٠ كم^{2}، أي نحو ٥٣٪ من مساحة فلسطين. ويملك العرب الذين يشكلون ٤٦٫٥٪ من سكانها نحو ثلثي مساحتها.

٣ ـ الأماكن المقدسة: وتشمل منطقة القدس، وتقع في وسط المنطقة العربية الجبلية، وتسلم لمجلس وصاية يتبع الأمم المتحدة. وكان يقطنها ١٥٠٠٠٠ عربي، ١٠٠٠٠٠ يهودي. أنظر الشكل .

ثم أعلنت بريطانيا سحب آخر قواتها قبل ١٩٤٨/٥/١٥م، غير عابئة بواجبها كدولة منتدبة ولا بنداءات مجلس الأمن. وقد أخلت المناطق المخصصة لليهود أولا، فاستولى هؤلاء


N
صفد
عكا
حيفا
الناصرة
جنين
طولكرم
نابلس
تل أبيب
يافا
القدس
المجدل
غزة
الخليل
بئر السبع
العقبة
وضع فلسطين
في ١٥/٥/١٩٤٨م
المناطق التي يتواجد فيها اليهود
المناطق العربية
٢٥ ٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠كم

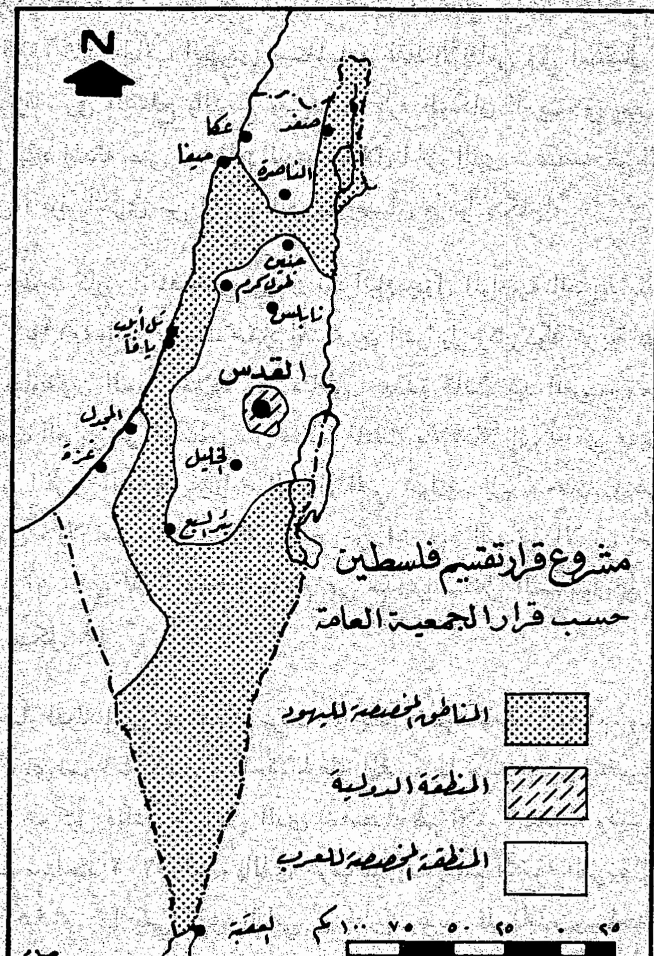
(٧)

عليها، وسلمتهم خط استحكامات ايدن[٢٤] في الجليل الأعلى وكثير من المعسكرات والمطارات بأسلحتها ومعداتها وحتى المراكز الحكومية، في حين بقيت تحافظ على واجبها في المنطقة المخصصة للعرب، فقاومت إدخال الأسلحة والمتطوعين وأي مظهر من مظاهر المقاومة. وقد أدت هذه السياسة إلى قتل وتشريد معظم العرب العزل المقيمين في المناطق التي يكثر فيها اليهود، وساءت حالة المناضلين العرب، وعم الذعر والسخط في كافة البلاد العربية. (شكل ٧)

فرأت بريطانيا أن الفرصة قد سنحت لتضرب الفلسطينيين ضربة قاصمة، وذلك بعزلهم نهائيا عن قيادة وتنظيم حركتهم، وتسليم هذه القيادة للجامعة العربية. وكانت ثلاث من دول الجامعة السبعة مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات، وكان لبريطانيا بموجبها إشراف كامل على جيوشها، وكانت الدول الباقية ضعيفة لا حول لها ولا قوة.

إزاء هذه الأحداث أعلنت الجامعة العربية في ١٢ نيسان ١٩٤٨م فجأة دخول الجيوش العربية بعد ١٥ أيار لتحرير فلسطين وإبطال قرار التقسيم، واتخذت الجامعة عدة قرارات فرعية اعتبرت كتنظيمات ضرورية لسلامة الجيوش الزاحفة[٢٥]، هي:

١ ـ اعتبار الجيوش العربية هي الوسيلة الوحيدة الصالحة لحماية عرب فلسطين، ولذلك توقفت المساعدات نهائيا ـ رغم ضآلتها ـ عن المجاهدين الفلسطينيين.
٢ ـ حل جميع المنظمات العسكرية الشعبية في فلسطين، وتوقيف نشاطها، وإبعادها عن ميدان المعركة. وكانت النتيجة التخلص من الخطر الأساسي على كيان إسرائيل، وبالتالي استطاع اليهود تصفية العرب من كثير من المناطق عجزوا من الوصول إليها قبل دخول الجيوش العربية.
٣ ـ عزل جميع الأحزاب والهيئات السياسية الفلسطينية عن مباشرة معالجة قضية فلسطين، وترك هذه المهمة للجامعة. علما بأن هذه الهيئات هي التي وقفت بصلابة بوجه الخطط والمؤامرات، وقادت الكفاح ضد بريطانيا والصهيونية.
٤ ـ وضع خطة عسكرية مشتركة لجميع تحركات الجيوش العربية في فلسطين، وتكوين هيئة قيادة عامة، وتعيين القائد الأعلى للجيش الأردني رئيسا لها، وبالتالي تعيين رئيس أركانه الجنرال البريطاني جون جلوب قائدا عاما للجيوش العربية بفلسطين.
٥ ـ إعلان حالة الطوارىء والأحكام العرفية في البلاد العربية، وذلك لضرب الحركات الوطنية تحت شعار مكافحة النشاط الهدام.


N
مشروع قرار تقسيم فلسطين
حسب قرار الجمعية العامة
صفد
عكا
حيفا
الناصرة
جنين
طولكرم
نابلس
تل أبيب
يافا
القدس
المجدل
غزة
الخليل
بئر السبع
العقبة
المناطق المخصصة لليهود
المنطقة الدولية
المنطقة المخصصة للعرب
٢٥ ٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ كم

وماذا كانت النتيجة؟ في ليلة ١٩٤٨/٥/١٥ م أعلن اليهود عن تشكيل دولتهم في القسم الذي منحتهم إياه الأمم المتحدة، وبدأت الدول بالاعتراف بها تباعا، وأخذت عصاباتها المدربة والمجهزة تطرد العرب من ديارهم، وحصلت بينها وبين الجيوش العربية معارك صورية، عقد على أثرها الهدنة بين الطرفين مرتان: الأولى بتاريخ ١٩٤٨/٦/٢٠م، والثانية في ١٩٤٨/٧/١٨م، كان الجانب اليهودي يستغلها في لقط الأنفاس وفي استقبال الهجرة لاسيا المقاتلين والمرتزقة، وفي التسلح والتوسع ومزيد من طرد السكان العرب، في حين كان الجانب العربي يلتزم ببنود الهدنة حتى استطاع اليهود احتلال الجزء الذي خصصته لهم الأمم المتحدة، بالإضافة إلى أجزاء أخرى من الحصة العربية بعد أن طردوا سكانها.

وأخيرا جاءت كارثة اتفاقية رودس بين إسرائيل ودول المواجهة العربية منذ شباط حتى تموز من سنة ١٩٤٩م، والتي رسمت حدود الهدنة بين إسرائيل وكل دولة عربية على حدة[٢٦]. وقد تنازل المفاوضون العرب خلالها عن مناطق جديدة كانت بيد العرب، وتعتبر من أجود أراضي النصيب العربي من فلسطين مثل منطقة المثلث بالإضافة إلى أراضي جميع النقب. وقد فوجئ سكان القرى العربية بقرارات التنازل التي حولتهم إلى لاجئين. ورغم أن اتفاقية رودس عسكرية، ولا تمس المطالب التي تنتج عن التسوية النهائية إلا أن إسرائيل كانت تعلن باستمرار أن حدود الهدنة لسنة ١٩٤٩م هي حدود إسرائيل السياسية، ولن تتراجع عن شبر منها . (شكل ٨)

وهكذا صار لدولة إسرائيل حدود عرفت فيما بعد بخطوط هدنة ١٩٤٩م، وتبلغ مساحتها ٢٠٧٠٠ كم٢، أي نحو ١٤٦٪ من مساحة الحصة المقررة لها حسب قرار التقسيم، وحيل بين عرب فلسطين وتشكيل دولتهم في الجزء الذي خصصته لهم الأمم المتحدة. وضم شرق ووسط فلسطين، وتبلغ مساحته ٥٧٠٢ كم٢، والذي عرف فيما بعد باسم الضفة الغربية إلى الأردن في نيسان سنة ١٩٥٠م، كما بقي الجزء الثاني في جنوب غرب فلسطين، ومساحته ٢٠٢ كم٢، والذي عرف فيما بعد باسم قطاع غزة تحت إشراف الجيش المصري، وجمدت القضية الفلسطينية عند هذا الحد رغم عشرات القرارت الصادرة عن مجلس الأمن أو الجمعية العامة الخاصة بالقضية أو بإعادة اللاجئين إلى أوطانهم.

ادعت إسرائيل أن أحكام الهدنة قد اكتسبت صفة الدوام، وبالتالي رفضت البحث في

الانسحاب عن شبر من الأرض العربية وتخطت قرار التقسيم. وقد دعمها في هذا الاتجاه «التصريح الثلاثي» الصادر عن أمريكا وبريطانيا وفرنسا في أيار سنة ١٩٥٠م والذي مفاده أن هذه الدول ستتدخل لحماية الحدود التي رسمتها اتفاقية الهدنة، أو في حالة استخدام القوة في المنطقة، وذلك لإعادة السلام والاستقرار (أي لإعادة سلام إسرائيل).

لم يحدث أي طارىء على خطوط الهدنة في السنوات التالية سوى اعتداءات الجيش الإسرائيلي النظامي المتكررة على أراضي الدول العربية، حيث أدانت الأمم المتحدة معظمها[٢٧]، وسوى توسع إسرائيل المستمر في المناطق المنزوعة السلاح بينها وبين مصر وسوريا والأردن، حتى بلغت مساحة إسرائيل ٧٦٪ من مساحة فلسطين.

وقد حظيت إسرائيل بحماية الأمم المتحدة لحدودها مع مصر عقب حرب ١٩٥٦، وفتح أمامها خليج العقبة لأول مرة، واستطاعت بذلك الاتصال بدول جنوب شرق آسيا وشرق إفريقيا واستيراد البترول الإيراني. وكانت تعمل خلال هذه الفترة دون هوادة في استقبال المهاجرين، وفي رفع القوة القتالية لدى شبابها وشاباتها، وفي تكديس السلاح إلى أقصى قدر ممكن، والحصول على المساعدات والقروض والهبات من كل مكان استعدادا لجولات قادمة.

وقد حدثت الجولة التالية في سنة ١٩٦٧، حيث بدأت إسرائيل في ٥ حزيران عدوانا شاملا على الدول العربية، كان من نتيجته احتلال كامل الأرض الفلسطينية، وكل جزيرة سيناء من مصر، ومنطقة الجولان وجبل الشيخ من سوريا وتشبثت فيها، وعملت على تهويدها والتخلص من سكانها العرب وتجريدهم من أراضيهم. وتجاهلت كل قرارات المنظمات الدولية وهكذا مضى ١٢ عاما على الاحتلال وهي تعرقل جميع مشاريع السلم بينها وبين الدول العربية حتى تكسب الوقت فيرضخوا لشروطها، أو حتى يحين الوقت وتستطيع أن تستوعب الأرض المحتلة فتضمها رسميا في النهاية لدولة إسرائيل، ثم تبدأ بالتحضير لجولة

الحدود الآمنة كشعار زائف يخفي حقيقة أطماع إسرائيل التوسعية:

لم يتوان حكام إسرائيل منذ تأسيس دولتهم سنة ١٩٤٨م عن التصريح بعدم اقتناعهم بحدود الدولة، وكانوا يعتبرونها دائما مرحلة من مراحل التوسع، غير عابئين بقرارات المنظمات

الدولية المتكررة، إذ صدر فيما بين عامي ٤٧ ـ ١٩٦٧م ١٠٨ قرارات عن الجمعية العامة، و ٤٤ قراراً عن مجلس الأمن، و ١٠ قرارات عن مجلس الوصاية في جوانب مختلفة من النزاع[٢٨]. وإليكم بعض الأمثلة من هذه التصريحات:

قال بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل صراحة في سنة ١٩٤٨م : «ستنشأ في المستقبل ظروف، وعلينا أن نستغل هذه الظروف لتوسيع حدود الدولة. وإذا لم تنشأ هذه الظروف تلقائيا فعلينا أن نصنعها بأنفسنا»[٢٩]. وأشار بن غوريون أيضا في سنة ١٩٤٩م في حفلة تخريج الضباط اليهود أن اسرائيل بوضعها الحالي لا تمثل إلا جزءا مما يجب أن تكون عليه. وحث الضباط المتخرجين لعدم التواني لتحقيق هذه الغاية.

وخطب مناحيم بيغن زعيم عصابة أراغون ورئيس الوزراء الحالي في تل أبيب قائلا: «إن إسرائيل بوضعها الحالي لا تمثل إلا خمس ما يجب أن تكون عليه أرض الآباء، وإنه يجب العمل على تحرير الأربعة أخماس الباقية». وقال النائب آريه التمان في الكنيست في مارس سنة ١٩٥٢م: «واجبنا إفهام العالم بصراحة أن غاية إسرائيل من حشد اليهود من أنحاء العالم وتكتيلهم بسرعة وكثافة هي أن تخلق حدودا لها بين العراق والسويس»[٣٠].

وجعل الكنيست الإسرائيلي شعاره «حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل»، وعززه بخريطة تشير إلى تلك الحدود . (شكل ٩)

وبعد حرب ١٩٦٧ أعلنت إسرائيل بلسان العديد من المسئولين فيها أنها لن تنسحب من الأراضي التي احتلتها إلا لحدود أمنة ومعترف بها، وبالرغم من صدور عدة قرارات من الأمم المتحدة ومنظماتها تنص على انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة وعدم أحقية اكتساب الأراضي بالقوة.

تنظر الدول العربية إلى الحدود الآمنة التي يمكن الاعتراف بها تلك التي حددها قرار التقسيم سنة ١٩٤٧م للدولة اليهودية، لكن إسرائيل تنفي صفة الحدود الآمنة عن أية خطوط معروفة من قبل. فقد أوضحت إسرائيل صراحة في إجابتها على أسئلة الدكتور غونار يارينج، ممثل الأمين العام للأمم المتحدة سنة ١٩٧١م، أن الحدود الآمنة والمعترف بها لم تتوفر أبدا بين إسرائيل والدول العربية، وبالتالي فإن من الواجب إنشاؤها الآن كجزء من عملية حفظ السلام، بحيث تستبدل قرارات وقف إطلاق النار بمعاهدات سلام، تنشىء حدودا دائمة

ومعترف بها، لما يتفق عليه خلال مفاوضات بين الحكومات المعنية(٣١). وهذا يعني أن مفهومها للحدود الآمنة أوسع من أية خطوط سابقة، وبالتالي فهي تعني التوسع.

وبالرغم من مطالبة إسرائيل بالحدود الآمنة إلا أنها لم تصرح حتى الآن عن الخطوط التي تريدها حدوداً لها ولا عن طبيعتها الجغرافية، وبالإضافة إلى ذلك تصدر عن المسئولين الإسرائيليين تصريحات تبدو متناقضة في بعض الأحيان حول حدود إسرائيل ومستقبل الأراضي المحتلة، تمثل وجهات نظر مختلفة كحكام ومعارضة أو حمائم وصقور، ولكن تلك التصريحات تتفق جميعاً على أمر واحد هو التوسع. وإلا فما معنى إجراءات عملية ضم القدس إلى إسرائيل عقب احتلالها في حزيران سنة ١٩٦٧م؟

وما معنى الإصرار على مصادرة أراضي العرب في الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وإقامة مستوطنات يهودية عليها؟ وما معنى مطالبة إسرائيل بعدم السماح للقوات العسكرية بعبور نهر الأردن أو نزع سلاح سيناء أو معظمها أو الجولان في حالة الوصول إلى تسوية؟

وكانت رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير قد صرحت لجريدة «تايمز» اللندنية في ١٣ مارس ١٩٧١م بأن على إسرائيل أن تحتفظ بمرتفعات الجولان والقدس وشرم الشيخ مع طريق يؤدي إليه، مع نزع سلاح سيناء مهما كانت التسويات(٣٢).

ومشروع إيغال آلون للسلام عام ١٩٧٢م خير ما يعبر عن مفهوم إسرائيل للحدود الآمنة، حيث يقول بأن البلاد العربية واسعة، وإن خسر العرب حرباً فيمكنهم احتمال نتائجها. أما إسرائيل فلا تستطيع أن تخسر حرباً واحدة، لأن معنى ذلك القضاء عليها، ولابد في ضوء ذلك من أن يكون لإسرائيل حدود تستطيع الدفاع عنها. وبعد أن انتقد الخطوط السابقة أكد ضرورة إجراء مفاوضات مباشرة بين الأطراف المعنية لتحديد الخطوط النهائية، على أن يكون الحل ضمن إطار الأفكار العامة التالية:

أن لا تضم إسرائيل مواطنين عرباً جدداً بأعداد ذات أهمية إليها، وعلى إسرائيل أن تشرف إشرافاً تاماً على المناطق الاستراتيجية تجاه الشرق، وهي المناطق التي يسكنها العرب، والتي تقع بين جبال القدس ونابلس ونهر الأردن. غير أنه رأى منح العرب ممراً من الشرق إلى الغرب ليسهل الاتصال عبر أريحا ورام الله، ويحل بذلك مشكلة الكيان الفلسطيني. ورأى آلون كذلك ضرورة وجود خط دفاعي فعال في مرتفعات الجولان لإحباط أي محاولة سورية

جديدة لمنع إسرائيل من استغلال مصادر مياهها، ومنع أي هجوم سوري مكثف. ورأى كذلك أن قطاع غزة الذي يسكنه الفلسطينيون بصورة مكثفة يمكن أن يشكل جزءا من الدولة الأردنية الفلسطينية، وتكون ميناؤها على البحر المتوسط، ويمكن ربطها بها بممر يستعمل لتأمين المواصلات، على أن تشرف إسرائيل على الصحراء الاستراتيجية بين غزة والعريش. ويشير كذلك إلى ضرورة إشراف إسرائيل على كثير من المواقع الاستراتيجية في سيناء، وضرورة الاحتفاظ بشرم الشيخ وكل الشريط بينه وبين إيلات. وأصر أن القدس عاصمة إسرائيل، ورفض أن تعود إلى وضعها المجزأ السابق، مع إمكانية وضع حل ديني يجعل لممثلي الديانات المختلفة وضعا خاصا.

هذا ومشروع بيغن الذي قدمه في معرض مباحثاته «السلمية» مع مصر سنة ١٩٧٨م ليس عنا ببعيد، إذ إنه يختلف في جوهره عن مشروع آلون، ولكن باسم جديد: هو مشروع الحكم الذاتي لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد أصر فيه بيغن على بقاء المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، بل وأصر على حق توسيعها وبناء الجديد منها، كما أصر على عدم الاعتراف بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني. وما وثيقتا «كامب ديفيد» سوى صيغة جديدة لهذه الأفكار.

وفي آذار سنة ١٩٧٨م احتلت إسرائيل نحو خمس مساحة لبنان بذريعة القضاء على الفدائيين الفلسطينيين وتأمين حدود إسرائيل الشمالية، ولم تنسحب منها إلا بعد تسليمها لقوات سعد حداد الكتائبي المعروف بولائه لها، ولاتزال ترفض دخول قوات الأمم المتحدة إلى الحدود حسب قرارات الأمم المتحدة تمهيدا لتقسيم لبنان وإنشاء دويلة موالية لها على الحدود.

جميع هذه المشاريع أو الآراء الإسرائيلية عن الحدود الآمنة تهدف إلى تبرير السيطرة على أراضي العرب، وهدر مبادئ عدم جواز اكتساب الإقليم عن طريق الحرب، وتجيز لليهود الانتقاص من سيادة الدول العربية على أراضيها، وتتجاهل أمنهم وحقوقهم. وهذا يذكرنا بالامتيازات الاستعمارية التي كانت سائدة حتى عهد قريب، والتي كانت تعتمد على الغزو العسكري لتبرير التوسع الإقليمي، وقد أصبحت مرفوضة من المنظمة الدولية، وحلت محلها قاعدة عدم جواز استخدام القوة لتحقيق مكاسب إقليمية وسيادة القانون الدولي وضرورة إعادة الأراضي التي احتلت على هذا النحو.

الخاتمـــة :

تبنت بريطانيا إنشاء وطن قومي لليهود منذ كان فكرة، وعملت على تحقيقها تحت حماية عصبة الأمم، ثم احتضنتها أمريكا وسائر الدول الاستعمارية، وأنشئت دولة إسرائيل تحت علم الأمم المتحدة، وأخذت هذه الدولة في التوسع على حساب الأرض العربية بتشجيع وتأييد من تلك الدول، إذ تصرح أمريكا بمناسبة وبدون مناسبة أنها ملتزمة بحماية حدود إسرائيل، ولم تنفك تقدم لها المساعدات المالية والسلاح، وتحميها في المحافل الدولية، بل وتوجه قرارات تلك المحافل لصالحها، وتسند اعتداءاتها.

قامت إسرائيل على أساس انتهاك مبادئ القانون الدولي والاتفاقات الدولية، وعلى أساس إهدار حق تقرير المصير لشعب فلسطين، واغتصاب حقوقه وأرضه متسما بالعنف والالتجاء إلى السلاح، وباستمرار هي المعتدية على الشعب الفلسطيني والدول العربية المجاورة، وقد أدينت من الأمم المتحدة عشرات المرات. وليس في جعبتها سوى التوسع المستمر إلى أن تحقق أهدافها البعيدة على مراحل زمنية مدروسة.

وبالتالي لم يبق أمام الحق الفلسطيني وسيلة أخرى غير إحقاق الحق بقوة السلاح. فإذا كانت القوى المعادية للقضية الفلسطينية قوية بحيث أجهضت نضالها على مدى نصف قرن من الزمان، ولم تمكنها من إحراز انتصارات حتى الآن، بل مكنت إسرائيل من تنفيذ خططها في التوسع، فإن هذا الوضع الأليم لا يفقدها حقها الأزلي، والذي لن يتخلى الفلسطينيون والشعب العربي عنه حتى تتاح الفرصة لتحقيقه في يوم من الأيام.

المصـــادر

١ ـ إبراهيم شحاته ـ الحدود الآمنة والمعترف بها ـ مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت سنة ١٩٧٤م.

٢ ـ إبراهيم شريف ـ نهر الأردن ومشاريع الري ـ بغداد سنة ١٩٦٢ م.

٣ ـ أكرم زعيتر ـ القضية الفلسطينية . دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م .

٤ ـ حسن صبري الخولي ـ سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ـ المجد ١ ـ دار المعارف بمصر.

٥ ـ الحكم دروزة ـ ملف القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي (أبحاث فلسطينية رقم ٣٤).

٦ ـ سالم الكسواني ـ المركز القانوني لمدينة القدس . عمان ١٩٧٧ م.

٧ ـ شفيق الرشيدات ـ فلسطين تاريخيا وعبرة ومصيرا ـ بيروت ١٩٦١ م.

٨ ـ شفيق الرشيدات ـ العدوان الصهيوني والقانون الدولي . مطبوعات الأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب ١٩٦٨م.

٩ ـ قسطنطين خمار ـ موسوعة فلسطين الجغرافية ـ منظمة التحرير ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ١٩٦٩م.

١٠ ـ كامل محمود خلة ـ فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ ـ ١٩٣٩م ـ مركز الأبحاث.

١١ ـ الفرد ليلينتال ـ ثمن إسرائيل ـ ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري. كتاب الملايين.

١٢ ـ محمد عبدالرحمن حسين ـ العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل. منشأة المعارف الإسكندرية.

١٣ ـ محمد عزة دروزة ـ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها. الجزء الأول . منشورات المكتبة العصرية.

١٤ ـ مصطفى مراد الدباغ ـ بلادنا فلسطين ـ تسعة أجزاء. طباعة رابطة الجامعيين بمحافظة الخليل. بيروت ١٩٦٥م.

١٥ ـ منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ سلسلة الوثائق الأساسية ـ بيروت ١٩٦٨م.

١٦ ـ الهيئة العامة للاستعلامات ـ ملف وثائق فلسطين الصادر عن وزارة الإرشاد القومي المصرية جـ ١.

١٧ ـ الهيئة العربية العليا ـ كارثة اغتصاب المياه العربية سنة ١٩٦٤ م .

١٨ ـ يوسف مجلي ـ فلسطين والمظهر الجغرافي لمشكلتها ـ مكتبة الأنجلو المصرية.

١٩ ـ وزارة الخارجية المصرية ـ تصريحات المسئولين الإسرائيليين . الفصل الرابع ـ حدود إسرائيل والمناطق المختلفة.

الحواشي

(١) مصطفى مراد الدباغ ـ بلادنا فلسطين . الجزء الأول . القسم الأول ص ٢٠ .
(٢) إبراهيم شريف ـ نهر الأردن ومشاريع الري ص ٨ ـ ١٧ .
(٣) يوسف مجلي ـ فلسطين والمظهر الجغرافي لمشكلتها ـ ٢١ ـ ٢٤ .
(٤) مصطفى مراد الدباغ ـ بلادنا فلسطين . الجزء الأول . القسم الأول ص ٣٧ وما بعدها.
(٥) شفيق الرشيدات ـ فلسطين تاريخا وعبرة ومصيرا ـ ص ٣١ .
(٦) محمد عبدالرحمن حسين ـ العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل ـ ص ٨١ .
(٧) شفيق الرشيدات ـ المصدر السابق ص٣٢ .
(٨) حسن صبري الخولي ـ ساسية الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين المجلد ١ (ص ٦٦) .
(٩) أكرم زعيتر ـ القضية الفلسطينية ص ٢٨٨ .
(١٠) حسن صبري الخولي ـ المصدر السابق ص ١١٢ ـ ١١٦ .
(١١) الهيئة العامة للاستعلامات ـ ملق وثائق فلسطين الصادر عن وزارة الإرشاد القومي المصرية ـ ج ١ ص ٥٧.
(١٢) شفيق الرشيدات ـ المصدر السابق . ص ١٧ ـ ٤٤ .
(١٣) محمد عبدالرحمن حسين ـ العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل ص ١٥٣.
(١٤) شفيق الرشيدات ـ العدوان الصهيوني والقانون الدولي ص ٣٧ .
(١٥) شفيق الرشيدات ـ فلسطين تاريخا وعبرة ومصيرا ص ٦٦ .
(١٦) شفيق الرشيدات ـ العدوان الصهيوني والقانون الدولي ـ ص ٥٠ ـ ٥١ .
(١٧) حسن صبري الخولي ـ المصدر السابق ص ٤٣٤ ـ ٤٣٦ ومحمد عزة دروزة ـ القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها. الجزء الأول ـ ص ٢٦٣ ـ ٢٧٠.
(١٨) كامل محمود خلة ـ فلسطين والانتداب البريطاني ـ ص ٨٤ ـ ٨٦ .
(١٩) الهيئة العربية العليا لفلسطين ـ كارثة اغتصاب المياه العربية ـ أيلول ١٩٦٤م ص ٣ ـ ١٥ .
(٢٠) أكرم زعيتر ـ القضية الفلسطينية .
(٢١) محضر الجلسة ٢٥/٢٢ لعام ١٩٣٢م، تقرير رئيس لجنة الانتداب في عصبة الأمم والهجرة اليهودية إلى فلسطين. وضع الجامعة العربية.
(٢٢) الفرد ليلينتال ـ ثمن إسرائيل . ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري ـ الطبعة الثانية.
(٢٣) انظر شفيق الرشيدات ـ فلسطين تاريخا وعبرة ومصيرا ـ ص ١٧٨ .
(٢٤) وهو خط دفاعي أقيم في شمال فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية .
(٢٥) شفيق الرشيدات ـ المصدر السابق ـ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦ .
(٢٦) أكرم زعيتر ـ القضية الفلسطينية ـ ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٢٧) الحكم دروزة : ملف القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي . مركز الأبحاث : أبحاث فلسطينية رقم ٣٤ ص ٧٦.

(٢٨) إبراهيم شحاته ـ الحدود الآمنة والمعترف بها ـ ص ٣ ـ ٤.

(٢٩) إبراهيم شحاته ـ المصدر السابق ـ ص ١١ .

(٣٠) وزارة الخارجية المصرية ـ تصريحات المسئولين الإسرائيليين . الفصل الرابع ـ حدود إسرائيل والمناطق المحتلة.

(٣١) سالم الكسواني ـ المركز القانوني لمدينة القدس ـ عمان ١٩٧٧ ص ٣١٧ ـ ٣١٨ .

(٣٢) المصدر السابق ـ ص ١٤ .

التحشيد الفكرى والعسكرى الصهيونى تعبير عن الجيوبولتيك التطبيقية

نافع قصاب

المقدمـــة :

يعتبر البعض قضية فلسطين بأنها مجرد قضية طارئة، نشأت بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، واتخذت لها شكلا من الصراع المؤقت بين عرب فلسطين واليهود الوافدين إليهـا للسيطرة على فلسطين، ثم انتهى هذا الصراع بقيام دولة لليهود فيها عام ١٩٤٨. وتصور القضية الفلسطينية على هذا النحو يفقدها الكثير من العناصر الرئيسية ذات العلاقة الوثيقة بقيامها.

فمحاولة طمس الصلة بين القضية العربية وبين المطامع الاستعمارية البعيدة الأزل يمحو أصولها القائمة على الصراع بين العرب والمسلمين من جهة والاستعمار من جهة ثانية منذ القرون الوسطى، وذلك حينما استطاع الصليبيون أن يقيموا في فلسطين مملكة القدس اللاتينية عام ١٠٩٩م، وقد انتهت مملكتهم هذه على يد السلطان يوسف صلاح الدين بن أيوب في موقعة حطين في ٣ نيسان من عام ١١٨٧م.

ويمكننا أن نجزم بأن الأطماع الاستعمارية في منطقة الوطن العربي كانت ولاتزال تمثل العنصر الأول في خلق قضية فلسطين وإثارتها، ولذلك التقت المصالح الاستعمارية مع مصالح الصهيونية العالمية على صعيد واحد، وراح الفريقان يعملان جنبا إلى جنب على أساس تبادل الخبرات والمصالح والخدمات، ويرسمان معا خطة إذلال العرب والمسلمين للسيطرة على الوطن العربي والعمل على تجزئته.وبما أن فلسطين تقع في منطقة وسط بين جناحي الوطن العربي الإفريقي والآسيوي وهي بذلك تمثل قلبه النابض بالأهمية الاستراتيجية، لمجاورتـه قنـاة السويس ـ شريان المواصلات البريطانية إلى الهند ـ فقد وضعت بريطانيا لها مصيرا معينا في تخطيطها السياسي والاستراتيجي، يساير أطماعها وأطماع الصهيونية، بجعلها مستقرا لليهود، حتى تصبح قاعدة تحمي مصالحها الاستعمارية في الوطن العربي.

والذي يتمعن في أصول التخطيط السياسي البريطاني للقضية الفلسطينية يجدها قد نمت وترعرعت من خلال النزعات والمفاهيم الجيوبـولتيكية التـي سادت القـرن التاسـع عشر

والنصف الأول من القرن العشرين، لغرض تدعيم أطماع الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى التي كانت قائمة آنذاك، وما وعد بلفور الذي صدر في تشرين الثاني من عام ١٩١٧ إلا حصيلة تلك المفاهيم التي آمن بها وعمل من أجلها قادة تلك الدول الكبرى.

بعض المبادئ الجيوبولتيكية ذات العلاقة بالقضية الفلسطينية :

ومن بين المبادئ الجيوبولتيكية التي تركت أصداء واسعة في المحافل الصهيونية هو ما جاء به ديما نجون الفرنسي الذي يرى في الجيوبولتيك العلم الذي يخدم الأغراض الوطنية عن طريق الدعاية والتعليم، ويهدف إلى تبرير الغايات السياسية التي تقف وراء دولة معينة[١]. وهذا يعني أن الجيوبولتيك تستخدم أجهزة الإعلام والتعليم والتربية كوسائل للتحشيد الفكري لتحقيق ما ترنو إليه الدولة من أهداف. وتبحث الجيوبولتيك كذلك في قوة الدولة بالنسبة للأرض، وقد جاء هذا في مجلة معهد الجيوبولتيك الذي تأسس عام ١٩٢٤ في مدينة ميونيخ. ويستند هذا الرأي على مبدأ «المجال الحيوي» الذي جاء به العالم الألماني فريد ريش راتزل Fr. Ratzel في كتابه الموسوم «الجغرافية السياسية» الذي صدر عام ١٨٩٧م، والذي مفاده (أن المجال الكبير يحفظ الحياة). وهذه دعوة صريحة إلى التوسع الإقليمي على حساب الدول المجاورة. ومما يؤكد هذا الاتجاه أيضا أن القانون الأخير من القوانين السبعة التي وضعها هذا العالم في كتابة المذكور آنفا يحث على ضرورة الالتزام بهذا المبدأ، حين ينص على (أن التوسع الإقليمي المستمر يزداد حدة كلما زاد ضم أقاليم أكثر إلى مساحة الدولة حتى يصبح التوسع الإقليمي يشجع إلى توسع أكبر وهكذا)[٢]، ولكن كيف يتم هذا التوسع والاحتلال؟ يجيبك على هذا المبدأ الجيوبولتيكي الذي ورد في كتاب العالم السويدي رودولف كيلين R. Kiellen الموسوم (الأسس اللازمة لقيام نظام سياسي)، الصادر في سنة ١٩٢٠، والذي يصف فيه الدولة بالقوة قائلا: (إن القوة أهم من القانون في وجود الدولة، لأن القانون لا يمكن تطبيقه وتنفيذه إلا بالقوة).

وتعتبر الجيوبولتيك وثيقة الصلة أيضا بالتسلط الاستعماري والدراسات المتعلقة به، فالرغبة في تأسيس الامبراطوريات والدول الكبرى، والعمل على دعمها وتقويتها كانت الصفات المميزة لسياسة الدول المحورية منذ ظهور النزاعات الفاشستية والنازية والنزعة العسكرية اليابانية. يقابل هذا ما كان لدى الدول الاستعمارية الكبرى من ميل طبيعي للمحافظة على ما لديها من إمبراطوريات والعمل على توسيعها.

ولا يمكننا أن نعتبر الجيوبولتيكيين هم فقط أولئك الذين وضعوا أسس نظرياتها ومبادئها، أمثال (راتزل) و (كيلين) وغيرهم، وإنما يجب أن نضيف إليهم من تولوا الزعامة في تطبيق قواعدها ومفاهيمها. فالتاريخ يحدثنا عن عدد لا بأس به من قادة بعض الدول الذين تأثروا بمثل هذه المفاهيم وعملوا في ضوئها، ومن أمثلة هؤلاء تيودور روزفلت الذي استطاع أن يحصل في عام ١٩٠٣م على منطقة قناة بنما، لتربط المحيط الهادي بالأطلسي، وبنجامين درزائيلي الذي اشترى لحساب الحكومة البريطانية عام ١٨٧٥م قسما كبيرا من أسهم قناة السويس، وسيسيل رودس الذي خطط لسيادة إنكلترا على القارة الإفريقية من طرفها الجنوبي (الكاب) حتى طرفها الشمالي (القاهرة)، وانوفون بسمارك الذي نجح في توحيد ألمانيا تحت علم واحد بعد حروب شنها الواحدة بعد الأخرى على النمسا وفرنسا والدانمارك. وأخيرا ارثر جيمس بلفور الذي خطط بوعده الصادر عام ١٩١٧ قيام دولة الصهاينة على أرض فلسطين العربية. وهؤلاء يعتبرون في نظر علم الجيوبولتيك من أكبر قادة الجيوبولتيك التطبيقية حتى قيام الحرب العالمية الأولى وأثنائها.

أما المرحلة الثانية من التطبيق الجيوبولتيكي فقد ظهرت بوادرها بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، ولاسيا على يد الصهاينة الذين استطاعت المبادىء الجيوبولتيكية أن تشق طريقها إلى عقولهم وترسخ في نفوسهم، ذلك لأن قسما كبيرا منهم قد عاصر فترة التغني والتمجيد بها أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها، حينما كانوا يعيشون في الأقطار الغربية. وإلى جانب المبادىء الجيوبولتيكية التي سبق ذكرها آمن هؤلاء بمبدأ أهمية الموقع الجغرافي لفلسطين الذي جاء به العالم الإنكليزي هالفورد ماكندر H. J. Mackinder في بحثه الذائع الصيت «المحور الجغرافي للتاريخ» الذي ألقاه عام ١٩٠٤م أمام الجمعية الملكية البريطانية، فقد عبر في هذا البحث عن تأييده للوطن القومي اليهودي في فلسطين، وأكد أن اختيار هذا الوطن في الوسط الطبيعي التاريخي سيحمل اليهودي على توطين نفسه ونشر لوائه في هذه الربوع(٣). ومما تأثر به أيضا قادة الفكر الصهيوني تلك الآراء الجيوبولتيكية التي نادى بها أوتو ماول الألماني OTTO MOULL ولاسيا المتعلقة منها بالتغلغل الاقتصادي الذي يعطي نفس النتيجة التي يتوصل إليها الاحتلال(٤). وعلى هذا الأساس تعتبر الأراضي العربية المحتلة بعد عام ١٩٦٧م في نظرهم سوقا مكملة للبضائع والخدمات الصهيونية من جهة، ومصدرا هاما لعوامل الإنتاج يستفيد منها الاقتصاد الصهيوني من جهة ثانية. ومن المفاهيم الجيوبولتيكية التي آمن بها

الصهاينة، ولازالوا يعملون من أجلها، هو مفهوم المجال الحيوي الذى اعتبر الأساس الأول لنظريتهم الأمنية التي برروا بواسطتها توسعهم الجغرافي على حساب الأقطار العربية المجاورة، باعتبار أن التوسع ـ كما يقول الباحث الجيوبولتيكي رودولف كيلين ـ وسيلة ضرورية للحياة(٥). وهذا يعني أن التوسع في مساحة الدول الجغرافية لخلق مجالها الحيوي الواسع يعني ضمان مركزها الدفاعي من جهة، وحصولها على المواد الخام الضرورية لتطورها من جهة أخرى، وهو أمر في غاية الضرورة لإدامة بقاء الدولة، وبالتالي نموها وازدهارها.

ومن أجل وضع هذه المبادئ والمفاهيم الجيوبولتيكية موضع التطبيق والتنفيذ استخدام الكيان الصهيوني خططا متعددة الجوانب والأهداف، ظهرت بوادر تنفيذها بمختلف الصيغ على صعيد التربية والتعليم ومنظمات الشباب والمنظمات النسائية بين مختلف طبقات المجتمع الصهيوني الأخرى، من أجل تحشيده فكريا وعسكريا ضد الأمة العربية وبناء دولته الكبرى المزعومة.

التحشيد الفكرى الصهيوني :

من أجل أن يخلق الكيان الصهيوني الرابض على أرض فلسطين العربية نوعا من الشعور الذي يؤكد ضرورة توحيد المجتمع اليهودي بكافة قومياته وطبقاته كقوة ملزمة للدفاع والتضحية عن مصير كيانه وسلامة سكانه تارة، ومن أجل التوسع والاحتلال تارة أخرى، دأب يردد بشكل مخطط مدروس (الخطر العربي) المحيط به، الذي يريد دماره والقضاء عليه بشكل جماعي. ومن هنا جاء تأكيد قادة الكيان الصهيوني في تثقيفهم للفرد اليهودي على أساس أن العرب أعداؤه الألداء، ولا يمكن أن يأمن جانبهم في المستقبل. لذلك راحوا يملون عليه كيفية التخلص من العرب القاطنين داخل الأراضي العربية المحتلة والذين هم بجوارهم بمختلف الوسائل والطرق، من أجل تحقيق الأهداف الجيوبولتيكية التوسعية. فتارة نرى أن الإعلام الصهيوني يتعمد إسماع المجتمع اليهودي التهديد والوعيد الذي تطلقه الإذاعات العربية ضدهم، وأخرى يعلمونهم بأنه ليس هناك خيار آخر: (إما أن تكسب الحرب، أو ترمى في البحر المتوسط أنت وأمتك)(٦). هذا بالإضافة إلى أقوال زعماء الصهاينة والتي تؤكد على مبدأ التحشيد العدواني في الفكر اليهودي. فقد ورد على لسان (موسى شاريت) أحد رؤساء الوزراء السابقين في إحدى خطبه قوله: (إنني أدعو الشعب اليهودي في إسرائيل إلى العيش بمبدأ

القوة، لأن الجيش مهما بلغت قوته لا يمكنه أن يحقق أهدافه مالم يكن كل فرد في الدولة قويا. وعلى الشعب كله أن يكون قوة مدافعة ومستعدا للمعركة»[٧]. أما بن غوريون فقد أعلن قائلا: (إن الجيش وحده لا يضمن النصر، والحرب في أيامنا هذه ليست حرب جيوش فحسب، بل هي حرب شعوب، وهي حرب الشعب بجميع طاقاته وإمكاناته، وكل فرد منا الرجل والمرأة، والكبير والصغير هو في الجبهة، سواء كان ذلك بإرادته أو بغير إرادته»[٨]. كذلك (موشي ديان) فقد جاء على لسانه في خطبة تخرج إحدى الدورات التدريبية قائلا: «آباؤنا حصلوا على حدود ١٩٤٧م، ونحن حصلنا على حدود ١٩٤٩م، وأنتم حصلتهم على حدود ١٩٦٧، والجيل القادم سيقيم الحدود في المكان الذي يجب أن تكون فيه»[٩]. وفي نفس المصدر تصريح لابن غوريون يقول فيه: «إن خريطة إسرائيل ليست خريطة بلادنا، إن لدينا خريطة أخرى، فعلى الأمة الإسرائيلية أن تمد أراضيها من الفرات إلى النيل»[١٠]. وترسيخا لهذه المبادئ والأهداف وجدنا أن حكومة الكيان الصهيوني سخرت وتسخر كل شيء لديها من مؤسسات اجتماعية وثقافية ونواد ومدارس وصحافة وأدب لغرض هذا التحشيد، كما أن الإذاعة الإسرائيلية تبث دائما ولساعات عديدة في اليوم الأناشيد والموسيقى العسكرية التي تزيد من حماس المجتمع اليهودي[١١]. كل هذه الوسائل مكنت القيادة الصهيونية من تحويل المجتمع اليهودي إلى قوة مقاتلة مشبعة بروح العدوان والحقد لتحقيق التوسع الجغرافي، وعلى حساب الأرض العربية، وتأسيس ما يسمى بإسرائيل الكبرى. ومن بين مظاهر التحشيد الفكري الصهيوني هو تلقين المهاجرين اليهود الجدد وهم على ظهر البواخر بالنشيد الصهيوني المعروف، إذ يقول:

«نعود للوطن ....
وطننا إسرائيل .....
إنه الآن صغير
ولكنه سيكبر ويتسع
سنبنيه بأيدينا هذه من الفرات إلى النيل»[١٢].

ومن الشواهد التي أخذت القيادة الصهيونية تدلل بها على أن العرب يستهدفون كل فرد يهودي للقضاء عليه، هي الأعمال الفدائية التي قام بها رجال المقاومة الفلسطينية داخل الأرض المحتلة، مثل حادثة الخالصة البطولية، واقتحامهم لمستعمرة شامير، وقيامهم بعملية

نهاريا، والأعمال الفدائية التي قاموا بها يوم ١٩٧٤/٩/٨م[١٣] والعملية الفدائية داخل السينما في تل أبيب والتي تمت يوم ١٩٧٤/١٢/١١م[١٤]. إن المتمعن بأهداف وخطط الحركة الصهيونية في مجال التحشيد الذهني يجد هناك توافقا جيوبولتيكيا بينها وبين ما كانت تتبعه النازية في ألمانيا قبل وخلال الحرب العالمية الثانية، فمثلما تبنى الكيان الصهيوني جميع وسائل الإعلام لغرس وتعميق جذور مبادئه وأفكاره في العقلية اليهودية، وجدنا أن جميع الأبحاث والمقالات التي كان يصدرها معهد الجيوبولتيك في جامعة ميونيخ بألمانيا كانت تحث الشعب الألماني، وتوجهه نحو التمسك بالمبادئ النازية الاستعلائية ضد شعوب الأقطار المجاورة لها.

إن آثار هذا التحشيد أصبحت واضحة المعالم بين مختلف طبقات المجتمع اليهودي في فلسطين المحتلة. فقد أظهرت دراسة قام بها أحد علماء الاجتماع لمجموعة طلابية في المدارس الابتدائية أن ٦٠٪ من بين ١٠٦٦ طالبا يهوديا قابلهم تتراوح أعمارهم بين ٩ ـ ١٤ سنة، أيدوا الإفناء الكلي للسكان العرب المدنيين المقيمين في فلسطين المحتلة، في حالة نشوب صراع مع الدولة العربية[١٥]. كما أجري استفتاء آخر للمجتمع الإسرائيلي في أواخر عام ١٩٧٣ ـ بعد حرب تشرين الأول ـ تبين منه أن ٨٤٪ منهم مقتنعون بأن العرب مصممون على تدمير الكيان الصهيوني طال الزمان أم قصر[١٦]. وهذا يدل دلالة واضحة على أن الحرب التشرينية تركت آثارا سيئة لدى المجتمع الإسرائيلي، وعملت على تقوية الشعور العدائي لديه تجاه الأقطار العربية. كما أن غضب هذا المجتمع عقب الحرب المذكورة لم يكن بسبب سياسة نظامه التوسعية أو رفضه الانسحاب عن الأراضي العربية المحتلة، وإنما يعود إلى أن قادة هذا النظام لم يقوموا لحرز النصر بمثل ما قاموا به أثناء حرب ٥ حزيران سنة ١٩٦٧م.

وظهر تنامي الشعور بالحقد ضد العرب حتى بين الأوساط اليهودية المثقفة، فقد صرح أحد أطباء الأسنان اليهود في القدس واسمه (جاك لوين ايشتاين) قائلا: «إن العرب لا يستهدفون استرجاع بضعة كيلومترات مربعة، ولكنهم ينوون تدمير إسرائيل»[١٧]. ومن مظاهر نجاح سياسة التحشيد الذهني للفرد اليهودي هو ما قام به المجتمع الإسرائيلي من مظاهرات صاخبة بوجه (هنري كيسنجر) وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية السابق، حينما وصل إلى فلسطين المحتلة حاملا معه مشروع فك الارتباط والانسحاب الجزئي من شبه جزيرة سيناء، بعد أحداث الحرب التشرينية[١٨] إن هذه المظاهرات ما هي في الواقع إلا احتجاج

صريح لتوضيح الايمان العميق الجذور الذي يؤمن به المجتمع الإسرائيلي تجاه ضرورة التوسع الجغرافي لما يسمى بإسرائيل. وهذا يعني أن المجتمع اليهودي أصبح يعرف تمام المعرفة الأبعاد الجيوبولتيكية التي تتوخاها دولتهم المزعومة. فكل فرد فيهم يعلم جيدا أن أرض فلسطين هي ليست كل الأرض التي قام عليها الكيان الصهيوني بحدوده الجغرافية عام ١٩٤٨م، بل هناك أجزاء أخرى يضمها (إطار إسرائيل الكبرى)، وهذه يجب تحريرها من الأجنبي المتسلط عليها، ولا يتم هذا التحرير إلا بجهود وقوة هذا المجتمع وإعداده العسكري.

التحشيد العسكري الصهيوني :

ونعني بالتحشيد العسكري تنشئة المجتمع اليهودي داخل الكيان الصهيوني تنشئة عسكرية من خلال مؤسسات ومنظمات وأجهزة الدولة المتنوعة[١٩]. إن الظاهرة المعقدة في هذا المجتمع أن لكل مجموعة فيه لغتها وتقاليدها وثقافتها وعاداتها الخاصة بها. وانطلاقا من هذا التركيب السكاني المعقد بدأ الكيان الصهيوني يولي اهتمامه وعنايته قبل كل شيء إلى صهر هؤلاء المهاجرين في بوتقة واحدة ذات لغة عبرية، وثقافة يهودية، وسياسة توسعية واحدة. لهذا يعتبر الكيان الصهيوني من أبرز الدول التي تستغل مجتمعها اليهودي بطاقاته وإمكاناته في سبيل تحقيق أهدافه وأطماعه الجيوبولتيكية.

وقد تجسد هذا الأمر في إعداد وتوجيه المجتمع اليهودي توجيها عسكريا صارما، يتساير والمخططات التوسعية للقيادة الصهيونية.

ويهدف هؤلاء القادة من وراء هذا التوجيه العسكري تحقيق المبدأ الصهيوني القائل: «لأجل المحافظة على الدولة الصهيونية يجب أن يكون المجتمع إسبارطيا»[٢٠]. لذا نراهم يولون الناحية العسكرية عناية بالغة، حتى غدا المجتمع اليهودي داخل الكيان الصهيوني معسكرا واحدا أو جيشا متأهبا للقتال في كل وقت، له دوره الفعال في تنفيذ مخططات أولئك القادة.

ولغرض تحقيق هذا التوجيه اهتم الكيان الصهيوني بإنشاء الكثير من المنظمات والمؤسسات لإعداد مجتمعه إعدادا عسكريا، يتناسب ومبادئ الصهيونية في التوسع. ومن هذه المؤسسات والمنظمات:

١ ـ وزارة التربية والتعليم :

تضع وزراة التربية والتعليم للكيان الصهيوني مناهجها الدراسية والتربوية منسجمة مع تنمية الوعي اليهودي في غرس المبادئ الصهيونية بنفسه، وتلقينه حسب ما يسمى بإسرائيل الولاء للشعب اليهودي، إلى جانب بث روح الحقد والكراهية تجاه الشعب العربي. فهي تدرس الطالب اليهودي النصوص التوراتية التي تحثه على القتال والتنكيل بالآخرين من غير اليهود. فمثلا تعلمه أن يعامل سكان الأقطار العربية المجاورة لكيانهم بمثل ما جاء بتلك النصوص: (وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما»[٢١]، حتى «لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك»[٢٢]. كما تدرسه النصوص التي وردت في كتاب التلمود حيث يقول: «إذا ما انتصر اليهود في موقعة، وجب عليهم استئصال أعدائهم عن بكرة أبيهم، ومن يخالف ذلك فقد خالف الشريعة وعصى الله»[٢٣].

أما التدريبات الرياضية والكشفية الهادفة إلى تنمية الروح القتالية والعسكرية فهي تعتبر أيضا من أهم الدروس النظامية التي تدرس في المدارس الابتدائية، ويعطى للتربية العسكرية في المدارس الثانوية عناية أكبر. وعلى هذا فالطالب اليهودي يتلقى منذ دخوله المدرسة الابتدائية وحتى إنهاء دراسته الثانوية التدريبات العسكرية والكشفية التي تؤهله لأن يكون جنديا بكل ما في الكلمة من معنى.

وفي السنوات الأخيرة أولت وزارة التربية والتعليم الصهيونية اهتماما بالغا في تلقين الطلاب مناهج دراسية من شأنها تنمية الروح القتالية العدوانية في نفوسهم، وكذلك زيادة معلوماتهم عن واقع كيانهم الصهيوني. وتستهدف الوزارة من وراء كل ذلك وضعهم في جو مهيأ للقتال في أي وقت[٢٤]. فقد جعلت حصص التدريب العسكري في المدارس نحو ٢٧٢ حصة سنويا[٢٥].

أما طلبة الجامعات فقد أعد لهم نفس النهج في التدريبات والدروس العسكرية أثناء العطل الدراسية، حيث تمكنهم تلك التدريبات من الالتحاق بعد ذلك بالاحتياط الجامعي. وبعد تخريجهم من الجامعة ينضمون إلى الجيش لفترة محدودة. ونتيجة لهذه الجهود التي تبذلها وزارة التربية والتعليم في تنشئة الطلبة على اختلاف مستوياتهم، أصبح لهم شأن كبير في أيام التعبئة والاستنفار للحرب، فقد كان لهم دور هام في حرب عام ١٩٤٨م، واشترك الآلاف منهم

في الحملة العسكرية على شبه جزيرة سيناء عام ١٩٥٦م (العدوان الثلاثي على مصر)، كما قاموا ببذل مجهود كبير في بناء التحصينات كمستعمرات الحدود الصهيونية عام ١٩٦٧م، بالإضافة إلى تطوعهم للتبرع بالدم وقيادة الآليات أثناء حالات الطوارئ. أما دورهم في حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣م فلم يكن أقل شأناً من دورهم في الحروب السابقة.

٢ ـ منظمات الشباب :

وإلى جانب نشاطات وزارة التربية والتعليم الصهيونية هناك منظمات الشباب التي دأبت الحكومة الصهيونية على إنشاء وتكوين الكثير منها لتدريب المجتمع الصهيوني في مختلف قطاعات عمله. ومن هذه المنظمات ما يلي:

أ ـ منظمة الجدناع :

تضم منظمة الجدناع أو ما تسمى (كتائب الشباب العبري) الفتيان والفتيات الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ ـ ١٨ سنة ممن ولدوا في فلسطين المحتلة، وبين سن ١٣ ـ ١٨ سنة إذا كانوا من المهاجرين الجدد. أما الانضمام إلى هذه المنظمة فهو اختياري، إلا أن السلطات الصهيونية سرعان ما استخدمت مختلف الوسائل لتشجيع وحمل الشباب للانضمام إليها، حتى كاد الانتماء إليها أن يكون إجبارياً[٢٦]، خاصة بعد أن أصبحت هذه المنظمة رسمية عام ١٩٥٤ لها قيادتها الخاصة المرتبطة بالأركان العامة للجيش الصهيوني. والهدف من إنشاء هذه المنظمة هو غرس الروح القتالية في نفوس الشباب اليهودي، وتأهيلهم للخدمة العسكرية. يضاف إلى ذلك محاولة اكتشاف ما لديهم من مواهب وإمكانات لاختيار نخبة منهم مؤهلين للالتحاق في كلياتهم العسكرية في المستقبل، ليتخرجوا منها ضباطاً في الجيش[٢٧].

ويتناول منهج تدريب هذه المنظمة مختلف النشاطات الرياضية والكشفية والأعمال اليدوية، بالإضافة إلى تعليمهم الدروس الزراعية وعلم الآثار. لهذا نراهم يقضون عدة أسابيع من عطلتهم الصيفية في إحدى المزارع أو بصحبة أحد علماء الآثار[٢٨]. وتنظم لهؤلاء الشباب سنوياً العديد من الرحلات التي يزورون خلالها كافة أنحاء فلسطين المحتلة، ليقفوا على معالمها الجغرافية والتاريخية، وميادين المعارك التي تمت فيها[٢٩]. كما تقيم هذه المنظمة في كل

سنة أيضا مباراة في بطولة الرماية، وتعد منهجا لقطع فلسطين مشيا على الأقدام مرة كل عام، للتعرف على كل موضع جغرافي من البلاد[٣٠]، ويجري تدريب أعضاء هذه المنظمة عسكريا بمعدل يومين في كل شهر، بالإضافة إلى التدريب الجماعي السنوي لمدة شهر واحد. ويتم هذا التدريب في مخيمات ونواد ومعسكرات المنظمة الخاصة بها. كما يتعلم أعضاء الجدناع بناء نماذج للطائرات وكيفية تفكيكها، والتدريب على استعمال مختلف الأسلحة، وينظم هؤلاء الأعضاء على شكل ألوية، يضم كل منها فئة معينة مثل ألوية للعمال، وأخرى للفلاحين، وثالثة للطلاب. ويتلقى كل فرد من هذه الألوية تدريباته العسكرية حسب تخصصه، سواء أكان في جدناع البر أو البحر أو الجو.

وكانت نتيجة تدريب هؤلاء الفتيان والفتيات مثمرة جدا للكيان الصهيوني، حيث أسهم هؤلاء الأعضاء البالغ عددهم نحو (١٧) ألف عضو في أعمال التحصينات وبناء المعسكرات في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة، كما قاموا بشق طرق المواصلات، وتعهدوا بأعمال الإسعاف والإنقاذ ودعوات التعبئة بالطرق السرية، إضافة إلى الاشتراك في مناورات الجيش عن طريق تأدية بعض الخدمات العامة، كإعداد المطارات، ونقل المؤن والذخائر، وتهيئة المخيمات للحراسة في المستعمرات عند الضرورة. ففي حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م مثلا اشترك حوالي عشرة آلاف عضو من أعضاء منظمة الجدناع للقيام في المهمات العسكرية الثانوية، كأعمال السعاة والحراسة، وتوزيع أوامر التعبئة، ومكافحة الحرائق، والأعمال الطوعية في المستشفيات، وأعمال الصيانة في مصلحتي الماء والكهرباء، وفرز الرسائل في مكاتب البريد، والحلول محل العمال الناقصين في الصناعات الحربية[٣١].

ب ـ منظمة الناحال :

وهذه المنظمة شبيهة بمنظمة الجدناع في أهدافها وأساليب تدريباتها. وقد تأسست عام ١٩٤٨م بهدف تدريب الشباب اليهودي على الحياة العسكرية والمدنية معا. وهذا يعني أنهم يتلقون التدريبات العسكرية لمدة ثلاثة أشهر، ثم ينقلون إلى المزارع الجماعية في مستعمرات الحدود، لغرض التدريب في المجال الزراعي والصناعي ولمدة ستة أشهر. والغرض من هذه التدريبات هو تنفيذ المشاريع الخاصة بالاستيطان، واستغلال الأراضي، وإعمار الصحارى والأراضي المهملة الأخرى التي يرفض السكان المدنيون استيطانها[٣٢].

ويقدر عدد الذين يلتحقون بمنظمة الناحال سنويا بحوالي (٣٥٠٠) فرد[٣٣]، أسهموا في مختلف المعارك التي دارت منذ سنة ١٩٤٨م وحتى ١٩٧٣م.

٣ ـ المنظمات النسائية :

أولت حكومة الكيان الصهيوني عنايتها الخاصة بالمرأة اليهودية، وحاولت إشراكها في التدريب والتثقيف العسكري والمدني. ومن هذا المنطلق أخذت المرأة اليهودية كمجندة تقوم بمختلف المهام، ومن جملة المهام إدارة مستودعات الأسلحة، والمستشفيات والمختبرات، ومحطات المخابرات اللاسلكية، كما أخذت تقوم بمختلف المهن كالطب والتمريض والصيدلة[٣٤]، هذا بالإضافة إلى الأعمال المكتبية وإدارة المعدات الإلكترونية وأجهزة الرادار وطي مظلات الطائرات وقيادة السيارات، كما تقوم المرأة اليهودية بمهام الشرطة العسكرية، وتقدم المساعدة في استقبال المهاجرين الجدد من اليهود، وتسد النقص في عدد المعلمين في المدارس الابتدائية في حالة الطوارىء، وغير ذلك كثير[٣٥].

ولم يقف دور المرأة عند هذا الحد، بل يتوزع نشاطها ليشمل العمل في جهاز الأمن الداخلي لمراقبة نشاط الفدائيين وتحركاتهم داخل الأراضي العربية المحتلة[٣٦].

وتقوم المجندات اليهوديات أيضا بمهمة الدفاع عن المستعمرات، إذ يحقق هذا الدفاع مرونة لازمة للجيش الصهيوني خلال العمليات الاختراقية والهجومية بدون أن يشغل نفسه بحماية هذه المستعمرات، ولذلك يخصص الكيان الصهيوني لكل مستعمرة وحدة عسكرية من المجندات، وتتألف كل وحدة من معلمتين وطبيبة ومدربتين عسكريتين، حيث تقيم في معسكرات خاصة داخل الخيام. ويتضمن برنامج التدريب العسكري استخدام السلاح والقنابل اليدوية وحفر الخنادق ونصب الأسلاك الشائكة والحراسة في الليل. كما تقوم المعلمات في أوقات الفراغ بتعليم أطفال المستعمرات، وهكذا .

الحواشي

(1) Demangeon, A., Geographie Politique, in: Ann. de Geographie, 1932.

(2) R. Ratzel. Fr. Politische Geographie, 1897.

(٣) د. أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى، ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

(٤) د. دولت صادق ، الجغرافية السياسية ، ص ٢١ .

(5) Kiss, George: Political Geography into geopolitics, P. 630.

(٦) إيكال آلون، إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي، دار العودة ، ترجمة عثمان سعيد بيروت ١٩٦٧. ص ١٢١.

(٧) المقدم هيثم الكيلاني ، دراسة في العسكرية الإسرائيلية، ص ٢٦ .

(٨) نفس المصدر السابق .

(٩) صحيفة النجم الأحمر السوفيتية في عددها الصادر ٩ آب ، ١٩٧٢ م .

(١٠) نفس المصدر .

(١١) صحيفة الدستور الأردنية في عددها الصادر ١٤ آذار ١٩٦٩ م .

(١٢) فتحي الرملي ـ الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار ، الطبعة الثانية ، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٤٥.

(١٣) صحيفة الثورة العراقية في عددها الصادر يوم ١٩٧٤/٩/٩م .

(١٤) صحيفة الجمهورية العراقية في عددها الصادر يوم ١٩٧٤/١٢/١٢ م .

(١٥) اللواء محمود شيت خطاب ، الوجيز في العسكرية الإسرائيلية، دار الفتح، بيروت، ١٩٧٢، ص ٥٧ .

(١٦) صحيفة المحرر اللبنانية في عددها الصادر ٨ كانون الأول ١٩٧٣ م .

(١٧) نفس المصدر السابق .

(١٨) مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت ، ملف رقم ٢١٥ بدون رقم للصفحة .

(١٩) يستثنى من هذا المفهوم جميع القوات العسكرية النظامية للكيان الصهيوني.

(٢٠) جمدان بدر ، تعليم العرب في إسرائيل ، ص ٤ .

(٢١) الكتاب المقدس ، تثنية، الإصحاح العشرون ، نص ١٦ ص ١٨٦ .

(٢٢) الكتاب المقدس ، يشوع، الإصحاح الأول ، ص ٢٠١ .

(٢٣) عمر رشدي ، الصهيونية وربيبتها إسرائيل ، ص ٥١ .

(٢٤) اللواء محمود شيت خطاب ، الوجيز في العسكرية الإسرائيلية، مصدر سابق ـ ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢٥) معين أحمد محمود، الصهيونية والنازية ، ص ٢٠٩ .

(٢٦) اللواء محمود شيت خطاب ، الوجيز من العسكرية الإسرائيلية ، ص ٧٥ .

(٢٧) فؤاد اللحام، الشبيبة الإسرائيلية، مجلة صوت فلسطين ، العدد ٧٣ دمشق ١٩٧٤، ص ٤٤.

(٢٨) سلمى حداد، الطلاب في إسرائيل ، مصدر سابق ، ص ٧٢ .
(٢٩) مازن البندك ، إسرائيل مجتمع عسكري ، ص ٥٥ .
(٣٠) مجلة صوت فلسطين عدد (٣٩) دور المرأة اليهودية ، دمشق ، نيسان ١٩٧١ ص ٥١.
(٣١) سلمى حداد ، الطلاب في إسرائيل ، مصدر سابق، ص ٧٢.
(٣٢) فؤاد اللحام ، مصدر سابق ، ص ٤٥ .
(٣٣) مازن البندك ، إسرائيل مجتمع عسكري ، مصدر سابق ، ص ٥١ .
(٣٤) مجلة صوت فلسطين العدد ٣٩ ـ دور المرأة اليهودية ، مصدر سابق ص ٥٠.
(٣٥) مازن البندك ، مصدر سابق ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣٦) صحيفة الأنوار اللبنانية في عددها الصادر في يوم ١٣ آب ١٩٧٢م.

المصادر

المصادر العربية :

١ ـ د. اسعد رزق : إسرائيل الكبرى، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٨ م .

٢ ـ الكتاب المقدس : تثنية الإصحاح العشرون، ص ١٦ .

٣ ـ الكتاب المقدس : يشوع، الإصحاح الأول نص ٣ .

٤ ـ اللواء محمود شيت خطاب : الوجيز في العسكرية الإسرائيلية، دار الفتح، بيروت ١٩٧٢م.

٥ ـ إيكال آلون : إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي، دار العودة، ترجمة عثمان سعيد، بيروت ١٩٦٧م.

٦ ـ جواد عبدجواد : النزعة العسكرية للجيوبولتيكا الإسرائيلية، رسالة ماجستير، بغداد ١٩٧٥م، غير منشورة.

٧ ـ سلمى حداد : الطلاب في إسرائيل، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٧١م .

٨ ـ عمر رشدي : الصهيونية وربيبتها إسرائيل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٥ م.

٩ ـ فتحي الرملي : الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٨ م .

١٠ ـ فؤاد اللحام : الشبيبة الإسرائيلية، مجلة صوت فلسطين، العدد ٧٣، دمشق، شباط ١٩٧٤ م .

١١ ـ مازن البندك : إسرائيل مجتمع عسكري، دار الكفاح، بيروت ١٩٧١ م .

١٢ ـ مجلة صوت فلسطين : دور المرأة اليهودية، عدد (٣٩)، دمشق، نيسان ١٩٧١ م .

١٣ ـ مركز الأبحاث الفلسطيني : ملف رقم (٢١٥) ، بيروت .

١٤ ـ معين أحمد محمود : الصهيونية والنازية، منشورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت ١٩٧١ م .

١٥ ـ د. نافع ناصر القصاب : محاضرات في الجغرافية السياسية والجيوبولتيك، مطبوعة بالرونيو، مكتب الدوري، بغداد ١٩٧٢م.

١٦ ـ د. نافع ناصر القصاب : القضية الفلسطينية في مرآة علم الجيوبولتيك، مجلة كلية الآداب، العدد الأول، الرياض ١٩٧٠م.

المصادر الأجنبيـة :

1. Demangeon, A., Geographie Politique, in: Ann. de Geographie, 1932.
2. Kieffer, J., E., Realities and World Power, 1952.
3. Maokinder, H. J. The Geographical pivot of History in: Geogr. Journal, London 1904, 1959.
4. Ratzel, Fr., Politische Geographie, 1897.

قضية فلسطين وابعادها السياسية والجغرافية

بدر الحسن القاسمي

إن أرض فلسطين التي تقع بين لبنان شمالا، وسوريا والمملكة الأردنية الهاشمية شرقا، والبحر المتوسط غربا، ومصر جنوبا، تحتل مكانة استراتيجية هامة في خريطة العالم، من أجل ذلك لم تزل تتعرض لغزوات أجنبية منذ أقدم العصور، مع كونها أرضا عربيا لحما ودما منذ أن عرفها التاريخ من نحو أربعين قرنا قبل الميلاد. فقد أثبت عباقرة رجال التاريخ أمثال المؤرخ الغربي الأستاذ بريستد، والمؤرخ العربي ابن خلدون وغيرهما أن الكنعانيين الذين عاشوا فيها كانوا من العرب البائدة الذين هاجروا إليها من شبه الجزيرة العربية، فلاشك في كون أرض فلسطين عربية منذ أن قدمها إلينا التاريخ.

وفي عام ٢٢٠٠ ق. م نزح إليها من العراق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإلى ابنه إسمعيل ينتسب محمد صلى الله عليه وسلم، ويعتبره العرب جدهم الأعلى، وأنجب ابنه إسحاق يعقوب الذي يعرف بإسرائيل وأرسل الله موسى إلى بني إسرائيل في أرض مصر، وأتباع موسى هم يعرفون باسم اليهود، وهم يتكونون الآن من جنسيات متعددة، اعتنقت الديانة اليهودية، وآمنت بتوراة موسى عليه الصلاة والسلام.

دخل اليهود أرض فلسطين بعد موت موسى حوالي عام ١١٨٦ ق. م بقيادة يوشع بن نون، وتأسست لهم دولة أيام داود وسليمان، غير أن دولتهم لم تدم إلا بضع سنوات، وبموت سليمان عام ٩٣٥ ق. م انتهت عمليا دولة اليهود في فلسطين، واحتلها الآشوريون ٧٢١ ق. م، ثم البابليون ٥٥٧ ق. م، وأخذ البابليون إلى العراق خمسين ألفا من اليهود الذين ظلوا بالأسر البابلي مدة طويلة.

وخضعت فلسطين بعد ذلك لحكم الفرس، ثم الإسكندر، ثم غزاها الرومان في أوائل القرن الميلادي الأول. وفي عصر الرومان لقي اليهود الباقون في فلسطين اضطهادا عنيفا وضخما، وتمكن درهان الحاكم الروماني من القضاء على بقايا نفوذهم عام ١٣٥م. وفي عام ٦٣٦ أتم العرب المسلمون فتح فلسطين لتعود إلى عربتها الأصيلة(١).

لم تزل فلسطين عربية رغم تتابع غزوات الصليبيين والتتار والمغول ونابليون. وفي عام ١٤٥٧م جعل الأتراك العثمانيون أرض فلسطين جزءاً من ولايتي بيروت ودمشق العربيتين، وبقيت سلطتهم فيها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م، حينما احتلها الخلفاء، وظلت منذ ذلك التاريخ تحت الانتداب البريطاني الذي سلبها متآمرا مع الامبريالية

الأمريكية والدول الأخرى الاستعمارية لعصابات الصهيونية عام ١٩٤٨م، لتكون دولة أسموها إسرائيل.

فمن هذه اللمحة التاريخية السريعة ، ومن هذا الأستعراض العاجل السريع، نرى أن اليهود لم يقيموا لهم دولة في فلسطين إلا لبضع سنوات اغتصبوها فيه من العرب أصحابها الحقيقيين، وأن أرض فلسطين طوال تاريخها الطويل ورغم ما تعرضت للغزوات المتلاحقة ظلت عربية عبر العصور.

حركة الصهيونية وتطورها

الصهيونية حركة عنصرية تعتمد في بقائها وتخطيطها على أساسها العنصري القائم على التفوق العنصري، وهي تنتسب إلى جبل صهيون في جنوب بيت للقدس، وقد ورد ذكر هذا الجبل في مواضع عديدة من التوراة، فهي حركة يهودية تسعى بكل الوسائل إلى إعادة مجد بني إسرائيل، وبناء هيكل سليمان على أنقاض بيت المقدس، والسيطرة على العالم كله، وهي حركة قديمة ذات جذور تاريخية عريقة، كانت ترمي منذ أقدم العصور إلى تنفيذ هذا المخطط ، غير أن أخطر تحرك صهيوني بدأ منذ زمن الصحفي النمسوي تيودور هرتزل (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م)، حيث إنه قد وضع كتابا أوضح فيه أهداف الصهيونية في تجميع اليهود وتوطينهم في دولة يهودية، كما أنه حاول أن يستدر عطف السلطان عبدالحميد العثماني، فقابله في مايو عام ١٩٠١، وأغسطس عام ١٩٠٢م بهدف أن يحصل منه على وعد سلطاني باستيطان اليهود بفلسطين، ولكن محاولته أخفقت لعدم موافقة السلطان وفطنته لأبعاد المخطط الصهيوني في تهويد فلسطين.

وبعد ذلك حاول هرتزل النفوذ إلى بريطانيا لإقامة دولة يهودية في شبه جزيرة سينا، غير أن عدم وجود المياه في هذه المنطقة حال دون تنفيذ هذا المشروع. وعرضت بريطانيا فكرة إقامة دولة يهودية في أوغندا، غير أن المؤتمر اليهودي السادس الذي انعقد في ١٩٠٣م رفض المشروع، وأصر أن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود. وتوفي هرتزل عام ١٩٠٤م، والحقيقة التي تبعث على العجب أن بريطانيا ما كانت حينذاك تملك أرض فلسطين، والصهيونية ما كانت تستحقها حتى تصح منها هذه العروض والاتفاقيات.

ولابد هنا أن نشير إلى أن حركة هرتزل كانت تركز أولا على عقد مؤتمرات سنوية تضم كبار الصهاينة، وقد بدأت فعلا هذه المؤتمرات عام ١٨٩٧م في مدينة بال بسويسرا بعقد أول مؤتمر صهيوني ضم الكثيرين من الصهاينة، وتوصل إلى قرارات علنية وسرية، أما القرارات التي أعلنت فكان من أهمها تأسيس دولة لليهود في فلسطين، وحث اليهود على شراء الأرض في تلك المنطقة، وتنمية مواردهم المالية، وتشجيع الهجرة إلى أرض فلسطين، وإنعاش اللغة العبرانية. وكان كبار اليهود وأثرياؤهم في أمريكا والدول الأوروبية الأخرى في مساندة الحركة الصهيونية، والأسرة التي تولت كبرها في أسرة روتشيلد المعروفة.

أما المخططات أو القرارات التي أخفيت فهي ما أطلق عليه فيما بعد بروتوكولات حكماء صهيون، ولم تبق سرا بل نشرت باللغة الروسية والإنجليزية والعربية وغيرها من لغات العالم.

والواقع أن تعاليم التلمود وبروتوكولات حكماء صهيون إلى جانب التوراة تعد من الأسس التي تبتني عليها الصهيونية.

وعد بلفور وصك الانتداب

منذ عام ٥٩٧ ق م حينما كان اليهود في أسر بابل بدأوا يحلمون بالعودة إلى جبل صهيون بفلسطين، وتأصلت هذه الأفكار كلما واجهوا حوادث الضغط والاضطهاد. وقد أدى التلمود أقدس كتبهم الدينية أكبر دور في رسم طريق العودة إلى فلسطين، ورغم أن جماعة حاخامات اليهود قامت بتأليفه في القرن الخامس الميلادي، ظل التلمود سرا مطمورا لم يذع إلا في القرن التاسع عشر وقرب نهايته.

لم تزل الحركة الصهيونية طوال الحرب العالمية الأولى فى خدمة القوى الاستعمارية البريطانية، واستطاعت بفضل تسللها ونفوذها إلى القادة البريطانيين أن تحصل على وعد من بلفور وزير الخارجية البريطانية، وهذا نص ذلك الوعد المشئوم:

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وسوف تبذل أقصى جهدها لتحقيق هذه الغاية»(٢).

وما كان يحق لوزير الخارجية البريطاني أن يعطي هذا التصريح عن فلسطين لأحد رجال

المال اليهودي، إذ إن فلسطين لم تكن حينذاك مستعمرة بريطانية، وما كانت بريطانيا تملكها.

وانتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة ألمانيا وحلفائها، وعقد مؤتمر الصلح، شارك فيه وفد عربي لمطالبة الحلفاء باستقلال البلاد العربية في آسيا ووحدتها تحقيقا للوعود المتكررة.

وقد طالب المؤتمر الصهيوني المنعقد آنذاك من مؤتمر فرساي بإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين وشرقي الأردن وجنوبي لبنان، وكان من الطبيعي أن تعمل الدول الاستعمارية المتحالفة مع الصهيونية العالمية لإقامة دولة يهودية تكون أداة للاستعمار في تلك المنطقة، وتحتوي المشردين من اليهود، وتعتبر ركيزة استعمارية في الشرق الأوسط.

فازت الصهيونية العالمية في مؤتمر فرساي بنصيب الأسد، ففي يونيو ١٩١٩م تم التوقيع في عصبة الأمم، ونص على ما عرف باسم الانتداب. وفي أبريل عام ١٩٢٠ انعقد المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو، ووافق على وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ووضعت بريطانيا صك الانتداب بمعاونة العناصر الصهيونية، جاء فيه:

«إن دول الحلفاء قد وافقت على وعد بلفور، وعلى أن تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن تنفيذه، اعترافا بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين»(٣).

ويتجلى تآمر الصهيونية العالمية بالاشتراك مع القوى الاستعمارية بوضوح في ربط صك الانتداب بوعد بلفور المشئوم الذي يعد باطلا لمخالفته القانون الدولي العام.

وقد اتخذت بريطانيا من الانتداب سبيلا لتمكين الصهيونية من تنفيذ مخططاتها في المنطقة العربية بإنشاء دولة يهودية في فلسطين، فسمحت بهجرة اليهود إلى تلك المنطقة من كل صوب وناحية لترجيح كفة الصهيونيين بإزاء العرب. ويجدر بالذكر أن في نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م كان ٩٠٪ من سكان فلسطين عربا، يعيشون فيها منذ القرن السابع الميلادي، حينما فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وكان عدد اليهود لا يزيد فيها عن ٥٠ ألف نسمة، معظمهم من العرب الذين يدينون بالديانة اليهودية.

والواقع أن السماح للمهاجرين من اليهود كان الهدف منه إحلال اليهود محل الشعب الفلسطيني، وقد عين هربرت صمويل مندوبا ساميا على فلسطين في يوليو ١٩٢٠م بناء على توصية من وايزمان للحكومة البريطانية، فعمل لتنفيذ مخططات الصهاينة وأهدافها وتشجيع

الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين بشتى الطرق والوسائل، واتبع أسلوب الامتياز الصارخ القائم على تفضل اليهود في كافة نواحي الحياة على الأرض الفلسطينية، وحرمان العرب من كافة الحقوق التي يمكن من خلالها أن تكون لهم سيطرة أو نفوذ.

وملخص القول: إن الصهيونية العالمية قد استطاعت بممارسة أساليب الغدر والخيانة والمكر والاستكانة وبنفوذها على الدول المختلفة الاستعمارية وتأثيرها البالغ على الأمم المتحدة أن تصدر قرارا بمشروع تقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧م، ولقي هذا القرار معارضة عنيفة من الدول العربية. وفي ١٥ مايو عام ١٩٤٨ عند انسحاب الانتداب البريطاني سلمت بريطانية معسكراتها وما فيها من منشآت ومعدات حربية إلى اليهود، كما سلمت إليها أهم المدن العربية كحيفا، ويافا، وطبرية، وبيسان، والأحياء العربية في القدس الجديدة.

صلة الشعب اليهودي بأرض فلسطين

لاتزال الصهيونية العالمية تنفخ في أبواق الدعايات أن للشعب اليهودي المختار ـ في زعمهم ـ حقا شرعيا في أرض فلسطين، وأن فكرة العودة إلى أرض إسرائيل لها جذور تاريخية عميقة، غير أن الدراسة المحايدة لا تقرهم بهذا الحق، بل الأصول العلمية الثابتة تفند مزاعم اليهود، وتثبت أن هذه أكذوبة محضة، وأن اليهود ليسوا من أصل فلسطيني واحد.

فإن التاريخ يروي لنا في صدق وحزم ودون تردد أو مواربة أن يهود العالم ينتمون إلى جنسيات مختلفة. فإن كثيرا من الأوروبيين وغيرهم قد اعتنقوا الدين اليهودي على أيدى مبشرين من اليهود، من هنا نراهم في أوربا من ذوي الشعر الأصفر والعيون الزرقاء، وفي الحبشة من ذوي البشرة السوداء والشعر المجعد، وفي الصين الصفر المغول. فالذي يقره العقل وتشهد له مبادئ علم الشعوب والأجناس هو أن ادعاء الصهاينة أنهم من أصل فلسطيني واحد كذب محض وتجن على الحقيقة.

يقول في ذلك الأستاذ أوجين بيتار أستاذ علم الأنثروبولوجيا في جامعة جنيف سابقا: «إن جميع اليهود بعيدون عن الانتماء إلى الجنيس اليهودي».

ويقول في موضع آخر في كتابه:

«إن العناصر التي تتألف منها جماعة اليهود متنوعة تنوعا عظيما»(٤)

أما الجذور التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بأرض فلسطين في زعم الصهاينة فتقول عنها الكاتبة الأمريكية ايلين بيتي بعد تحليل رائع لتاريخ فلسطين:

«على أساس هذا السجل التاريخي نرى أنه ليس للأردن ولا لإسرائيل أية ذرة من الحق القانوني في فلسطين تشبه دعوى في كونها مضحكة دعاوى موسوليني عندما قام يطالب بامبراطورية روما الاستعمارية القديمة.

من هو إذن صاحب الحق القانوني في فلسطين، ؟ هناك شعب واحد لا يكاد يذكره أحد، ويكاد يكون نسيا منسيا من الجميع، ونعنى به شعب فلسطين نفسه، أهالى فلسطين»[٥].

ويقول شموئيل اتينغر: الصلات بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل تكون واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل[٦].

أما الدولة اليهودية التي قامت لفترة قصيرة كما تحدثنا عنها بعض المصادر في أرض فلسطين فلم تكن إلا دولة رمزية ـ حتى في أقوى أيامها أيضا ـ والسيادة الحقيقية كانت لمصر، وهذه الدولة الرمزية لم تدم إلا بضع سنوات في عمر التاريخ، لذا نجد معظم المؤرخين يعتبرون هذه الدولة حادثا طارئا.

يقول الأستاذ هـ . ج ويلز في كتابه «موجز التاريخ» :

«كانت حياة العبرانيين في فلسطين شبيهة بحياة رجل يصر على الإقامة في وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار. ومن البدء حتى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارىء»[٧].

ويقول الأستاذ هـ . د دونت في كتابه «مركز المدينة القديمة» :

«إنه لم يعثر لا على كتابة قديمة واحدة في فلسطين من شأنها أن تدل على وجود مملكة عربية لليهود هناك»[٨].

وتقول الكاتبة بلافاتسي :

«العملات النقدية التي ترقى في القدم إلى ما قبل آلاف السنين في فلسطين قد اكتشفت، والقبور التي خلفها الذين عاشوا في عصر موسى بفلسطين أيضا قد فتحت واكتشفت محتوياتها جميعا، فلم يعثر في جميع هذا على دليل واحد أو إشارة بسيطة تخبرنا عن وجود ما يسمى بأمة

يهودية أو شعب يهودي في تلك الأيام مطلقا. فإن كل ما يتعلق بهذه الأمة المزعومة غير موجودة في فلسطين لا في المقابر، ولا على النقود، وكأن كل شيء قد تبخر بفعل السحر»(١٠).

هرتزل ودولة إسرائيل

أول من قام ببدء الحركة الصهيونية كحركة سياسية في القرن التاسع عشر هو تيودور هرتزل، حيث يعتبر يوم صدور كتابه «الدولة اليهودية» يوم ميلاد الحركة الصهيونية.

وهذا الكتاب في الأصل رسالة وجهها إلى أدمون روتشيلد وعموم أفراد أسرته الثرية التي كانت مشاريعها التجارية منتشرة في أنحاء المعمورة ملتمسا منهم إنقاذ الشعب اليهودي من أحداث الضغط والاضطهاد. وكان هذا الكتاب هو حجر الزاوية في تحقيق الحلم الذي كان يتساور إلى ذهول هرتزل وغيره من زعماء الصهاينة.

وانتقل بعد وضع هذا الكتاب إلى مرحلة عملية، فعقد مؤتمرات الصهاينة، ويدل على جديته ما قال في افتتاح مؤتمر بال بسويسرا الذي انعقد عام ١٨٩٧م:
«إننا اجتمعنا هنا لنضع حجر الأساس في بناء البيت الذي سوف يأوي إليه اليهود».
وركز على ثلاث نقاط منذ أول يوم:
١ ـ تشجيع حركة هجرة منظمة إلى فلسطين على أوسع نطاق.
٢ ـ السعي المتواصل للحصول على اعتراف دولي بشرعية توطين اليهود في فلسطين.
٣ ـ إقناع كافة اليهود بالفكرة الصهيونية .

يقول هرتزل نفسه : لو أردت أن ألخص مؤتمر بال في كلمة واحدة لقلت: «في بال أسست الدولة الصهيونية، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد سيرى هذه الدولة جميع الناس».

وحاول هرتزل لإغراء السلطان عبدالحميد بخمسين مليون جنيه إذا ما سمح لليهود بأن يستوطنوا في فلسطين في ظل الحكم العثماني، غير أن السلطان قد رفض الاقتراح في صرامة المؤمن وصراحة السياسي المحنك، بقوله:
«إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، وإني لا أستطيع الموافقة على تشريح أعضائنا وأنا على قيد الحياة».

وبعد ما باءت جهود هرتزل بالفشل في إغراء الدولة العثمانية توجه إلى الغرب، وأجرى الاتصالات مع القادة البريطانيين، وحملهم على تأييد المخطط الصهيوني. والدوافع التي حفزت بريطانيا إلى مساعدة الصهيونيين في تنفيذ أهدافها هي تتلخص فيما يأتي:

١ ـ رغبة بريطانيا في استمالة العناصر الصهيونية في سائر أنحاء العالم.

٢ ـ جعل فلسطين المتاخمة لقناة السويس وذات الأهمية الاستراتيجية البالغة منطقة نفوذها إلى مستعمراتها.

٣ ـ إيجاد مركز استراتيجي لها في العالم العربي.

وتحقيقا لهذه الأهداف أقامت بريطانيا أولا حكومة منتدبة، وبذلت قصارى جهودها لتشريد العرب الفلسطينيين وضغطهم وترجيح كفة اليهود، إلى أن وضعت مشروع تقسيم فلسطين، وأخيرا وافقت الأمم المتحدة على مشروع التقسيم، رافضة جميع المبادئ الدولية الأساسية، وفي منتصف ليلة ١٥ أيار ١٩٤٨ غادر المندوب السامي البريطاني ميناء حيفا معلنا نهاية الانتداب البريطاني، وفور ذلك أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل، وقد اعترفت بها الولايات المتحدة بعد إحدى عشرة دقيقة من إعلان قيامها.

هكذا عمل الاستعمار لخلق دولة ليس لها من مقومات الدولة شيء. وليست هي إلا صورة بشعة للاستعمار الصهيوني الحاقد في أرض عربية، بعد تشريد أكثر من مليون عربي من وطنهم الشرعي.

مطامع الصهيونية وأهدافها الاستعمارية

الصهيونية كحركة دينية سياسية تهدف منذ نشأتها الاستيلاء على فلسطين، وتوطين اليهود فيها، وإعادة تشييد هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى المبارك، وجعل دولتهم تمتد من الفرات إلى النيل، والشواهد على ذلك كثيرة، من أهمها:

١ ـ يتلخص اقتراح الرحالة اليهودي استودي هابرستي أن تمتد الدول اليهودية من شمال اللاذقية، ثم تتجه جنوبا بشرق مارة بحماة فقلعة الحصن فبحيرة طبرية، ثم محاذية لنهر الأردن حتى جنوبي البحر الميت، ثم متجهة غربا إلى البحر المتوسط.

٢ ـ وجدت في خزانة روتشيلد خارطة كتب عليها مملكة إسرائيل، تضم هذه الخريطة فلسطين، والأردن، وسوريا، ولبنان، ووسط العراق وجنوبه، وصحراء سيناء، ودلتا النيل، والمدينة المنورة، والأراضي الواقعة في شمالها بين بني قريظة وبني النضير وخيبر.

٣ ـ جاء في كتاب للحاخام ايزاكس نشره عام ١٩١٧م، ثم قدمه في مؤتمر الصلح المنعقد في فرساي عام ١٩١٩م:

لقد حان للعالم أن يعرف ما هي الحدود الحقيقية لدولة إسرائيل، زاعما أن هذه الحدود يجب أن تمتد من عينتاب شمالا إلى جنوبي البحر الميت، مشتملة على قسم كبير من تركيا ومعظم سوريا، وجميع الأراضي اللبنانية والفلسطينية.

٤ ـ قدمت المنظمة الصهيونية العالمية مذكرة إلى مؤتمر الصلح في فرساي بتاريخ ٣ شباط عام ١٩١٩م، تطالب فيها باحتلال جميع الأراضي الفلسطينية، مضافا إليها لبنان الجنوبي والقسم الجنوبي الغربي من سوريا وأراضي الضفة الشرقية من الأردن حتى بادية الشام، كما طالبت هذه المذكرة بجزء من الأراضي المصرية.

٥ ـ جاء في كتاب الدكتور هوزين الذي طبع عام ١٩٣٩ : «يجب أن يهاجر يهود أوربا الشرقية البالغ عددهم بضعة ملايين إلى فلسطين، ويحتلوا ضفتي الأردن، ويؤسسوا دولة يهودية صرفه، ثم تتوزع الهجرة بين البلدان العربية المجاورة.

٦ ـ ورد في كتاب «فلسطين اليهودية» للنائب العام في فلسطين زمن الانتداب:

«إن البلاد التي وعد اليهود بها في التوراة من البحر المتوسط حتى الفرات، ومن لبنان حتى النيل، هي البلاد التي منحت للشعب المختار».

٧ ـ إن الخارطة التي شاهدتها إحدى المبشرات في عام ١٩٤٣م للإمبراطورية اليهودية المقبلة كانت تشتمل على فلسطين بكاملها، والأردن، وسوريا، ولبنان، وقبرص أيضا.

٨ ـ ألقى ابن غوريون خطابا في القدس المحتلة في ١٩ أيار عام ١٩٤٤م قائلا:

إن خريطة فلسطين الحالية إنما هي خريطة الانتداب، وللشعب اليهودي خريطة أخرى يجب على الشباب اليهود أن يحققوها، وهي خريطة التوراة التي جاء فيها: «وهبتك يا إسرائيل ما بين دجلة والنيل».

٩ ـ الصهيونيون يستخدمون اليوم اصطلاح دولة إسرائيل مكان أرض إسرائيل، وهو يحمل في طياته نية التوسع.

١٠ ـ كل الدلائل تشير إلى أن الصهيونية تهدف سائر الأقطار العربية، وأن مهمة الصهيونية

لم تنته بخلق دولة إسرائيل أو اغتصاب أراضي فلسطين، بل إنهم يتشبعون منذ عام ١٩١٧م بتملك حوران في جنوب سوريا، واقترحت مذكرة المنظمة الصهيونية إلى المؤتمر الأعلى لمجلس الصلح عام ١٩١٩م، وجوب ضم جبل حرمون وجنوبي لبنان إلى فلسطين.

وعندما استثنى كتاب تشرشل الأبيض في عام ١٩٢٣م شرق الأردن من فلسطين اعتبر الصهيونيون ذلك خسارة فادحة بالنسبة إلى قضيتهم يعلق وايزمان على ذلك في سيرته: لقد اعتبر كتاب تشرشل الأبيض عاملا خطيرا في تقليل تصريح بلفور، حيث فصل شرق الأردن عن منطقة النشاط الصهيوني.

في ضوء هذه الحقائق يمكننا أن ندرك أبعاد الخطر الصهيوني واستمرار الفكرة التوسعية. وإذا نظرنا إلى المستقبل على ضوء تفهم الماضي لتوصلنا إلى ما ترمي الصهيونية العالمية متسترة ببعض المبادىء التقليدية ومتآمرة مع الدول الاستعمارية الأمريكية والأوروبية.

الصهيونية وفكرة إسرائيل الكبرى

منذ أن قامت دولة إسرائيل في قلب الوطن العربي قبل ثلاثين عاما لم تزل فكرة إسرائيل الكبرى تصاحب الزعماء الصهيونيين، وقد حققت الدولة الصهيونية بعض النجاح في معارك ١٩٥٦ و ١٩٦٧ في توسيع حدودها، واحتلال الأماكن التي ظلت تحت الحكم الإسلامي العربي طوال القرون، فارتسخت الفكرة في صلب الصهيونية، وازدادت مطامع الكيان الصهيوني، فلا نواجه اليوم حدوث دولة يهودية في رقعة صغيرة من وطننا، بل نواجه التحدي الكبير الذي يهدد كيان الدول العربية من فكرة إسرائيل الكبرى التى تهدف ابتلاع مواقعنا الاستراتيجية وأجزاء وطننا الحقيقية بأجمعها، وذلك باسم التحرير والاستقلال. وهذه الظاهرة تتطلب منا أن نقوم بالتصدي الكبير الذي يقف بوجه تحدي الصهيونية الخطر، إذ لابد أن تتساورنا المخاوف من خطة إسرائيل الثانية التي ترمي إلى تحقيق المكاسب الإقليمية والأطماع التوسعية عن طريق العمل على تحقيق وترسيخ دعائم صبغة جديدة للتقسيم بعد ما ينيف على ثلاثين عاما من صدور قرار التقسيم الأول عن الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٤٧م.

ولا يمكننا أن ننخدع بالاعتقاد بأن إسرائيل تنوي التخلي عن أطماعها التوسعية التي

تتذرع بها من وراء ستار المطالبة بحدود آمنة ودائمة، بل إن الواقع يؤكد لنا صدق النوايا الصهيونية لتحقيق مشروع إسرائيل الكبرى بشتى الوسائل، ومهما تعددت الصيغ والحلول.

ومنذ أن ظهرت حركة إسرائيل الكبرى إلى المسرح العلني كانت فاتحة حركة جديدة، قيل: إنها رفعت شعار كل شيء، بمعنى المطالبة بكل شيء لنا.

وسرعان ما تحركت حركة إسرائيل الكبرى هذه إلى قوة هائلة ومنظمة على المسرح السياسي الإسرائيلي، فبعث المزيد من الثقة والحماسة في نفوس الطامعين بضم الأراضي المحتلة، والتقت مع مزايدات الزعماء التوسعية على صعيد واحد، ثم كان فتوى الحاخام الأكبر بتكفير كل من يتخلى عن شبر واحد أو ذرة واحدة من الأرض الموعودة، وتصريح وزير الشؤون الدينية في إسرائيل آنذاك زراخ فارها بنتغ بقوله:

«ها قد عدنا إلى أرضنا، ومن الآن إلى الأبد».

ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسرائيل جوقة توسعية مرتفعة الأصوات، وانصرف رجال السياسة وزعماء الأحزاب إلى كسب تأييد الناخبين، محتجين بإصحاحات التوراة وآياتها لكي يبرهنوا على مزاعم إسرائيل وادعاءاتها التاريخية في شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة ومرتفعات الجولان السورية والضفة الغربية للأردن[١٠].

فإن فكرة إسرائيل الكبرى التي تؤمن بها الصهيونية، والتي تسعى دولة إسرائيل المزعومة لتحقيقها، تبتني على خطة ابتلاع كافة الأراضي العربية.

وتمشيا مع هذا المبدأ التوسعي، وتنفيذا لهذا المخطط الصهيوني دائما، يفكر زعماء الصهاينة في توسيع حدود إسرائيل، فتخرق القوات الصهيونية خطوط الهدنة متسترة بمصطلح «الحدود الآمنة» بتشجيع من جماعة الحاخامات والزعماء السياسيين.

وإن كتاب آر، كي، كرنجيا «خنجر إسرائيل» وحده يكفى لتقدير جشع الصهيونيين وجوع بقرهم الأرضي، حيث إنهم لايزالون يحاولون خرق الحدود للدول المجاورة رافضين كل القيم والمبادئ الأخلاقية والقوانين الدولية، ومستهينين بقرارات الأمم المتحدة التي أصبحت لعبة في أيدي الدول العملاقة.

والحدود السياسية للدولة لها قيمة لا تنكر، وما أصدق تعبير اللورد كيروزون في كتابه «الحدود»: «الحدود كنصل موسى، يتوقف عليها نشوب الحرب أو استقرار السلم، وحياة الشعوب أو فناؤها».

فعند كل اقتراحات الحلول والتسويات ينبغي لنا أن ندرك خطورة الحدود، وما لها من أهمية في حياة الأمم.

كانت إسرائيل تملك ٢٠٧٠٠ كيلو متر مربع، واحتلت في عدوان عام ١٩٦٧م أربعة أضعاف مساحة إسرائيل، فأصبحت مساحتها نحو ٨٧ ألف كيلو متر مربع. (راجع صحيفة الدستور الأردنية ١٤ آذار عام ١٩٦٨م).

غير أن كل الدلائل تشير إلى أن أطماع زعماء الصهاينة والحاخامات الإسرائيليين لم تكتمل بعد. نظرا إلى ذلك ينبغي لنا أن نكون على حذر دائما من عدونا.

نكبة فلسطين والشعب العربي الطريد

إن النكبة التي حلت بالعرب الفلسطينيين إثر قيام دولة إسرائيل ألجأت أكثر من مليون عربي إلى أن يتركوا وطنهم الشرعي، ويعيشوا حياة الجلاء، ولم يحدث ذلك اعتباطا، ولم يكن ليحدث باختيارهم، إذ لا يتصور أن تترك أغلبية المواطنين في قطر معين بلادهم لأقلية دخيلة، غير أن هذا الحادث الغريب قد وقع في فلسطين بمرأى من العالم ومسمع، وتحت مؤامرة القوى العملاقة نفسها، وأصبح الشعب الفلسطيني مشردا مضطهدا يعيش في جو وحشي إجرامي، ولايزال يعاني أنواعا من الويلات على أيدى الغاصبين الغاشمين.

وكل من يستعرض تاريخ دولة إسرائيل المزعومة يصدق الدكتور الصهيوني أوسكار ليفى في قوله:

«نحن (اليهود) لسنا شيئا إلا مفسدي العالم ومدمريه، ومحركي الفتن فيه، وجلاديه». (بروتوكولات حكماء صهيونيون ص ٤٥).

إن الجرائم اللاإنسانية التي يرتكبها الصهاينة، والأعمال الوحشية والأساليب غير

الشريفة التي تتخذها وتمارسها القوات الإسرائيلية مع الشعب الفلسطيني يندى لها جبين الإنسانية حياء، وأحداث التنكيل بالعرب تهز ضمير كل إنسان. هذه هي الحقيقة التي دفعت المؤرخ العالمي الشهير آرنولد توينبي البريطاني إلى أن يقول بصراحة وصرامة:

«إن جرائم النازية ضد اليهود أقل انحطاطا إلى الدرك الأسفل من جرائم اليهود ضد الأبرياء العرب».

راجع كتابه فلسطين جريمة ودفاع

طبع دار العلم للملايين، بيروت

ولا تحتاج هذه الحقيقة إلى التدليل أو البحث والاستفاضة، فإن ما اعترف به الكتاب الأجانب، وما أعدوا من مراجع ووثائق، فيه غنى وكفاية، غير أن الشيء الذي يهم المسلمين جميعا هو التوتر الذي تشهده هذه القضية، وهزلنا بإزاء جدية الأعداء في التخطيط والممارسات وفي كل شيء.

وقد أصبح من المعروف لدى الجميع أن فلسطين والقدس، والأقصى والأراضي كلها ضاعت بين أطماع الدول الاستعمارية وبعض الدول العربية، وقام خنجر إسرائيل في قلب الأمة الإسلامية.

ورغم أننا نملك قوة استراتيجية هائلة، نملك الذهب الأسود الذي يدور حوله رقي الاقتصاد العالمي، والذي يدوّر عجلات الإنتاج في العالم، ونحتل المواقع الاستراتيجية الهامة، غير أننا مع كل ذلك قد أصبحنا لعبة في أيدي العابثين، فبدل أن نهاجم العدو المشترك لا نزال ننهض في المعارك الدامية ضد إخواننا، فالحروب الأهلية قائمة، والخلافات موجودة، ونار الاشتباكات الداخلية مستمرة، مع أن العدو الغاشم يجثم فوق صدورنا، ويسلب منا أرضا تلو أرض، ونحن نتخلى عن منطقة بعد منطقة.

الحواشـــي

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري ، دار النشر للجامعيين .
(٢) عمر رشدى . الصهيونية وربيبتها إسرائيل ، ص : ٧٨
(٣) نفس المصدر ، ص ٨٥ .
(٤) محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، القاهرة ، ص ١٤٧
(٥) ابلين بنى : أزيلوا إسرائيل ص ٦٠ ، ٦١
(٦) من الفكر الصهيونى المعاصر ، بيروت ، ص ٣٩
(٧) قسطنطين خمار : الموجز فى تاريخ القضية الفلسطينية ، ص ١٥
(٨) نفس المصدر ، ص ٤٨ ، ٤٩
(٩) راجع : فلسطين والغزو التترى الجديد ، ص ٥ ، ٦
(١٠) أسعد رزوق : إسرائيل الكبرى ، ص ٦٤٤

عروبة الاماكن والبقاع
فى فلسطين
قبل دخول بنى اسرائيل

محمود العابدى

حضـــارة ايبــلا :

في سنة ١٩٧٤ بدأت بعثة آثار إيطالية أعمال الحفر والتنقيب في تل مرديخ على بعد ستين ميلا من حلب، فعثرت على أهم الكنوز الأثرية في جميع حفريات العالم، عندما وجدت مكتبة ضخمة تضم مئات الألوف من الألواح الطينية المكتوبة باللغة العربية الأولى ـ التى تعرف خطأ باللغة السامية ـ اللغة التي كانت شائعة في غربي آسيا في قرني الهلال الخصيب في العراق والشام طوال عصر حضارة دويلا ايبلا ٢٤٠٠ ـ ٢٢٥٠ ق. م. ولقد كتب على هذه الألواح دروس لتعليم طائفة من كهنة المعبد، ولتخريج أفواج من موظفي الدولة، بالإضافة إلى المعاملات التجارية التي شملت هذه الرقعة من العالم الذي كان معروفا، يضاف إليه بلاد آسيا الصغرى وجزيرة قبرص. ومن أهم المدن التي كانت دولة ايبلا تتاجر معها مدن فلسطين القدس (أورشاليم) وغزة ومدن اندثرت ولم يعد لها ذكر؛ ومن الأسماء عابر وداود وسليمان، ومن العادات دهن جسم الملك بالزيت عند تنصيبه، ومن المعبودات داجون الذي صور على جسم سمكة ورأس إنسان الذي عرف فيما بعد كأحد معبودات الكنعانيين.

حفريات رأس شمرا :

للشمال اللاذقية على الشاطئ السوري أجرت بعثة أثرية فرنسية حفريات في موقع رأس شمرا، استمرت ١٩٢٩ ـ ١٩٣١م، وأهم ما وجد فيهـا حروف هجـائية، أكب العلماء على قراءتها، فتمكنوا من معرفة وتمييز ٢٧ حرفا، ومقابلتها مع الكلمات السامية (والأصح العربية القديمة)، ولم يبق إلا حرف واحد. وبذلك تمكن العلماء من معرفة لغة كاملة لها قواميس واضحة وكافية، وهي تعود إلى ألفين قبل الميلاد، وامتدت حتى القرن الثامن قبل الميلاد، عندما خلفتها الحضارة الفنيقية أو الكنعانية الحديثة. وفي الحقيقة أنها الوارثة لحضـارة ايبـلا في كلماتهـا وخطوطها وأسمائها وعاداتها ومعبوداتها. واتضح أن الكثير مما كان يظن أنه أول ما ورد في التوراة أصبح الآن معروفا قبل ذلك بعدة قرون.

الخليل إبراهيم :

حوالي سنة ١٩٥٠ ق. م عبر إبراهيم أو ارتحل ما بين النهرين إلى بادية الشام ـ إلى حاران ثم غرب نحو أرض كنعان، وضرب خيامه في مدينة شكيم (نابلس القديمة). وتقول التوراة إنه أقام فيها مذبحا. ولقد اكتشفت بعثة أميركية صفحة من الصخر بحجم الناقة، ونصبتها أمام الزوار مشيرة إلى أنه مذبح إبراهيم. ثم والى إبراهيم العبراني أو البدوي تنقلاته جنوبا مع مواشيه ورعاته واتباعه إلى أن ضرب خيامه في بيت إيل (إله الكنعانيين). ثم والى ترحاله إلى أن ضرب خيامه في مشارف مدينة (أورشاليم) عاصمة اليبوسيين (الكنعانيين). وبناء على رغبته رحب به كاهن المدينة واسمه (ملكي صادق)، واستضافه في مخدعه بالغار الذي بنيت عليه قبة الصخرة. ولدى البحث بين الضيوف والمضيف قدم إبراهيم عشر غنائم الحرب التي كان قد غنمها ـ قدمها لملكي صادق قائلا: إنه كوهين «إيليوم عليوم»، أي كاهن الله العلي، وكاهن تعني اليوم كلمة نبي التي لم يعرفها العبرانيون حتى تعلمها موسى من شعيب نبي مدين العربي. ولقد اعترف إبراهيم بقدسية مذبح ملكي صادق، وشرع يضحي عليه ابنه حسب رواية التوراة. ومعنى هذا أن صخرة أورشليم أو بيت المقدس كانت مقدسه قبل إبراهيم.

قرية أربـع :

والى إبراهيم ترحاله كعادته حتى وصل إلى الرامة قبل وصوله إلى قرية أربع (الخليل القديمة). وتقول مصادر التاريخ: إنها كانت بلدة أربع بن عناق، فهي مدينة العناقيين الذين سماهم العبرانيون باسم الجبابرة لشدتهم في الحروب. وكانت القرية تتكون من أربعة أحياء كل حي منها مخصص لواحد من أبناء عناق الكنعاني، أي العربي القديم. ومن أسمائها التي كانت معروفة قبل وصول إبراهيم إليها «حبرون» أو «حبرى»، (أي الصاحب أو الخليل)، وبقيت معروفة بهذا الاسم إلى ظهور الدعوة الإسلامية عندما أقطعها النبي صلى الله عليه وسلم لتميم الداري، وسمى أسماءها الأربعة ـ حبرى والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم.

ولما ماتت زوجته سارة سمح له عفرون الحثي بأن يكفلها (يدفنها) في مغارته. واستمر في ترحاله ما بين حبرون وبير السبع حتى أدى به التطواف إلى مصر، ولكنه أخرج منها، وعاد

ليمضي بقية حياته فيها، ودفن بجانب زوجته في (مكفيلة) الحثي. ولما مات إسحق بن سارة دفن هو وامرأته بقرب أمه وأبيه.

ولما كان يعقوب راجعا من مراعي بلاد حران مر بمدينة شكيم فحسدها على نجاحها، ودبر أبناؤه مكيدة لتخريبها ونهبها وذبح رجالها، وبعد فعلة بني إسرائيل هذه استمروا في سيرهم نحو الجنوب حتى مروا من بيت إيل (بيتين)، حيث ناجى يعقوب ربه، ووالى رحيله إلى الجنوب حتى وصل إلى أورشاليم. وفي منامه رأى (إيل) إله الكنعانيين يخاطبه باسمه الجديد «إسرائيل».

هجرة بني إسرائيل إلى مصر:

عاش إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب في أرض كنعان معيشة الترحال أو البداوة، وعندما أجدبت هذه البلاد هاجر (يعقوب) وأبناؤه إلى مصر، حيث عاشوا في كنف ابنهم (يوسف) الذي تبوأ مركز مرموقا في حكومة ملوكها الغرباء (الهكسوس)، إلى أن ثارت مصر على حكامها الغرباء، وصبت نقمتها على بني إسرائيل عملاء الهكسوس واضطهدوهم، لذلك أخذوا يفرون من هذه الحياة التي أصبحت لا تطاق، تدفقوا على البادية السورية مخربين مدمرين، ولدينا وثائق تسجل هذه الفترة وهي المعروفة باسم «رسائل تل العمارنة» التي يتضح منها أن تحوتمس الثالث أول فرعون مصري كون إمبراطورية، وذلك بافتتاحه بلاد فلسطين وفينيقيا وسورية، وأضافها إلى المملكة المصرية. ولقد وضع تقليدا اتبعه من أتى بعده من الفراعنة، خلاصته إبقاء حكام البلاد المفتوحة فيها على شرط أن يرسلوا له أبناءهم وبناتهم ليتربوا في قصر فرعون، وينشأوا على حبه وطاعته والاعتراف بفضله، وفي وجودهم لديه أحسن ضمان لولاء أبنائهم. أما الشرط الثاني فهو أن يرسلوا له الجزية مما تنتجه بلادهم من الحبوب والزيوت والذبائح والخشب والطيوب والخمور والجواري والعبيد.

واستمرت الإمبراطورية المصرية ناجحة في إدارة مستعمراتها في غرب آسيا حتى قام فرعون بالإصلاح الديني، وذلك بتغير المعبود من آمون إلى آتون. وهنا ثار عليه كهنة معابد آمون وتغصوا عليه حياته. وانصرف لإخضاعهم عن الاهتمام بشؤون المستعمرات في غربي آسيا، واغتنم الفرصة بعض أصحاب الطموح، فقاموا بمضايقة حكامه في فلسطين، وضيقوا عليه، وأخذ هؤلاء الحكام يرسلون إلى فرعون رسائل يطلبون فيها إرسال جنوده للدفاع عن

بلاده وقطع دابر الفساد، ولكن الفرعون كان مشغولا بالثورة الداخلية، ولذا فإنه لم يستطع الاستغناء عن أي عدد من الجنود. وكان يقول: نحتفظ بهذه الرسائل حتى تتحسن الأحوال. وأخذت هذه الرسائل تتجمع في ملحق بمكتبه في بلدة (تل العمارنة) على بعد (١٨٠) ميلا للجنوب من القاهرة. وكانت الرسائل مكتوبة بلغات كثيرة أهمها اللغة البابلية وبالخط المسماري. وبقيت هذه الرسائل مدفونة تحت الأنقاض حتى وجدت إحداها فلاحة من قرية تل العمارنة، بينما كانت تجمع روث الحيوان لتتخذ منه وقودا. ولما وصلت هذه الآجرة أو اللوحة إلى علماء الآثار، وقرأوا ما كتب عليها ١٨٧٧م أخذوا يشجعون القرويين على إحضار ما يمكنهم إحضاره منها بأسعار مغرية. وبهذه الطريقة جمعوا نحوا من ثلاثمائة لوح، بعضها بيضوي الشكل، وبعضها مستطيل بقياس ٢٠ × ٦٠ سم.

عرفنا منها رسالة بعث بها حاكم القدس واسمه (عبدي حبيه)، أي العبد الحبيب، جاء في رسالته: «إن العابيرو يستولون على مدن الملك، ولم يبق لمولاي حكام هنا... كلهم هلكوا».

وهنالك رسالة من حاكم عكو (عكا) يقول فيها: «لقد زحف علينا الحثيون من الشمال جاؤوا من آسيا الصغرى، والعبيرى (يمكن العربان) قدموا من بلاد الجزيرة العربية. أنجدنا أيها الفرعون وإلا هلكنا».

وفي مدن مجدو وتعنك جنوبي حيفا قام الكنعانيون بالثورة على حكم مصر للتخلص منه والاستقلال في بلادهم وجاء في رسالة أمير مجدو: «إلى استار واسور من أمان أثير الذي حفظ حياتك إلى اليوم، أرسل قواتك مع مركباتهم، وابعث حصانك وجزيتك وهداياك وكل الأسرى الذين تحت أمرك ابعثهم إلى مجدو». هذه الرسالة وجدها المنقبون في خرائب تعنك، وهي رسالة من ضابط في مجدو والي المدينة.

ووجدت بين خرائب لاخيش (خان الدوير بين الخليل وغزة) رسالة كتبها واليها بالبابلية، قال فيها: «إذا لم ترسل جيش مصر بالعجل تضطر المدينة للتسليم للغزاة».

كانت أورشليم (القدس القديمة) إحدى المدن الأخيرة التي قاومت الغزاة مدة إلى أن تغلبوا عليها، فكتب الضابط الوطني المسمى (عبدي حبية) قال: خربت مدنهم، بلادهم ماتت جوعا، هم يعيشون كمعزى الجبل. وبلغ سوء الحال لدرجة أن قوافل الملك تحت أسوار المدينة،

ثم خرب الثوار أريحا وبيت مرسيم، ونهبوا الهيكل المصري في لاخيش، ودمروا الحصن المصري في غزة.

وفي رسالة أخرى من عبدي حبيبه إلى الفرعون أخناتون قال فيها:
«... حتى لا تضيع جميع أراضي جلالتك التي ثارت عليّ، أما إقليم شيوى الواصل إلى جنتي كرمل فقد شق عصا الطاعة علي، وكذلك فعل أمراؤه. لقد كانت سفن جبيل المساعد القوي في بسط سلطتك على بلاد ما بين النهرين... أما الآن فقد احتل العابيري بلاد فرعون، ولم يبق لسيدي وال مطيع، إذ عصاه الكل ليحرص الملك على قطائعه من بلاده وليرسل المدد، لأنه إذا لم يصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات الفرعون سدى وأنا وإخوتى كي نموت مع سيدنا الملك.

وفي رسالة أخرى طلب من عيدي حبيبه أمير القدس إحدى وعشرين فتاة من أبكار بلاده يمتع بهن ردخه في قصره الفرعوني.

الخـــروج :

أوعز موسى إلى قومه بني إسرائيل بالخروج من مصر على دفعات صغيرة، تتألف كل دفعة من ٥ ـ ٧ أشخاص.

وفي خلال ثلاث سنين تكامل عددهم في «كفار عصيون» في مكان العقبة الحالية، حيث عاشوا نحوا من اثنى عشر عاما. وكان كلما طلب منهم الاستعداد للتوجه إلى أرض كنعان التي ادعوا بأن الله وعدهم بها كان الذعر يملأ قلوبهم ـ وهم جيل الذل والعبودية ـ ولما يئس من هذا الجيل توجه بهم إلى أرض مدين، بلد شعيب النبي العربي، الذي كان موسى قد تزوج اثنتين من بناته، وهناك عاشوا في حماية شعب مدين خمسا وعشرين سنة، مات في خلالها الجيل السابق، ونشأ جيل بادية وحرب، ولكنهم كانوا قد فقدوا كل ما كان الآباء يعلمون من علم مصر وحضارتها، وحتى إنهم انقطعوا عن مزاولة عبادتهم الخاصة بهم.

من بلاد الكنعانيين :

ولما اقترب موسى من أرض كنعان أرسل رجلا من كل سبط من أسباط إسرائيل الاثنى عشر، يتجسسون أخبار البلاد التي هم متوجهون إليها، ولما عادوا قالوا له: إنها تفيض لبنا وعسلا، لكن فيها جبابرة لا قبل لهم بهم.

قال لهم : «انظروا إلى الأرض ما هي، والشعب الساكن فيها أقوي أم ضعيف، قليل أم كثير، وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم رديئه، وما هي المدن التي هو ساكن فيها أمخيات أم حصون، وكيف هي الأرض أسمينة أم هزيلة، أفيها شجر أم لا، وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض».

«فصعدوا وتجسسوا الأرض من برية صين إلى رحوب، وصعدوا الى الجنوب وأتـوا إلى حبر ون، وكان هناك بنو عناق... وأتوا إلى وادي إشكوال، وقطعوا من هناك زرجونة بعنقود واحد من العنب، وحملوه بالدقرانة بين اثنين مع شيء من الرمان، ثم رجعوا من تجسس الأرض بعد أربعين يوما»(١).

وكان جوابهم لقائدهم ونبيهم موسى: «ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها، وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا، وهذا ثمرها، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتز، والمدن حصينة عظيمة جدا، وليس لنا طاقة على حربهم».

إلا أن اثنين من رجال البعثة يشوع وكالب قالا: بل في طاقتنا حربهم. فرفعت كل جماعة صوتها وصرخت، وبكى الشعب تلك الليلة، وتذمر على موسى وعلى هارون جميع بنـي إسرائيل، وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف، تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة، أليس خير لنا أن نرجع إلى مصر؟ فقال بعضهم لبعض: نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر.

كانت برية بير السبع أو النقب أول ما يجب أن يعبره بنو إسرائيل، لكن سكانه منعوهم من دخول بلادهم، فاضطروا إلى السير شرقا مجتازين وادي عربة، إلى بلاد آدم لكن الآدوميين رفضوا أيضا أن يسمحوا لهم باجتياز بلادهم، مما أجبرهم على مواصلة السير شرقا وراء الجبال إلى تخوم البادية مما وراء نهر الموجب إلى ما يقارب موقع العقبة، ثم اتجهوا شمالا حتى دخلوا

وادي اليتم (وادي الإثم) الذي لاقوا في اجتيازه الأهوال، ولم يتنفسوا الصعداء إلا بعد أن وصلوا إلى أرض الحسمي إلى الشرق من موقع مدينة معان الحالية مبتعدين عن الوديان العميقة، حتى اصطدموا بالمؤابيين، ولما فرغوا منهم جابهوا مقاومة حسبون بقيادة ملكها سحون، واستمروا في زحفهم حتى حاربوا العمونيين في ربتهم (عمان الحديثة). وفي الجنوب الغربي وعلى ربى الجبال المطلة على الغورمات موسى وتولى القيادة يشوع.

أول مظاهر الاغتصاب :

هنا تلا عليهم يشوع ما جاء في سفر التثنية، وهي توراة موسى على لسان إلهم الخاص المسمى يهوه، فقال: «مدن عظيمة حسنة لم تبنوها، وبيوت مملوءة بكل خير لم تملأوها، وصهاريج محفورة أيضا لم تحفروها، وكروم وزيتون لم تغرسوها... أنا الرب إلهك يدخلك أرضا صالحة ذات أنهار وعيون تتفجر في غررها ونجدها، أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان، أرض زيت وعسل، أرض لا تأكل خبزك بتقتير ولا يعوزك فيها شيء، أرض حجارتها الحديد ومن جبالها تقطع النحاس. إنك جائز إلى الأردن لتدخل وتملك أمما أعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة للسماء. إذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت سائر إليها لترثها، أنسل واستأصل أمما كثيرة من أمام وجهك الحثيين والجرجاشيين والآموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليابوسيين، سبع أمم أعظم وأكثر منك، وأسلمهم الرب إلهك، وضربتهم فأبسلهم إبسالا (أهلكهم)، لا تقطع معهم عهدا، ولا تأخذك بهم رأفة، ولا تصاهرهم ابنتك، لا تعطيها لابنه وابنته لا تأخذها لابنك، لأنها تغوي ابنك عن اتباعي، فيعبد آلهه أخرى، فيشتد غضب الرب عليكم ويبيدكم سريعا، بل تقضون مذابحهم، وتكسرون أصنامهم، وتقطعون غاباتهم، وتحرقون تماثيلهم بالنار، لأنك شعب مقدس للرب إلهك، واختارك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على وجه الأرض».

لقد كان في هذا الكلام دافع كبير لبني إسرائيل لاستعمال أقسى الطرق وأعظم أنواع الشدة في تقتيل أهل المدن والقرى التي كانت تتهاوى أمامهم بسبب تفرقها وتشتيت قواها، هذا وما سجلته توراتهم عن فظائع الفتح ليجد فيه اليهود في الوقت الحاضر أوضح هداية لما يجب أن يعملوه مع أحفاد بني كنعان.

عواصم اليهود :

استغل يشوع الميل المتأصل في شعبه - بني إسرائيل - من حيث اغتصاب ملك الغير، فقسم عليهم أرض كنعان (فلسطين) من جبل الشيخ شمالا إلى بئر السبع جنوبا، وأصبح لكل سبط منطقة خاصة به، يحارب من أجل اغتصابها.

عاشت الأسباط معيشة البداوة حتى استطاع داود أن يغتصب الملك من أبناء سلفه شاول، واتخذ مدينة حبرون (الخليل) عاصمة له مدة سبع سنين ونصف السنة، ثم جند كل قواه حتى اغتصب مدينة أورشليم اليبوسية وانتقل إليها.

طلب داود من الفنيقيين أن يبنوا له قصرا على جبل صهيون، للغرب من أورشليم، كما طلب ابنه سليمان أن يبنوا له هيكلا لعبادة إله إسرائيل، ولقد هدمت مدينة داود، كما هدم هيكل سليمان، ولم يبق منها باق على سطح الأرض.

لقد انقسم الإسرائيليون فيما بينهم بعد سليمان، وأصبحت أورشليم عاصمة لدولة يهوذا الضعيفة في الجنوب، أما الدولة الثانية التي بقيت تسمى إسرائيل فقد جعلت عاصمتها مدينة شكيم (نابلس القديمة)، ثم انتقلت منها مسافة ١١ كم للشمال الشرقي، واتخذت بلدة (ترصة) على رأس نبع الفارعة عاصمة لها. ولما أراد عمري ملك إسرائيل توجيه شعبه إلى جهة الغرب بنى على تل الشومر الواقع على ١١ كم للشمال الغربي من شكيم مدينة سماها «السامرة»، وهي المدينة الوحيدة التي بناها الإسرائيليون في طول فلسطين وعرضها. ولما خربت السامرة أعاد بناءها الملك هرودس، وسماها «سبسطية»، على اسم أوغسطس سبسطوس قيصر الرومان، كما بنى هرودس مدينة في الشمال سماها طبرية، على اسم طباريوس قيصر الرومان.

في وادي قدرون للشرق من القدس وفي أسفل بلدة سلوان تظهر أبنية يظن البعض أنها يهودية، والحقيقة ليست كذلك، فإنها قد أقيمت على الطراز المصري واليوناني والروماني، مع أن السكان أعطوها أسماء مغلوطة، هي: طهطور فرعون، وهرم زكريا، ومقبرة يعقوب. وليس لليهود فيها أي أثر.

من هذه الدراسات الأثرية نرى أن جميع المواقع والأمكنة في فلسطين عربية قديمة، أضيف إليها بعض المدن في عصر اليونان والرومان فيما بعد، وأغلب المدن الكنعانية في فلسطين

تنسب إلى معبود خاص، فمثلا بيسان ـ بيت شاغان ـ وهي الحية معبود الكنعانيين، ومثلها بيت دجن نسبة إلى المعبود داجون الذي ظهرت رسومه كجسم سمكة ورأس إنسان، ومثلها شاليم نسبة إلى إله شاليم إله الكنعانيين، ثم أضيفت إليها كلمة «أور» بمعنى مدينة.

الاستيطان اليهودي في فلسطين :

اعتبر يهود شرقي أوروبا غرباء في دولها، وكانت كل دولة ترجع ما ينشأ فيها من مؤامرات واضطرابات إلى الأقلية اليهودية فيها، لذا أخذت تضطهدها وتحاول الخلاص منها.

وكان رد الفعل عند أغنياء اليهود في العالم العطف على هؤلاء المستضعفين من أبناء ملتهم، مما حملهم على التفكير بإيجاد وطن يجدون فيه الأمن والاطمئنان، واتجهت أنظار زعمائهم إلى فلسطين نظرا لما تدعيه اليهودية من صلتها الروحية بفلسطين. وأصبحت الإعانات تدفع لكل من يهاجر إليها ويعيش فيها.

ورأت الزعامة اليهودية أن توجد حيا مستقلا باليهود بجانب كل مدينة عربية كبيرة، فكان حي (مونتيفوري) وحي (ميوشيرم) في القدس، وحي تل أبيب في يافا، وحي هدار الكرمل في حيفا. وكانت أول مستعمرة يهودية مستقلة قد أقيمت سنة **١٨٦٨**م في أراضي ملبس العربية، وسموها «بتاح تكفا».

في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بال بسويسرة سنة **١٨٩٧**م اقترح بروفسور شابيرو تأسيس صندوق مالي لامتلاك الأراضي في فلسطين، وبعد سبع سنين (١٩٠٤م) صرح المفكر الصهيوني «أوسيشكين» بقوله: «حتى نتمكن من إيجاد طائفة يهودية مستقلة، ثم دولة يهودية على أرض إسرائيل، من الضروري أن تكون كل أرض إسرائيل أو معظمها ملكا لليهود، وبدون حق ملكية الأرض لن تكون لإسرائيل دولة ولو كثر سكانها».

واقترح امتلاك الأرض من طرق :

١ ـ شراء الأرض بالاختيار من أصحابها .

٢ ـ مصادرة السلطات الأرض اللازمة للكيان اليهودي .

٣ ـ امتلاك الأرض بالحرب .

مع مجيء الحكومة الإسرائيلية الجديدة برئاسة مناحيم بيغن زعيم كتلة ليكود المعروف عنه تطرفه الواضح إزاء التمسك بالأراضي العربية، تدخل سياسة الاستيطان مرحلة جديدة، تتسم بالتوسع من حيث العدد والمساحة والسرعة في الإنجاز.

فمناحيم بيغن يؤمن ـ ١٩٧٧/٥/١٩م ـ بأن المناطق العربية المحتلة جزء من أرض إسرائيل، ويدعو إلى الاستيطان فيها،وأن الاستيلاء على الضفة الغربية في نظره لا يعتبر ضما أو مصادرة، لأن الإنسان لا يضم ما يخصه، وهو لا يعتبر الضفة الغربية مناطق محتلة، وإنما مناطق محررة.

ويبرز بيغن نظرته هذه في تصريح له بتاريخ ١٩٧٧/٦/٢٠م بأن للشعب اليهودي حقا تاريخيا ثابتا في أرض إسرائيل، والتي تضم في رأيه الضفة الغربية، ويدعو إلى إقامة مستوطنات جديدة فيا أسماه بأرض الوطن. وهذه النظرة التي عبر عنها مناحيم بيغن تستند على بروتوكولات حكماء صهيون التي تنص في أحد بنودها على ما يلي: «يجب في السياسة أن نعلم كيف نصادر الأملاك بدون أي تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من القوة والسيطرة».

أقامت إسرائيل منذ عام ١٩٦٧م وحتى يومنا هذا ثلاثة خطوط استيطانية في منطقة الضفة الغربية وغور الأردن.

الخط الأول : في الأغوار بمحاذاة الحدود الشرقية، أي نهر الأردن والبحر الميت والهدف من هذا الخط إيجاد مستوطنات مدنية تساند المستوطنات والمواقع العسكرية الممتدة على تلك الجبهة.

الخط الثاني : يقع على السفوح الشرقية لجبال نابلس .

الخط الثالث : يقع على حدود الضفة الغربية مع إسرائيل، ويقوم بفصل القرى العربية في شمال الضفة عن القرى العربية في منطقة المثلث، وقد أقيمت في الأغوار حتى عام ١٩٧٦م (١٥) مستوطنة زراعية متصلة بشبكة من الطرق التي تمت إقامتها بهدف ربط هذه المستوطنات.

وثيقة يسرائيل كينغ :

اعتبرت هذه الوثيقة، التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى واضعها يسرائيل كينغ ـ حاكم

لواء الشمال في وزارة الداخلية الإسرائيلية ـ ونشرتها صحيفة عال همشمار بتاريخ ١٩٧٦/٩/٧م، من أخطر الوثائق ضمن المخططات الإسرائيلية لتهويد الأراضي العربية أو الاستيلاء عليها بالاستيطان، وتهدف الوثيقة أو المشروع إلى تشتيت الأقلية العربية وتهجيرها في منطقة الجليل، حيث تعيش أكثرية العرب في إسرائيل، ودمج الباقين في المجتمع اليهودي.

ويقترح كينغ في مشروعه لمواجهة هذه النسبة المطردة من العرب توسيع الاستيطان اليهودي في المناطق التي تبرز فيها الكثافة السكانية العربية، ويزيد فيها عدد السكان العرب على عدد السكان اليهود بدرجة تفوق الحد المقبول، ويقترح كذلك تخفيض عدد السكان في التجمعات السكانية العربية القائمة، وتعميق الاستيطان اليهودي.

مخطط غوش إيمونيم الاستيطاني :

تقوم جماعة غوش إيمونيم بتنفيذ مخططات استيطانية في مختلف أنحاء الضفة الغربية، وتركز نشاطها بصورة خاصة في منطقة نابلس. وقد عملت هذه الجماعة على دعم حكومة بيغن، لأنها تعرف بأن بيغن يدعمها ويؤيدها في الاستيطان بشمال الضفة الغربية وفي منطقة القدس.

وقد قامت حركة إيمونيم فورفوز كتلة ليكود في الانتخابات الأخيرة بعقد اجتماع دعت إليه أعضاءها الفعالين من جميع أنحاء إسرائيل، واتخذت عدة قرارات، من بينها: توسيع الزخم الاستيطاني في المناطق العربية، وحث الشبان اليهود في الولايات المتحدة على الهجرة إلى إسرائيل والاستيطان فيها.

المستوطنات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة :

قامت إسرائيل ضمن إجراءاتها في الأراضي العربية في الفترة بين عام ١٩٦٧، وحتى تشرين ثاني ١٩٧٦م بإنشاء ٣١ مستوطنة في الضفة الغربية، بالإضافة إلى إنشاء ١١ حيا يحيط بمدينة القدس. أما في الهضبة السورية فقد أقامت ٢٩ مستوطنة، وفي قطاع غزة وشمال سيناء ١٩ مستوطنة، منها ١٤ في غزة، و ٥ شمال سيناء.

استلاب أراضي قريتي إقرت وكفر برعم

كانتا أول قريتين تم استلاب أراضيهما عنوة واقتدارا إثر قيام الدولة في إسرائيل، ومع ذلك لم يضعف طول الزمن ولا الأمر الواقع إحساسهما بضرورة النضال من أجل حقوقهما.

وعلى الرغم من كل أساليب القهر التي لابست حكاية القريتين منذ البداية، فلقد ظل السكان صامدين لأكثر من (٣٠) عاما يصرون على حقوقهم، ويناضلون من أجلها مستخدمين كافة الوسائل.

وأخيرا نجحت القريتان في أن تكسب هذا النضال معناه العميق، عندما تظاهر سكان القريتين بين أطلالها المهدمة، ووقع الاشتباك بينهم وبين قوات الأمن الإسرائيلي. الذي أسفر عن إصابة (٨) إسرائيليين، ثم اعتصموا داخل الكنيسة الموجودة في كفر برعم ـ إصرارا على حقوقهم ـ على الرغم من اعتقال أربعة عشر شخصا يمثلون قيادات القريتين.

ماذا تحقق لهما ؟

لقد أثمر أيضا نضال القريتين الذي لم تنقطع أنفاسه خلال (٣٠) عاما في تأكيد حقيقة هامة، وهي أن الحق العربي لن يموت لا بالزمن ولا بالأمر الواقع إذا ما اتصل الجهد من أجل استرداده.

بل الأكثر من هذا النضال الأعزل والمتوحد للقريتين قد استطاع أن يضع السلطات الإسرائيلية الآن على الرغم من كل أدوات قهرها، بين اختيارين:

١ ـ إما أن ترضخ لمطالبها في العودة، فتعطي بذلك الأمل لقرى عربية كثيرة حدث لها نفس الذي حدث للقريتين .

٢ ـ أو أن تكشف أكثر فأكثر عن قبح الوجه الإسرائيلي إزاء الأقلية العربية، وتنهار بذلك خطط الإسرائيليين.

كانتا أول القرى :

كما كانت القريتان أول القرى التي جرى استلاب أرضها في أعقاب حرب ١٩٤٨م

عندما غيرت إسرائيل الدولة من طلاق امتلاكها للأرض العربية تغييرا جذريا.

ذلك أن قيام الدولة قد أعطى الإسرائيليين فرص الاستخدام الكامل لوسائل إرهاب العرب وإكراههم على ترك القرى والأراضي، وأوكلت المهمة إلى الجيش الإسرائيلي الذي ركز جهوده في البداية على قرى الجليل الذي يضم أكثرية عربية.

وكانت قرية إقرت في الجليل الغربي أول القرى التي نفذت فيها هذه السياسة الجديدة.

في نوفمبر عام ١٩٤٨م وعلى وجه التحديد في الخامس من هذا الشهر تسلم سكان القرية أمرا من الحاكم العسكري للمنطقة بأن يغادروا القرية لمدة أسبوعين، ريثما يتم الانتهاء من بعض الأعمال العسكرية في المنطقة. ولقد قيل للسكان يومها أن يأخذوا من حاجياتهم فقط ما يكفيهم هذه المدة القصيرة، لأنهم عائدون. وترك السكان القرية إلى قرية الرامة قرب عكا.

وبعدها بعشرة أيام فقط أخليت بنفس الحجج القرية الثانية كفر برعم من سكانها الذين أبعدوا إلى بيوت اللاجئين في قرية الجش العربية التي تبعد (٣) كيلو مترات من أراضي قريتهم.

واكتشف الأهلون في القريتين الخديعة، وطفقوا يبحثون عن حقوقهم في كل مكان: في مكتب الحاكم العسكري للمنطقة، وفي مكتب وزير الدفاع، ولدى الأحزاب، دون جدوى. وتجرأ سكان قرية إقرت، فقدموا طلبا إلى محكمة العدل العليا في إسرائيل، يختصمون وزير الدفاع، ويطلبون إعادتهم إلى القرية. وردا على الدعوى المقامة نسف الجيش بيوت القرية المهجورة.

وفي عام ١٩٥٣م حدث نفس الشيء. قدم سكان القرية الثانية كفر برعم طلبا ثانيا إلى محكمة العدل العليا يطلبون العودة إلى قريتهم، وكانوا يدركون بحكم التجربة السابقة ما الذي سوف يفعله الإسرائيليون، وكانت مظاهرة القوة هذه المرة أكثر ضخامة، وتم استدعاء أهل القرية جميعا ليشهدوا الطائرات الإسرائيلية وهي تدك دورهم في القرية التي يملكونها منذ ٦٥٠ عاما.

بـن جوريـون يكذب :

وأعطيت أراضي القريتين للمستوطنات اليهودية الجديدة، وأقام حزب المابام على أراضي إقرت (٢٤ ألف دونم) عددا من الكيوبتزات أبرزها من الكيوبتزات أبرزها آلون وشموراه.

ووقف بن جوريون الذي كان وزيرا للدفاع يومها ليقول أمام الكنيسـت: «إن هدم القريتين لم يصدر بأوامر مني»، على الرغم من أن الجيش هو الذي قام بالمهمة.

في الجليل شملت نفس الظروف ١٢ قرية عربية، أكره سكانها على تركها عنوة واقتدارا. وامتدت هذه السياسة فشملت أكثر من ٢٥٠ قرية تقف الآن أطلالا مهدمـة، بعد أن أجبر سكانها على هجرها، وبعد أن استولت الكيوبتزات والمستوطنات الإسرائيلية على أراضيها (مليون دون).

قوانين مفضوحة :

بالطبع حاول الإسرائيليون أن يدعموا هذا العمل بمجموعة من القوانين المفضوحة:

١ ـ قانون الغائبين :

الذي ينص على أن كل صفقة جرت بصورة عفوية بين القيم على أملاك الغائبين ـ الذي هو الدولة ـ وبين أية مؤسسة أخرى ـ المستوطنات الجديدة ـ فيما يتعلق بملك ظنه القيم في ساعة إجراء الصفقة (ملك غائب) مثل هذه الصفقة لا تعتبر باطلة، وتبقى نافذة المفعول، حتى ولو ثبت بعد ذلك أن ذلك الملك لم يكن في تلك الساعة ملك (غائب).

٢ ـ قانون الدفاع :

الذي أعطى للحكام العسكريين في المناطق صلاحية الإعلان عن أية مناطق كمناطق أمن مغلقة، لا يسمح بدخولها أو الخروج منها إلا بتصريح من الحاكم العسكري.

٣ ـ قانون الأراضي غير المفلوحة :

الذي يعطي لوزير الزراعة حق الاستيلاء على أية أراض في حالة عدم اقتناع

الوزير بأن صاحب الأرض قد بدأ أو أنه على وشك أن يبدأ في فلاحة أرضه.

وكان يكفي أن يصدر الحاكم العسكري قرارا باعتبار منطقة ما منطقة أمن مغلقة حتى يمنع أصحابها من الدخول إليها. وبالطبع تكفي فترة زمنية صغيرة لتبور الأرض وتجدب، لأن أحدا لا يرعاها، ومن ثم يكون من حق وزير الزراعة طبقا لقانون الأرض المفلوحة نقل ملكيتها إلى المستوطنات الزراعية، لأن الوزير لم يقتنع بأن صاحب الأرض الممنوع عن أرضه قد بدأ أو أنه على وشك أن يبدأ في فلاحة أرضه.

معنى القضية ودلالتها :

وفي الحقيقة فإنه ليس هناك قرية عربية واحدة نجت من مصادرة أراضيها، وكانت المبررات تتغير في كل مرة، فقد صودرت منذ عام ١٩٤٨م مساحة ٤١٨ ألف دونم من الأراضي الزراعية حسب قانون أملاك الغائبين، و ٧٠ ألف دونم من أملاك الوقف الإسلامي، و ٢٠٥ آلاف دونم حسب قوانين المناطق المغلقة ومرور الزمن. وعلى كل هذه الأراضي أقيمت مستوطنات الإسرائيليين.

ومع كل هذا لم يتوقف عرب إسرائيل عن النضال من أجل أراضيهم، وكانت مصادرة الأرض تلقى دائما المعارضة العنيفة والمتصلة في بعض الأحيان. وفي ظل هذا المناخ نمت جماعة الأرض التي لم يكن صدفة أن اختارت هذا الاسم بهدف أساسي، هو تعزيز نضال عرب إسرائيل من أجل الحفاظ على أرضهم والثبات في مواقعهم.

هذه المطالبة المستمرة بإعادة الأرض، والتي لم يقتلها اليأس على الرغم من كل هذه السنوات، وعلى الرغم من العسف الإسرائيلي، تعكس حسا عميق الجذور في أواسط السكان العرب، حتى إن كل من يحاول الاستهانة بها أو يبدي استعدادا لقبول التعويضات عن أرضه يتعرض فورا لنوع من النبذ الاجتماعي، بل إنه يعتبر في أعين أصدقائه وجيرانه خائنا للمصلحة القومية.

إن القضية في جوهرها لا تخص إذن القريتين وحدهما، هذه القرى التي تضمها قائمة طويلة: الفابسية، وأم الفرج، وسعار، والدامون، والرويس، وصفوريا وغيرها. قرى تضم ٣٠

ألف نسمة أكرهوا على أن يتركوا أراضيهم وقراهم في الجليل حتى تقوم مكانها مستوطنات الإسرائيليين.

هل هو الخوف من أن تواجه إسرائيل في حالة السماح لهؤلاء القرويين بالعودة إلى قراهم مطالبة العرب الآخرين بحقهم في العودة.

ومثلما كتبت صحيفة عال همشمار على لسان إسرائيل هرتز أحد قادة المابام: «إن الغالبية العظمى من هؤلاء يطالبون بإعادتهم إلى قراهم، وهم يرفضون بيع حقوقهم في أراضيهم رغم ظروفهم المادية السيئة، وهم أيضا يرفضون الاندماج في القرى الجديدة، ويصرون على موقفهم. إن قضية الأراضي ليست مجرد قضية تعويضات، ولكنها تكتسب في نظرهم عمقا هو في النهاية تعبير قومي عن ارتباطهم بمشكلة فلسطين، وذلك ما يفسر رفضهم للتعويضات طوال هذه المدة الزمنية».

لقد كان استلاب أراضي القريتين خرقا للاعتبارات الأساسية للقانون بل إن القريتين يمسكان في أيديهما حكما من محكمة العدل العليا، ينص على أنه ليس هناك ما يحول دون عودتها إلى أراضيها، ومع ذلك فلقد ضرب بحكم القانون عرض الحائط. إن الإسرائيليين غير قادرين على التعايش السلمي، لأنه يناقض الفكرة الأساسية التي قامت من أجلها إسرائيل، لأنه ضد الطبيعة والكيان. إن معنى عودة سكان القريتين إلى أرضهما هو أن ينهار الأساس الذي تقوم عليه فكرة الدولة ذاتها.

ثم هما في النهاية تكشفان لكل سكان المنطقة التي جرى احتلالها بعد عام ١٩٦٧م جهد الإسرائيليين الذي يهدف إلى احتوائهم بنعومة الثعابين.

لكل هذه الاعتبارات علينا واجب المساندة لسكان القريتين اللتين لم تنقطع أنفاسهما في النضال طوال (٣٠) عاما.

مصادرة أراضي بدو السبع :

بعد احتلال جنوب فلسطين مباشرة أجرت إسرائيل تحقيقا في أراضي النقب التي تسكنها قبائل بير السبع في عشرين عشيرة، بلغ عدد سكانها سنة ١٩٤٥م نحوا من عشرين ألف

نسمة، وبناء على تلك الدراسة بدأت سلطات الاغتصاب بعمليات إجلاء البدو عن أراضيهم. بدأت العملية الأولى بالطلب من إحدى العشائر أن تغادر مضاربها لمدة أسبوعين،ريثما تتم عملية المناورات العسكرية. وبعد مضي الأسبوعين تبين أن الأرض طوقت بالأسلاك الشائكة، وأعلنت منطقة عسكرية مغلقة، لا يجوز دخول المدنيين إليها. ولكن الأمر لم يطل كثيرا حتى أقيمت عليها عدة مستوطنات وقرى يهودية، مثال ذلك مستعمرة (عرَض) التي ضم إليها ٤٥ ألف دونم، ونمت حتى أصبحت مدينة صناعية. ومثلها مستعمرة (ديمونا) التي أنشئ فيها مفاعل ذري. وتعددت عملية الخداع هذه حتى سلبت معظم الأراضي من أصحابها العرب، وقدرت لها تعويضات رمزية. وفي ٢٩ حزيران سنة ١٩٦٦م قام أكثر من أربعين شيخا من شيوخ عربان النقب بعقد اجتماع طالبوا الحكومة أن تؤجل تنفيذ مشروع بناء ٣٠٠ وحدة سكن حتى يتم التعويض على أصحاب الأرض التي صادرتها السلطات، بحجة تنظيم إسكان البدو. وتكلم مع الشيخ موسى العطاونة قائلا: إنه لا يعارض في تنظيم إسكان البدو، لكن قضية الأرض هي قضية البدو جميعا، ورغم أن البدوى خلق صابرا ومعتادا على الظروف الصعبة إلا أن قضية الأراضي هي قضية حياة أو موت لنا ولأجيالنا القادمة. ونحن نريد أن نلفت نظر العالم إلى أننا بموجب المعاهدة المعقودة بين الهاجناة والعرب في أثناء حرب سنة ١٩٤٨م اتفق على أن يبقى العرب في أملاكهم. وبعد توقيع الاتفاقية هذه بأسبوعين طلب إلى بعض العرب بأن يرحلوا عن أراضيهم بعض الوقت لكنهم لم يعادوا إلى أراضيهم حتى يومنا هذا رغم الوعود المعطاة لهم، وأقيمت على تلك الأراضي مدن، أشهرها ديمونا وعرض، بالإضافة إلى مستعمرات أخرى. والآن تتردد نغمة توسيع هذه المستعمرات اليهودية على حساب الأراضي العربية، دون أن يؤخذ رأي أصحاب الأراضي أو الاعتراف بحقوقهم فيها.

في بداية عام ١٩٧٦م سمح للبدو الذين ثبت ملكيتهم بطريقة الحيازة أن يحفظوا لأنفسهم ٢٠٪ من الأراضي، وأن يتقاضوا تعويضا عن ٣٠٪، وتصادر الحكومة الخمسين في المئة المتبقية. وقد رفض البدو هذا العرض.

ثم قدمت عدة اقتراحات لجميع البدو في مراكز معينة على هيئة مستوطنات مدنية في مختلف أنحاء النقب. وقد أقيمت مستوطنتان: واحدة منها أسمتها (تل شيفا) قرب بير السبع وقد ماتت في مهدها، وأما الأخرى (كفار شوفال) كانت أحسن حظا من سابقتها.

ثم وقع وزير المالية «سمحا إيرلخ» أمرا يقضي بعزم الحكومة على مصادرة ما مجموعه ٢٦٦٠٠ دونم من الأراضي القريبة من مستعمرة (ديمونا)، بقصد إقامة صناعات حربية عليها. وفي الخامس من كانون الأول سنة ١٩٧٧م نشر القانون الذي أعطى مهلة شهرين لتقديم الاعتراضات من قبل الأشخاص الذين يدعون بملكية الأراضي المصادرة. وظهر مؤخرا أن الإنذارات لم ترسل إلى أصحابها إلا بعد فوات الوقت لتقديم الاعتراضات. وبناء على مرور الوقت المعين أصدرت السلطات أمرا قضائيا بإزالة عدد من بيوت البدو المقامة على تلك الأراضي. وفي الأسبوع الأول من أيام عام ١٩٧٨م قامت الجرافات بتنفيذ تلك الأوامر بالقوة، فأزالت ما مجموعه ٤٥ بيتا وكوخا وخيمة قبل أن يسمح لسكانها بحمل أمتعتهم منها، بل جمعوا في جهة معينة تحت حراسة الجنود المسلحين. وحينما أنهي كل شيء قيل لهم: إن ركام بيوتهم ألقي في مقبرتهم.

كتب البروفسور إسحاق بيلي الأستاذ بجامعة تل أبيب في جريدة الجروساليم بوست، التي تصدر في القدس المحتلة تفاصيل المأساة المحزنة التي يعيشها بدو النقب في ظل الحكم الإسرائيلي. ومما ذكره:

«إن بدو النقب البالغ عددهم خمسة وثلاثين ألفاً يعيشون في رعب دائم من رجال الحرس «الأخضر»، وهم مجموعة من عصابات أنشأها «إيلي شارون» وزير الزراعة لمطاردة البدو في كل مكان، فهم ينسفون بيوتهم دون أن يسمح لهم بإخلائها، ويضربون النساء والأطفال دون شفقة، ويقطعون عنهم مياه الشرب. وإذا اعتدى جمل بطريق الخطأ على مزرعة يهودي فإن رجال الحرس الأخضر يذبحونه على الفور، وإذا اعتدى قطيع من الماشية على حقل أطلقوا على القطيع النيران من الرشاشات»(٤).

ويروى الكاتب قصصا عن الفظائع التي يرتكبها الحرس تذكرنا بفظائع النازيين، فهو يروي مثلا قصة شيخ بدوي عمره ثمانون عاما، أخذه رجال الحرس من مضرب قبيلته في سيارة، ثم تركوه في الصحراء تحت الشمس المحرقة على بعد عشرين كيلو مترا دون ماء أو طعام ليعود إلى بيته ماشيا. ويروى كيف أحرقوا كتبا لطالب مدرسة بعد أن ضربوا الأم، وأزالوا البيت، وعبثوا بالمتاع.

هذا بالإضافة إلى مصادرة أراضي البدو، وإتلاف محاصيلهم على نطاق واسع، وتهجيرهم

من مواطن سكناهم إلى مواقع محددة في الشمال يمنع عليهم مغادرتها وإلا تعرضوا للقتل. هذا بالرغم من أن بدو النقب يعتبرون من رعايا إسرائيل.

قـرى اللطـرون :

مازال أهل قرى اللطرون (عمواس ويالو وبيت نوبا) يناضلون من أجل العودة إلى أراضيهم التي استولى عليها العدو بعد أن قام بهدم القرى وحراثتها لإخفاء معالم جريمته الرهيبة في أعقاب حرب حزيران. وقد بعث أهالي القرى الثلاث إلى سلطات العدو يؤكدون تمسكهم بحقهم في أرضهم، وفي الرجوع إلى قراهم، ورفضهم لأية حلول أخرى لمشكلتهم. وفيما يلي نص المذكرة التي قدموها للحاكم العسكري الإسرائيلي في الضفة الغربية المحتلة بهذا الشأن(٥):

«قبل سنتين داهمنا جيش الدفاع الإسرائيلي، وطردنا من بيوتنا، وبعد أكثر من أسبوعين هدم قرانا الثلاث: عمواس، ويالو، وبيت نوبا... طالبنا مرارا وتكرارا بإرجاعنا إلى أراضينا، ولكنهم لا يعيروننا آذانا صاغية.. عرضوا علينا بناء بيوت لسكننا ولكن بعيدا عن قرانـا فرفضنا. اليوم وبعد سنتين جاءوا لمساعدتنا يريدون تقديم بعض النقود لفتح دكاكين وتقديم بعض الماشية من بقر وغنم وسيارات وقائمة أخرى من المشاريع نختار منها ما نريد، وجميع هذه المساعدات تكون بعيدة عن أراضينا وقرانا، في حين أنهم يمنعوننا من زيارة أراضينا... ماذا يريدون؟ لماذا لا يغادرون أراضينا بعدما ارتكبوا أفظع جناية بهدم بيوتنا على كل ما نملك من متاع وأثاث؟ أعيدونا إلى قرانا وأرضنا فسنعيش في الخيام والكهوف حتى نعيد بناء ما هدمتم، لا نريد منكم أية مساعدة إلا إعادتنا إلى قرانا».

والمعروف أن العدو الإسرائيلي كان قد دمر بعض منازل قرية يالو بعد وقف إطلاق النار في ١١ حزيران، ثم عادوا وأتموا تدميرها كاملة في ١٨ حزيران، وكان عدد سكانها إذ ذاك يزيد على ألفين وخمس مئة شخص، ويبلغ عدد البيوت التي هدمت حوالي خمس مئة بيت.

وأما قرية بيت نوبا فقد جرى هدم كل بيوتها بعد الحرب مباشرة، وكان يسكنها حوالي ثلاثة آلاف وست مئة شخص، فقد هدمت بكاملها أيضا.

تهويـــد القـــدس :

تضع إسرائيل قضية تهويد القدس في المرتبة الأولى على سلم الأفضليات بالنسبة للاستيطان، فهي في صراع مع الزمن لأنها تعلم أن قضية عروبة القدس لا يمكن أن يتنازل عنها أي زعيم أو مواطن عربي في نطاق التسوية الشاملة، لذلك فهي تحاول خلق أكبر قدر ممكن من الأمر الواقع فيها. وقد أصدرت لذلك مجموعة من القوانين والأنظمة، من بينها قانون يقضي بزيادة نسبة السكان اليهود فيها، كما قامت ببناء أحياء سكنية تحيط بالقدس في جميع الجهات لربطها بقلب إسرائيل، وإغلاق المنافذ العربية بأحياء يهودية، ولإحكام هذا الربط قامت إسرائيل ببناء المستوطنات القريبة في الضفة الغربية، لتكون خط دفاع عن الأحياء السكنية اليهودية التي تحيط بالقدس، فمنطقة كفار عصيون هي خط دفـاع عن الأحياء السكنية المقامة جنوب القدس بالقرب من بيت لحم وبيت جالا والمنطقة السكنية في تل بيوت ومستوطنة هارجيلا بالقرب من بيت جالا والمساكن المزمع إقامتها على جبل الرأس.

وتعتبر منطقة الخان الأحمر (معلى أدوميم) على طريق القدس ـ أريحا خط دفـاع عن الأحياء السكنية المقامة شرق القدس إلى الشمال من جبل الطور والمساة (هارهتسـفيم) والتابعة للجامعة العبرية ومستشفى هداسا.

أما النبي يعقوب والنبي صمويل والمستوطنة المزمع إقامتها على أراضي قرية جبع العربية إلى الشمال الشرقي من القدس، فتعتبر خط دفاع عن المساكن المقامة في المنطقة الشمالية من القدس، على التلة الفرنسية ورامات إشكول. وتقوم إسرائيل الآن بالتخطيط لاستغلال ١١٠٠ دونم فر قرية عناتا لإقامة منطقة صناعية، تستوعب جميع المصانع المقامة في القدس بشطريها.

ضـــم القـــدس :

في ٢٧ حزيران سنة ١٩٦٧م أصدر الكنيست الإسرائيلي تشريعا يقضي بتوحيد القدس، وقد تألف هذا التشريع الواسع من ثلاثة قوانين:

١ ـ قانون يجيز للحكومة تطبيق القانون الإسرائيلي والإدارة الإسرائيلية على أية منطقة من فلسطين.

٢ ـ قانون ينص على الوصول إلى الأماكن المقدسة في مدينة القدس إلى المؤمنين من جميع الأديان، وفرض عقوبات يبلغ أقصاها الحبس مدة سبع سنوات لأي شخص يقوم بتدنيس أو مخالفة قوانين الأماكن المقدسة أو المس بالشعور الديني لأي شخص آخر.

٣ ـ قانون ينص على السماح للحكومة الإسرائيلية بتوسيع نطاق سلطة البلديات، دون التقيد بالإجراءات المطولة النافذة حاليا.

وبذلك أصبحت القدس تحت السيطرة الإسرائيلية، كما جعلت الليرة الإسرائيلية في هذا التاريخ العملة الرسمية الوحيدة في المدينة.

وجرى توسيع نطاق بلدية القدس ليشمل بالإضافة إلى قطاعي المدينة مطار قلندية في الشمال وقبر راشيل (رامات راحيل) في الجنوب والعيزرية في الشرق.

وفي ٩ حزيران قامت السلطات الإسرائيلية بإزالة جميع الحدود الفاصلة بين قسمي المدينة، وكذلك جميع نقاط الحدود الفاصلة بين شطري المدينة، وكذلك جميع نقاط الحدود العسكرية.

بادرت بإجراء تغييرات كثيرة في حائط المبكى، فألحقت أضرارا في الأماكن المقدسة والمباني التاريخية، أدت إلى تشريد عدد من السكان. وقد اتخذ العمل حول الحائط شكلين: الأول يرمي إلى تحويل المنطقة المحيطة بالحائط إلى مزار إسرائيلي، والثاني يرمي إلى اقتفاء أثر المعبد الثاني عن طريق البعثات الأثرية.

وفي ١١ حزيران سنة ١٩٦٧م قامت بتدمير المنطقة الواقعة أمام الحائط أو المبكى، أي الحي المغربي الإسلامي.

وفي ١ أيلول من تلك السنة فتح الإسرائيليون بوابة المغاربة في الطرف الجنوبي من الحائط، وهي ملك الوقف الإسلامي، كمدخل عمومي إلى الحرم الشريف، وتقرر عدم دفع رسوم الدخول، وكان الوقف يفرض رسم دخول لا يتجاوز ليرة إسرائيلية.

ولقد قاوم العرب أي اندماج مدني مع إسرائيل، واعتبر ذلك مخالفا للقانون الدولي الذي

يحرم على سلطات الاحتلال تغيير الأسس القانونية والإدارية في أرض محتلة، وفي الوقت نفسه طالبوا باحترام الملكية الخاصة من حقوق الأفراد.

ومنذ سنة ١٩٦٧م بدأت إسرائيل تبني مساكن شعبية لإسكان اليهود في القدس القديمة، لأنها لن تصبح عاصمة إسرائيل فعلاً إلا بإعادة الحياة اليهودية إليها، لذا فقد قامت بسلسلة من الأعمال العدائية في القدس العربية لتغيير معالمها من الناحيتين المادية والروحية. فقد صادرت الأملاك، ووضعت يدها على المصارف، وهدمت المباني، ونهبت المخازن، ونشرت الإرهاب بحيث نزح ألوف من السكان العرب، وتركوا بيوتهم، وفروا هاربين. وقد منعتهم من العودة إلى بيوتهم.

وكانت قد استولت على ١١٦ ألف دونم داخل السور وخارجه، وأقامت عليها أبنية طوقت المدينة بالأبنية السكنية والعسكرية والصناعية على الطراز الحديث المغاير للطراز العربي القديم، بحيث لا يشعر الزائر أنه يعيش في مدينة مقدسة قديمة.

كما صادرت ٣٠٠ دونم بين القدس وشعفاط، وضمتها إلى المنطقة التي أطلق عليها اسم «حي إشكول» في الشيخ جراح لإقامة وحدات سكنية عليها.

يضاف إلى ذلك امتلاك مساحات واسعة داخل السور وخارجه، مما سيؤدي إلى إزالة الأبنية التاريخية والحضارية ظلما وعدوانا، ومخالفات صريحة للقوانين الدولية ومقررات هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وشرعية حقوق الإنسان وقرارات اليونسكو.

تحدثت صحيفة التايمز اللندنية عن الإجراءات الإسرائيلية لتهويد القدس العربية المقدسة وتغيير طابعها ومعالمها الدينية وأضافت أن مشروعات البناء التي نفذتها إسرائيل خلال السنوات العشر الأخيرة غيرت إلى حد كبير الطابع الروحي للمدينة المقدسة بصورة مثيرة.

ورغم مزاعم إسرائيل في إدماج المواطنين العرب مع القادمين اليهود إلا أن الأحداث الأخيرة التي شهدتها القدس المحتلة وبقية المناطق العربية المحتلة أثبتت للعالم بصورة قاطعة أن سكان هذه المناطق ينظرون إلى الإجراءات الإسرائيلية على أنها كارثة.

وعلى الرغم من تحديد ارتفاع المباني داخل السور بأربعة طوابق وفي خارجه بثمانية طوابق فإن طراز البناء شوه ملامح المدينة التاريخية.

تقول جريدة معاريف الصادرة في ١٩٧٧/٥/١م:

في مطلع عام ١٩٦٨م أصدر وزير المالية الإسرائيلي أمرا استند فيه إلى قانون الأراضي لعام ١٩٤٣م، قانون الاستملاك للصالح العام، وقد تضمن هذا القرار وضع اليد على ما مساحته ١١٦ دونما من الأراضي العربية داخل البلدة القديمة من مدينة القدس، بهدف ما يسمى إعادة تعمير الحي اليهودي.

وقد كلفت بتنفيذ هذا الأمر مع كل انعكاساته شركة تعمير وتطوير الحي اليهودي بالبلدة القديمة من القدس.

وقد وضعت هذه الشركة هدفا معلنا لنفسها، هو تعمير الحي اليهودي وتطويره كأثر قومي وديني وتاريخي من خلال التأكيد على طابعه الخاص، لإخلاء السكان العرب وجلب سكان يهود إلى الحي بدلا منهم.

لقد قامت الشركة المذكورة خلال السنوات التسع التي مرت على إنشائها بإخلاء أكثر من ستمائة عائلة عربية من المنازل التي كانت تسكنها، والواقعة في المنطقة التي شملها أمر وزير المالية الصادر عام ١٩٦٨م. وكانت الشركة تلجأ في معظم حالات الإخلاء إلى استصدار أمر من المحكمة بذلك، بسبب رفض السكان العرب ترك منازلهم بصورة رضائية. وهكذا تكررت مشاهد قيام رجال الشرطة بإخلاء العائلات العربية من منازلها وإلقائها إلى الشارع. وجلب عائلة يهودية لتحل محلها، بعد أن يتم إدخال تحسينات وترميمات على هذا المنزل.

وقد قامت فئة من اليهود برئاسة البروفيسور عوزي أورنان ـ وهو أستاذ في الجامعة العبرية بالقدس ـ بتبني الدفاع عن وجهة النظر العربية، بعد أن اتضح لها مدى الظلم الذي لحق بالعائلات العربية التي أخليت من بيوتها بالقوة.

ويقول البروفسور أورنان: إننا ببساطة أمام استغلال لسلطات قانونية تخالف الأهداف التي وضعت من أجلها، وأنه لا يجوز السكوت على هذا الأمر.

وفي شهر أيار من العام الماضي (١٩٧٦م) قام أورنان على رأس وفد من اليهود بمقابلة وزير الإسكان السابق أبراهام عوفر، وأبلغوه بأنهم يرون أن الأعمال التي تقوم بها الشركة التي تطلق على نفسها ـ شركة تعمير وتطوير الحي اليهودي ـ إنما تمس بالأخوة بين الطوائف المختلفة، وتشكل عقبة في طريق التآلف والسلام. وطالب الوفد الوزير بالتوقف عن إخلاء العائلات العربية في البلدة القديمة. وقد رد عوفر على الوفد بقوله: إنه يتبنى وجهة نظر معاكسة، وإنه يرى عدم وجود أساس للإسكان المشترك بين العرب واليهود، لأن ذلك يوجد المشاكل. وكذلك رئيس إدارة الشركة المذكورة يشارك الوزير عوفر في رأيه.

وفي حوار جرى لمناقشة قضية إخلاء السكان العرب من البلدة القديمة أثار رئيس الشركة إلى صعوبات السكن المشترك بين اليهود والعرب، وأكد على ضرورة زيادة عدد السكان اليهود في البلدة القديمة، وذلك حتى يكون بالإمكان فتح مدرسة لأطفال العالائلات اليهودية هناك. وكذلك قال رئيس الشركة: إننا ما نزال في فترة نسمع فيها عن حوادث وضع المتفجرات وإلقاء القنابل. وقال: إن سكان الحي اليهودي معزولون وقلقون، وهم ليسوا أبطالا، كما أنهم قلة، مقابل آلاف العائلات العربية في البلدة القديمة.

إن عدد العائلات العربية التي ما تزال تسكن ما يطلق عليه اسم الحي اليهودي لا يتجاوز أصابع اليدين، وينتظر مصير هذه العائلات المصير الذي حل بالعائلات التي سبقتها. وبالإضافة إلى هذه العائلات فإن هناك نحو ثلاثين عائلة أخرى تقطن في شارع السلسلة، ويتهددها خطر الإخلاء.

مصادرة أراضي الخليل :

بعد أسبوع من حرب حزيران سنة ١٩٦٧م وصل إلى مدينة الخليل (٣٧) يهوديا منهم الشبان والفتيات ورجال الدين، معلنين أنهم جاءوا ليمضوا أول عيد فصح يهودي في مدينة الآباء بعد تحريرها، وأسرعوا لاحتلال فندق عربي بالقوة، ولما لجأ صاحبه إلى الشرطة الإسرائيلية لم تستطع إخراجهم، إلا أنهم وعدوا بمغادرته حالما ينتهي العيد.

وبدلا من ذلك بدأ عددهم يزداد بمن ينضم إليهم من القادمين الجدد، وفي صباح العيد خرجوا من الفندق، وقد زاد عددهم على مئة شخص، بشكل مظاهرة تجوب شوارع المدينة،

وأسرعوا إلى الحرم الإبراهيمي الشريف، وهم يرددون نشيدا معناه: «نحن ورثة الخليل، وقد عدنا إليها، وسنبنيها كما نريد لتكون لنا، ستكونون بعيدين في أراضي أجدادكم هناك... بعيدا.. هناك.

ولما طالبتهم الشرطة بإخلاء الفندق رفضوا وتقدموا إلى رئيس بلدية الخليل طالبين منه إخلاء خمسين بيتا ليسكنوها، فقال لهم: وبأي حق أخرج صاحب البيت لتسكنوه؟ عندئذ حاولوا الاعتداء عليه.

وتفاديا لما قد يحصل نقلهم الحاكم العسكري إلى مركز الشرطة، حيث عاشوا فيه مدة هم وعيالهم الذين لحقوا بهم.

وفي ٢٣ نيسان سنة ١٩٦٩م دخلت إلى الخليل عدة سيارات كبيرة، تنقل المئات من الشبان والشابات وهم يحملون أعلام اسرائيل، وقاموا بمظاهرة في شوارع المدينة، انتهت بدخولهم الحرم الشريف، وهم يغنون ويرقصون.

ولما كثرت تعدياتهم وتحرشاتهم قررت سلطة الاحتلال بناء مستوطنة لهم. ففي ١٥ أيار سنة ١٩٧٠م قرر مجلس وزراء إسرائيل توطين (٢٥٠) عائلة يهودية في الخليل، بناء على أنه لا يجوز أن تخلو مدينة الآباء من يهود يسكنون فيها.

كريات أربع :

وفي ٢٤ نيسان ١٩٧١م أعلن الحاكم العسكري أن سلطات الحكم العسكري قررت إغلاق منطقة تقدر مساحتها بثلاثة آلاف دونم من الأراضي الواقعة شمال شرقي المدينة لأغراض عسكرية، وبذلك لن يسمح لأي عربي بدخولها، وبعد أسبوع قامت السلطات المحتلة بإنزال القوات المسلحة في هذه الأرض، وأخذت تحيطها بالأسلاك الشائكة، وبدأت عمليات توصيل المياه ومد أسلاك الكهرباء. وبعد قليل بدأت عمليات البناء وإقامة المباني والمتاريس تحت الأرض، وأحضرت البيوت الجاهزة للإسراع في إيواء المستوطنين.

هذه المستعمرة هي التي أطلق عليها الاسم القديم لمدينة الخليل (قرية أربع) التي كانت موجودة بهذا الاسم الكنعاني، قبل أن يصل إليها إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي ناحية

سكنية في موقع استراتيجي، بدأت بثلاثين شخصا، وأصبح عددهم يزيد على سبعة آلاف، جميعهم رجال مدربون على استعمال السلاح. ومن الجدير بالذكر أن جميع الأبنية التي أخذت تطوق الخليل من الشرق والجنوب قد بنيت على غرار الثكنات العسكرية بالإسمنت المسلح وبطوابق تحت الأرض تستعمل كمستودعات للأسلحة والتموين والملاجئ.

وأصدر الحاكم العسكري لمنطقة الخليل أمرا بالاستيلاء على الأملاك الممتدة من الرامة في مشارف الخليل من الشمال حتى مستعمرة كريات أربع على امتداد ثلاثة كيلو مترات، لشق طريق تؤدي إلى المستعمرة، عرضها أربعة أمتار. هكذا اتجه التركيز على توسيع كريات أربع، وتوفير الإمكانات لتنظيمها وتجميلها على حساب المواطن العربي ومن أرضه. ومن ذلك تركيب مقسم متطور بلغت تكاليفه أربعة ملايين ليرة. وبواسطة هذا المقسم الجديد يستطيع أي مشترك الاتصال بأية مدينة في المناطق المحتلة أو بأية مدينة في أوروبا وأميركا بصورة مباشرة، دون اللجوء إلى تسجيل المكالمات لدى المقاسم المختلفة.

ولم يظهر سكان كريات أربع أي حسن نية تجاه سكان مدينة الخليل، كما كان يزعم قادة إسرائيل، وهي تدرك مدى تعلق المواطن الخليلي بمقدساته، وخاصة الحرم الإبراهيمي الشريف الذي يعتبره رمزا دينيا وقوميا ووطنيا، ويؤكد وجود وكرامة وحياة المواطنين.

ومن هنا أخذت سلطات الاغتصاب تعمل على تفكيك هذا الارتباط بين المواطن ومقدساته عن طريق امتهان حرمة هذه المقدسات، فصاروا يدخلون الحرم بأحذيتهم القذرة، مصطحبين أطفالهم وصاحباتهم وحتى كلابهم، وأخذوا يلقون النفايات في كل ناحية منه. ولما لم تستطع دائرة الأوقاف الإسلامية المستضعفة رد هذا الأذى رفعت السجاد الثمين الذي يفرش فوق أرض الحرم خشية عليه من التلف. وبسبب تراكم الأوساخ عند المدخل أصبح المسلم يدخل منتعلا لئلا تتلوث قدماه. وتجلت هذه التعديات في الاحتجاج الذي بعثته وزارة الأوقاف الإسلامية.

١ ـ دخل عدد من السياح إلى الحرم الإبراهيمي، فسلمهم أحد مستوطني كريات أربع بوقا، وقفوا أمام الضباط والجنود، وأخذوا ينفخون فيه ويضحكون بصوت عال، بالاشتراك مع الجنود والضباط، ينم عن استهتارهم بالمكان.

٢ ـ صحا حراس الحرم على وقع أقدام في داخل الحرم، وقد تبين لهم أن ثلاثة من اليهود المسلحين تسلقوا الجدران، ونزلوا لباحة الحرم، وفتحوا الباب الشرقي ليدخل سبعة آخرون، حيث داسوا السجاد وبعثروه ونقلوه، كما أدخلوا معهم أكلا وشرابا، وتراشقوا بزجاجات الشراب وعلى مرأى من مستشار الحاكم العسكري الذي كان قد حضر بناء على طلب من مدير الأوقاف الإسلامية، ومكثوا حتى الصباح، ومنعوا المسلمين من دخول الحرم حتى ما بعد فوات وقت الصلاة.

٣ ـ أعلن مدير أوقاف الخليل في الساعة العاشرة من ليلة الجمعة ٣٠ كانون ثاني ١٩٧٦م أن نائب الحاكم العسكري بالخليل اتصل به وأبلغه رغبته في فتح أبواب الحرم الشريف أمام المستوطنين اليهود في تلك الليلة، لأنهم يرغبون في إقامة طقوس دينية، وأنه أبلغهم عدم استطاعته فتح الأبواب، فرد عليه الحاكم الإسرائيلي بأن الأمر صادر من وزير الدفاع الإسرائيلي. وبالفعل ذهب نائب الحاكم المذكور إلى الحرم، وطلب إلى الحراس أن يفتحوا الأبواب على مسئوليته، وتم فتح الأبواب الشرقية الجديدة، ودخل المستوطنون ومكثوا في الحرم من الحادية عشرة ليلا حتى الرابعة صباحا، وقاموا بصلواتهم بحضوره.

إن فتح الحرم الإبراهيمي الشريف في الليل سابقة لم تجر في التاريخ، وإن ما تعرض له هذا المسجد، وبأشكال مختلفة ليلا ونهارا، تأباه الحريات العامة وحرمات المقدسات والحقوق الدينية.

هذا بعض ما أدى إلى قسمة الحرم الشريف إلى قسمين: إسلامي، ويهودي. ولأول مرة في التاريخ يصبح لليهود حق في هذا المكان الذي لم يبنوه، ولقد اغتصبوه من يومه، وحافظوا على قدسيته هذه السنين الطوال.

وفي تشرين الأول الأول سنة ١٩٧٦م زاد الاحتكاك بين الطرفين: الطرف المسلح، والطرف الأعزل إلا من إيمانه بحقه، حتى وصلت الأمور إلى تمزيق الكتب المقدسة وتدنيسها وإتلافها، مما أعجز السلطات عن الوصول إلى حل. وزاد الطين بلة بدعة الحاجام المهووس ليفنجر عندما أقام جنازة لبعض ورقات وجدت ممزقة في القسم الذي اغتصب وخصص لصلاة

اليهود، ولقد ولدت له عبقريته أن يضعها في توابيت الموتى، وأن يقيم لها جنازة هزت البلاد كلها وأفلت الزمام ـ ولولا صبر العرب على هذا الضيم لتطورت الأمور إلى قتال ـ وقام بدفن الورقات الممزقة في مقبرة اليهود بالخليل، في مواكب حافلة سار فيها أرقى طبقات اليهود.

قرية دير أبو مشعل والإرهاب الإسرائيلي :

مازال أهالى قرية دير أبو مشعل التي تقع على بعد خمسة عشر كيلو مترا شمال غرب مدينة رام الله يتعرضون لأغرب نوع من الإرهاب عرفه سكان الضفة الغربية والعالم، فمنذ أربعين يوما وأهالي هذه القرية التي يبلغ عددهم أكثر من ألف نسمة يتعرضون لهجمات ليلية من قبل جماعات من المسلحين الإسرائيليين، يرتدون الملابس العسكرية. فبعد منتصف الليل من كل يوم تتسلل مجموعات من هذه العصابات الإسرائيلية يقدر عددها بستين رجلا إلى داخل القرية، وتبدأ بإطلاق الرصاص في الهواء، وبالضرب على أبواب المنازل وخلع أيادي الأبواب.

وبعد أن يتأكد المهاجمون بأن السكان قد استيقظوا من نومهم يحذرونهم بعدم الخروج من بيوتهم وإلا سيقتلون رميا بالرصاص.

وتقوم هذه الجماعات بكسر النوافذ بواسطة قطع من الحديد، ثم يدخلون مسدساتهم من داخل النوافذ المحلية، ويطلقون عيارات نارية بدون رصاص داخل غرف النوم لإرهاب السكان وخصوصا الأطفال والنساء والشيوخ. وقد حدث في أحد البيوت أن أصيبت امرأة بنوبة قلبية عندما ظنت أن ابنها قد قتل نتيجة لإطلاق النار عليه، وقد نقلت هذه المرأة إلى أحد مستشفيات رام الله للمعالجة حيث مازالت تعالج هناك.

ولا تكتفى هذه العصابات والمخربون الإسرائيليون بهذا القدر من الإرهاب، بل تقوم أيضا بتحطيم كل ما تجده خارج البيوت من أوان الزهور وأوان المياه، وكذلك تقطع الأسلاك الكهربائية عن البيوت التى تملك مولدات كهربائية.

وخلال هذه الهجمات كانت هذه المجموعات تقول لأهالى دير أبو مشعل بأنها تتكلم باسم مساعد الحاكم العسكري لمنطقة رام الله، وأنها تنوي الاستيطان في القسم القديم من القرية

الذي يطلق عليه الأهالي اسم (تلة البغلة)، وكذلك يريدون الاستيطان في الجبال المحيطة بالقرية، كما يحذرونهم من البقاء في بيوتهم وقريتهم.

وقد لاحظ سكان دير أبو مشعل بأن المتسللين يتكلمون العربية بلهجة مكسرة، وبالإضافة إلى ذلك يتكلمون العبرية وعدة لغات أجنبية، مما يشير إلى أنهم من جماعات الاستيطان الإسرائيلية.

ولمواجهة هذه الهجمات الإرهابية المتواصلة، قرر أهالي أبو مشعل التظاهر في رام الله للفت أنظار أهالي الضفة لأوضاعهم المتردية وطلب الحماية. وقاموا فعلا بهذه المظاهرة في رام الله يوم الثلاثاء الموافق ١٩٧٧/٥/١١م.

غير أن الحماية لم تأت من سلطات الحكم العسكري، حيث نسبت هذه الهجمات إلى أهالي قرى عربية مجاورة، لخلافات بين هذه القرى ودير أبو مشعل على المياه. وكأنه لا يعلم بأنه لا يوجد فرد واحد في الضفة الغربية بأكملها يسمح له بحمل السلاح أو إطلاق النار، وكما لا يعلم أيضا بأنه توجد شبكة مياه متكاملة في دير أبومشعل تحت إشراف سلطة مياه الضفة الغربية، ولا حاجة بها للماء من القرى المجاورة!!

ونتيجة لموقف سلطات الاحتلال المتواطئ مع الإرهابيين الإسرائيليين قرر أهـالي دير أبومشعل حماية أنفسهم بأنفسهم، والتصدي للهجمات الإرهابية، وقرروا تكوين مجموعات من شباب القرية مسلحة بالعصي والحجارة لحماية القرية. ولكن عندما علم الحاكم العسكري بموقف الأهالي هذا توجه إلى القرية (ليلة ١٩٧٧/٥/١٢م) وفرض منع التجول عليها، وأمر جميع السكان بالتزام بيوتهم اعتبارا من الساعة الثامنة مساء، ووعد الأهالي بالحماية. وبقيت في القرية وحدة إسرائيلية عسكرية حتى الساعة العاشرة مساء، وبعدها غادرت هذه الوحدة القرية. وفي نفس الليلة عادت الجماعة الإرهابية للتسلل داخـل القـرية، مستعملة نفس الأساليب الإرهابية السابقة.

وبعد هذه التجربة قرر أهالي دير أبو مشعل عدم النوم قطعيا، والسهر لحماية قريتهـم وممتلكاتهم وأراضيهم، وقد ساند رؤساء بلديات رام الله والبيره والبلديات المجاورة موقف

أهالي دير أبومشعل، وقاموا ليلة ١٩٧٧/٥/١٢م بالسهر في دير أبومشعل حتى منتصف الليل تضامنا مع الأهالي.

وبعد .. فإن أوضاع قرية دير أبو مشعل أصبحت على النحو التالي :

١ ـ الأهالي مصممون على عدم مغادرة قريتهم أو أراضيهم .

٢ ـ الأهالي مصممون على الدفاع عن أنفسهم، وهم الآن لا يذهبون إلى حقولهم أو أعمالهم، وينامون نهارا ويسهرون ليلا، لمواجهة الإرهابيين الإسرائيليين.

٣ ـ توقف النشاط الاقتصادي في القرية، وأغلقت المدرسة الابتدائية فيها، وذلك لأن الأطفال في القرية لا ينامون من الذعر.

٤ ـ مازال الإرهابيون الإسرائيليون يأتون ليلا إلى القرية، ولكنهم لا يقتربون من البيوت، بل يطلقون النار من حول القرية.

٥ ـ واختتم التقرير بدعوة موجهة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة، وإلى قناصل الدول الأجنبية في مدينة القدس المحتلة، من أجل زيارة القرية والاطلاع على الأوضاع التي يعيشها أهلها تحت وطأة الهجمات الإرهابية التي تشنها عصابات المستوطنين الإسرائيليين عليهم.

مدن وقرى عربية أعطاها اليهود أسماء عبرية

في لواء القدس :

المالحة	مناحات
لفتا	حي نفتوح
تل العاصور	بعل حاتسسور
حوارة	سدة حسيد
ساريس	ستورسن
كفرمندة	أشمون

أسماء في القدس نفسها:

كرم لويز	حاييم شابيرو

الخليل :

الخليل	حبرون
الدوايمة	دماتزاه
عراق المنشية	سدر موشيه
صميل	نحلاه
السوافير الشرقية	عيت قسوريم
الفالوجة	ملوجوت
كرتيا	يوناتان
قطية	جد يراه

في لواء القدس :

ساحة باب الخليل	ميدان عودة صهيون
شارع ما من الله	عودة صهيون
حارة المغاربة	عقبة الشاعر هاليفي
طريق سليمان القانوني	شارع المظليين
خارج باب العمود	
محلة الشيخ جارح	جبعات همفتار
باب المغاربة	بيت محسي
حارة الشرف	مشقات لداخ
سوق الحصر	حياد
عقبة درويش	حبر حاييم
عقبة غنيم	شونية هالكوث
طريق المجاهدين	ديرح ساعر
العوجا	نتساناه
عسلوج	بير ساسابيم
أم الزينات	الياقيم
كفر لام	هبونيم
وادي عارة	برقاي
شفا عمرو.	شفا عام
طبعون	الونيم
—	
الزيت	جيشر هزيف
ميعار	سيغيف
كريكات	بيت هميمك
ترشيحا	معوناه

الخليل :

عراق سويدان	سدة يوات
المسمية الكبرى	مسميع شالوم
هربيا	كرميناه
هوج	سد موته
حتا	رفا حاه
بيت دارس	زمودت
حمامة	نتسانيم
بير السبع	بير شيبا
صفد	تسفات
الخالصة	قرية شمونه
الدردارة	رايال
كفر برعم	برعام
النسبرية	يعين باروخ
الرأس الأحمر	كرين زمراه
المنصورة	كفار خناش
هونين	مرجوليوت
—	
البرية	عزرياه
وادي حنين	نس زيونا
القباب	مشيار ايالون

في لواء القدس :

البيروه	اجهود
البطوف	بفعات بيت
	فتوفا
بيسان	بيت شغان
جالود	حارود
كوكب الهوى	كوخف هاريان
الزراعة	طيرة تسفي
—	
طبرية	طفرياه
الشجرة	عين شقاع
بيت ليد	شفوت عام
الطيرة	غزيت
فقوعة	جلموع
زيتا	جفرين
أريحا	يريحو
باب الواد	تحسون
باتياس	حرغمون

الخليل :

ديرابان	محسيتاه
دير طريف	بيت عارف
ديران	رحفوت
—	
العوجا	بركون
عاقر	كفار عقرون
عرسوف	ارشاف
بيت دجن	بيت داجان
الحرم ـ	
أو سيدنا على	رشف

الحواشـــي

* تعرف (بيت إيل) باسم (بيتين)، وهي من قضاء رام الله، على بعد ٢٥ كم شمال شرق القدس.

(١) صين : أول موقع بين التيه وبلاد الآدوميين في شرقي الأردن.

رحوب : مرج بين صين وحبرون (الخليل) .

إشكول : اسم وادى من أودية الخليل اشتهر بكروم عنبه .

الزرجونة : العود الذى ينصب عليه فروع الكرمة .

الدقرانة : عود ترفع عليه الدالية، والمقصود كما يظهر من الصورة أن اثنين من مزارعي وادي إشكول حملا قطفا من العنب على عود امتد من كتف الواحد إلى كتف الآخر.

(٢) سفر العدد الإصحاح ٦٣ : ١٨ ـ ٢٥ .

(٣) سفر العدد الإصحاح ١٤ : ١ ـ ٤ .

(٤) الدستور في ١٩٧٨/٦/١٠ .

(٥) وقد قتل الكثيرون من أهالي القرى أثناء الحرب وخلال عملية التدمير الشاملة، عن جريدة الدستور ١٩٦٩/٨/٣م.

المصـــادر

١ ـ مصطفى الدباغ ـ بلادنا فلسطين في عشرة مجلدات ـ لبنان .

٢ ـ روحي الخطيب : أمين القدس، تهويد القدس جزآن ، طبع عمان ١٩٧١ ـ ١٩٧٢.

٣ ـ كتاب المواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية في فلسطين/ نشر مركز الأبحاث الفلسطيني ـ بيروت سنة ١٩٧٣م ـ قسطنطين خمار.

٤ ـ قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية ـ مركز الأبحاث ـ بيروت ١٩٦٩.

٥ ـ بلدانية فلسطين : أنيس صايغ ـ نشرة مركز الأبحاث الفلسطيني ـ بيروت ١٩٦٨.

٦ ـ محمود العابدي : محنة بيت المقدس طبع عمان سنة ١٩٧٠ .

٧ ـ محمود العابدي : قدسنا ـ طبع مصر سنة ١٩٧٢ م .

٨ ـ محمود العابدي : من تاريخنا ـ المجموعة الرابعة ص ١٩٣ ـ ٢١٠ طبع عمان ١٩٧٨.

٩ ـ مجلة المقتطف من مكتشفات رأس شمرا (أوغاريت) ص ٤٠ يناير سنة ١٩٣١.

١٠ ـ الدكتور عفيف بهنسي ـ حضارة ايبلا ، مجلة العربي الكويتية سبتمبر ١٩٧٧.

١١ ـ إسرائيل تطلق أسماء عبرية على مواقع عربية ـ نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ ١٩٧١/٨/١٦.

١٢ ـ قرى اللطرون ـ جريدة الدستور عمان ١٩٦٩/٨/٣٠ .

١٣ ـ مكرم محمد أحمد ـ استلاب أراضي قريتي إقرت وكفر برعم في جريدة الجمهورية ـ مصر ١٩٧٢/٦/١٨.

١٤ ـ قرية دير أبو مشعل ـ جريدة الدستور ١٩٧٧/٥/٢٠ .

١٥ ـ مصادرة أراضي بير السبع ـ جريدة الدستور ١٩٧٨/٥/١٠ .

١٦ ـ مصادرة الأراضي : حسن زكي نسيبة ، عبدالحميد الجعبري في جريدة القدس الصادرة في مدينة القدس تاريخ ١٩٧٧/٦/٥م.

١٧ ـ الاستيطان الإسرائيلي، مديرية الدراسات والأبحاث في وزارة الأعلام الأردنية جريدة الدستور ١٩٧٧/٧/٣٠/٢٩.

ملحوظـــة :

كل ما نشرته جريدة الدستور مأخوذ عن الجرائد العبرية زيادة في التحفظ والالتزام.

المشكلة الفلسطينية
مشكلة دينية عنصرية
أم اقتصادية

دكتور / فوزي الأسدي

مقدمـــة :

في هذا الوقت الذي نبحث فيه المشكلة الفلسطينية، نجدها تدخل منعطفا جديدا وخطيرا بالنسبة لأغلبية الفلسطينيين بشكل خاص وللأمة العربية بشكل عام.

فالاقتراحات الأخيرة التي طرحت لحل هذه المشكلة المستعصية لا تأخذ بعين الاعتبار أمورا جوهرية، إما لأنها قد غابت عن أعين المتفاوضين، أو لأنهم قرروا تجاهلها نهائيا لعدم استطاعتهم إدراك خطورتها وأهميتها. وبالحقيقة أن هذه الأمور الجوهرية تحمل في طياتها قضية حياة أو موت لكثير من الفلسطينيين، إذ من يسلب مصدر رزق إنسان يسلبه أيضا حياته.

بالطبع هناك خلاف جذري بين الطرفين المتنازعين على تلك الأمور التي أعتبرها شخصيا جوهرية لحل تلك الأزمة المستعصية. فالصهاينة مازالوا يحاولون إقناع العالم بشكل عام والمتفاوضين بشكل خاص أن كل ما يهدفون إليه من السيطرة على فلسطين هو إيجاد وطن قومي يجمع شتات اليهود، ويشكل ملجأ ضد الاضطهاد العنصري والسياسي اللذين قاسى منهما اليهود الكثير، ولذلك فإنهم يحاولون عدم الإفصاح عن مساحة تلك الدولة التي يهدفون إلى تحقيقها. فبعد مرور ثلاثين عاما على تأسيس ذلك «الوطن» لم يكن له في أي يوم حدود دولية رسمية، إذ إنهم يريدون الاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأراضى الطيبة الخالية من سكانها الشرعيين قبل الجلوس على طاولة السلام، وهذا جوهر القضية. وما موافقتهم (أو اقتراحهم) على منح الضفة الغربية وقطاع غزة نوعا من الحكم الذاتي إلا مناورة يعلمون حقيقتها، ذلك أن الفلسطينيين سيرفضون هذا الاقتراح، لأن هاتين المنطقتين لا تضمنان دخلا كافيا يساعدها على الوقوف على أرجلها دون الارتماء بأحضان إحدى الدول الأجنبية أو إسرائيل نفسها. فالصهاينة اقتفوا أثر الصليبيين، وعرفوا أين تقع الأرض الطيبة، فأنشأوا عليها قلاعهم الحديثة (المستوطنات) المحصنة بالحديد والنار، وابتغوا أبشع الأساليب للاستيلاء على تلك الأراضي خالية من سكانها الأصليين.

لقد قاوم المزارع الفلسطيني معظم تلك الأساليب بشدة، ولم يمكن الصهاينة من تحقيق حلمهم لولا تآمر العديدين عليهوإرغامه في النهاية على الجلاء عن أرضه وأرض آبائه وأجداده بالقوة، وعندئذ فقط تم للصهاينة حلمهم، واحتلوا معظم الأراضي الخصبة أولا، ثم جميعها في عام ١٩٦٧م، وتركوا المزارع العربي يعيش على حفنة الصدقات الدولية مذلولا بائسا هائما على وجهه بين خيام اللاجئين. وقد مر ما ينوف عن الثلاثين عاما وهو لايزال يعيش تحت أصعب ظروف البؤس والاضطهاد، رغم الوعود العديدة بإنصافه وإرجاعه إلى أرضه ووطنه.

سأحاول في هذا البحث المختصر إظهار الأساليب والطرق التي اتبعتها المؤسسات الصهيونية اليهودية في الاستيلاء على أرض هذا المزارع العربي وسلبه مورد رزقه الوحيد، بالإضافة إلى بيته ووطنه وعزته وكرامته. ففي هذه الأمور يكمن جوهر الصراع، وباعتقادي أنه لن يحل نهائيا ما لم تؤخذ هذه الأمور بعين الاعتبار. هذا وسأتناول تركيب الملكية الزراعية في فلسطين قبل عام ١٩٤٨م، ثم أنتقل إلى الأساليب التي حصل بموجبها اليهود على الأراضي الفلسطينية.

١ ـ تركيب الملكية الزراعية في فلسطين قبل عام ١٩٤٨م :

قبل الخوض في دراسة مراحل تطور المشكلة الفلسطينية علينا فهم تركيب الملكية الزراعية في فلسطين منذ أواخر الحكم العثماني إلى قبيل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، إذ إن نظام ملكية الأراضي فيها يختلف عن مثيلاته في الدول العربية من الناحيتين: التاريخية، والجغرافية. ففي بلاد تعتمد على الزراعة تقوم الحكومة بفرض جباية ضرائبها حسب إنتاجية الأرض.

وقد صنفت إنتاجية الأرض في فلسطين إلى سبعة عشر صنفا، ولا يهمنا هنا سوى ذكر أربعة أنواع[١] بشكل مختصر، وهي:

النوع الأول : ويشمل الأرض الأكثر خصبا، وتقع على السهل الساحلي، حيث تسود مزارع البرتقال الكبيرة، وكذلك في سهل مرج ابن عامر وجزريل، وسهلي الحولة وطبريا، وهي مصنفة من النوع الجيد.

والنوع الثاني : ويشمل الأراضي الهضبية، حيث تختلف التربة بشكل كبير، ويعتمد الإنتاج على كمية الأمطار السنوية، وهي مصنفة من النوع المتوسط. وأهم حاصلاتها الزيتون والكرمة والتين. وقد بذل المزارع الفلسطيني عليها جهدا كبيرا، وحول سفوحها شديدة الانحدار إلى مصاطب منتظمة.

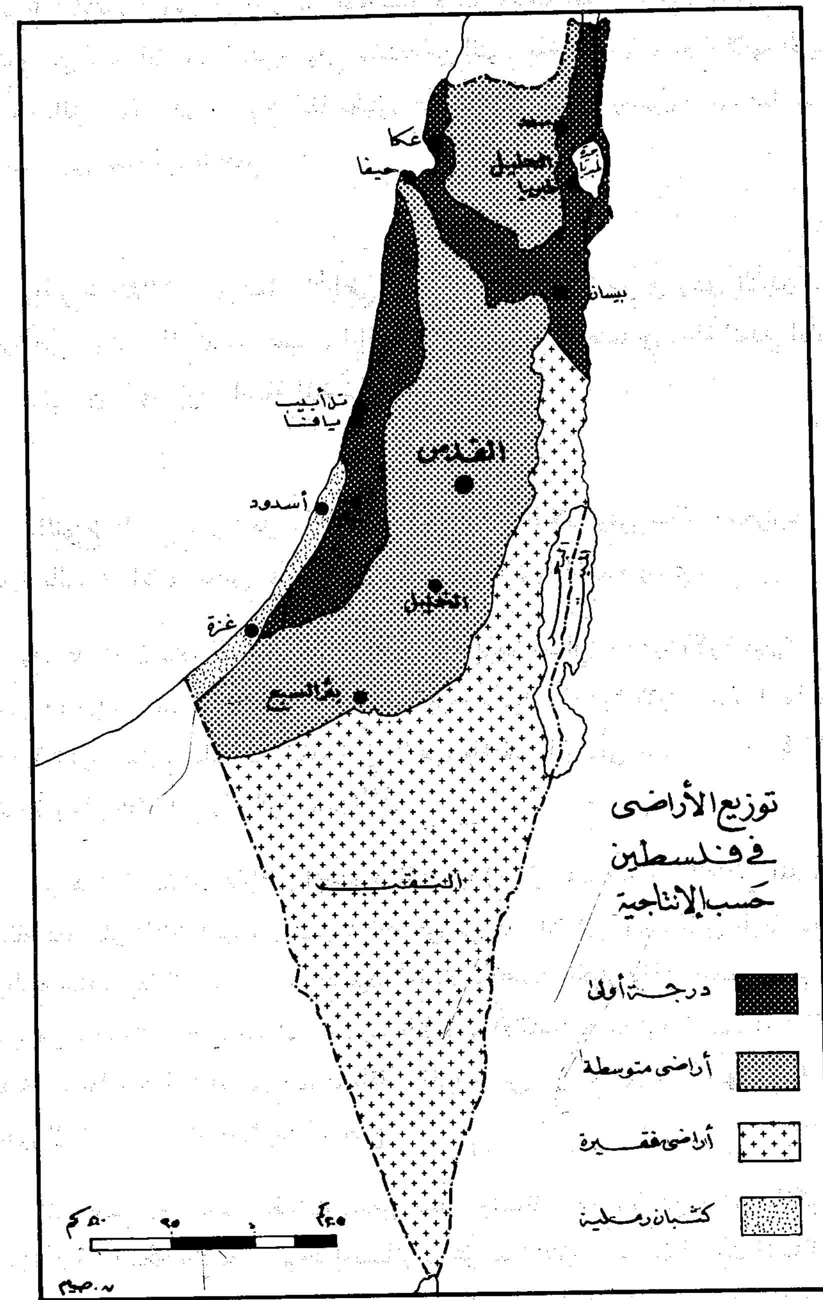
والنوع الثالث : ويشمل الأراضي الواقعة تحت سطح البحر في وادي الأردن ـ بين بحيرة طبريا والبحر الميت. وقد صنفت أراضيها بالنوع الفقير، وتعتمد في حالة انعدام الأمطار على الري من النهر، إما بواسطة المضخات أو الراحة.

والنوع الرابع : ويشمل منطقة النقب في جنوب البلاد، وهي منطقة صحراوية جافة وفقيرة بالزراعة إلا في بعض المناطق التي تتوفر فيها التربة الحسنة والري.

وقد قدرت المصادر الرسمية مساحة الأراضي الجيدة بحوالي **٣٫٢٧٤٫٠٠٠** دونم* (أو ما يعادل ٨١٨٫٠٠٠ فدان)، والأراضي المتوسطة الجودة بحوالي ٩٫٧٨٤٫٠٠٠ دونم، (أو ما يعادل ٢٫٤٤٦٫٠٠٠ فدان)، والمناطق الفقيرة في النقب والهضبة الوسطى بحوالي **١٣٫٢٦٤٫٠٠٠** دونم، (أو ما يعادل ٣٫٣١٦٫٠٠٠ فدان)[٢].

ومن هذا نلاحظ أن الأراضي الجيدة قليلة نسبيا (حوالي ثلث مساحة الأراضي المتوسطة)، ولذلك فقد كان الملاك العرب يهتمون بتملك جزء من هذه الأرض، ومتى تحقق للمالك ذلك لا يفرط به خاصة إذا كان مورد رزقه الوحيد. أما الإقطاعيون الكبار فكان البعض منهم يتاجر بجزء من أرضه (أو بأجمعها) إذا ما وجد الظروف الاقتصادية ملائمة لذلك، أما المزارع الصغير ـ إذا كان له أرض في هذه المنطقة ـ فقلما يسعى إلى بيع أي قسم منها، بل العكس يسعى إلى زيادة حيازته منها إذا استطاع.

ونظرا لعدم توفر سجل عقارات رسمي منتظم وإثباتات معتمدة عن توزيع الملكية أيام العثمانيين في فلسطين، لذلك لا توجد إحصائيات عن هذا التوزيع حسب الفئات المختلفة، ولا عن المساحات التي تخص الإقطاعيين الكبار أو المتوسطين أو الصغار.


توزيع الأراضي
في فلسطين
حسب الإنتاجية
درجة أولى
أراضي متوسطة
أراضي فقيرة
كثبان رملية
عكا
حيفا
بيسان
تل أبيب
يافا
القدس
أسدود
الخليل
غزة
بئر السبع
النقب

شكل رقم (١)

وإن المساحات المذكورة في سجلات الطابو (الكوشان) التي كانت قد أجريت أيام العثمانيين ليست صحيحة، إذ كانت تعطي مساحات أقل من الحقيقة في كثير من الأحيان. ويذكر المطلعون على توزيع الملكية العقارية في هذه المنطقة أن الاعتماد على مثل هذه السجلات قد يعطى أفكارا خاطئة. ولكن بعد تحرى كثير من المصادر يمكن القول: إن الشيء الذي يمكننا التأكد منه أنه كان يوجد في الأقاليم التي كانت ضمن حدود فلسطين الحالية تطور منتظم لتركز الملكيات العقارية في أيدي أقلية من السكان الذين كانوا يقيمون بما عرف فيما بعد بسوريا الكبرى.

وفقا لإحصائيات رسمية أخذت في عام ١٩٠٩م في ثلاثة «سناجق» (أقاليم)، وهي القدس، ونابلس، وعكا، فقد كان هناك ١٦٫٩١٠ عائلة تشتغل بالزراعة على مساحة تقدر بحوالي ٧٨٥٫٠٠٠ دونم، أي بمتوسط ٤٦ دونم للعائلة الواحدة. كما وجد أن ٦٧ في المائة من مزارعي سنجق القدس، و٦٣ في المائة من مزارعي نابلس، كانوا يملكون قطعا من الأرض مساحة الواحدة أقل من ٥٠ دونم للعائلة. لكن على الجانب الآخر كان يوجد عدد صغير محدود من الملاك يسيطر على مساحات شاسعة فيما بينهم.

ووفقا لمسح أجري في العقد الثاني من هذا القرن، فإن نفس المصدر يذكر أنه قد وجد ١٤٤ إقطاعيا يملكون ٣٫١٣٠٫٠٠٠ دونم، بمتوسط ٢٢ ألف دونم للعائلة. أما في قضاءي غزة وبئر السبع فقد كان هناك مساحة تبلغ أكثر من مليوني دونم بحوزة ٢٨ عائلة. كما وأن إحدى عشرة عائلة كانت الواحدة منها تسيطر على أكثر من مائة ألف دونم. أما توزيع الملكيات الكبيرة في الأقضية الأخرى فقد كان كما هو ظاهر في جدول رقم (١).

ومن هذا الجدول نلاحظ أن أكبر إقطاع كان موجودا في قضاءي عكا ونابلس ـ طولكرم (من حيث المساحة)، وأصغره في قضاءي يافا وحيفا (ضمن مناطق التربة الخصبة).

وبناء على نفس المصدر فإن أكبر إقطاع في فلسطين كان لعائلة سرسق اللبنانية التي كانت تملك في سهل مرج ابن عامر حوالى ٢٣٠٫٠٠٠ دونما، كما أن حوالي ٢٥٠ عائلة إقطاعية أخرى كانت تملك فيما بينها ما يعادل ٤٫١٤٣٫٠٠٠ دونم، وهذا يقارب كل ما كان يملكه المزارعون الصغار في فلسطين آنذاك، أي بمتوسط ١٦٫٥٠٠ دونم للعائلة الواحدة، وكانت غالبية

هذه العلائات تقيم في بيروت أو دمشق عندما انفصلت فلسطين عن سوريا ولبنان عقب انسحاب العثمانيين وتعديل الحدود بين المنطقتين الفرنسية والبريطانية في هذه المنطقة، لذلك لم

يجد عملاء الصهاينة صعوبة كبيرة في إقناع هؤلاء الإقطاعيين ببيع أراضيهم في المنطقة البريطانية بأسعار مغرية (كما سنبين فيما بعد)، مما ساعد على توغل واتساع نفوذ الاستيطان الصهيوني في فلسطين منذ بداية القرن العشرين. وقد أخذ هذا الاستيطان ثلاث مراحل رئيسية، كان لها تأثير كبير على تعقيد المشكلة الفلسطينية.

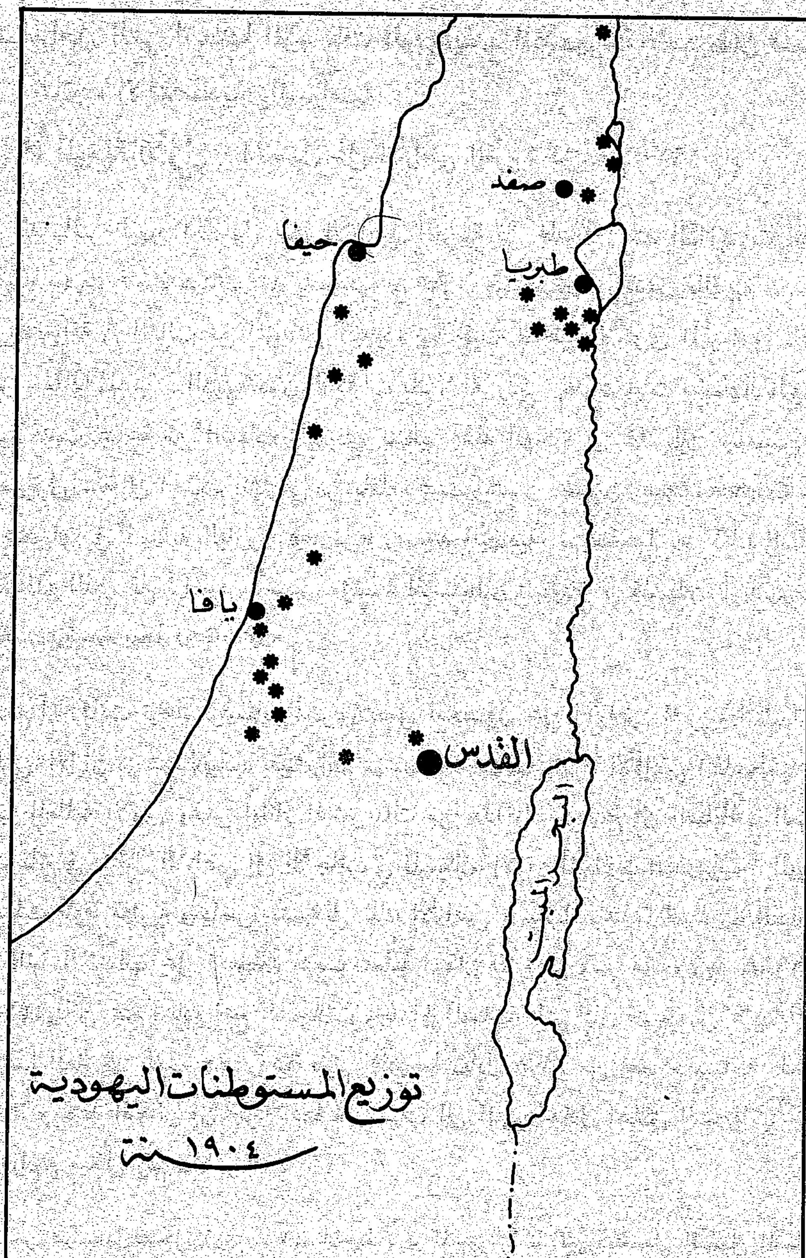
جدول رقم (١)

توزيع الملكيات الكبيرة في بعض الأقضية الفلسطينية قبل حلول الانتداب البريطاني ×

القضـــاء	عدد الملاكين الكبار	مساحة أراضيهم (بالدونم)	متوســط المساحة العائلية ××
القدس والخليل	٢٦	٢٤٠٫٠٠٠	٩٢٣١
يافـــا	٤٥	١٦٢٫٠٠٠	٣٦٠٠
نابلس وطولكرم	٥	١٢١٫٠٠٠	٢٤٢٠
جنيـــن	٦	١١٤٫٠٠٠	١٩٠٠٠
حيفـــا	١٥	١٤١٫٠٠٠	٩٤٠٠
الناصـــرة	٨	١٢٣٫٠٠٠	١٥٣٧٥
عكـــا	٥	١٥٧٫٠٠٠	٣١٤٠٠
طبريـــا	٦	٧٣٫٠٠٠	١٢١٦٧

× المصـــدر : A. Granott : The Land Systems of Palestine (London: Eyre & Spottswoode, 1952),

× × لم تتوفر هذه الإحصائيات في المصدر الأصلي، وهي من عمل الباحث مع التقريب.


صفد
حيفا
طبريا
يافا
القدس
توزيع المستوطنات اليهودية
سنة ١٩٠٤

شكل رقم (٢)

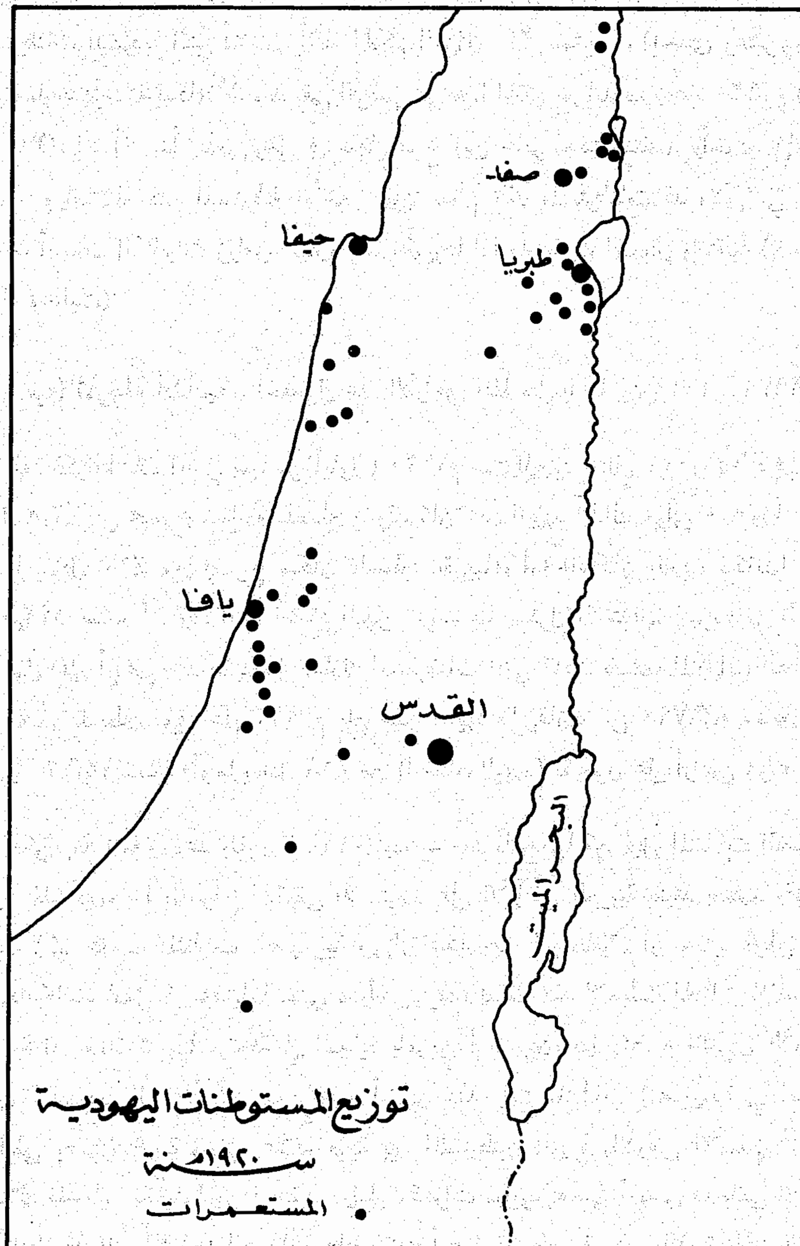
٢ ـ المراحل التي اتبعتها المؤسسات اليهودية ـ الصهيونية لاستيطان فلسطين ونتائجه الاقتصادية والسياسية:

أ) المرحلة الأولى : الحصول على الأراضي العربية قبل عام ١٩٢٠ م :

لقد باشر اليهود الحصول على الأراضي العربية فل فلسطين منذ الثمانينات للقرن الماضي، بحيث قامت هيئات خيرية يهودية في تطوير مستعمرتين زراعيتين بالقرب من صفد وطبريا، مؤلفة في الغالب من المواطنين اليهود، بينما بقيت الأقلية الأخرى المقيمة في القدس تمارس حياتها المدنية ـ الدينية دون الاكتراث بالزراعة. ولكن بعد عمليات اضطهاد اليهود في روسيا قامت جماعة من الشباب اليهودي بتنظيم حملة للهجرة إلى فلسطين، وتأسيس أول مستعمرة زراعية إلى الجنوب الشرقي من يافا، دعيت ريشون لتسيون (Rishon Lezion) حيث قام بتمويلها في البداية البارون «هيرش» وجمعيته اليهودية، ثم دعمها بعد ذلك البارون «روتشيلد» الذي قام فيما بعد بتأسيس مؤسسة للاستيطان اليهودي في فلسطين، أخذت تعرف فيما بعد «بمؤسسة بيكا (P.I.C.A)» .

ومع أنه كانت توجد مؤسسات أخرى تعمل للحصول على الأراضي العربية أثناء الحكم العثماني، إلا أن مؤسسة «بيكا» بقيت أهم مؤسسة متخصصة بشراء الأراضي الفلسطينية قبل الحرب العالمية الأولى وحتى أوائل العشرينات من هذا القرن. ومع أن السلطات العثمانية كانت تمانع في انتقال الأراضي إلى الأجانب في فلسطين، إلا أن المنظمات الصهيونية ـ اليهودية استعملت طرقا ملتوية وسماسرة لتسجيل تلك الأراضي باسمها. وعندما استلمت السلطات البريطانية الانتداب على فلسطين منعت عملية انتقال الأراضي لمدة عامين (بين ١٩١٨ إلى ١٩٢٠)، ولكن عند إعادة فتح السجلات وجد أن المساحة التي كان قد حصل عليها اليهود قبل هذا العام قد بلغت ٦٥٠٫٠٠٠ دونم، (أي ما يعادل ٢٫٥٪ من مجموع مساحة فلسطين تقريبا). ويعتقد البعض أن جزءا منها قد تسرب إلى اليهود خلال إغلاق السجلات[٣].
(راجع شكلي رقم ـ ٢ و ٣) .

فمن دراستنا لشكل (رقم ـ ٢) نلاحظ تركز المستوطنات اليهودية على السهل الساحلي ووادي نهر الأردن الأعلى (منطقة الحولة وطبريا). وتربة هاتين المنطقتين قد صنفت بأنها جيدة الإنتاجية (شكل رقم ـ ١)، ولم يكن هناك مستوطنات يهودية على الهضبة الوسطى ـ سوى


صفد
حيفا
طبريا
يافا
القدس
البحر الميت
توزيع المستوطنات اليهودية
سنة ١٩٢٠م
المستعمرات

شكل رقم (٣)

اثنتين حول مدينة القدس ـ وكذلك الحال في سهل مرج ابن عامر. هذا وقد بلغ عدد المستوطنات اليهودية التي أنشئت أثناء الحكم العثماني ٢٤ مستوطنة، (إحدى وعشرون منها كانت تابعة لمؤسسة بيكا)[٤]. وقد بقي الوضع على هذا الحال تقريبا حتى عام ١٩٢٠م (شكل رقم ـ ٣)، إلا أنه بدأ يظهر توغل في سهل مرج ابن عامر (مستوطنتان)، وأخرى في منطقة النقب. وباستثناء هذه المستوطنة الأخيرة فإن معظم تلك المستوطنات قد أنشئ في مناطق زراعية أو ذات إمكانيات زراعية كبيرة بعد تطويرها إذا ما توفرت الأموال والتقنية (كمنطقتي الحولة وعتليت).

ب) المرحلة الثانية : الحصول على الأراضي الفلسطينية ما بين ١٩٢١ ـ ١٩٣٩م :

لقد ذكرنا أعلاه أنه في سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠م كان لليهود حوالي ٦٥٠٫٠٠٠ دونم، (أو ما يعادل ٢٫٥٪ من مجموع مساحة فلسطين). وقد كان عدد اليهود آنذاك حوالي ٦١٫٠٠٠ نسمة، (أو ما يعادل ١٠٪ من مجموع سكان فلسطين تقريبا)، أما السكان العرب فكانوا حوالي ٥٤٢٫٠٠٠ نسمة[٥]. وقد ابتدأ أعداد اليهود تتزايد منذ حلول الانتداب البريطاني طمعا في الحصول على أراضي جديدة داخل أملاك المستوطنات التي كانت تقيمها المنظمات الصهيونية بسرعة في فلسطين. وفي عام ١٩٢٢م بلغ عدد اليهود ما يقارب من ٨٣٫٧٩٠ نسمة، منهم حوالي ١٥٫١٧٠ نسمة (أو ما يعادل ١٨٪ من السكان اليهود) يقيمون على أراضي زراعية[٦].

لكن بعد إعلان وعد بلفور (١٩١٧م) ودعمه معنويا وماديا من قبل المنظمات الصهيونية خارج فلسطين، بدأ الصراع الحقيقي للاستيلاء على الأراضي العربية يشتد بعنف. وقد علم العرب (كما علمت المنظمات الصهيونية ووزارة الخارجية البريطانية) أن عبارة «وطن قومي لليهود» كانت تحمل في خفاياها معنى «دولة يهودية»، لذلك فقد لاحظت الهيئات الفلسطينية العربية أن حياة شعبها مرتبطة في النهاية بأمرين أساسيين، هما: قضية انتقال الأراضي، والهجرة اليهودية إلى فلسطين. ومن جهة أخرى فقد رأت المنظمات الصهيونية في امتلاك الأراضي بصورة فعلية وخلق علاقة قوية بين المستوطنين اليهود والأرض الأسلوب الوحيد لامتلاك فلسطين بكاملها في المستقبل. ولعل مذكرات «وايزمن» هي أحسن ما يلقي الأضواء على الطريقة التي اتخذها الصهاينة «لصهينة» أرض فلسطين في هذه الفترة وانتزاعها من أصحابها. يقول وايزمن في مذكراته:[٧]

«وفي شهر يناير (كانون ثاني) من عام ١٩١٧م رأيت أنه قد حان الوقت لعمل شئ حاسم، وللحصول على تصريح قاطع واضح، يحفظ لليهود آمالهم في فلسطين. ولهذا قدمت في ذلك الشهر مذكرة أعددتها مع اللجنة الصهيونية إلى «السير مارك سايكس»، ثم عقدت معه عدة مؤتمرات في شأنها، وأخيرا رفعت المذكرة - وهي الأولى من نوعها - إلى الحكومة البريطانية. وخلاصتها ما يلي:

١ - الشعب اليهودي في فلسطين يعني اليهود الموجودين الآن في فلسطين أو اليهود الذين سيهاجرون إليها في المستقبل، وعلى الحكومة التي ستحكم فلسطين أن تعترف بهؤلاء اليهود على أنهم الشعب اليهودي، ولهذا الشعب أن يتمتع بكافة حقوقه المدنية والقومية والسياسية.

٢ - على الحكومة أن توافق في الحال على تأسيس شركة يهودية لاستعمار فلسطين باسم اليهود، ويجب أن لا تقتصر مساعدة الحكومة على شراء الأراضي، ولكن يجب أن تنقل إليها جميع الأراضي الأميرية كذلك.

٣ - على الحكومة التي ستحكم فلسطين أن تسهل ليهود العالم حرية الهجرة إلى فلسطين، وأن تعطيهم كذلك حق الجنسية الفلسطينية، ثم حرية شراء الأراضي».

وبناء على هذه السياسة فقد شرعت المنظمات الصهيونية منذ حلول الانتداب البريطاني تعمل بشكل جنوني للحصول على امتيازات سياسية، لكي تضمن سرعة انتقال الأراضي إلى أيدي الصهاينة أكثر من ذي قبل. وقد كان أهم عمليتين قامت بهما هذه المنظمات هو تأمين تعيين مندوب سامي صهيوني ليدير شؤون الانتداب، ويسهل عملية اغتصاب الأراضي لحق اليهود. (وقد تم ذلك بتعيين السير «هيربرت صموئيل» H. Samowl - أحد الذين صاغوا وعد بلفور - ومعاون له صهيوني آخر يدعى «لورمان بنتويش Norman Bentwich» كنائب عام - (وألبرت هيامسون Albert Haymson كمدير لشؤون الهجرة)[٨].

أما العمل الثاني الذي قامت به المنظمات الصهيونية فكان تأسيس «الصندوق القومي اليهودي» Jewish National Fund ليقوم بشراء وتطوير واستيطان الأراضي التي يحصل عليها في فلسطين بالنيابة عن الشعب اليهودي عامة. (وقد كان هذا الصندوق مدعوما برؤوس أموال كبيرة من تبرعات المؤسسات والهيئات اليهودية والأفراد في جميع أنحاء العالم). وهكذا فقد

ضمنت المؤسسات الصهيونية العمل على نطاقين: الناحية التشريعية ـ القانونية، والناحية المالية ـ القومية.

وما إن استلمت الهيئة البريطانية الصهيونية الحكم على فلسطين حتى أصدرت قانونا للهجرة في أغسطس (آب) ١٩٢٠م، الذي وضع الحد الأعلى للهجرة إلى فلسطين بـ ١٦٫٥٠٠ يهودي في السنة الأولى. أما القوانين الأخرى ـ وكانت كلها تهدف لتدعيم الكيان القومي اليهودي ـ فقد كانت تتعلق بانتقال الأراضي وتسجيلها، وإجراء تسوية للملكيات المتنازع عليها، لكي تصبح عملية الحصول عليها أسهل. وأهم هذه القوانين قانون كان يخفي في طياته عملية حماية الفلاح العربي ضد إمكانية طرده من أرضه من قبل الإقطاعيين، إلا أنه كان له التأثير المعاكس، نظرا لوجود مساحات شاسعة مملوكة من قبل هؤلاء الإقطاعيين المتغيبين عن البلاد والمقيمين في لبنان أو سوريا. وبينا كانت العلاقات بين الفلاحين والإقطاعيين علاقات حسنة إلى ذلك الوقت، إلا أن هذا القانون أعطى الفلاحين انطباعا خاطئا، وهو أنه باستطاعتهم التوقف عن دفع الإيجار عن أراضيهم لأولئك الملاك الغائبين، لأن هذا القانون يعطيهم «حماية حق الاستغلال» Tenancy Right وكذلك فهو يحميهم ضد إمكانية الطرد من أراضيهم. وبوقوع الملاك في موقف حرج بأنهم المالكون الشرعيون لتلك الأراضي إلا أنهم عاجزون عن الحصول على الإيجار من الفلاحين، كما عليهم دفع ضرائب عالية عليها، هذا بالإضافة إلى وجود سوق نشطة وأسعار مغرية للأراضي من قبل السماسرة العديدين آنذاك، تدخل عندئذ هؤلاء العملاء، ودفعوا أسعارا مرتفعة للإقطاعيين ثمن أراضيهم.

وهكذا فقد استخدمت السماسرة بالعشرات في العشرينات وبالمئات في أوائل الثلاثينات من هذا القرن لشراء الأراضي للصهاينة، وما إن زادت قوة وخبرة الصندوق القومي اليهودي في الحصول على الأراضي حتى أصبح له حوالي ٩٠٪ من مجموع الأراضي التي حصل عليها اليهود إلى هذا الوقت. وقد قامت هذه المؤسسة خلال هذه العمليات في تطوير وتنفيذ ما سمي فيما بعد «بسياسة قومية للحصول على الأراضي»، تهدف إلى تحقيق ما يلي[٩]:

١ ـ ملاءمة قطعة الأرض المراد شراؤها لاستيطان اقتصادي يهودي شامل.

٢ ـ مكانة قطعة الأرض في بناء وتحقيق أغلبية يهودية، بحيث تضمن عملية الشراء ضم قطع الأرض إلى الأخرى التي سبق شراؤها من قبل، وبذلك يتم تدعيم المناطق اليهودية المعزولة وتوسيع رقعتها.

٣ ـ محاولة تجنب عزل المستوطنات لكي لا تقع فريسة لغزو «الشعب الغربي الحاقد».

٤ ـ إذا ما أصبح الجو الدولي غير ملائم للحصول على جميع أراضي الدولة المتفق عليها (المقترحة) أو على جزء منها، فإن الحصول على الأراضي النائية سيساعدهم أمام الهيئات الدولية والدول العظمى على فرض وجودهم في المناطق التي هي عرضة للفقدان إذا ما قامت مفاوضات جدية مع العرب. (قارن هذه السياسة مع سياستهم للمناطق المحتلة عقب حرب عام ١٩٦٧م، وما يحصل الآن في المفاوضات الأخيرة بالنسبة لسيناء والضفة الغربية وهضبة الجولان).

ولتحقيق هذه السياسة فقد سنت الوكالة اليهودية (التي تشرف على الصندوق القومي) قوانين خاصة منها[١٠]:

أ ـ إن الأرض التي نحصل عليها ستصبح ممتلكات يهودية، وسيكون حق الملكية مسجلا باسم الصندوق القومي اليهودي، إن هذه الممتلكات هي ملك غير متنازع عليه للشعب اليهودي قاطبة.

ب ـ إن الوكالة ستتولى الاستيطان الزراعي مبنيا على العمال اليهود، وسيكون استخدام اليهود في كل الأعمال والمشاريع التي ستقام على هذه الأراضي واجبا ومتفقا مع المبادئ العامة الأساسية للوكالة.

جـ ـ إن العقود المبرمة مع مستأجري أراضي الصندوق القومي تفرض غرامات وطردا نهائياً إذا استخدم المستأجر عمالا غير يهود على أرضه.

وقد كانت أول صفقة ناجحة لهذا الصندوق شراء أكثر من مائتي ألف دونم في سهل مرج ابن عامر (أخصب سهول فلسطين) ما بين ١٩٢١ ـ ١٩٢٥م من عائلة سرسق اللبنانية، وكانت هذه المساحة تشمل ٢٢ قرية، تقطنها ١٧٤٦ عائلة مؤلفة من ٨٧٣٠ شخصا. وكانت نتيجة ذلك أن أزيلت تلك القرى، وأجلي أهاليها وشتتوا، وتألب عليهم البرد والجوع، وفتكت بهم الأمراض، كما اضطر كثيرون منهم إلى الجلاء النهائي، (فهاجروا إلى أمريكا)، وحل الصهاينة مكانهم. ثم عاد آل سرسق فباعوا بعد ذلك أراضي أخرى من هذا المرج للصهاينة، حتى إنه لم يبق في يد العرب منه إلا القليل[١١]. كما نجحت هذه المؤسسة في شراء وادي الحوارث (على السهل الساحلي وجنوبي مدينة حيفا) من آل الطيان (AL-Tayyan) ، ومساحته تقدر بـ ٣١٫٥٠٠ دونم (بمبلغ ٤١ ألف جنيه فلسطيني).

أما الصفقة الثانية فكانت في سهل الحولة، وتقدر مساحته بحوالي ١٦٥ر٠٠٠ دونم، باع منها بعض السوريين غير المقيمين في فلسطين حوالي ٤٦ر١٠٠ دونم[١٢]، ونتيجة لمثل هذه الصفقات، ولإجلاء الفلاحين عن هذه الأراضي وغيره، فقد قامت اضطرابات شديدة في البلاد (خاصة في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦م)، مما أدى إلى تعديل قانون انتقال الأراضى بحيث شمل مادة تنص على أنه إذا طرد فلاح من أرضه بسبب بيعها فإنه «يجب أن يحتفظ بأرض كافية في مكان ما تسمح له أن يعيل نفسه وعائلته». ومع أنه من الأراضى التي حصل عليها ما بين الحربين العالميتين كانت أراضى غير مزروعة من قبل، إلا أنه صحيح أيضا أن مساحات أكبر كانت مزروعة ومسكونة. وكانت الوكالة اليهودية تلجأ إلى حيلة خاصة، وهي أن تشترط على البائع أن لا تتم الصفقة ما لم تكن الأرض خالية من الفلاحين تماما. ولذلك كثيرا ما كان الملاك يتبعون طرقا عديدة لإقناع هؤلاء التعساء بالرحيل عن أراضيهم قبل وصول اليهود إليها[١٣].

ونتيجة لهذا التلاعب في تنفيذ القانون السابق فقد قامت في البلاد مظاهرات واضطرابات خطيرة ودامية، مما دعا حكومة الانتداب إلى استبدال ذلك القانون بقانون آخر، يهدف إلى «حماية المزارع»، وذلك بمنع طرده من أرضه إذا استطاع إثبات حق استغلاله لتلك الأرض لمدة عام على الأقل. ولكن الملاك أخذوا يلجأون إلى حيلة جديدة أخرى، وهي تأجير أراضيهم التي ينوون بيعها في المستقبل إلى بعض الفلاحين لمدة تقل عن العام، أو عدم منع نفس الفلاح حق استغلال تلك الأرض ثانية بعد انتهاء الموسم الزراعي.

ومع وجود هذه الثغرات في القانون الجديد، إلا أن مساحة الأراضي التي تمكن اليهود من شرائها في أوائل الثلاثينات كانت أقل بكثير مما كان عليه الوضع في عام ١٩٢٩م، حيث وصلت مساحة الأراضي التي اشتراها اليهود إلى ٦٤ر٥١٧ دونم، بينما بقيت في الأعوام الثلاثة الأولى من الثلاثينات تتأرجح حول ١٩ر٠٠٠ دونم[١٤]. ولكن ما إن ابتدأت وفود المهاجرين اليهود تصل من غربي أوربا (محملة بالمال) ابتداء من عام ١٩٣٣م حتى أخذت أسعار الأراضى بالارتفاع نتيجة لازدياد الطلب على الأراضى العربية، فعاد السماسرة والعملاء إلى نشاطهم السابق في شراء الأراضى، فارتفعت المساحة المشتراة في عام ١٩٣٤م إلى ٦٢ر١١٤ دونم، وفي العام التالي إلى ٧٢ر٩٠٥ دونم، وهو أعلى حد وصلت إليه تلك الصفقات منذ اضطرابات عام ١٩٢٥م[١٥].

وقد اعترف الصندوق القومي اليهودي بأنه لم يستطع إيجاد استغلال مباشر لمثل هذه المساحات الشاسعة، لذلك فقد وضعت كاحتياطي لضمان عملية الاستيطان في المستقبل عند حصول أزمات سياسية أو قرارات معاكسة لعملية انتقال الأراضي في فلسطين. وهذا ما زاد من حدة الثورة الفلسطينية مرة أخرى، وقد قام الأهالي أيضا بأطول إضراب عام عرفته البلاد، حيث استمر الإضراب لمدة ستة أشهر من عام ١٩٣٦م، ولم ينته إلا بعد تدخل بعض الدول العربية، إلا أن الثورة بقيت مستمرة إلى عام ١٩٣٩م، عندما اضطر العرب إلى إيقاف أعمالهم العسكرية، نظرا لاندلاع نيران الحرب العالمية الثانية، وإعلان الأحكام العرفية في فلسطين.

وهكذا فقد تبين أنه خلال الفترة ما بين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٦م استطاعت المنظمات الصهيونية من خلال نشاطاتها المكثفة أن تحصل على حوالي ٦٨٣ر٠٠٠ دونم، (وإذا أبعدنا منطقة النقب تكون المساحة للأراضي الزراعية معادلة لحوالي ٦٥٠٠٠٠ دونم، وهذه المساحة تقارب المساحة التي كان قد تحصل عليها اليهود قبيل عام ١٩٢٠م، وبذلك أصبحوا يملكون حوالي ١ر٣٠٠ر٠٠٠ دونم (بالإضافة إلى أراضي النقب)، وهذا يعادل حوالي ٥٪ من مجموع مساحة فلسطين[١٦].

ولكن بناء على الاحصائيات الرسمية فإن مساحة الأراضي اليهودية غير الصالحة للزراعة قد قدرت آنذاك بحوالي ٢٢٪ من مجموع أراضيهم، أي ٢٥٨ر٧٨٠ دونم). وقد أضيف إلى ممتلكاتهم حوالي ٢٠ر٠٠٠ دونم من الأراضي الحكومية الزراعية State Domain فتصبح مجموع مساحة الأراضي الزراعية اليهودية حتى عام ١٩٣٦م ما يقارب ٩٣٧ر٤٩٥ دونم فقط[١٧].

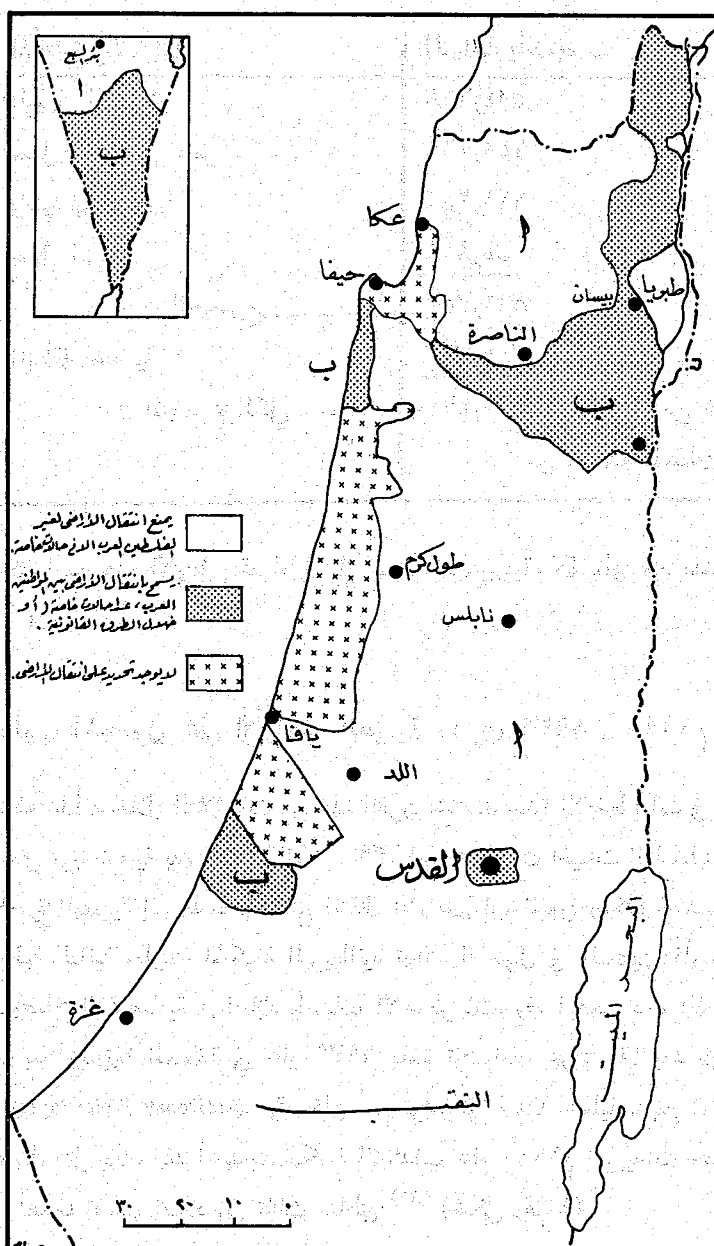
هذا ولم تتوفر الإحصائيات عن مصادر هذه الأراضي بأجمعها، إلا أن مصادر الوكالة اليهودية أعطت معلومات عن مصادر حوالي نصف هذه المساحة، كما هو ظاهر في جدول (رقم ـ ٢).

فمن جدول (رقم ـ ٢) نلاحظ أن ٥٢ر٦٪ من مجموع هذه الأراضي التي توفرت المعلومات عن مصادرها كانت قد اشتريت من الإقطاعيين الغائبين عن فلسطين، و ٢٤ر٦٪ من مجموع الأراضي اشتريت من الإقطاعيين المقيمين في البلاد، بالإضافة إلى ١٣ر٤٪ اشتريت من مصادر أخرى (كأراضي حكومية ومن الكنائس والشركات الأجنبية). وبالحقيقة

فإن جزءا بسيطا (٤ر٩٪) من مجموع هذه الأراضي قد بيع من قبل المزارعين الصغار خلال هذه الفترة، وإن حوالي نصفها كان قد انتقل إلى أيدي اليهود قبل عام ١٩٢٠م، أي قبل تجسد خطر الاستيطان الصهيوني لفلسطين.

وهناك مصادر أخرى تشير إلى أنه منذ تأسيس مؤسسة «بيكا» حتى عام ١٩٣١م فقد حصلت على مساحة ٤٥٤,٩٠٧ دونم، ومنها ٢٨٨,٤٤٥ .د. (أو ما يعادل ٤ر٦٩٪ من مجموع الأراضي المشتراه من الإقطاعيين الغائبين، و ١٢٦,٩٤٢ر١ د. (أو ما يعـادل ٦ر٣٠٪) من المزارعين المقيمين على أراضيهم. أما بين ١٩٣١ ـ ١٩٣٥م فقد زادت هذه المؤسسة ١٤,٥٠٠ د. إلى ممتلكاتها، منها ٥,١٠٠ د. من الملاك الكبار، و ٩,٤٠٠ د. من المزارعين الصغار[١٨]. أما بالنسبة لمشتريات شركة تطوير الأراضي الفلسطينية (P.D.C.O) ما بين ١٩١٠ ـ ١٩٣٠م فقد حصلت على ٤٣١,٣٧٠ د.، منها ١٠,١١٠ د. من ملاك غير عرب، و ٨٣٠ د. في منطقة بئر السبع. ومن البقية ٣٩١,٧٣٤ د. (أو ما يعادل ٢ر٩٣٪) اشتريت من الإقطاعيين الكبار، و ٢٨,٦٩٦ د. (أو ما يعادل ٨ر٦٪) من المزارعين الصغار. أما بين عامي ١٩٣١ ـ ١٩٣٥م فإن هذه الشركة حصلت على ١٥٩,٨٣٨ د.، منها ٤١,٩٤٨ د. من امتياز الحولة، و ٢٥,٣٥١ د. في منطقة بئر السبع، وحوالي ٦٣,٤٧٥ د. (أو ما يعادل ٥ر٦٨٪) قد اشتريت من الإقطاعيين الكبار، و ٢٩,١١٤ د. (أو ما يعادل ٥ر٣١٪ من البقية) من المزارعين الصغار. أي أن خلال ٢٥ عاما استطاعت هذه الشركة أن تحصل على ما يعادل ٥١٢,٩٧٩ د.، منها ٤٥٥,١٦٩ د. (أو ما يعادل ٧ر٨٨٪) من الإقطاعيين الكبار، و ٥٧,٨١٠ د. (أو ما يعادل ٣ر١١٪) من المزارعين الصغار[١٩].

هذا ومن ناحية توزيعها الجغرافي فإن معظم ممتلكات اليهود إلى هذا الوقت كانت في المناطق السهلة ذات التربة الخصبة، خاصة في السهل الساحلي وسهل مرج ابن عامر، كما هو واضح من الجدول التالي:[٢٠]



المنطقة المحددة البيع في فلسطين سنة ١٩٤٠ م
شكل رقم (٤)

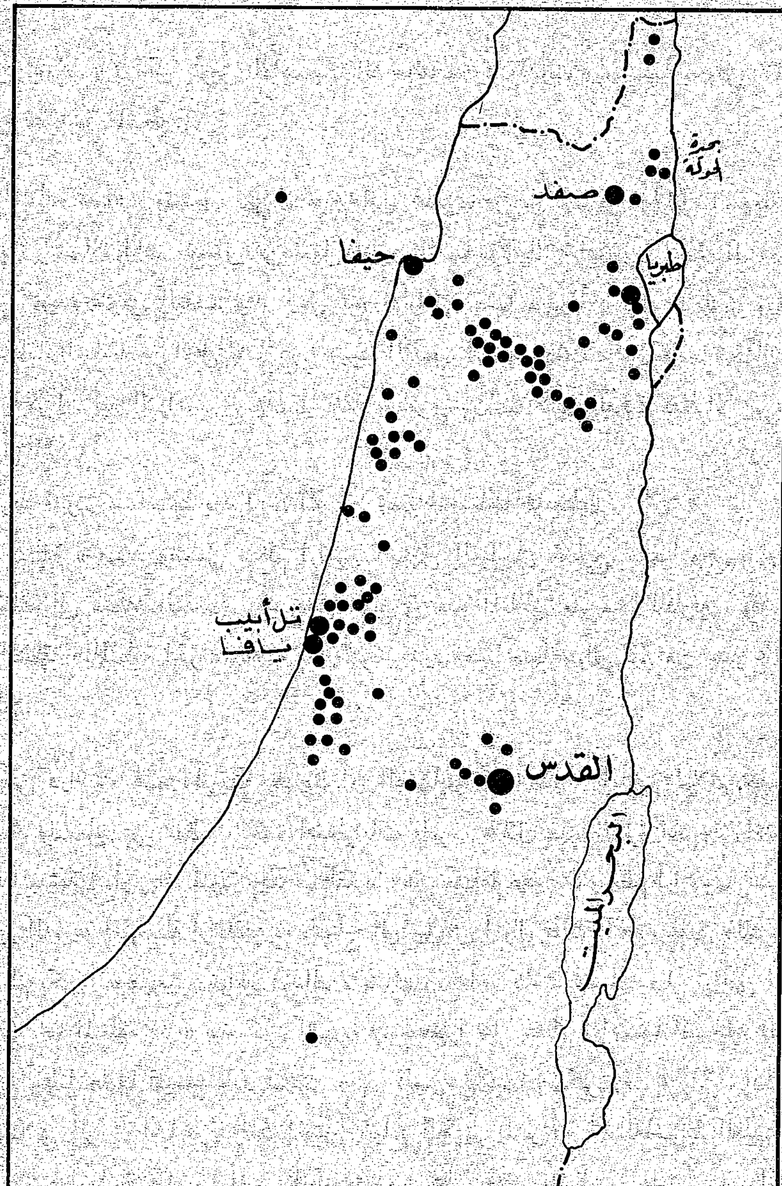
المناطق السهلية	المساحة بالدونم
السهل الساحلي	٥٥٤٫٦١٨
سهل مرج ابن عامر	١٥١٫٠٦٩
وادي نهر الأردن	١١١٫٢٥٢
سهل الحولة	٤٥٫٨١٨
المجموع...	٨٦٢٫٧٥٧
المنطقة الهضبية	٣٢٧٫٧١٣
المجموع الكلي...	١٫١٩٠٫٤٧٠ وهذا أقل من ٥٪ من مساحة فلسطين)

وإن كثيرا من هذه الأراضي قد تحول إلى مستوطنات يهودية، كما يظهر من مقارنة شكلي (رقم ٢ و ٣).

جـ ـ أساليب الحصول على الأراضي العربية ما بين ١٩٣٩ ـ ١٩٤٨م :

لقد شاهدنا أنه خلال الثلاثينات من هذا القرن اشتدت حدة الاضطرابات في فلسطين، وأخذت شكل ثورة شعبية بين عامي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م. وقد كانت الهيئات الفلسطينية تطالب بإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ومنع انتقال الأراضي إلى اليهود وهكذا فعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية حاولت الحكومة البريطانية تهدئة الأحوال في فلسطين، فأرسلت لجنة لدراسة الأوضاع الاقتصادية في البلاد وأسباب الاضطرابات. وقد أوصت هذه اللجنة (لجنة ماكدونالد) بعد زيارتها للمنطقة في عام ١٩٣٩ بعدة توصيات، عرفت فيما بعد «بالكتاب الأبيض» (McDonald White Paper). وقد كان أهم توصياتها تحديد عمليات بيع الأراضي في فلسطين. وبناء على ذلك فقد أصدرت حكومة الانتداب عام ١٩٤٠م تشريعات جديدة بهذا الخصوص، أهمها تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق:[٢١] (شكل رقم ٤).

المنطقة «أ» : وتشمل أراضي عامة خالية تقريبا من المستوطنات اليهودية، معظمها في الجليل الغربي والهضبة الداخلية وشمال النقب. وقد جعل أمر الحصول على الأراضي من قبل



توزيع المستوطنات اليهودية في فلسطين سنة ١٩٢٠

شكل رقم (٥)

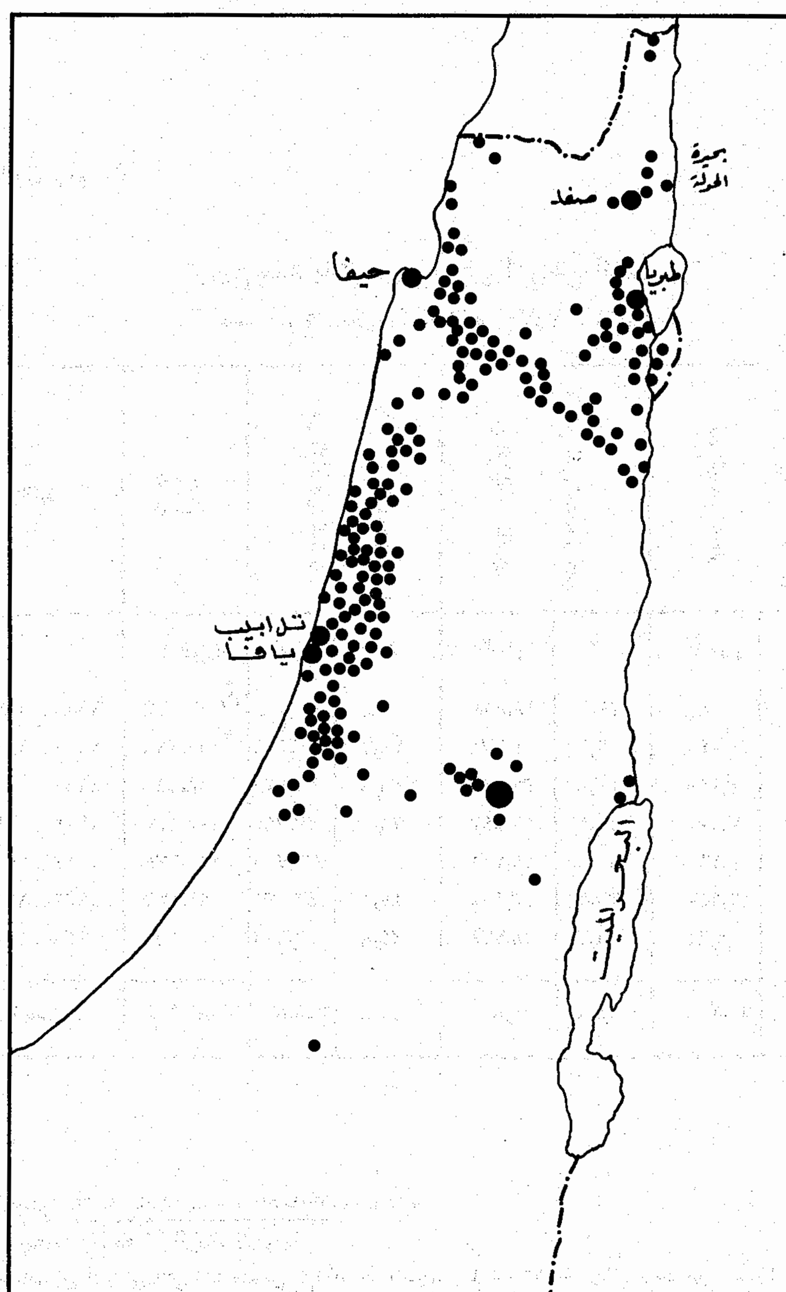
اليهود ممنوعا، إلا عن طريق الأساليب القضائية. (وقد قدرت مساحتها بحوالي ٦٣٪ من مجموع مساحة فلسطين).

المنطقة «ب» : وتشمل سهول مرج ابن عامر وجزريل وشرقي الجليل (سهولة الحولة وطبريا) وبيسان والجزء الشمالي من سهل شارون الساحلي بالإضافة إلى المنطقة الواقعة شمال شرقي غزة وجنوبي النقب. وقد جعل بيع الأراضى فيها مرتبطا بأعمال التطوير و «تعزيز» الممتلكات السابقة من أجل مشاريع، يعتبرها المندوب السامي ذات فائدة عامة. (وهناك مصدر آخر يذكر أن بيع الأراضى في هذه المنطقة مسموح بين المواطنين العرب فقط إلا في حالات خاصة)[٢٢].

وقد قدرت مساحتها بحوالى ٣٢٪ من مجموع مساحة فلسطين .

المنطقة «جـ» : وتشمل معظم أراضى السهل الساحلي وخليج حيفا وجنوبى يافا، بالإضافة إلى منطقة القدس. وقد جعل البيع في هذه المناطق مسموحا للطرفين، وقد دعيت هذه المنطقة «بالمنطقة الحرة» (Free Zone)، وقد قدرت مساحتها حوالى ٥٪ من مجموع مساحة فلسطين.

ومن دراستنا لهذه الخريطة نلاحظ أن الصهاينة قد أعدوها بأيديهم لتلائم مصالحهم الخاصة، ولتعمل على تلطيف حدة اضطرابات العرب خلال هذه الفترة الحرجة (انتصارات ألمانيا المبدئية في أوربا). فأولا نجد المنطقة «أ» هي منطقة هضبية، ومعظم أراضيها قد صنفت إما من الدرجة المتوسطة أو الفقيرة، وتحتاج إلى رؤوس أموال طائلة لتطويرها في ذلك الوقت، لذلك لم يكن الصهيونيون تواقين آنذاك لاقتنائها، مع أنها كانت تشمل معظم أراضى فلسطين (٦٣٪). أما المنطقة «ب» فقد كان اليهود قد حصلوا على معظم أراضيها الصالحة للزراعة، وأنشأوا أيضا عليها المستوطنات لتثبت حقهم الشرعي فيها (شكلي رقم ٥ و ٦). لذلك فقد تجاهلوها في الوقت الحاضر، واتكلوا على اتباع الطرق الشرعية أو القانونية التي كانوا يسيطرون عليها تقريبا، كما أنهم كانوا يعتمدون على بعض السماسرة الموثوق بهم لتسجيل الأراضى المشتراة باسمهم، ثم نقلها إلى اليهود «بالطرق الشرعية». أما المنطقة «الحرة» فقد كان اليهود بحاجة ماسة لها لتدعيم وجودهم فيها، ومحاولة تطويق الممتلكات العربية التي لا يزال أفرادها يرفضون بيعها. وقد كان اليهود قد حصلوا على حوالي نصف هذه المنطقة من قبل[٢٣].



توزيع المستوطنات اليهودية في فلسطين سنة ١٩٤٠

شكل رقم (٦)

جدول رقم ـ ٢

توزيع مشتريات اليهود لبعض الأراضي الفلسطينية
حسب نوع ملكيتها السابقة (١٨٧٠ ـ ١٩٣٦م)

الفترة	مجموع المساحة	الأراضي التي استحصل عليها من الإقطاعيين الغائبين		الأراضي التي استحصل عليها من الإقطاعيين المقيمين		الأراضي التي استحصل عليها من المزارعين الصغار	
	(بالدونم)	بالدونم	٪	بالدونم	٪	بالدونم	٪
١٨٧٩ ـ ١٨٨٩	٦٧،٠٧٣[أ]	ـــ	ـــ	١٨،٨٠٩	٢٨	ـــ	ـــ
١٨٩١ ـ ١٩٠٠	٦٠،٢١٨[ب]	٢٣،٩٠١	٣٩٫٧	٣،٦٧٨	٦٫١	٢٥،٧٤١	٤٢٫٧
١٩٠١ ـ ١٩١٤	١١٨،٢٩٠[جـ]	٣٧،٤٢٨	٣١٫٦	٣٩٫٩٢٨	٣٣٫٨	٥٫٠٩٥	٤٫٣
١٩٢٠ ـ ١٩٢٢	١٠٣،١٣٧	٧٧،٧٩٤	٧٥٫٤	٢١،٤٤٣	٢٠٫٨	٣٫٩٠٠	٣٫٨
١٩٢٣ ـ ١٩٢٧	١٩٩٫٦٧٨	١٧١٫٧٠٦	٨٦٫٠	٢٤٫٧٢١	١٢٫٤	٣٫٢٦٠	١٫٦
١٩٢٨ ـ ١٩٣٢	٩٢،٤٣٢	٤٢٫٠٣٨	٤٥٫٥	٣٣٫٤٥٤	٣٦٫٢	١٦٫٩٤٠	١٨٫٣
١٩٣٣ ـ ١٩٣٦	٤١،١٥٠	٦٫١٠٧	٢٤٫٨	٢٥٫٧٧٨	٦٢٫٧	٩٫٦٥	٢٢٫٥
المجمـــوع	٦٨١٫٩٧٨[د]	٣٥٨،٨٧٤	٥٢٫٦	١٦٧٫٨٠٢	٢٤٫٦	٦٤،٢٠١	٩٫٤

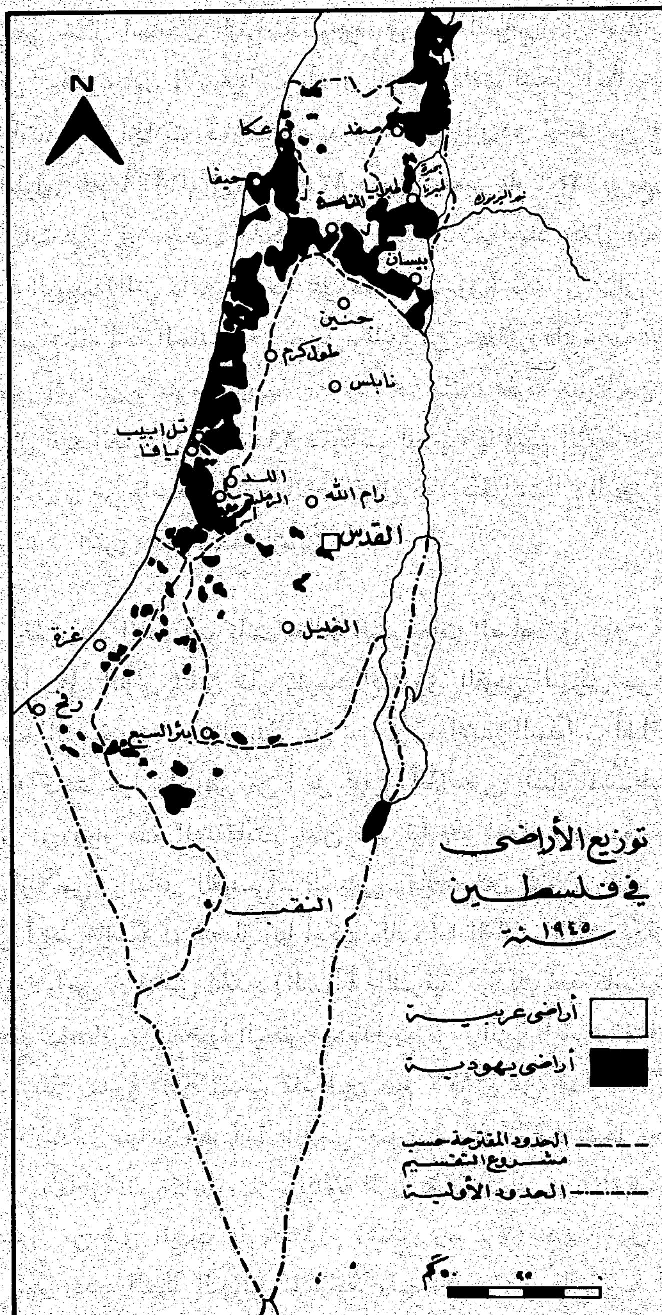
* المصدر : A Granott : The Land Systems in Palestin p. 277.
معتمدا على مصادر الوكالة اليهودية.

(أ) يضاف إلى الأراضي التي اشتريت من الإقطاعيين المقيمين، مساحة ٤٨٫٢٦٤ دونما اشتريت من مصادر أخرى.

(ب) يشمل هذا العدد مساحة ٦،٨٨٨ دونما اشتريت من مصادر أخرى .

(جـ) يشمل هذا العدد مساحة ٣٥،٨٣٩ دونما (أو ٣٠٪) اشتريت من مصادر أخرى .

(د) يشمل هذا العدد مساحة ٩١،٠٠١ دونم (أو ٤ و ١٣٪) اشتريت من مصادر أخرى .


N
صفد
عكا
حيفا
طبريا
الناصرة
بيسان
جنين
طولكرم
نابلس
تل ابيب
يافا
اللد
الرملة
رام الله
القدس
الخليل
غزة
رفح
بئر السبع
النقب
توزيع الأراضي
في فلسطين
سنة ١٩٤٥
أراضي عربية
أراضي يهودية
الحدود المقترحة حسب
مشروع التقسيم
الحدود الأولية
٥٠ كم

شكل رقم (٢)

وهكذا فمن خلال استغلال الثغرات الموجودة في هذه القوانين فإن حيازات اليهود قد ازدادت بشكل مستمر خلال الأربعينات، ولو أن الزيادة كانت بشكل أبطأ عما عهدناه في أوائل الثلاثينات. فمثلا ازدادت حيازات الصندوق القومي اليهودي لوحده من ٤٧٣٫٠٠٠ د. في سبتمبر (أيلول) عام ١٩٣٩م إلى ٨٣٥٫٠٠٠ د. في سبتمبر عام ١٩٤٦م، مع أن أقل من ثلث هذه الزيادة ظهر في سجلات الحكومة ضمن مشتريات اليهود خلال هذه الفترة، وأن مصادر الوكالة اليهودية (التي كانت تشرف على هذا الصندوق) تبين أن حوالى ٢٧٠٫٠٠٠د. (٧٩٪ من مجموع المساحة السابقة) قد حصل عليها من منطقتى «أ» و «ب»، (حيث كان انتقال الأراضى إلى اليهود ممنوعا)، ومنها ٧٥٫٠٠٠ د. كانت مملوكة سابقا من قبل اليهود، (وسجلت خلال هذه الفترة)، و ١٩٥٫٠٠٠ د. كانت للعرب، بما فيهم الإقطاعيون اللبنانيون والسوريون الغائبون عن فلسطين[٢٤]. وبالإضافة إلى ذلك فقد استطاع اليهود الحصول على حوالى ٥٠٫٠٠٠ د. أخرى من المنطقة الحرة[٢٥].

ومع أن أغلب هذه الصفقات كانت مخالفة للتشريعات الصادرة في عام ١٩٤٠م إلا أن هذا العمل يدل على التأثير الذي كان يمارسه الصندوق القومي اليهودي من أجل تحقيق أطماعه وسياسته القومية، وكذلك فإنه يدل على تساهل ومعاضدة السلطات الحاكمة لمثل هذه الصفقات. وقد كانت حيازة الأرض من أجل تحقيق أطماعه في إنشاء المستوطنات الزراعية العامل الأول من وراء هذه الصفقات، ولكن ظهر فيما بعد أهداف جديدة، وهي: العامل الاستراتيجي والأمني، والعامل القومي ـ السياسى. فالعاملان الأولان كانا يهدفان إلى الحصول على أراض واسعة أو متصلة أينما أمكن ذلك، أما العامل الثالث فكان يهدف إلى الحصول على الأراضي في مناطق الحدود (الشمالية والشرقية). ولذلك فقد كانت تلك الأراضى عبارة عن قطع منفصلة عن بعضها البعض، وهكذا مع مرور الزمن أصبح الهدف الثالث هو الأهم، خاصة بعد صدور مخطط تقسيم فلسطين عام ١٩٣٧م من قبل لجنة «بيل Peel Commission»، فأخذت سياسة الصندوق القومي تعمل منذ ذلك الوقت بشكل جاد للحصول على أراضي في المناطق التى كانت خارج الدولة اليهودية المقترحة. وإن دراسة خريطة توزيع الأراضي المشتراة من قبل اليهود عام ١٩٤٧م (شكل رقم ـ ٧) تظهر مدى نجاح هذه السياسة في تغيير حدود الدولة اليهودية المقترحة. وقد وصف هذه السياسة الاستيطانية التوسعية بعيدة النظر، خبير الأراضي اليهودي «إبراهيم غرانوط» بقوله:

«إن حدود دولة إسرائيل الجديدة والتي تسير بشكل متعرج وغريب كانت قد صممت بنجاح اليهود في خلق سياسة الأمر الواقع، إذ إن كل الأجزاء التي قد توغل إليها المستوطنون اليهود قد دمجت ضمن حدود الدولة، بينما تلك الأجزاء التي لم يكونوا فيها أقوياء، أو لم يكن لديهم الوقت لغرس «أوتادهم»، بقيت في الغالب خارج حدود الدولة...»[٢٦].

وقد كان رد فعل العرب إزاء تزايد مساحة الأراضي اليهودية أن أسسوا مؤسسة تدعى «صندوق الأمة» ـ وهو مشروع مشابه للصندوق القومى اليهودية ـ، لكن على صورة أصغر، وقد جاء هذا الجواب متأخرا للأسف، فقد ساعد على إيقاف انتقال الأراضي إلى اليهود، وبدأ في شراء الأراضي التى كان ينوى ملاكها بيعتها. ورغم أن المنافسة كانت قوية بين هذه المؤسسة وسماسرة اليهود إلا أنه استطاع أن يشهر الخونة، ويحاول منعهم من بيع أراضيهم لليهود. (وقد استعملت القوة في بعض الأحيان ضد الخونة. وإذا راجعنا السجلات الرسمية الحكومية عن مشتريات اليهود خلال الفترة فإننا نجد أن مجموع ما سجل باسم اليهود بين ١٩٤٠ ـ ١٩٤٧م كان حوالي ١٤٤٫٨٦٧ دونما[٢٧]، (أي بمتوسط حوالي ٢٠٫٠٠٠ د. في العام).

هذا وقد كانت المنظمات والمؤسسات اليهودية ـ الصهيونية تمارس ضغوطا قوية على حكومة الانتداب لكي تعمل على تحويل أجزاء كبيرة من أملاك الدولة إلى استغلالها الخاص، رغم أن مساحات واسعة كانت مسكونة من قبل المواطنين العرب منذ أجيال طويلة، ومع أن الإنجليز قد قاوموا معظم تلك الضغوط، إلا أن مساحة تقدر بحوالي ١٩٥٫٠٠٠ د. رأت طريقها إلى أيدي اليهود، إما عن طريق البيع أو التأجير لمدد مختلفة[٢٨].

وهكذا فإن الإحصائيات الرسمية تظهر أن مجموع مساحة الأراضي المسجلة باسم المؤسسات اليهودية المختلفة حتى عام ١٩٤٥م قد وصل إلى ١٫٤٩١٫٦٩٩ د.، (أو ما يعادل ٥٫٧٪ من مجموع مساحة فلسطين)، بينما الأراضي العربية كانت ١٢٫٧٦٦٫٥٢٤ د.، (أو ما يعادل ٤٨٫٥٪)، بالإضافة إلى منطقة بئر السبع (التابعة للقبائل البدوية) فقد كانت مساحتها حوالى ١٠٫٥٧٣٫١١٠ د.، أو ما يعادل ٤٠٫١٦٪ من مساحة فلسطين) وحيث إن هذه الأراضي هي ملك للعرب أيضا تحت «حق الاستغلال غير المتنازع عليه»، فإن مساحة أراضي العرب تصبح ٢٣٫٣٣٩٫٦٣٤ د.، (أو ما يعادل ٨٨٫٦٦٪ من مجموع مساحة فلسطين)، بالإضافة إلى جزء من الأراضي العامة، والتي بلغت مساحتها آنذاك حوالى ١٫٤٩١٫٦٩٠ د.، (أو ما يعادل ٥٫٦٧٪)، كما هو واضح من جدول (رقم ـ ٣).

جدول رقم ـ ٣ :

توزيع ملكيات أراضي فلسطين حسب نوعها
وما ورد في السجلات الرسمية لعام ١٩٤٥*

نوع الملكية	المساحة (بالدونم)	النسبة المئوية **
للعرب	١٢٫٧٦٦٫٥٢٤ (١)	٤٨٫٥٠ ٪
لليهود	١٫٤٩١٫٦٩٩	٥٫٦٧٪
أراضي غير موزعة وغير زراعية في النقب	١٠٫٥٧٣٫١١٠ (٢)	٤٠٫١٦٪
أراضي عامة	١٫٤٩١٫٦٩٠ (٣)	٥٫٦٧
المجموع :	٢٦٫٣٢٣٫٠٢٣	١٠٠٫٠٠٪

* المصدر : المرجع السابق : Village Statistics P. 19

** بالنسبة للتوزيع الإقليمي للممتلكات كل طرف يمكن مراجعة :

فوزي الأسدي : «قضية فرض الحدود الدولية والنزاع العربي ـ الإسرائيلي»

مجلة كلية الآداب : جامعة بنغازي ـ العدد السادس (١٩٧٤) ص ٥٣ ـ ١٨٧.

(١) منها ١٤٢٫٠٥٠ د. يملكها «آخرون» ـ ونسبتها تعادل ٥٤٫٠٪ من مساحة فلسطين.

(٢) تسوية ملكية هذه الأراضي لم تتم قبل انتهاء الانتداب عام ١٩٤٨م. لكنها حسب العرف تخص قبائل النقب.

(٣) لقد حسن من هذه الملكية حوالي ٤٩٫٧٠٠ د. ، وأضيفت إلى ممتلكات العرب لأن الزراعة عليها ملك للعرب.

هذا ومن ناحية توزيع الأراضي الزراعية حسب نوع ملكيتها فقد كان العرب أيضا يملكون معظمها كما هو واضح من الجدول التالي:

توزيع ملكية الأراضي الزراعية في فلسطين عام ١٩٤٥ *

نوع الملكية	المساحة (بالدونم)	النسبة المئوية
للعــرب	٧٫٧٩٧٫١٢٩	٨٤٫٧٠٪
لليهــــود	١٫١٧٦٫٧٤٥	١٢٫٧٨٪
أراضــي عامــة	٢٣١٫٦٦٤	٢٫٥٢٪
المجموع :	٩٫٢٠٥٫٥٣٨	١٠٠٫٠٠

* نفس المرجع السابق ص ١٩ .

ومن جهة أخرى وفقا لتقديرا «غرانوط» فإن مجموع مساحة الأراضى التي تمكن اليهود من الحصول عليها إلى يونية (حزيران) عام ١٩٤٧م بلغت ١٫٨٥٠٫٠٠٠ دونم، منها حوالي ١٨١٫١٠٠ دونم حصل عليها عن طريق الامتيازات من حكومة فلسطين، بالإضافة إلى ١٢٠٫٠٠٠ د. حصل عليها من الكنائس والشركات الأجنبية ومن حكومة الانتداب ـ عدا الامتيازات ـ، لذلك يكون مجموع ما اشترى من الملاك العرب إلى ذلك الوقت حوالي ١٫٥٠٠٫٠٠٠ دونم. وإن هذا الكاتب يذكر أن حوالي مليون دونم (أو ما يعادل ٥٧٪ من مجموع المساحة) قد حصل عليها من الإقطاعيين العرب الكبار، حوالي ١٦٪ من تلك المساحة الكلية قد اشتريت من الحكومة والكنائس والشركات الأجنبية، وإنه يقدر أيضا أن ما حصل عليه من الزراعيين الصغار كان حوالى نصف مليون دونم، (أو ما يعادل ٢٧٪ من مجموع المساحة)[٢٩]. إلا أن هذا الكاتب لا يعطينا معلومات كافية لنعرف كيف توصل إلى هذه التقديرات، وهي تظهر أيضا متضاربة مع إحصائيات الوكالة اليهودية عن توزيع نوع الملكية حتى مارس ١٩٣٦م، حيث ذكرت تلك المصادر أن ٥٢٫٦٪ من مجموع الأراضى المشتراة كانت من الإقطاعيين الكبار غير المقيمين، و ٢٤٫٦٪ من الإقطاعيين الكبار المقيمين في البلاد، و ١٣٫٤٪ حصل عليها من «مصادر أخرى»، وما تبقى (وهو ٩٫٤٪) اشتريت من المزارعين الصغار أو «الفلاحين». هذا مع العلم أن حوالي ٤٠٪ من هذه المساحة كان قد حصل عليها قبل عام ١٩٠٠م (جدول رقم ـ ٢).

إلا أنه يوجد مصدر يهودي آخر يذكر أن من بين الأراضي التي حصلت عليها مؤسسة «بيكا» وشركة تطوير الأراضي الفلسطينية» و«الصندوق القومي اليهودي» ما بين عامي ١٨٨٠ ـ ١٩٣٥م كان حوالي ٨٠٪ منها مؤلفا إما من قطع كبيرة بيعت في غالبيتها من قبل إقطاعيين غائبين عن البلاد أو من امتيازات حكومية، كما يضيف هذا المصدر أنه حتى من بين الأراضي التي اشتراها اليهود والصندوق القومي اليهودي ما بين ١٩٣١ ـ ١٩٤٧م فإن ٥٠٪ منها على الأقل كان بمثابة قطع كبيرة. ولذلك فإنه يصل إلى الاستنتاج التالي: «إن غالبية الأراضي التى حصل عليها الصندوق القومي منذ بداية أعماله إلى عام ١٩٤٨م كانت من أصحاب القطع الكبيرة الذين كانوا في كثير من الحالات إقطاعيين غير مقيمين في البلاد»(٣٠).

الخلاصـــة :

من هذا التحليل المختصر نلاحظ أنه رغم تضافر جميع جهود الإداريين البريطانيين ـ اليهود في فلسطين وخارجها، والأموال الطائلة التي أغدقتها المؤسسات والمنظمات اليهودية ـ الصهيونية، بالإضافة إلى أموال المهاجرين الأوربيين اليهود، فإن مجموع ما استطاعت هذه القوى أن تحصل عليه لم يزد عن ٧٪ من مجموع مساحات فلسطين، أو أقل من ٦٪ إذا اعتبرنا الأراضي التي اشتريت من المزارعين العرب فقط. هذا وإن نصف هذه المساحة قد حصل عليه قبل صدور وعد بلفور وظهور الخطر الصهيوني للاستيلاء على فلسطين. كما وأن جزءا بسيطا من هذه المساحة كانت قد اشتريت من المزارعين العرب الصغار، أما القسم الأكبر فقد بيع من قبل الإقطاعيين الكبار، وخاصة من أولئك الذين كانوا مقيمين خارج البلاد أثناء فترة الانتداب البريطاني عليها. وبالطبع فإن مثل هذه المساحة لم تكن كافية لإقامة الدولة اليهودية المقترحة. وهكذا لما فشلت كل الجهود «الإغرائية» للحصول على الأراضي العربية، قامت المنظمات الصهيونية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية وغيرها من الدول الكبرى بعرض القضية الفلسطينية على هيئة الأمم المتحدة لكي يتمموا «الدراما» بطريقة «شرعية ودولية».

ومن الغريب والمضحك أن توصي الهيئة المؤلفة لدراسة القضية الفلسطينية (UNSCOP) بتقسيم فلسطين، ومنح الدولة اليهودية المقترحة حوالي ٥٦٪ من مجموع مساحة فلسطين، أي إنها أضافت إلى ممتلكات اليهود هبة تقدر بنصف مساحة فلسطين ـ وكان ذلك النصف

الأحسن للأسف ـ ، وقد أبقت للعرب أقل من ٤٣٪ من مساحة فلسطين، ومعظمه يقع في المناطق الهضبية الوعرة أو الجافة. وبالطبع لم يكن أمام المواطنين العرب سوى رفض هذا المشروع الجائر رفضا قاطعا، لأن ذلك القرار يعني بالحقيقة التنازل عن ممتلكاتهم تلقائيا للغرباء عن البلاد، والقبول بالعيش بعيدين عن مورد رزقهم الأوحد. ويظهر أن هذا ما كان يتوقعه الصهيونيون الذين كانوا يستعدون منذ أمد طويل لمثل هذا اليوم، فجندوا عصاباتهم الإرهابية ضد الفلاح العربي الأعزل من السلاح، وأرغمته على ترك أرضه ووطنه، بعد أن عزلت قراه ومدنه عن بعضها البعض، وسفكت دماء نسائه وأطفاله الأبرياء (كمجزرتي دير ياسين ـ في أبريل سنة ١٩٤٨م، وعين الزيتون في ٩ مايو من نفس العام، وغيرهما من المجازر، وذلك قبل انسحاب القوات البريطانية رسميا من فلسطين).

وهكذا نتيجة لهذه الأعمال الإرهابية استطاعت المنظمات الصهيونية الاستيلاء على حوالي ٧٧٪ من مجموع مساحة فلسطين، وذلك قبل دخول الجيوش العربية لتحرير فلسطين سنة ١٩٤٨م، أي إن ذلك الاحتلال قد تم بوجود ومعرفة ومساعدة القوات البريطانية، وقد شمل ذلك الاحتلال ضم حوالى ٩٥٪ من الأراضي الجيدة (درجة أولى)، و ٦٤٪ من الأراضي المتوسطة الجودة. وبذلك فقد تم للصهيونيين تحقيق الحلم الذي لم تستطع تحقيقه بقوة المال أو الخداع والتضليل «المشروع» خلال ربع قرن من الصراع المتواصل، والتلاعب بالقوانين والسجلات، أو من خلال توصيات اللجان الملكية المتعددة. هذا ولكي تكمل فصول «الدراما» فقد عادت تلك المنظمات الصهيونية فاحتلت ما تبقى من فلسطين عام ١٩٦٧م، بالإضافة إلى مصادرة أملاك اللاجئين الغائبين عن البلاد، وحتى كثير من أملاك المواطنين المقيمين، (كما حصل في قرى كفر برعم وقلقيلية وعمواس والقسطل التي أزيلت عن الوجود وغيرها). وقد سار كل هذا ـ باعتقادي ـ حسب المخطط الصهيوني الذي كان قد رسم منذ أوائل القرن العشرين.

الحواشـــي

(1) Fawzi Asadi, 'Geographic Elements in the Arab-Israeli Conflict, 'The Journal of Palestine Studies, Vol. VI. No. 1 (Autumn, 1976), pp. 79-92.

(2) Sami Hadawi : Land Ownership in Palestine (New York): The Palestine Arab Office, 1957), p 22.

(3) John Ruedy, 'Dynamics of Land Alienation,' in I. Abu-Lughod (edit.) : The Transformations of Palestine (Evanstone: Northwestern University Press, 1971), p. 126.

(4) Abraham Granott : The Land Systems of Palestine (London: Eyre & Spottswoode, 1952), p. 159

(5) Walid Khalidi (edit.) : From Haven to Conquest (Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1971), Appendix I.

(6) Abraham Granovsky : The Land Issue in Palestine (Jerusalem: Keren Kayemet Le Israel Ltd,. 1936), p. 11

(٧) حسين التريكي : هذه فلسطين (تونس الشركة التونسية للتوزيع (١٩٧١)، ص ١٣٢.

(٨) المرجع السابق ، ص ٥٨ S. Hadawi.

(9) Abraham Granott : Agrarian Reform and the Reoord of Israel (London: Eyre & Spottswoode, 1956), p. 32 and J. Ruedy, p. 129.

(١٠) المرجع السابق J. Ruedy, P. 130

(١١) يوسف هيكل : فلسطين قبل وبعد (الانتداب البريطاني) - بيروت. دار العلم للملايين، ١٩٧١، ص ١١٧.

راجع أيضا : The Shaw-Commission Report, 1930 p. 118.

(12) Village Statistics- 1945 : A Classification of Land and Area Ownership in Palestine (Reprinted with explanatory notes by Sami Hadawi, Beirut; PLO, Research Center, 1970), p. 28

اعتمد السيد سامي حداوي - المسئول السابق عن ضرائب الأراضي في حكومة الانتداب على

فلسطين ـ على دراسة ميدانية قام بها الدكتور فايز صايغ، حيث وجد من تحرياته الحقلية أن اليهود قد اشتروا ما لا يقل عن ٤٦١٫٢٥٠ دونما من الإقطاعيين الأجانب الغائبين عن فلسطين، وذلك يقتصر على المناطق التي أجرى فيها تحرياته، وقد ألحق قائمة بأسماء الإقطاعيين والأراضي التي باعوها للمؤسسات اليهودية ـ الصهيونية .

(١٣) راجع التفاصيل في : Government of Palestine : Survey of Palestine 1945, Vol. I, p. 289.

(١٤) المرجع السابق Village Statistics, p. 25

(١٥) نفس المرجع .

(١٦) المرجع السابق A. Granovsky, p. 46

(١٧) نفس المرجع ، ص ٤٧ .

(١٨) نفس المرجع ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

(١٩) لم يميز المصدر السابق بين الملاكين الكبار المقيمين وغير المقيمين في حالة الأراضي المشتراة من قبل شركة تطوير الأراضي الفلسطينية، إلا أنه على رأي «غرانوط» فقد كانت مشتريات الصندوق القومي اليهودي حتى عام ١٩٣٠ قد وصل إلى ٢٧٠٫٠٨٤ دونما، منها ٨٨٫٦٪ من الإقطاعيين الغائبين، و ٩٫٥٪ من المزارعين الصغار.

(٢٠) نفس المرجع ص ٤٥ ـ ٤٦ (إن هذا التوزيع لا يتوافق مع التوزيع المذكور سابقا إذ إن هذا التوزيع لا يحوي أراضي منطقة النقب).

(٢١) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢٢) راجع مفتاح خريطة توزيع مناطق البيع حسب توصيات لجنة «ماكدونالد» لعام ١٩٣٩.

(23) Walter Lehn, 'Zionist Land: The Jewish National Fund, 'The Journal of Palestine Studies, Vol. III, no. 4 (Summer, 1974), p. 90

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٩١ (ولإظهار تحيز حكومة الانتداب في تسجيل حيازات اليهود في هذه الفترة راجع أيضا Govt, of Palestine: Survey of Palestine Vol. I, p. 244

مع أن «غرانوط» يذكر أن الصندوق القومي اليهودي قد استحصل حتى نهاية عام ١٩٤٧ على ٥١٦٫٣١٢ دونم ومن ناحية الملكية فقد كانت مقسومة بالتساوي بين الملاكين الكبار والصغار.

(٢٥) المرجع السابق ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢٦) راجع ما قاله أيضا «يهودا هريل» (Yehuda Harel) قائد المستوطنين في منطقة الجولان مخاطبا أبناء المستوطنات اليهودية هنا:

«إن إسرائيل هي دولة بدون حدود، ولا يوجد اثنان هنا أو في الخارج متفقان على هذه الحدود. وإن ما نملكه هو حيثما استطاع الشعب اليهودي إقامة مستوطنات له. وإن الشئ الجدير بالذكر أنه خلال الثمانين سنة الأخيرة لم يتخل اليهود عن أية مستوطنة بإرادته، وأن هذا الشعب يشعر أنه

بمجيئه إلى هنا (الجولان) قد دفع الحدود إلى هذه البقعة».

كما ورد في جريدة : . New York Times, 31 , Aug. 1975

ومقتبسا من مقالة : ,'A. M. Lesch, 'Israel Settlements in the Occupied Territories, 1967-77

JPS, Autumn 1977 p. p. 26-48

(٢٧) المرجع السابق J. Ruedy معتمدا على ما ورد في :

Survey of Palestine, Vol. I , pp. 262-265, and supplement, p. 31.

(٢٨) نفس المرجع .

(٢٩) المرجع السابق ص ٢٧٨ A. Granott : Agraraian Systems

(30) Efraim Orni : Agraraian Reform and Social Progress in Israel, '(Jerusalem: 1972)

كما ورد في المقالة السابقة للكاتب "W. Lehn" حاشية، ص ٩٥ .

اصول المشكلة الاريترية
و مستقبلها

دكتور / محمد سعيد

مقدمــة :

ترجع فكرة كتابة هذا البحث لدي إلى مرحلة الدراسة الثانوية، عندما بدأنا نسمع عن التحركات الأولى للثورة الأريترية في أوائل الستينات، ولم نكن نعلم في حينها لماذا قامت الثورة الأريترية؟ ولماذا تحارب أثيوبيا؟ فقد كانت المكتبة العربية خالية تماما من أي كتاب يتناول المشكلة الأريترية، مما زاد في غموضها وغموض ثورتها.

وفي بداية التحاقي بجامعة دمشق في نهاية الستينات، ولقائي مع بعض طلبة الجامعة من الأشقاء الأريتريين، وضحت الصورة تماما في ذهني عن المشكلة الأريترية، من كثرة الأسئلة التي كنت أطرحها على هؤلاء الزملاء. وعلى الرغم من وضوح الصورة أمامي، إلا أن فقر المكتبة العربية من المراجع والكتب المختصة مازال قائما، مما أخرني عن الاطلاع الدقيق ومن ثم إنجاز هذا البحث.

وفي أوائل السبعينات التقيت مع بعض الأخوة الأريتريين في القاهرة، وتزودت منهم ببعض المعلومات عن المشكلة الأريترية على شكل كتيبات صغيرة وبعض النشرات الصحفية. وفي العام الماضي نشرت جبهة التحرير الأريترية وثائق الخارجية الإيطالية ووثائق الأمم المتحدة حول أريتريا، بالإضافة إلى بعض الكتيبات الأخرى. وقد كانت هذه الوثائق بمثابة الركيزة التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث، بالإضافة إلى المقابلات الشخصية التي قمت بها لبعض المسئولين في الثورة الأريترية، ومن يعملون بإخلاص من الأشقاء العرب لدعم هذه الثورة، لينال الشعب الأريتري المسلم حقه في الحرية والاستقلال.

وقد حاولت من خلال البحث إبراز عدد من النقاط الهامة :

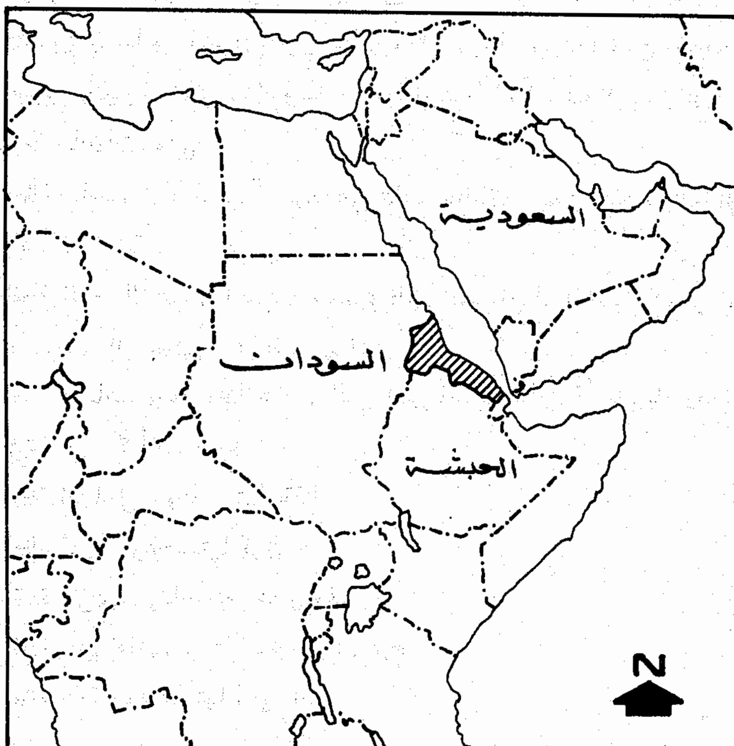
تمثلت النقطة الأولى منها في التركيز على عدم الترابط بين أريتريا وأثيوبيا، وإبراز ذلك من خلال الدراسة التاريخية التي وردت في بداية البحث، بالإضافة إلى تخصيص مبحث خاص لهذا الموضوع، ركزت فيه على مناقشات الأمم المتحدة. كما استهدفت من وراء الدراسة التاريخية أيضا إعطاء القارئ العربى فكرة موجزة عن تاريخ الهجرات العربية، ودخول المسيحية والإسلام إلى بلد شقيق، تجهله غالبية الشعوب العربية والإسلامية، نتيجة للحصار

المحكم الذي مارسه ويمارسه الحكام الأثيوبيون لكتم أي صوت أو قلم ينادي بعروبة أو إسلام أريتريا. وعلى الرغم من قلة المراجع التاريخية عن أريتريا باللغة العربية أو الإنجليزية، إلا أنني وجدت في كتاب المناضل الأريتري عثمان صالح سبى عن تاريخ أريتريا خير معين في هذا الموضوع، وخاصة فيما يتعلق منه بالتاريخ القديم.

أما النقطة الثانية فهي إلقاء الضوء على الظروف المحلية والأثيوبية والدولية التي أحاطت بالمشكلة الأريترية، ومن ثم لتوضيح شرعية قيام جبهة التحرير الأريترية ومطالبتها بالاستقلال. وقد وضح ذلك من خلال دراسة الموقف الأمريكي في الأمم المتحدة، والممارسة الأثيوبية أثناء الحكم الفيدرالي، ومن ثم إلغاؤه من طرف واحد.

وتوضح النقطة الثالثة، أن الخلاف الأريتري المسلم ـ الأريتري المسيحي لم ينشأ على طول التاريخ الأريتري قديمه وحديثه، دون تدخلات خارجية في شئون أريتريا. وقد أشرنا إلى ذلك من خلال دور كل من أثيوبيا وبريطانيا في تعميق شقة هذا الخلاف.

أخيرا قام الباحث بالتركيز على تطور الثورة الأريترية، وإيضاح الكيفية التي انعكست بها الخلافات الأريترية على هذه الثورة، محاولا في نفس الوقت التأكد على الدور الواجب عمله لكل من الدول العربية والثورة الأريترية خلال الظروف الدولية الحالية الصعبة لتأمين حل ومستقبل أفضل للقضية الأريترية.



موقع اريتريا بالنسبة للبحر الأحمر وقارة إفريقيا

شكل (١)

▪ مدخل إلى جغرافية أريتريا :

تقع أريتريا على الطرف الجنوبي الغربي من البحر الأحمر، ويحدها من الشرق والشمال البحر الأحمر، بينما يحدها من الشمال الغربي والغرب جمهورية السودان، أما من الجنوب فيحدها كل من جيبوتي وأثيوبيا، شكل (١)، وتبلغ مساحة أريتريا ١١٩ ألف كيلو متر مربع، مقسمة إداريا إلى ٨ محافظات، وهي:

١ ـ محافظة حماسين ، وعاصمتها أسمرا، وهي عاصمة البلاد، ويصل عدد سكانها إلى حوالي ٣٠٠ ألف نسمة.

٢ ـ محافظة البحر الأحمر، وعاصمتها مصوع التي تعتبر الميناء الرئيسي لأريتريا، ويصل عدد سكانها إلى حوالى ٥٠ ألف نسمة.

٣ ـ محافظة دنكاليا، وعاصمتها عصب التي تعتبر الميناء الثاني لأريتريا، ويصل عدد سكانها إلى ٣٠ ألف نسمة.

٤ ـ محافظة الساحل ، وعاصمتها نقفة .

٥ ـ محافظة كرن ، وعاصمتها كرن .

٦ ـ محافظة سراي ، وعاصمتها عدى وقرى .

٧ ـ محافظة اقلى قوازي ، وعاصمتها عدى قيح .

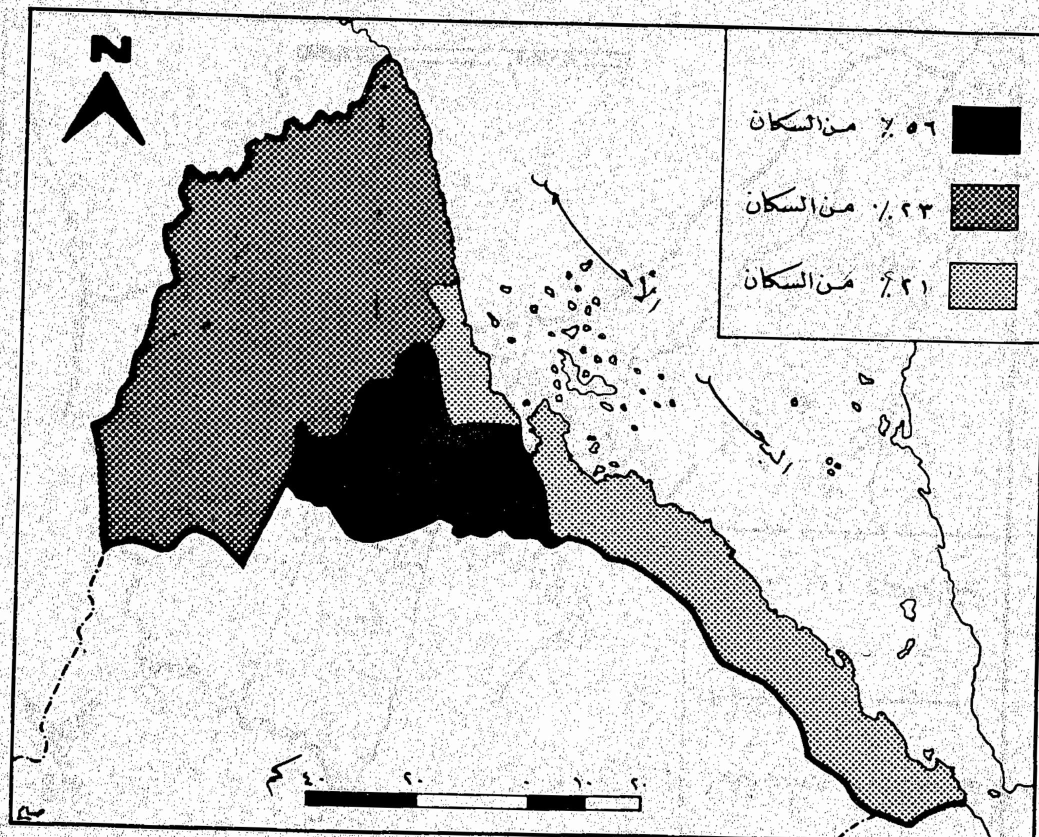
٨ ـ محافظة بركة ، وعاصمتها أغوردات .

ويتبع أريتريا عدد من الجزر يصل إلى ١٢٦ جزيرة، أكبرها جزيرة دهلك.

وتنقسم أريتريا إلى وحدتين متميزتين تتمثلان في الهضبة الأريترية، والسهول الساحلية والغربية.

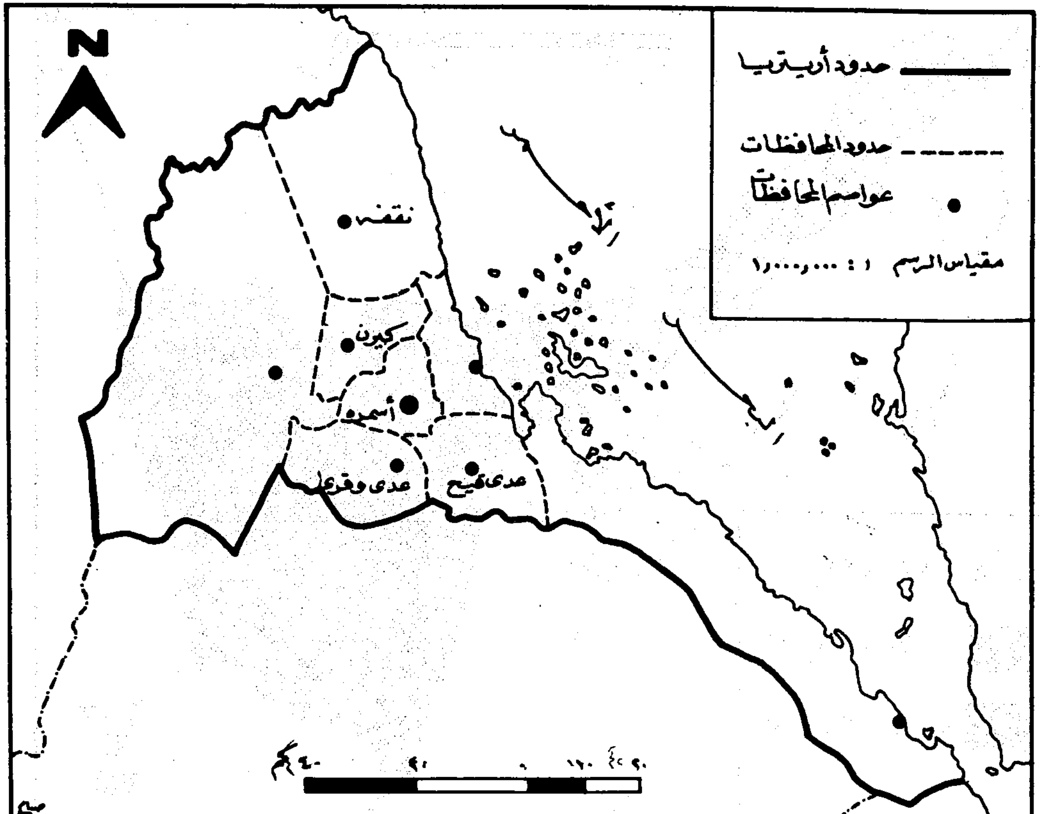
وتتكون الهضبة الأريترية من جبال يتراوح ارتفاعها بين ٦٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وتكون هذه الهضبة التقسيمات الإدارية لكل من سراي واقلى قوزاي وحماسين. وعلى الرغم من أن هذه الأقسام الثلاثة لا تشكل سوى ٤٪ من مساحة أريتريا إلا أنها تحتوي على ٥٦٪ من السكان.

الكثافة السكانية العامة في أريتريا



شكل (٢)

التقسيم الإدارى للمحافظات الأريترية



شكل (٢) مكرر

تنحدر الهضبة شمالا إلى محافظة كرن، حيث تنخفض المرتفعات إلى ٤٠٠٠ قدم، وتبدو الجبال انهدامية، لا تلبث أن تحول إلى هضاب في الشمال الأقصى عند انحدارها إلى منطقة طوكر في السودان، وتنحدر إلى الشرق انحدارا شديدا إلى سهول البحر الأحمر، في حين أنها تتدرج ببطء نحو سهول السودان. وتكون هذه المنطقة بأكملها المديرية الغربية (كرن، وبركة، والساحل) التي تضم ٥٤٪ من مساحة أريتريا و ٣٣٪ من السكان ـ (شكل (٢).

ويعتنق السكان الأريتريون كلا الديانتين الإسلامية والمسيحية، فبينما ينتشر المسلمون في كل المقاطعات الأريترية، ويشكلون ٦ر٥٠٪ من السكان[١] ـ شكل (٣)، يتركز المسيحيون في مقاطعات الهضبة الأريترية، ويشكلون ٤ر٤٩٪ من السكان.

ويعتبر نهر ستيت (عطبرة في السودان) أحد روافد النيل أهم أنهار أريتريا، لكونه دائم الجريان، ويشكل الحدود بين أريتريا وأثيوبيا. أما نهر خور بركة والقاشي فهما من الأنهار الموسمية، وينشآن عن تجمع مياه الأمطار الساقطة على الهضبة.

وتسقط الأمطار بشكل غزير على مركز الهضبة، حيث تصل إلى ٤٥ بوصة سنويا، بينما تنقص في بركة إلى ٢٥ بوصة، وفي مصوع وعصب ٧ر٣ بوصات على التوالي.

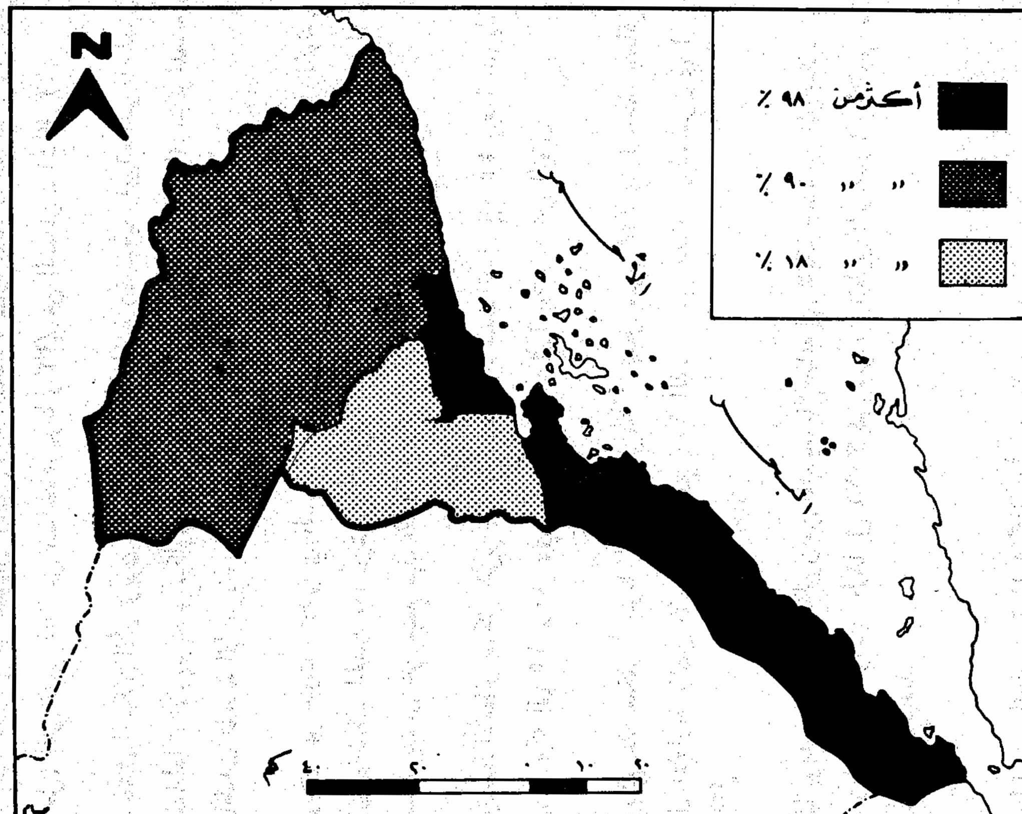
ويبلغ عدد سكان أريتريا ٣ مليون تقريبا[٢]، يعمل منهم ٧٨٪ في الزراعة، والباقي في الأعمال الإدارية والمهن الأخرى، ومنهم ١٠٠ ألف عامل صناعي يعملون فى (٤٠٠) مصنع[٣].

كما يوجد في البلاد ١٠ مليون من الماشية، بالإضافة إلى شبكة جيدة من المواصلات تربط بين المدن الأريترية، ويصل طولها إلى ٣٠١٦ كيلو مترا من الطرق البرية، و ٣٠٦ كيلو مترات من السكك الحديدية.

أولا : الجذور التاريخية للمشكلة الأريترية :

تتضمن هذه الجذور الكيفية التي تكون بها الشعب الأريتري، والثقافات والديانات والدول التي أثرت ومرت بأريتريا.

نسب توزيع السكان المسلمين في أريتريا



شكل (٣)

١ ـ هجرة الساميين والعرب إلى أريتريا :

لا نستطيع هنا في هذه المنطقة المتاخمة إلى بلاد العرب السعيدة (اليمن) أن نوجد حدا فاصلا بين هجرة العرب وهجرة الساميين إلى أريتريا، وذلك لتتابع الهجرات إليها من اليمن.

فقد عرفت أقدم هجرة إلى أريتريا عندما هاجرت عدة قبائل من اليمن أمثال حبشات وأجعازيان وغيرهما منذ القرن الخامس قبل الميلادي، ليستقروا في الهضبة الأرترية وهضبة التجراي، وينشئوا مملكة أكسوم المشهورة فيما بعد، التي قامت على أساس الاستقرار والزراعة، بعد أن كان السكان الأصليون من الكوشيين(٤) يعتمدون على الصيد والرعي.

توقفت الهجرات العربية بشكل مؤقت عندما تدخل الإغريق البطالمة في البحر الأحمر، وأسسوا مرفأ «عدوليس» في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، إلا أن هذه الهجرات ما لبثت أن استؤنفت في ما بعد الميلاد بين عام ٢٣٢م و ٢٥٠م.

وقد تكونت مملكة أكسوم في عهد سبأ وحمير خلال القرن الأول الميلادي، وكانت امتدادا لهما، حتى إن لقب حاكمها نجاش (نجوس) لم يكن يعني في بداية الأمر إلا جابي ضرائب، كان يبعثه ملوك سبأ وحمير إلى جالياتهم هناك لجمع الضرائب، ولم يلبث أن حول مع الزمن إلى ملك.

ولم يقطع السبئيون صلاتهم بوطنهم القديم، بل ظلت أنظارهم متجهة إليه، وتمثل ذلك بإرسالهم الحملات الحربية والتدخل بشئونه، واحتلالهم له فترات من الزمن.

وإثر اجتياح قبائل البجة الحامية منذ القرن الثامن الميلادي للهضبة الأرترية، اندثرت أكسوم كمملكة موحدة، وظهرت بدلا منها ممالك صغيرة مستقلة، ولكنها ما لبثت أن توحدت بعد أن أحست بخطر التجراي حين اعتلى إيكونو عرش الحبشة في عام ١٢٧٠م، وتولى حكم أقاليم الهضبة الأرترية الثلاثة (حماسين، سراي، اكلي قوزاي) ملك البحر (بحر نجاش). وقد سمي بذلك على الرغم من عدم سيطرته على الشريط الساحلي الذي كان بيد قبائل البجة الشرسة.

وتوالت الهجرات العربية إلى الساحل الإفريقي في القرن السادس للميلاد، وضمت هذه الهجرات بطونا من حمير عرفوا بقبيلة (البلى أو البلو).

بعدها وردت من الجزيرة العربية مجموعة من قبيلة بني يونس إلى عيذاب في غرب أرتريا، تلتها قبيلة ربيعة ومجموعات من القبائل القحطانية والجهنية، التي قدمت من مصر إلى الساحل الأريتري، ولم يمض وقت طويل حتى رجعت قبيلة بني يونس إلى الحجاز نتيجة خلافها مع ربيعة على استثمار المعادن.

وتعتبر قبيلة الرشايدة آخر من نزح من الحجاز إلى الساحل الأريتري، وذلك في عام ١٨٥٠م.

أخيرا يمكننا أن نضيف الهجرات الفردية التي كانت تحدث من جراء الحروب في الدولة الإسلامية، كالحرب بين الأمويين والعلويين، أو بين الأمويين والعباسيين، أو بين العباسيين والعلويين وغيرها.

٢ ـ دخول المسيحية إلى أرتريا :

تعتبر الرواية التي كتبها الكاهن روفينوس (Rufinus) الذي توفي سنة ٤١٠م عن دخول المسيحية إلى أرتريا وأكسوم من أرجح الروايات، ويذكر فيها أن مجموعة من تجار مدينة صور قاموا برحلة تجارية قاصدين الهند، وفي الطريق توقفت سفينتهم في ميناء عدوليس على الشاطئ الأريتري، ولسبب أو لآخر اعتدى أهل الميناء وأغرقوا من فيها، عدا شابين صغيرين أكبرهما فرومنتيوس (Frumentius)، والآخر أديسيوس (.Edesius). فباعهما أهل الميناء إلى ملك أكسوم الذي سر بهما، وعين فرومنتيوس أمينا على حساباته ورسائله، بينما جعل الثاني ساقيه الخاص. وبقيا مقربين من الملك حتى بعد وفاته، حيث أصبحا وصيين على الملك الصغير عيزانا.

خلال هذه الظروف استطاع فرومنتيوس أن يقنع الملك عيزانا باعتناق الدين المسيحي، وذلك في عام ٣٥٠ ميلادية. بعدها سافر فرومنتيوس إلى الإسكندرية، وطلب من البطريرك أتيناسيوس إرسال مطران إلى أكسوم لرعاية شئون المسيحيين، فوجد فيه البطريرك خير من يقوم بهذه المهمة، وعينه مطرانا على أكسوم[٥]. أما أوديسيوس فقد رجع إلى صور، وروى على روفينوس ما حدث.

اقتصر اعتناق الدين المسيحي في عهد الملك عيزانا على فئة قليلة من الناس، وكانت المسيحية تتسرب ببطء شديد بين القبائل الوثنية خلال قرنين من الزمان.

ومما دعم المسيحية في الهضبة الأرترية قدوم تسعة من المبشرين السوريين السريان، هاربين إلى أكسوم بعد أن رفضوا قرارات (أفزوس) سنة (٤٣م، ومجمع ٤٥١م، وترجموا الإنجيل إلى اللغة الجعزية.

ويعتنق حاليا ٨٠٪ من مجموع السكان المسيحيين في أرتريا المذهب الأرثوذكسي، بينما يعتنق باقي السكان كلا من المذهب الكاثوليكي والبروتستانتي، اللذين انتشرا مع قدوم الاستعمار الأوربي للهضبة الأرترية.

٣ ـ دخول الإسلام إلى أريتريا :

ترجع صلة العرب بالشاطئ الأريتري إلى بداية ظهور الإسلام، حيث أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن تعرضوا لأذى قريش، وتزايد عدد المهاجرين المسلمين إلى أكثر من مئة رجل فارين بدينهم.

وكانت المرحلة التالية لدخول المسلمين، إلى أرتريا عندما تكررت غارات القراصنة على ميناء جدة في عامي ٦٣٠، ٦٤٠م من ميناء عدوليس (الذي وصلت إدارته إلى مرحلة كبيرة من الإهمال، نتيجة الصراع الروماني الفارسي الذي أقحم اليمن وأكسوم في حروب طويلة)، مما اضطر العرب الأمويين إلى الاستيلاء على جزر دهلك وشاطئ مصوع وعدوليس في عام ٨٤ هـ (٧٠٢م). وقد أقام الأمويون هناك القلاع والحصون، وأمنوا طرق التجارة، فازدهرت البلاد، وشجع العرب على استيطان المنطقة.

وكان فتح العرب المسلمين لهذا الشاطئ بداية الانتشار الواسع للإسلام في شرق إفريقيا.

وتعتبر القرون الثلاثة التي تلت القرن السابع الميلادي فترة تصاهر فيها العرب النازحون مع قبائل البجة التي اكتسحت المنطقة والقبائل الكوشية القديمة، وعن طريق المصاهرة والتجارة انتشر الإسلام، حتى إن المؤرخ الإيطالي كونت روسيني يشير إلى قيام ولايات إسلامية عربية مزدهرة في دهلك والشواطئ الأريترية في القرن الثامن الميلادي. ويعتقد بأن

قبائل الدناكل في جنوب أريتريا، والسمهر في ضواحي مصوع، تعد من أقدم سكان أريتريا اعتناقا للإسلام. كما انتشر الإسلام بين قبائل الساهو، التي تسكن فى المنطقة الممتدة من خليج زولا إلى مرتفعات اكلي قوازي، في القرن الرابع عشر الميلادى، عن طريق أسر دينية عربية، أشهرها قبيلة (بيت شيخ محمود). أما قبائل الساحل والبني عامر فقد انتشر الإسلام بينها ابتداء من القرن العاشر الميلادى. كما كان لعائلة (عد شيخ حامد ولد نافعو تاي) تأثير كبير في نشر الإسلام بين قبائل الحباب والبني عامر، ولها حتى الآن زوايا لتعليم الدين. وهناك العديد من الأسر الدينية الأخرى التي قامت بنشر الإسلام في مختلف البقاع الأرترية.

وقد تحول خلال القرن التاسع عشر عدد من القبائل المسيحية الناطقة بالتجري إلى الدين الإسلامي، وأهمها قبائل الماريا، والمنسع، والبلين، والبيت جوك، والحبـاب بفروعهـا الثلاثة، (بيت أسقدي، عد تكليس، عتاريام)، كما اعتنقت الإسلام بعض القبائل الوثنية. ويرجع إسلام هذه القبائل إلى جهود الشيخ محمد عثمان المرغني، مؤسس الطريقة الختمية في أرتريا، الذي أوفده شيخه أحمد بن إدريس من مكة في عام ١٨١٧م، وبصحبته محمد على السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية في ليبيا. وقد افترقا عند وصولها إلى مصر، حيث ذهب الأول في اتجاه الجنوب، والثاني في اتجاه الغرب.

كما انتشر الإسلام في الهضبة الأريترية بين قوم عرفوا باحتراف التجارة يطلق عليهم الجبرتة، وينتسب إليهم المؤرخ المصرى الجبرتي.

وهكذا انتشر الإسلام في سواحل أرتريا وأجزائها الشمالية والغربية وفي قسم من هضبتها عن طريق عدوليس وباضع (مصوع)، وهي الطريق نفسها التي دخلت منها المسيحية من قبل. ولم ينحصر الإسلام في السواحل الأريترية، بل امتد عبر أريتريا إلى داخل الحبشة، حتى تألقت عدة ممالك إسلامية عربية، عرفت ببلاد الطراز الإسلامي[٦].

ويعزو أولندورف Ullendorff في كتابه «الأثيوبيون» سرعة انتشار الإسلام في سواحل أريتريا والحبشة إلى رغبة هؤلاء القوم في النجاة من الاسترقاق، حيث يمنع الإسلام استرقاق المسلم. بينما يذكر ترمنجهام في كتابه «الإسلام في أثيوبيا» أن اعتناق الإسلام كان يوحـي بالانتماء إلى أخوة عالمية، دون أن يكلفهم ذلك الانسلاخ من بيئتهم وعاداتهم.

٤ ـ الحكومات والدول التى حكمت أريتريا :

بعد أن هزمت أكسوم ونشأ إلى الجنوب منها مملكة الأمهرا الهجينة[٧]، وتولى الحكم فيها إيكونو أملاك[٨] (الذي أسس ما سمي بالبيت السليماني بعد قضائه على أسرة زاقوي ١٢٧٠ م)، أظهر هذا الملك عداء شديدا لممالك الطراز الإسلامي التي انتشرت من سواكن حتى زيلع[٩]، وبدأ حربا دينية كانت الأولى من نوعها في المنطقة، استهدفت هذه الممالك. ومن المرجح أن هذه الحرب لم تكن أسبابها الحقيقية دينية في بادىء الأمر، وإنما كان هدفها السيطرة على طرق التجارة والموانىء الأريترية التي كانت بيد المسلمين، ولكن هذه الحرب والعداء الذي أظهره إيكونو كان له نتائج خطيرة، تمثلت في سلسلة من الحروب الدينية، وعلى مدى القرون الثلاثة التي تلت حكم إيكونو، كما تركت آثارا سلبية على طبيعة العلاقة بين أتباع الطائفتين الإسلامية والمسيحية، لاتزال تعاني منها البلاد حتى الآن.

استمرت غارات ملوك الحبشة الجدد على ممالك الطراز الإسلامي بشكل مكثف، وأخذت الحرب بعدا آخر بمحاولة عدد من ملوك الأمهرا طلب مساعدة الدول الأوربية أمثال الملك إسحاق وابنه زرا يعقوب والملكة هلينا وابنها لينا دنقل، وذلك فيما بين عامي ١٤٢٠ و ١٥٢٠م. وكان من نتيجة هذه التصرفات أن احتل الأسطول البرتغالي أهم الموانىء البحرية على الشواطىء الأريترية والصومالية.

ففي العاشر من نيسان (أبريل) ١٥٢٠م وصل الأسطول البرتغالي إلى مصوع قادما من الهند بقيادة نائب الملك البرتغالي، الذي أجرى مقابلة مع بحر نجاشي، وحول مسجد مصوع إلى كنيسة[١٠] بعد أن أحرق المدينة.

وعلى الرغم من أن الحرب خلال المئة عام المذكورة كانت في معظمها في صالح الأحباش، مما نتج عنه دفع الجزية لهم من قبل الأمارات الإسلامية، إلا أن هذه الحال لم تدم طويلا، إذ سرعان ما توصل أحمد بن إبراهيم ـ وهو أحد فرسان سلطنة عدل[١١] ـ إلى السلطنة، وأخلص في تقوية جيشه، واستولى على سلطنة هرر، وبرفضه دفع الجزية للبنا دنقل (ملك الحبشة) احتدمت الحروب بينهما في عام ١٥٢٣م، تلك الحروب التي كان من نتيجتها هزيمة لبنا دنقل، واجتياح الإمام أحمد (كان قد سمى نفسه إماما للمسلمين) لمملكة الحبشة بأسرها.

وإذا كانت هذه الحروب قد اتسمت بالقسوة ضد المؤسسات المسيحية الحبشية، فإنما يبررها ما كان يفعله ملوك الأحباش بنساء المسلمين. وأمام هذه الضغوط اضطر لبنا دنقل لطلب النجدة من البرتغال التي أرسلت بدورها حملة عسكرية بقيادة كريستوفر، وصلت إلى مصوع في عام ١٥٤١م بعد موت لبنا دنقل، واتجهت الحملة من مصوع إلى الجبال حيث اتصلت بقلاوديوس الذي تولى العرش بعد أبيه، وشنوا حربا على الإمام أحمد كان من نتيجتها إصابته وجيشه بخسائر كبيرة نتيجة للأسلحة النارية المعادية، غير أن الإمام استنجد بالأتراك في اليمن. وبعد أن أمدوه بعدد من المدافع والفرسان وسحق نصف القوة البرتغالية وقتل قائدها كريستوفر، أعاد القوة التركية إلى اليمن، مما أفسح المجال لقلاوديوس والبرتغاليين من الانتصار عليه، وتوفي متأثرا بجراحه في عام ١٥٤٢م.

وعلى الرغم من الاحتلال البرتغالي للسواحل الأريترية، إلا أن الفائدة المادية المباشرة للبرتغال لم تتمثل إلا في الجزية التي كان يدفعها أمراء هذه المدن. ويبدو أن البرتغاليين لم يبنوا في مصوع أو دهلك أية كنائس أو قلاع رغم إلحاح الملك الحبشي على ذلك(١٢).

على أثر هذه التطورات ، كان لابد لأمراء الممالك الإسلامية في مصوع ودهلك وزيلع وسواكن من الاستعانة بالأتراك المسلمين ضد البرتغاليين المسيحيين، ليس هذا فقط بل هناك أسباب اقتصادية أخرى تتمثل في أن البرتغاليين لم يأتوا إلى المنطقة لتنشيط التجارة، بل لمنع مرورها من البلاد العربية، ومرورها بطريق رأس الرجاء الصالح، مما جعل الحالة الاقتصادية في كل موانئ البحر الأحمر تقريبا في غاية السوء.

قام الأتراك بمنازلة البرتغاليين في عدة معارك في المحيط الهندي، ولكن دون جدوى، حيث كانت القوة البرتغالية البحرية لا يستهان بها. وفي عام ١٥٥٤م ألحق الأسطول العثمانى بقيادة سنان باشا الهزيمة بالبرتغاليين قرب الساحل الأريتري بين مصوع وسواكن، وفي عام ١٥٥٧م استولى الأتراك على مصوع وسواكن وباقى سواحل البحر الأحمر، وطرد البرتغاليين إلى غير رجعة.

وفي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، اتسمت العلاقة بين الحبشة وأريتريا بالهدوء والسلام. بل وأكثر من ذلك فقد عقدت اتفاقية بين الامبراطور فاسيلاداس(١٣) من جانب، والباشا التركي ونائب مصوع من جانب آخر، تنص على حماية الحبشة من المبشرين

الكاثوليك، بقتلهم ومنعهم من دخول الحبشة، وهكذا انقلبت الأوضاع القديمة، وأصبح الإمبراطور يعتمد على المسلمين لحماية مملكته من البرتغاليين الكاثوليك .

وفي الهضبة الأريترية كانت قبائل البجة قد سيطرت على سفوحها وأجزاء فيها منذ القرن الثامن، حيث قضت على مملكة أكسوم، واحتلت شواطئ البحر الأحمر[١٤]. ولم تضعف سيطرة البجة على المرتفعات الأريترية إلا بعد انتقال الملك من أسرة زاقوي في الحبشة إلى الأسرة السليمانية في عام ١٢٧٠م.

وعلى الرغم من استمرار العلاقات الودية بين بعض إمارات الهضبة الأريترية، وعلى رأسهم أمارة دبارو (اقلى قوزاي، سراي) وملكها بحر نجاش وملوك الحبشة. إلا أن معظم هذه الإمارات كانت ترفض دفع الضرائب لزعامات التجراي، وفضلت الحرب معهم، كما حدث لرأس ولد ميكائيل زعيم (هز زقا) الذي اشتهر بحربه ضد الامبراطور يوهنس (يوحنا).

وفي باقي المناطق الأريترية حكم آل الفونج العرب المسلمون (الذين هاجروا إلى السودان من الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الميلادي) منطقة تمتد من خور بركة في أريتريا حتى سنار في السودان. ومن المرجح أن حكمهم فى أريتريا بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي، حيث كان يحكم سلطان بيت الدجن (سلطنة العنسبة) حوض الدجن (القاش).

وقد توسعت ملكة الفونج في غرب أريتريا ومصوع بما فيها سلطنة الدجن، وحكموا حتى عام ١٧١٩م حيث انتقل الحكم إلى بيت عين شمس الذي كان قد حكم في منطقة عنسبة (عين سبأ) من قبل. ثم انتزع الهمج من الزنوج الحكم من هؤلاء السلاطين، حتى قضى عليهم محمد على باشا والي مصر عند فتحه السودان ١٨٢٠م.

ويدعى بعض المؤرخين بأن آل الفونج كانوا يدينون بالولاء للنجاشي، ولكن ما يدحض هذا أن بيت الدجن الذين كانوا على صلات قرابة مع آل الفونج قد حاربوا جيش الحبشة عندما غزا مملكة الدجن في عهد الملكة فاطمة عام ١٦١٩م. كما أن لبيت الفونج علاقات طيبة مع الباشا التركي في موانئ البحر الأحمر (سواكن ومصوع)، والذي كان بدوره عدوا لملك الحبشة.

أما في جنوب شرق أريتريا على ساحل البحر الأحمر، فقد سيطر الدناكل (عفر)[١٥] على طرق القوافل التجارية المتجهة إلى الحبشة، ويحترف معظم الدناكل الرعي، ومنهم من يعمل باستخراج الملح وتصديره. وقد عرف الدناكل بشدة مراسهم ولا يخضعون لغريب، فقد أبادوا معظم البعثات الأجنبية التي وطئت أرضهم، كالحملة المصرية ١٨٧٥م، والبعثة الإيطالية الكشفية ١٨٨١م التي تذرعت بها إيطاليا بعد ذلك لاحتلال السواحل الأريترية، بحجة حفظ الأمن والنظام.

استمرت السواحل الأريترية تحت الحكم التركي حتى مطلع القرن التاسع عشر، ومنذ بداية هذا القرن، قام محمد علي باشا والي مصر باحتلال الحجاز بطلب من تركيا في عام ١٨١١م. ثم لم يلبث أن بسط نفوذه على الساحل الأريتري. وبالرغم من الإصلاحات التي قام بها، إلا أن هذه السيطرة لم تلبث أن تعثرت بسبب الحروب السورية ١٨٤٠م، وتدخل الدول الأوربية لتسوية المسألة المصرية ـ العثمانية. وتناوبت الحكومة المصرية والتركية السيادة على الساحل الأريتري حتى عام ١٨٦٥م، حيث أصدر السلطان العثماني فرمانا، وضع فيه ميناءي سواكن ومصوع تحت إدارة خديوي مصر، في مقابل دفع مبلغ ١٧ ألف جنيه ذهبا. واستمرت المنطقة تحت الإدارة المصرية حتى عام ١٨٨٥م عندما احتلتها إيطاليا.

وحدثت خلال الإدارة المصرية عدة حوادث هامة تمثلت في تجدد مطامع الحكام الأثيوبيين في السواحل الأريترية، فقد عرض الرحالة البريطاني هنري سولت على رأس ولد سلاسي حاكم تجراي غزو الساحل الأريتري، بحجة فتح أبواب الحبشة للتجارة مع أوروبا. وأقنع الحكومة البريطانية بأن تمده بكمية من الأسلحة، ولكن ولد سلاسي لم يتحمس للمشروع، واستفاد من الأسلحة في حروبه الداخلية.

وبعد تولى سباقاديس الحكم طلب أسلحة من الحكومة البريطانية ١٨٢٦م، للاستيلاء على الساحل الأريتري، بحجة ضرورة حماية الحبشة من التوسع العثماني الإسلامي. وباركت بريطانيا ذلك، ووصلت شحنات كبيرة من الأسلحة إلى مصوع، فاحتجزها النائب. وبعد مقتل سباقاديس ١٨٣١م، واعتلاء ووبي السلطة، وطد الآخر علاقته بفرنسا، وطلب منها تزويده بالأسحلة لغزو الساحل مقابل إعطائها خليج زولا، ورفضت فرنسا طلبه لأمرين: أولها خشية فقدانها صداقة محمد علي والي مصر، وثانيهما أن ووبي يعدها بما لا يملك.

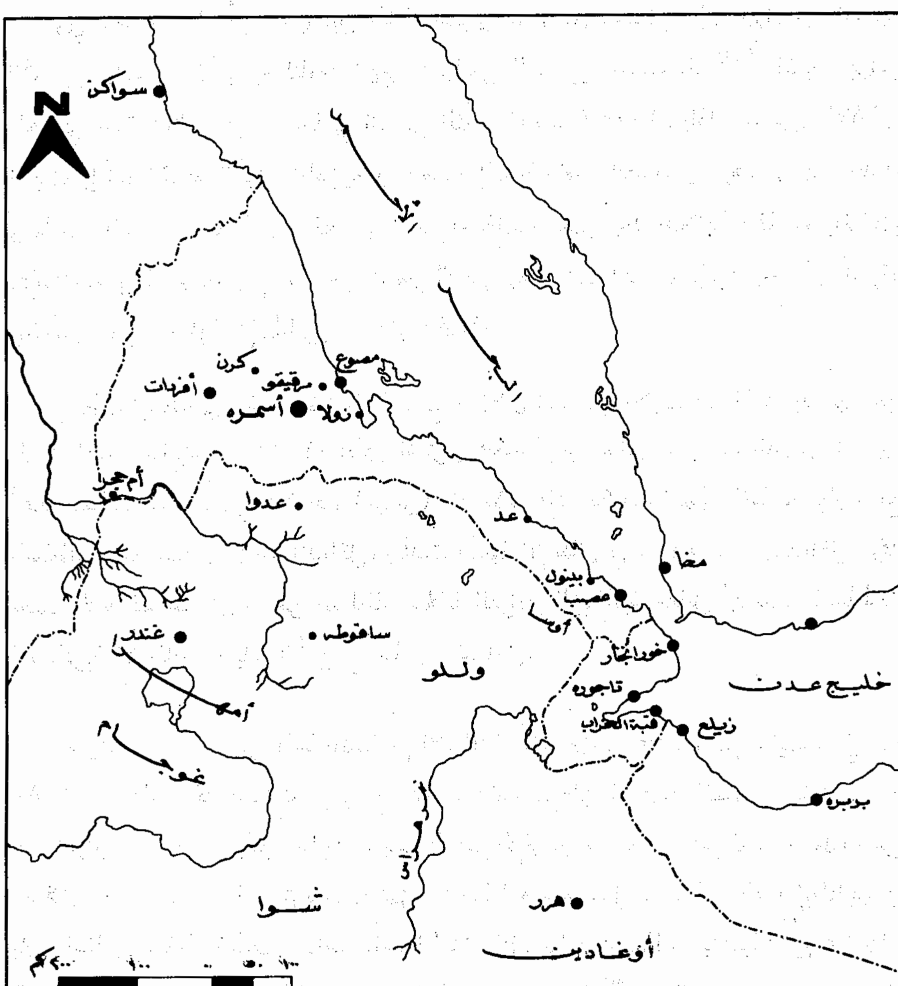
قام ووبي في عام ١٨٤٣م بهجوم واسع على سهول سمهر قاصدا احتلال مصوع، ثم شن غارات أخرى في العام التالي على أقاليم كرن والبني عامر والحباب، وأعمل فيها السلب والنهب . وأمام هذا الأمر كان لابد من الاستعانة بالخديوية المصرية لحفظ النظام والأمن .

وفي عام ١٨٧٢م أراد إسماعيل باشا خديوي مصر أن يستولي على أجزاء من الهضبة الأريترية والهضبة الأثيوبية لتأمين ظهير السواحل الأريترية والصومالية(١٦). فشن الجيش المصري عدة حملات على الحبشة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٥م وآذار (مارس) ١٨٧٦م، انتهت بإبادة الحملة الأولى، والهزيمة في الحملة الثانية، نظرا لتضامن يوهنس ملك عدوا، ومينليك ملك شوا ضد الغزو المصري. وقد احتفظت مصر بعد حملاتها الفاشلة بالمناطق الإسلامية في أريتريا، وهي سواحل البحر الأحمر ومرتفعات الحباب وكرن وحوض البركة والقاش، حتى احتلها الإيطاليون في عام ١٨٨٥م.

نشطت إيطاليا في عقد عدة اتفاقيات مع سلاطين الساحل الأريتري، كانت بدايتها عن طريق المبشر سابيتو عام ١٨٦٩م الذي اشترى قطعة أرض صغيرة من السلطان إبراهيم بن أحمد سلطان عصب. وفي ١٥ آذار (مارس) ١٨٨٣م عقد الكونت أنتولي اتفاقية تجارية مع السلطان محمد حنفرى زعيم الدناكل، وطدت النفوذ الإيطالي في سلطنة أوسا والدناكل. وقد نصت الاتفاقية على أن يضمن السلطان سلامة القوافل الإيطالية، مقابل أن تتولى السلطات العسكرية الإيطالية صيانة الأمن في ساحل الدناكل.

وسرعان ما رحبت بريطانيا بالمشاريع الإيطالية الاستعمارية عندما أخبرت إيطاليا في عام ١٨٨٤م ـ وكانت قد احتلت مصر في عام ١٨٨٢م ـ «أن الحكومة المصرية عاجزة عن الاستمرار في التمسك بكل ساحل البحر الأحمر الإفريقي، وأنه لا مانع لدى بريطانيا من احتلال بعض الموانئ الأريترية». وانتهزت إيطاليا فرصة مقتل أحد الرحالة الإيطاليين في بلاد الدناكل لتنفيذ مخططها، خاصة وأنها اطمأنت إلى موافقة بريطانيا. واعتبارا من ٢٥ يناير (كانون الثاني) ١٨٨٥م احتلت القوات الإيطالية مرسى بيلول(١٧) شمال عصب، تلته باحتلال مصوع في ٥ فبراير من العام نفسه، وفي ٣١ مايو (أيار) ١٨٨٧م استكملت إيطاليا احتلال كامل الساحل الأريترى. وفى عام ١٨٨٩م احتلت إيطاليا مدينة كرن ومقاطعات أكلي قوزاي، وسراى، ومدينة أسمرا التي نقلت إليها إيطاليا الإدارة من مصوع، لتصبح عاصمة

خريطة القرن الإفريقي (أواخر القرن التاسع عشر)



شكل (٤)

البلاد، وخاصة بعد أن وصل إليها الخط الحديدي فيما بعد في عام ١٩١١م. وبحلول الفاتح من يناير (كانون ثاني) ١٨٩٠م أصدرت إيطاليا مرسوما ملكيا بتأسيس مستعمرة أريتريا، بعد أن وحدت الأقاليم المختلفة على البحر الأحمر، مع المرتفعات التي احتلها الجيش الإيطالي. وسميت البلاد باسم أريتريا إحياء للاسم اليوناني القديم للبحر الأحمر (سينوسى أريتريوس).

ولم تقف أطماع إيطاليا عند هذا الحد ، بل رغبت في بسط نفوذها على كل الحبشة، فحاولت أن تستفيد من التنافس القائم بين الإمبراطور يوهنس[١٨] (ملك الملوك)، ومينليك ملك إقليم شوا (الذي كان يطمع في انتزاع عرش ملك الملوك لنفسه)، فعقدت مع الأخير معاهدة صداقة في عاصمته انكوبر في عام ١٨٨٣م، وقعها مكونن (والد هيلاسيلاسي). وقد اعترف مينليك بسيادة إيطاليا على أريتريا، وأهدت مينليك مزيدا من الأسلحة، وعقدت معه معاهدة أوتشيالي التي ظنت إيطاليا بها أن الحبشة قد أصبحت تحت حمايتها، نظرا لأن النص الإيطالي للمادة ١٧ من المعاهدة يتضمن: «أنه يجب على الحبشة أن تكون اتصالاتها مع الدول الأخرى عن طريق إيطاليا»، بينما يتضمن النص الحبشي بأنه «يمكن للحبشة أن تتصل بالدول الأخرى عن طريق إيطاليا». ورفض مينليك التفسير الإيطالي للمادة، ثم ألغاها مما أدى إلى نشوب الحرب بينهما، حيث نشبت معركة عدوا الشهيرة، شكل (٤) التي خسرت فيها إيطاليا ١٢ ألف جندي ثلثهم أريتريون، وسبعة آلاف أسير.

وقد أسفرت هذه المعركة عن عقد معاهدة في أديس أبابا في عام ١٨٩٦م، اعترف فيها مينليك بحق إيطاليا في البقاء في أريتريا. وكان مما عمق العداوات بين أريتريا والحبشة، تصرف مينليك تجاه الأسرى الأريتريين، حيث قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

واعتبارا من عام ١٩٠٠ م عقدت بين مينليك وإيطاليا عدة معاهدات لتخطيط الحدود بين أريتريا وأثيوبيا، انتهت بمعاهدة ١٦ مايو (آيار) ١٩٠٨م في أديس أبابا، ونصت المادة الأولى منها على أن خط الحدود بين أريتريا وإقليم تجراي، يسير من أقصى نقطة شرقي نهر موشا في الاتجاه الجنوبي الشرقي في خط مواز للساحل، وعلى مسافة ٦٠ كيلومترا منه حتى يتقابل مع الحدود الصومالية. وكانت إيطاليا من قبل قد عقدت اتفاقيات لرسم الحدود بين أريتريا والسودان.

واستقرت الأحوال والأمن في أريتريا خلال الاستعمار الإيطالي، كما ازدهرت البلاد بشكل ملموس، ماعدا قضايا التعليم التي لم تعرها إيطاليا أي اهتمام.

وبنشوب الحرب العالمية الثانية، وانهزام دول المحور أمام الحلفاء، احتلت قوات الحلفاء أريتريا في عام ١٩٤١م، وأسندوا إدارتها إلى بريطانيا، التي بقيت فيها حتى عام ١٩٦٢م.

ثانيا : الجذور الحديثة للمشكلة الأريترية :

وتتمثل هذه الجذور بدور كل من بريطانيا وأثيوبيا في تعميق الخلاف بين الطائفتين الأريتريتين، بالإضافة إلى نتائج ممارسة الاتحاد الفيدرالي.

١ ـ دور بريطانيا فى تعميق الخلاف بين المسلمين والمسيحيين :

يظهر هذا الدور واضحا من ممارساتها السلبية التالية :

أ ـ إثارتها للمشاكل الطائفية قبل الاحتلال، حيث وزعت الإدارة البريطانية منشورات في عام ١٩٤١م تعد فيها الشعب الأريتري بالعودة إلى وطنه الأم أثيوبيا إذا ما تعاون معها في طرد الطليان.

ب ـ تقسيم بريطانيا للمحافظات الأريترية على أساس ثقافي وديني، حيث جعلت اللغة العربية والتجرينية لغة التعليم في مدارس المناطق الإسلامية، واللغة الإنكليزية في المناطق المسيحية. فقد كانت ترمى من وراء ذلك إلى تقسيم أريتريا كلها إلى منطقتين: الأولى إسلامية تتبع السودان، وتضم محافظات أغردات وكرن ونقفه، والثانية مسيحية[١٩] وتتبع أثيوبيا، وتضم الهضبة والشواطئ الأريترية.

جـ ـ تدبير المخابرات البريطانية لمذبحة أسمرا التي راح ضحيتها ٥٠ مواطنا مسيحيا على أيدي القوات السودانية العاملة في الجيش البريطاني، وذلك لتعميق الخلاف بين طوائف الشعب الأريتري، وإنجاح مشروع التقسيم، الذي لم تخفه فيا بعد عند مداولة المشكلة الأريترية أمام هيئة الأمم المتحدة.

دور أثيوبيا وقيام الأحزاب السياسية لكلا الطائفتين في أريتريا :

أ ـ نشطت أثيوبيا في إرسال الأموال إلى أريتريا، عن طريق بعض عملائها من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، للدعاية لها بضم أريتريا إليها.

ب ـ القضاء على جمعية حب الوطن (تأسست في عام ١٩٤٣م، وضمت جميع طوائف الشعب الأريتري) أثناء اجتماعها في بيت جرجيس ١٩٤٦م، عن طريق عملائها الذين هددوا المجتمعين بالموت إن هم اتخذوا قرارا يدعوا إلى الاستقلال.

جـ ـ قامت أثيوبيا بعدها بخلق حزب مؤيد لها باسم حزب الاتحاد مع أثيوبيا كان معظمه من المسيحيين، وكان الشرارة الأولى في تقسيم الشعب الأريتري.

د ـ وأمام ذلك كان لابد للمسلمين من إنشاء حزب يمثلهم ، فأعلن في بداية عام ١٩٤٧ تأسيس حزب الرابطة الإسلامية الأريترية. وحدد الحزب الجديد أهدافه بالاستقلال التام، ووحدة التراب الأريترى. وأختير السيد محمد إبراهيم سلطان علي سكرتيرا عاما لها. كما نشأت أحزاب أخرى صغيرة تمثلت في:

(١) الحزب التقدمي الحر .
(٢) حزب أريتريا الجديد.
(٣) الجمعية الأريترية الايطالية .
(٤) حزب المحاربين القدماء .
(٥) حزب المثقفين .
(٦) حزب أريتريا المستقلة .
(٧) الحزب الوطني.

وقد تحالفت هذه الأحزاب فيما بعد (١٩٤٩م) لتكون الكتلة الاستقلالية الأريترية، كما أنشأت هذه الأحزاب صحفها الخاصة التي كانت تصدر بالعربية والتجرينية، ومنها جريدة الاتحاد، جريدة صوت الرابطة الإسلامية، جريدة الاتحاد والتقدم.... إلخ.

٣ ـ الحكم الفيدرالي الأثيوبي ونتائجه :

أحيلت قضية تصفية المستعمرات الايطالية (أريتريا، ليبيا، الصومال) إلى الجمعية

العمومية في دورتها العادية الثالثة في عام ١٩٤٨م، وذلك على أثر فشل دول الحلفاء الأربع إيجاد حل لها.

ومنذ البداية طالب مندوب الأرجنتين بالاستقلال الفوري، وأيده مندوب المملكة العربية السعودية، بينما تقدمت بريطانيا بمشروعها لتقييم أريتريا، إلا أنه هزم بأغلبية صوت واحد. كما أوصت كل من الصين والاتحاد السوفيتي وبولونيا ولبنان ويوغسلافيا وأوكرانيا وتشيكوسلوفاكيا وروسيا البيضاء والباكستان منح الاستقلال للإقليم.

وفي عام ١٩٤٩م شكلت الجمعية العامة لجنة من بورما وغواتيالا والنرويج والباكستان وجنوب إفريقيا للتأكد من رغبات السكان.

وبعد انتهاء مهمة اللجنة في أريتريا، كان لكل عضو منها وجهة نظر مختلفة، فقد اقترحت بورما وجنوب إفريقيا اتحادا مشروطا يتلاءم وكرامة البلدين وسيادتها المحلية، بينا طالبت غواتيالا والباكستان بالاستقلال التام لأريتريا بعد مدة أقصاها عشر سنوات، تبقى فيها تحت وصاية الأمم المتحدة. أما مندوب النرويج، فقد ردد مع شيء من التحريف المشروع البريطاني بالتقسيم.

وفي عام ١٩٥٠م قدمت الجمعية العامة مشروعات مقترحة من بعض الدول الأعضاء، كان أهمها مشروعات كل من الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة، والعراق، والباكستان، وبولونيا. ومعظم هذه المشاريع تدعو إلى الاستقلال، إما الفوري أو بعد مدة لا تتجاوز الثلاث سنوات، فيما عدا المشروع العراقي الذي يدعو إلى تكوين جمعية وطنية منتخبة تقرر الحل الذي تراه مناسبا، والمشروع الأمريكي الذي يدعو إلى اتحاد أريتريا مع أثيوبيا، على أن تتمتع بحكم ذاتي تحت سيادة التاج الأثيوبي.

وقد عارض مندوب بريطانيا مشاريع الاستقلال، محتجا بأن سكان أريتريا يتألفون من أجناس ذات لغات وتقاليد وأديان مختلفة.

وتحدث ممثلو الأحزاب السياسية عن وجهات نظرهم، حيث نادى تدلا بايرو السكرتير العام لحزب الاتحاد بالاتحاد مع أثيوبيا، مبررا ذلك بالروابط التاريخية والجغرافية والثقافية

والاقتصادية، كما تحدث السيد إبراهيم سلطان باسم الرابطة الإسلامية والكتلة الاستقلالية، فأوجز مطالب الأريتريين بالاستقلال وصيانة وحدة الأراضي الأريترية.

وبعد التصويت على المشاريع المقدمة فاز المشروع الأمريكي، حيث ألقت الولايات المتحدة بثقلها السياسي لنجاح مشروعها، وأقرت الجمعية العامة المشروع الأمريكي بأغلبية ٤٦ صوتا مقابل ١٠ أصوات، وامتناع ٤ عن التصويت، وأصدرته بتاريخ ٢ ديسمبر (كانون أول) ١٩٥٠م باسم القرار الفيدرالي رقم ٣٩٠، ويتلخص القرار بالنقاط التالية:

(١) تصبح أريتريا وحدة متمتعة بحكم ذاتي في إطار اتحاد مع أثيوبيا تحت سيادة التاج الأثيوبي.

(٢) يكون للحكومة الأريترية سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية في حقل الشئون المحلية.

(٣) تختص الحكومة الاتحادية بشئون الدفاع والخارجية والمالية والمواصلات.

(٤) يجتمع مجلس فيديرالي امبراطوري مؤلف من أعداد متساوية من الأريتريين والأثيوبيين مرة كل سنة على الأقل، لإسداء النصح والمشورة فيما يتعلق بشئون الاتحاد.

(٥) تكون الجنسية واحدة في الاتحاد .

(٦) تكفل الحكومة الاتحادية وكذا الأريترية التمتع بحقوق الإنسان والحريات الأساسية دون تمييز، من حيث الجنسية واللغة والدين.

(٧) يكون هناك مندوب للأمم المتحدة في أريتريا يساعده خبراء، يعينهم السكرتير العام للأمم المتحدة، ويعدون مشروعا للدستور الأريتري.

وصادق الإمبراطور هيلاسيلاسي على نص الاتحاد الفيدرالي في ١١ سبتمبر (أيلول) ١٩٥٢م[٢٠]. وانضوت أريتريا تحت لواء ما يسمى بالاتحاد الفيدرالي.

وقد علق مندوب الاتحاد السوفيتي على القرار الفيدرالي «بأن مشروع الاتحاد يعتبر زواجا ضد إرادة أحد الطرفين، وأنه زواج لا يسمح بالطلاق، وذكر أن كثيرا من الوفود أعربوا عن تأييدهم للاستقلال، ولم يختلفوا إلا بالنسبة إلى الوسائل وفترات الانتظار».

وبذلك ربطت أريتريا ـ على الرغم من معارضة أغلبية شعبها ـ بالإمبراطورية الأثيوبية، مقابل ثمن بخس قبضته الولايات المتحدة ثمن مشروعها، وذلك بإقامة القواعد العسكرية في الأراضي والشواطئ الأريترية.

وبعد إعداد الدستور، وانتخاب الجمعية التمثيلية الأريترية (البرلمان) في ٢٥ و ٢٦ مارس (آذار) ١٩٥٢م، وانتخاب تدلا باير رئيسا لمجلس الوزراء، سلمت الإدارة البريطانية السلطة رسميا إلى الحكومتين الأريترية والأثيوبية، ورفع العلم الأريتري إلى جانب العلم الأثيوبي.

وعلى الرغم من عدد النواب المتساوي من المسلمين والمسيحيين في البرلمان (٣٤ مسلم ٣٤ مسيحي)، إلا أن تشكيل إدارة الحكومة قد شغلت بنحو ٩٠٪ من المسيحيين، نتيجة التواطؤ الإنكليزي ـ الأثيوبي، وذلك بهدف إشعار المسلمين بالغبن، ومن ثم خلق صراع أريتري يمنع الاستقرار، ويمكن الحكومة الأثيوبية من التدخل.

وفرض ممثل الإمبراطور نفسه كرئيس فعلي لأريتريا، إذ تدخل في كل شأن من شئون الدولة، وأوقف الصحف، وحل الأحزاب السياسية والاتحاد العام لنقابات العمال. كما استولت أثيوبيا على حصة أريتريا من الجمارك، وخنقت الاقتصاد الأريتري بكل الوسائل.

وإزاء ذلك اتخذ البرلمان الأريتري بأغلبية ساحقة قرارا بتاريخ ٢٥ مايو (آيار) ١٩٥٤م، طلب فيه من رئيس الوزراء إنذار الحكومة الأثيوبية بوجوب إعطاء الضمانات اللازمة لسيادة الدستور الأريتري. وبدلا من عمل رئيس الوزراء تدلا بايرو بالقرار، خضع لأوامر الإمبراطور وقدم استقالته، كما استقال معه حليفه علي موسى راداي رئيس البرلمان. وانتخب البرلمان وبشكل تآمري على نواب الكتلة الاستقلالية (أسفها ولد ميكائيل) رئيسا للوزراء، مقابل انتخاب إدريس محمد آدم رئيسا للبرلمان، ولكنه أقيل بعد عشرة أشهر لكونه من الكتلة الاستقلالية، واستبدل بحامد فرج الموالي للسلطة. وعلى الرغم من احتجاج ممثلي الأحزاب السياسية في الأمم المتحدة على سياسة أثيوبيا، إلا أن وفدهم عاد خائبا. واستمرت عملية إلغاء الاتحاد خطوة تلو الأخرى، وأصبح البرلمان الأريتري ألعوبة بيد رئيس الوزراء، الذي استغله وأنزل العلم الأريتري، كما ألغى الإشارات الأريترية. وفي ١٩٦٢/١١/١٤م أعلنت أثيوبيا بأن أريتريا أصبحت ولاية أثيوبية، وكان ذلك عن طريق اللعبة نفسها باستغلال البرلمان المزيف.

ثالثا : الترابط بين أثيوبيا وأريتريا، حقيقته ومداه

كثيرا ما رددت أثيوبيا وغيرها من الدول ذات المصلحة في وثائق الأمم المتحدة عبارة

حقوق أثيوبيا التاريخية في أريتريا. فقد جاء في البيان الذي أدلى به (المستر أتو اكليلو أبتي ولد) وزير الخارجية الأثيوبي، في ١٠ نيسان (أبريل) ١٩٥٠م، أمام بعثة الأمم المتحدة: «خلال تجوالكم في أريتريا وأثيوبيا، تمكنتم من أن تلاحظوا بأنفسكم التطابق التام في الأقاليم والناس الذين توحدوا معا منذ آلاف السنين تحت اسم أثيوبيا، باستثناء خمسين عاما من الحكم الإيطالي لأريتريا، فقد شاهدتم الناس أنفسهم بعاداتهم القومية وأزيائهم، وأريافهم واقتصادهم الزراعي المتماثل في القطرين، أن الريف الأريتري يشابه كل المشابهة تقريبا المشاهد الأثيوبية»، ثم يقول: «لقد شاهدتم العمامات ذاتها وأساليب السلوك ذاتها، وأساليب الحديث ذاتها والألقاب ذاتها. وقد استمعتم إلى لغتين سبيئيتين شديدتي القرب من الأمهرية، وهما لغة تجرينيا ولغة تجري اللتان تكتبان كما تكتب الأمهرية تماما»(٢١). «وفي عدوليس بالقرب من مصوع شاهدتم تذكارات تلك الفترة العظيمة من إمبراطورية أكسوم التي امتد تأثيرها إلى أقاصي بلاد العرب ومصر، والتي كان ميناؤها مدينة عدوليس القديمة تلك»(٢٢).

هذه هي الحقوق التاريخية والثقافية لأثيوبيا في أريتريا، فما هي حقيقتها؟ ولنبدأ من حيث انتهى الوزير.

إن مدينة عدوليس ميناء أكسوم لم تنشئه أكسوم، وإنما أنشأه اليونانيون البطالمة، فقد كانت السواحل الأريترية عرضة للغزوات والاحتلال والنزوحات الخارجية، فتطورت هذه السواحل بمعزل عن الداخل الأثيوبي، حتى من الناحية اللغوية، حيث طورت أكسوم (بعد اضمحلالها أمام ضربات قبائل البجة البدوية) لغة هجينة خاصة بها سميت بالأمهرية(٢٣)، وهي تختلف كثيرا عن لغات التجري أو التجرينية.

كما توالت على الساحل الأريتري بعد اليونان، كل من الفرس والرومان، ثم العرب الأمويين عندما فتحوا دهلك والساحل الأريتري اعتبارا من عام ٨٤ هـ ـ ٧٠٢م، وأقاموا فيها القلاع والحصون(٢٤)، وخلال القرون الثلاثة التالية بقيت معظم الشواطئ الأريترية تحت سيطرة قبائل البجة الرعوية الحامية الأصل، والتي دفعت الجزية للدولة العباسية. وبعد الانتشار المكثف للإسلام على الشواطئ الأريترية نشأت ممالك الطراز الإسلامي من سواكن حتى زيلع في الصومال، وكانت مع أسرة زاقوي في الحبشة تقوم على حسن الجوار، إلى أن بدأ

إيكونو أملاك منذ ١٢٧٠م حربا دينية واسعة النطاق ضد هذه الممالك، وكانت الأولى من نوعها، استهدفت في حقيقة الأمر السيطرة على طرق التجارة[٢٥] حتى استطاع أحفاده الذين حكموا الحبشة خلال الفترة بين ١٤٢٠ ـ ١٥٢٠م، إجبار هذه الممالك على دفع الجزية، حيث كانت الحرب لصالح الأحباش. وفيما عدا ذلك خضعت السواحل الأريترية منذ عام ١٥٤٢ للمستعمرين البرتغال، حتى طردهم الأتراك في عام ١٥٥٧م[٢٦]. فأين هي إذن الحقوق التاريخية والثقافية لأثيوبيا في أريتريا؟ فعلى امتداد تاريخها الطويل لم تستطع أثيوبيا أن تحكم أو حتى تفرض حاكما معينا على أي من السواحل الأريترية.أما مناطق الهضبة فقد خضعت بين الحين والحين لنفوذ ملوك الحبشة وبشكل اسمي فقط ، هذا قديما، أما حديثا فيجدر بنا أن نورد الادعاءات الأثيوبية التي عبر عنها وفد النرويج في بعثة الأمم المتحدة خدمة لأغراض سياسية، إضافة للرسالة التي أدلى بها وزير الخارجية الإيطالي إلى رئيس بعثة الأمم المتحدة كرد على هذه الادعاءات.

فقد جاء في الفقرة ١١٠ من تقرير بعثة الأمم المتحدة إلى أريتريا الخاص بوفد النرويج ما نصه:

«لا حاجة بنا إلى العودة إلى الماضي البعيد لهذا الأمر، بل يكفى أن نذكر الأحداث التي جاءت من خلالها إيطاليا إلى أثيوبيا. ففي عام ١٨٦٩م حازت إيطاليا على شريط من الساحل قرب مصوع، وفي ١٨٨٥م احتلت مصوع التي كانت حتى ذلك الحين يديرها مصريون بعقد إيجار من الإمبراطور الأثيوبي، ثم جاءت هزيمة الإيطاليين في عام ١٨٨٧م حين تحطمت حامية دوقلي قرب مصوع على يد حاكم أريتريا من قبل الإمبراطور وقد انتهت سلسلة المعارك والمعاهدات أخيرا إلى المعاهدة الإيطالية ـ الأثيوبية سنة ١٩٠٠م. وفيها تخلت الحكومة الأثيوبية عن القسم الجنوبي من أريتريا لإيطاليا.... هذه الوقائع تبرهن على ممارسة أثيوبيا لسيادتها على أقليم أريتريا، وتقدم تعليلا مطولا لادعائها التاريخي بإعادة تكامل أجزائها»[٢٧].

ولن نعلق هنا على رأي وفد النرويج، بل سنورد رسالة وزير الخارجية الإيطالية الكونت سفورزا، التي أرسلها إلى رئيس بعثة الأمم المتحدة في أريتريا في ١٧ نيسان ١٩٥٠م. والتي جاء فيها:

«تشرفت الحكومة الايطالية باستلام رسالتكم المؤرخة في ٣ آذار (مارس) ١٩٥٠م،

المتضمنة قرار بعثة الأمم المتحدة لأجل أريتريا بدعوة الحكومة الإيطالية للتعبير عن رأيها في مستقبل أريتريا، ولتزويد البعثة بمعلومات قد تفيدها، وفقا لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة.

يسر الحكومة الإيطالية أن تقبل مثل هذه الدعوة، وهي على استعداد للإجابة عن الأسئلة التي تضعها البعثة، وكذلك لتقديم المعلومات، نظرا للتجربة الطويلة التي اكتسبتها خلال سبعين عاما من إدارتها المباشرة لأريتريا، مما يجعلها في مركز تقديم المعلومات.

ثمة نقطة أولية يجب توضيحها، تتعلق بماضي أريتريا التاريخي، والطريقة التي تشكل بها.

احتلت إيطاليا عدة أجزاء من أريتريا بين ١٨٦٩م ١٩٠٣م، ولم تأخذ أيا منها من أثيوبيا. فقد وضعت إيطاليا قدمها في دانكاليا، وكان يسكنها وما يزال مسلمون عقدت مع مشايخهم اتفاقات حماية. أما الشمال الأقصى من الساحل، بما فيها منطقة مصوع وجزر دهلك إلى حدود السودان، فإن سكانه مسلمون تابعون للإمبراطورية العثمانية التى لم تكن لها هناك غير سلطة ضعيفة بواسطة خديوي مصر. وقد أسست إيطاليا مركزها هناك بواسطة اتفاقيات مع مصر ١٨٨٥م.

أما الأرض الداخلية، في المنخفضات الغربية، أي المنطقة الواقعة بين نهري قاش وستيت، التى يقطنها شعبا باريا وكوتاما، فقد كسبتها إيطاليا باتفاقية ثلاثية بين إيطاليا وبريطانيا العظمى وأثيوبيا في ١٩٠٣م.

وأما المرتفعات فمع أنها خضعت في بعض الأحيان لزعماء تجراي الإقطاعيين، فقل أن اعتبرت جزءا متمما للإمبراطورية الأثيوبية، بحيث إن الملك منليك دعا القوات الإيطالية إلى احتلال مقاطعة أسمرا في رسالة تاريخها ١٠ آذار (مارس) ١٨٨١م. إن منطقة المرتفعات إلى جنوب أسمرا (اقلي قوزاي وسراي) خضعت لإدارة إيطاليا منذ ١٨٩١م، وأخيرا اعترف بها على أنها جزء من أريتريا في المعاهدة الإيطالية ـ الأثيوبية، أي في ١٠ تموز (يوليو) ١٩٠٠م.

أحد الأسباب لذكر المعلومات السابقة هو استبعاد الخطأ الشائع بأن حرب ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦م بين إيطاليا والإمبراطور مينليك قد نشبت بسبب الخلافات الإقليمية، وإنما نشبت بسبب الخلافات حول تفسير المعاهدة الإيطالية ـ الحبشية، المعروفة بمعهدة أوتشيالي، التي رأت الحكومة الإيطالية آنذاك أنها تؤسس نوعا من الحماية الإيطالية على أثيوبيا بأكملها، وهو

تفسير لم يقبله الإمبراطور مينليك، ومع أن الحرب لم تكن في صالح إيطاليا، فإن الإمبراطور مينليك ترك حدود أريتريا دون تغيير»[٢٨].

وبعد هذا لا نظن أبدا أن أي غموض أو ادعاء مازال قائما إن كان من قبل أثيوبيا أو من قبل وفد النرويج. ولا حاجة بنا إلى تكرار تأكيد أنه لم يكن لأثيوبيا في أي حقبة تاريخية سلطة مباشرة أو فعلية على أريتريا [٢٩].

رابعا : جبهة التحرير الأريترية ومراحل تطور الثورة الأريترية :

هاجر منذ عام ١٩٥٨م عدد كبير من العمال الأريتريين نتيجة الإرهاب الأثيوبي إلى عدد من دول الشرق الأوسط. وفي نهاية عام ١٩٥٨م تكونت حركة التحرير الأريترية في بورسودان بزعامة محمد سعيد إدريس، حيث قامت بتنظيم خلايا سرية سباعية في معظم المدن الأريترية، ولم تكن تؤمن حركة التحرير بالمقاومة المسلحة، ولكنها لعبت دورا كبيرا في تعبئة الجماهير الأريترية سياسيا.

وفي القاهرة تبلورت فكرة إنشاء جبهة التحرير الأريترية في أذهان الزعماء الأريتريين الذين لجأوا إليها، وخرجت إلى حيز الوجود برئاسة إدريس محمد آدم (رئيس البرلمان الأريتري) ١٩٦٠م، تدعمه مجموعة من العمال والطلبة من الجاليات الأريترية في الأقطار العربية المجاورة.

وفي العام التالي أعلن حامد إدريس عواتي ـ رحمه الله ـ التمرد المسلح ضد الاحتلال الأثيوبي معتصما بالجبال في ١٩٦١/٩/١م ، ـ بعد إعداد معنوي لجماهير الشعب عن طريق بعض علماء المسلمين الوطنيين في ريف المنطقة الغربية ـ يصحبه عدد من المقاتلين. وتبنت الجبهة هذه الحركة العفوية، وأمدتها بكميات محدودة من السلاح، تم شراؤها من الأقطار المجاورة بأموال التبرعات. وعلى الرغم من وفاة عواتي في العام التالي، إلا أن زملاءه في السلاح تمكنوا من تطوير الكفاح المسلح، وخاصة بعد أن انضم إليها تسعة من ضباط الصف الأريتريين، الذين خدموا في الجيش السوداني فترة طويلة. وتحولت الانتفاضة العفوية إلى ثورة مسلحة منظمة، انسجاما مع أهداف التحرير التي حددها دستور الجبهة بالاستقلال الوطني

الكامل، عبر الكفاح المسلح، الذي تدعمه جهود سياسية وديبلوماسية في الخارج، مع الحفاظ على وحدة التراب الأريتري.

وبعد عدة عمليات عسكرية ناجحة، وفي منتصف عام ١٩٦٤م، تمكنت الجبهة من إنشاء نواة لجيش تحرير قوامه ٢٥٠ مقاتلا، وذلك عندما وجدت الثورة الأريترية دعما مالية وعسكريا من سوريا، تمثل في ٢٠ قطعة من السلاح الروسي الكلاشينكوف، مما ساعد على تطوير الكفاح المسلح حتى شمل كل الريف الأريتري.

مراحل تطور الثورة الأريترية :

مرت الثورة الأريترية ـ ككل الثورات التحررية في العالم ـ بعدة مراحل منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر، نتيجة للظروف المحلية والدولية التي مرت بها الثورة الأريترية وأثيوبيا. ويمكن تلخيصها بأربع مراحل متميزة:

المرحلة الأولى ١٩٦١ ـ ١٩٦٨م : مرحلة المجلس الأعلى :

على الرغم من ضعف الثورة الأريترية في هذه المرحلة، إلا أن أهم ما يميزها وحدتها المتماسكة في كل المناطق الأريترية. وتتلخص أهم أحداثها بالنقاط التالية:

١ ـ الصراع بين تنظيمي حركة التحرير وجبهة التحرير، مما أدى إلى تصفية حركة التحرير.

٢ ـ اجتماع كسلا ١٩٦٥م الذي انبثق عنه تقسيم أريتريا إلى خمس مناطق للمقاومة الذاتية، هذا التقسيم الذي أثبت فشله في عام ١٩٦٧م، لسلبياته العديدة، وخاصة في مجال توزيع السلاح. الذي أثر فيه دور الصراعات الإقليمية والطائفية والقبلية الأريترية.

٣ ـ دخلت الثورة في عام ١٩٦٧م في معركة غير متكافئة مع القوات الأثيوبية، كان من نتيجتها أن شنت هذه القوات حرب إبادة جماعية للمدنيين الأريتريين في مديرية البحر الأحمر، والمديرية الغربية، ومحافظة كرن، واكلى قوزاي وصل فيها حجم الخسائر على النحو التالي:

٦٦٥٠٠ من الجمال والبقر والماشية .

٦٨٦ قتيــل .

٢٣٨ قريــة .

٧٠٠٠٠ لاجئ إلى السودان.

٤ ـ ضعف قيادة المجلس الأعلى، وضعف القيادة العسكرية في كسلا، أدى إلى المرحلة التالية من الثورة.

المرحلة الثانية ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢م : مرحلة انقسامات الثورة الأريترية :

حاولت الثورة الأريترية في هذه المرحلة الاستفادة من أخطاء الماضي بعقد العديد من المؤتمرات، ولكن سرعان ما تحولت هذه المؤتمرات إلى أداة للانقسام. وكان من أهم أحداث هذه المرحلة.

١ ـ مؤتمر أدوبحة العسكري ١٩٦٩م، ومن أهم قراراته أنه تم في هذا المؤتمر توحيد المناطق الخمسة، إلا أن مجموعة من القيادة العامة العسكرية للجبهة قامت بخرق قرارات المؤتمر، واعتقلت ٨ ثمانية من القيادة العامة لإيجاد مركز قبلي وإقليمي قوي يخدم مصالحها الذاتية وهيمنتها على الساحة الأريترية، أو بالأصح هيمنة المنطقة الغربية على كل أشتات التراب الأريتري، ثم عقدت اجتماعا أعلنت فيه حل المجلس الأعلى، وأعلنت نفسها قيادة عامة لجبهة التحرير الأريترية (المجلس الثوري). وكانت النتيجة أن قام عدد كبير من أعضاء مؤتمر أدوبحة بعقد اجتماع في «سدوحاعيلا» أعلن على أثره تشكيل قوات التحرير الشعبية. ولنفس الأسباب انفصل ٤ أعضاء من القيادة العامة، وعقدوا اجتماعا في «عويل»، تم فيه إعلان تنظيم قوات التحرير الأريترية (عويل)، كما انفصل آسياس أفورقي عن القيادة العامة مع مجموعة قليلة من المسيحيين.

٢ ـ في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧١م عقدت القيادة العامة (المجلس الثوري) مؤتمرا تنظيميا عاما للثورة الأريترية سمي بالمؤتمر الوطني الأول، وقد استبعدت من هذا المؤتمر قوات التحرير الشعبية، وانبثق عن المؤتمر قيادة وقرارات ووثائق. وأهمها إدانة قوات التحرير الشعبية بسبب انشقاقها، وقرار تصفيتها الذي أشعل نار الحرب الأهلية فيما بعد، وقرار آخر بالتقليل من أهمية اللغة العربية.

٣ ـ وفي بيروت عقد اجتماع في ديسمبر ١٩٧١م كان الهدف منه توحيد الفصائل الثلاث التي انسلخت عن المجلس الثوري، وهي:

(١) قوات التحرير الشعبية .

(٢) قوات التحرير الأريترية (عويل) .

(٣) مجموعة آسياس أفورقي.

ونجح الاجتماع، وأصبحت الفصائل الثلاث قوة واحدة سميت بقوات التحرير الشعبية، وأعلنت أنها على استعداد للوحدة مع المجلس الثوري عن طريق الحوار الديموقراطي.

المرحلة الثالثة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٥م : مرحلة الحرب الأهلية :

١ ـ أسباب الحرب الأهلية :

يظهر لنا فى بادىء الأمر أن انشقاق قوات التحرير الشعبية، ومن ثم قرار المجلس الثوري بتصفيتها، هو السبب في اشتعال الحرب الأهلية.

وعلى الرغم من أن هذا قد يصبح سببا مباشرا للحرب، إلا أن السبب الحقيقي لها هو الصراعات الشخصية والقبلية والإقليمية التي حاولت فرض هيمنتها، وقرار التصفية الذي اتخذه المجلس الثوري كان يتضمن هذا النوع من الهيمنة على الثورة أكثر منه قرارا لصالح الثورة الأريترية.

٢ ـ حرب أسمرا :

في أثناء الحرب الأهلية انتقل الصراع بين قوات التحرير الشعبية والمجلس الثوري إلى قرب أسمرا، وبذلك انتقل التدمير من المناطق الإسلامية إلى المناطق المسيحية[٣٠]، مما دعا المسيحية العالمية والمخابرات الأمريكية[٣١] والسلطة الأثيوبية لوقف الحرب الأهلية، ليس حبا بالثورة الأريترية، بل للحفاظ على أرواح وممتلكات المسيحيين.

وتوقفت الحرب الأهلية، ولكنها سرعان ما تحولت بالتنسيق إلى حرب ضد القوات الأثيوبية وحصار لأسمرا.

٣ ـ التدفق المسيحي على الثورة :

أخذت جموع كبيرة من المسيحيين التوافد على الثورة الأريترية، وبشكل يدعو للاستغراب والتساؤل من تغير موقفهم، بعد أن كانوا يشكلون في الماضي القريب القوات الخاصة التي قاومت بها أثيوبيا الثورة في الهضبة الأريترية. وللإجابة على هذا التغيير في الموقف يمكننا حصره في مجموعتين من الأسباب:

- تتعلق المجموعة الأولى منها بالتغير الحقيقي في ميول المسيحيين تجاه أثيوبيا، وبداية هذا التغير حدثت أثناء الحكم الفيدرالي لأريتريا، حين دهش المسيحيون الأريتريون من قيام أثيوبيا بمنع تدريس اللغتين الرسميتين لأريتريا ـ العربية والتجرينية ـ لتحل محلها اللغة الأمهرية الغريبة، بعد أن كانوا يعتقدون بأن ثقافتهم ولغتهم ستزدهر في ظل حماية أثيوبيا المسيحية، «كما عمدت السلطات الأمهرية إلى الاستئثار بالمراكز العليا في الإدارة الأريترية، وقد دفع مظهر التمييز الذي اتسم بالاستئثار والتعالي المواطن المسيحي الأريتري إلى إعادة النظر بالأخوة الأريترية ـ الأثيوبية».
وسقط هيلاسيلاسي في عام ١٩٧٤م ووصل الجنرال أمان عندوم الأريتري الأصل إلى رأس السلطة، إلا أن الأمهريين لم يسمحوا أن يكون على رأس دولتهم أريتري ولو كان مسيحيا، وأعدم ضمن سلسلة إعدامات دموية قام بها السفاح منجستو هيلي ماريام.

- أما المجموعة الثانية من الأسباب فقد برزت بعد أن لاحظت المخابرات الأمريكية واتحاد الكنائس العالمي والقيادات المسيحية المحلية انتصارات الثورة الأريترية، وسيطرتها على كل الريف الأريتري، مما دعا هذه المؤسسات والقيادات لتقوم بعملية تعبئة شاملة للمسيحيين للتطوع في الثورة، حتى يكون لهم دور أكبر في قيادة الثورة، ومن ثم قيادة البلاد.

وأثبتت نتائج الحرب الأهلية إضعاف الثورة الأريترية، وبالتالي عدم استطاعتها حسم الصراع لأي من الأطراف، كما أعطت الفرصة لظهور القيادات المسيحية والشيوعية، وانحسار دور المسلمين في قيادة الثورة(٣٢).

المرحلة الرابعة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ م :

يمكن حصر أهم الأحداث في هذه المرحلة بالنقاط التالية :

١ ـ المؤتمر الثاني التنظيمي العام لجبهة تحرير أريتريا (المجلس الثوري) في عنسبة ١٩٧٥م، وأهم قراراته السياسية:

- ـ وقف الحرب الأهلية (التي كانت قد توقفت من قبل).
- ـ التأكيد على استخدام اللغة العربية .
- ـ توحيد فصائل المقاومة .

وقد استخدم في وثائقه العبارات الاشتراكية، واستولت عليه القيادات الشيوعية(٣٣).

٢ ـ مؤتمر الوحدة في الخرطوم ١٩٧٥/٩/١ م :

تطبيقا لقرار توحيد فصائل المقاومة فقد دعي لمؤتمر وحدة يعقد في الخرطوم في ١٩٧٥/٩/١م بين المجلس الثوري وقوات التحرير الشعبية. وقبل انعقاد المؤتمر، وفي ١٩٧٥/٨/٢٣م، أرسلت اللجنة الإدارية (القيادة العسكرية المؤقتة في الميدان) لقوات التحرير الشعبية رسالة موقعة من آسياس أفورقي رئيس اللجنة برفض الحضور إلى الخرطوم. إلا أن البعثة الخارجية (القيادة السياسية) لقوات التحرير الشعبية، وعلى رأسهم ولد آب ولد ماريام وعثمان صالح سبي وثلاثة من زملائهم وقعت اتفاق الوحدة مع المجلس الثوري الذي مثله أحمد محمد ناصر رئيس المجلس وخمسة من زملائه، وذلك في ١٩٧٥/٩/٨م.

ورغم كل الاتصالات التي قامت بها القيادة السياسية مع القيادة العسكرية لقوات التحرير الشعبية، إلا أن الأخيرة ظلت رافضة لاتفاق الوحدة، محتجة بأنها لن تجلس مع المجلس الثوري باعتباره مجرم حرب ومسئول عن حرب أهلية. ودعا آسياس أفورقي وأنصاره في اللجنة الإدارية والمقاتلين إلى اجتماع عقد في منطقة شمال بحري في الميدان ـ ١٩٧٥/١١/٢م ـ قرروا فيه رفض مقررات الوحدة في الخرطوم. وبالمقابل عقدت القيادة السياسية اجتماعا في دمشق ١٩٧٦/١/١٥م أعلنت فيه عدم تخليها عن مقررات الخرطوم

الوحدوية، وفي نفس الوقت عقد اجتماع للتفاهم مع اللجنة الإدارية، وعقد الاجتماع في الخرطوم في الفترة من ٣/١٨ إلى ١٩٧٦/٣/٢٣م، بين ممثلي القيادتين، أصرت فيه اللجنة الإدارية برئاسة آسياس أفورقي على رفض مقررات الوحدة في الخرطوم، وتقدم باقتراح تجميد مقررات الخرطوم مع مقررات شمال بحري على السواء. وهذا يعني استمرار حالة الانقسام في الساحة، وعلى أثر ذلك حددت القيادة السياسية (البعثة الخارجية) موقفها من اللجنة الإدارية على النحو التالي:

«إن البعثة الخارجية، وبعد أن وصلت الأمور بينها وبين اللجنة الإدارية إلى هذا الحد، فإنها تعلن عن إنهاء علاقتها التنظيمية باللجنة الإدارية، وتعلن عن تخليها عن أي مسئولية تجاهها، وتحملها ما سيترتب على موقفها، وتترك المسألة بكاملها لجماهير ومقاتلي قوات التحرير الشعبية ليقولوا كلمتهم».

وبناء على تمسك البعثة الخارجية باتفاقية الوحدة، ورفضها كل ضغوط آسياس أفورقي لتجميد هذه الاتفاقية، أصدرعضوان من اللجنة الإدارية بيانا يعلنان فيه تأييدهما للوحدة، ويستنكران مواقف العناصر الانقسامية، وأصدرا بيانا تضمن تلخيصا لتاريخ تأسيس اللجنة الإدارية ومواقفها، وأشار إلى بعض السلبيات التي مارستها اللجنة الإدارية:

- طرح الشعارات التقدمية، وتسخيرها لخدمة أهدافهم الذاتية والطائفية والإقليمية.
- ممارسة الإرهاب ضد المقاتلين والجماهير بالاعتقالات والاغتيالات ومصادرة الأملاك تحت شعار التأميم.
- تشريد وتصفية المقاتلين القدماء من الميدان.
- تجاهل اللغة العربية التي تسببت في إثارة الحساسيات بين أبناء الشعب الواحد.

وأصبح الانقسام بين مؤيدي الوحدة ومعارضيها شيئا لا مفر منه، وانشقت قوات التحرير الشعبية ليخرج منها الجبهة الشعبية لتحرير أريتريا بأغلبيتها المسيحية المتحالفة مع الأقلية الإسلامية في المنطقة الشرقية، بينما بقيت قوات التحرير بأغلبية إسلامية.

وعلى الرغم من الادعاء بالتقدمية والماركسية التي ينادي بها حزب الشعب الذي ينتظم فيه معظم أتباع آسياس أفورقي، وهو حزب يشبه حزب العمل في المجلس الثوري، إلا أن

السبب الحقيقي لعدم قبوله لمقررات الوحدة في الخرطوم يرجع إلى أسباب طائفية، تتمثل بخوفه من أن ينصهر تنظيمه المسيحي في الغالبية الإسلامية في المجلس الثوري.

٣ ـ عقدت مؤتمرات للتنظيمين الجديدين، حيث انبثق عنهما قرارات وقيادة جديدة.

٤ ـ تراجع المجلس الثوري عن اتفاقية الوحدة التي وقعها مع قوات التحرير الشعبية في دورته الثالثة في أغسطس ١٩٧٦م، على أساس أن طرفا من هذا التنظيم (جبهة آسياس أفورقي) رفض الاتفاقية.

٥ ـ نتيجة رفض المجلس الثوري لاتفاق الخرطوم، وقيامه بالقضاء على القيادات الوطنية والإسلامية المؤسسين للثورة، فقد حدث فيه انشقاق من المسلمين، وانضموا لقوات التحرير الشعبية.

٦ ـ كما حدث انشاق آخر ضمن المجلس الثوري من قبل المسيحيين، وسمى بالفالول (الرافضين)، وكان سببه الحقيقي هو عدم استطاعة المسيحيين السيطرة على المجلس الثوري، بالإضافة إلى شعورهم بوجوب دعم آسياس أفورقي، حيث انضم معظم المنشقين إلى الجبهة الشعبية بزعامة حروي تدلا بايرو.

٧ ـ وأمام ضغط الجماهير الأريترية والدول العربية حدثت لقاءات لتوحيد الفصائل الثلاثة، وباءت كلها بالفشل، وإن تم في بعض الأحيان تنسيق عسكري بين المجلس الثوري والقوات الشعبية، أو بين المجلس الثوري والجبهة الشعبية.

٨ ـ وكانت أهم هذه اللقاءات اتفاقية للوحدة في الخرطوم بتاريخ ١٩٧٧/١٠/٢١م بين المجلس الثوري والجبهة الشعبية، وفشلت أيضا (استبعدت قوات التحرير الشعبية التي أعلن آسياس أفورقي عن رفضه لأي لقاء معها)[٣٤]، حيث إن كلا من الطرفين تمسك بموقفه وشروطه التعجيزية في اجتماع لاحق، عقد في حقات (١٩٧٧/١١/٣٠م، وانتهى الاجتماع إلى الفشل التام وتبادل الاتهامات والنيران أحيانا.

٩ ـ ظهرت خلال هذه الفترة جبهة جديدة من المقاتلين بقيادة سلطان عفر (الدناكل) العجوز، اتسمت بطابعها الإسلامي، كرد فعل للاتجاهات الماركسية في الثورة.

١٠ ـ امتدح المجلس الثوري الثورة الأثيوبية في تصريح له في بيروت، واعتبرها ثورة شعبية تقدمية وشقيقة للثورة الأريترية، كما هاجم الدول العربية (الإمبريالية) إرضاء للحكم الشيوعي، وتبع ذلك رحلات سرية إلى الدول الشيوعية.

١١ ـ الهزائم العسكرية : وقد تجسدت هذه الهزائم بانسحاب الثورة الأريترية من كافة المدن الرئيسية إلى الريف. وقد كان آخرها ما ذكره الناطق باسم الجبهة الشعبية في باريس عن الهجوم الأثيوبي المدعم بالقوات الكوبية والخبراء السوفييت، وانسحاب الثوار من آخر معاقلهم على البحر الأحمر (كعمل تكتيكي)[٣٥] ونزوح أكثر من ١٠٠ ألف لاجئ إلى الجبال.

ثالثا : مستقبل المشكلة الأريترية :

قبل أن نبدأ بتقييم مستقبل المشكلة في أريتريا، يجدر بنا أن نورد إمكانية قيام الدولة في أريتريا من وجهة نظر الجغرافيا السياسية، حتى يكون حديثنا ذا معنى عند مناقشة ما يحيط بالمشكلة في الحاضر والمستقبل.

١ ـ إمكانية قيام دولة مستقلة في أريتريا :

بمعرض الحديث عن إمكانية ومقومات قيام دولة مستقلة في أريتريا لن أبدي رأيا في الموضوع قبل أن أعرض بعض الآراء المنصفة في هذا الصدد حتى لا نتهم بالانسياق وراء عواطف معينة، ولذا فإننا سوف نستعرض بعض بنود المذكرة التي رفعها وفدا غواتيمالا وباكستان إلى الأمم المتحدة، والمتعلقة بالوضع السياسي العام في أريتريا[٣٦].

- إن من يؤيدون قضية الوحدة أسرفوا في التصوير العاطفي لسوء الوضع، لكي يتوصلوا إلى الاستنتاج بأن الإقليم لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يكفي نفسه من الناحية الاقتصادية، ولن يغدو قادرا على ذلك في المستقبل. ومن الناحية الأخرى، فإن مؤيدي مبدأ الاستقلال بالغوا أيضا بالإمكانيات المقبلة لأريتريا، وأكدوا بصورة عاطفية أيضا أن القطر يقدر على تحقيق استقلال اقتصادي كامل في فترة قصيرة.

ـ كلا الرأيين مبالغ فيه ، وكلاهما خاطئ .

ـ وعلى كل توجد حقيقة لا تنكر : قل أن يوجد في الوقت الحاضر قطر في العالم يمكن القول عنه: إنه مستقل من الوجهة الاقتصادية. إن فكرة تبادل الاعتماد الاقتصادي قد حلت حاليا محل المفهوم القديم عن الكفاية الذاتية.

ـ ومن وجهة أخرى من الصعب، بل من الخطأ، أن نقدر قدرة أريتريا الاقتصادية في ضوء الوضع الراهن فقط ، دون الحديث عن الحقيقة الهائلة بأن الظروف القائمة غير عادية.

ـ جاءت معظم المعلومات إلينا عن الوضع الاقتصادي في الإقليم من الإدارة البريطانية، ومن الواضح أنها تميل إلى تأييد الموقف السياسي للحكومة البريطانية من المشكلة.

ـ المنتجات الزراعية الرئيسية في أريتريا هي: الحبوب، الألياف النباتية، البن، التبغ، القطن، الحوامض، الفواكه.

ـ إن تربية المواشي مصدر جيد للثروة في أريتريا لإنتاج الألبان واللحوم وصناعة الجلود وتصديرها.

ـ إن الإحصاءات عن الإنتاج الزراعي غير تامة ولا كافية، وليس لها القيمة الفعلية للإحصاءات المعتادة بسبب الظروف القائمة.

ـ الحقيقة المنتشرة عن التعدين هي أن العديد من مناجم الذهب توجد في المرتفعات والمنخفضات على السواء. بلغ إنتاج الذهب ١٩٤٠م حوالي ١٧ر٠٠٠ أونصة، وبدأ يبلغ إنتاجا ثابتا مع احتمالات كبرى للازدياد. ثم خربت المناجم الرئيسية أو أغلقت أو فككت، فقد تأثرت بالنشاطات الإرهابية بنقص الأمن في القطر، ففي ١٩٤٩م لم يكن الإنتاج سوى ٨٠٠٪ ٢ أونصه.

ـ من من المعروف أيضا أنه يوجد مخزون من الحديد والنحاس والنيكل والميكا والأسبستوس، كما وجدت آثار للمنغنيز والتيتانيوم والمغنزيوم والكروم، ولكن المعلومات المتوفرة قليلة بشكل عام.

- وقد عرفنا أيضا أنه خلال السنوات الأخيرة من النظام الإيطالي استخرج البترول المحلي من جزر دهلك خارج مصوع، ولكن ظروف الحرب حالت دون إتمام هذه التطلعات.

- لدى أريتريا عدد كبير من الصناعات التي تستمد أهميتها من جودة نوعيتها. فالصناعات شديدة التنوع، ويمكن تقدير ذلك بما يلي: صناعات كيميائية، لحوم محفوظة، زبدة، جبن، أسماك محفوظة، بيرة، نبيذ، مشروبات روحية، كحول، أواني زجاجية، أوان صينية، بورسلان، ثقاب، ورق، منتجات طبية وصيدلية، بضائع جلدية، أزياء، حبال نباتية، زيوت نباتية وسمكية، صمغ عربي. ومعظم هذه المنتوجات يصدر. كما توجد منتوجات للاستهلاك المحلي كالصابون والسجاير والإسمنت والعطور.

- تمتلك أريتريا ساحلا يمتد ١٠٠٠ كيلو متر، وأرخبيلا هاما من الجزر في البحر الأحمر الذي هو من أغنى بحار العالم. إن صناعة الأسماك واستغلال الموارد البحرية ستكون من أغنى جوانب اقتصاد أريتريا وأكثرها احتمالا للتطور.

- من الناحية الجغرافية، تضم أريتريا منطقتين مختلفتين تمام الاختلاف: مرتفعات حماسين وسيراي واكلي قوزاي، والمنخفضات الغربية والشرقية. وكلتا المنطقتين تتمم الأخرى من الناحية الاقتصادية بتنوع منتوجاتها الحيوانية والنباتية والمعدنية، وبتبادل المواد الخام الصناعية، وفروق المناخ والفصول والتسهيلات التي تقدمها منطقة لأخرى من أجل هجرة المواشي الفصلية، ولابد من الإشارة إلى أن المنطقتين تربطها طرق وخطوط حديدية ممتازة.

- لا جدال في وجود روابط قوية من المصالح الاقتصادية بين أريتريا وأثيوبيا، هذه الروابط لا تعتمد فقط على حاجة أثيوبيا إلى استعمال الموانئ الأريترية لتجارتها الخارجية والأرباح التي تعود إلى أريتريا من تجارة النقل، وإنما تعتمد أيضا على أسواقها التي تتبادل مختلف السلع.

- إن أريتريا ككل الأقطار التي كانت تحت النظام الاستعماري تفتقر إلى توازن ميزانها التجاري، فهي تصدر ما معدله ١٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه، وتستورد أكثر من ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه. وعلينا أن نتذكر أن هذه الأرقام تنطبق على الفترة الحالية غير العادية.

- أوضحت غرفة التجارة الأريترية أن العجز في الميزان التجاري أصغر مما يبدو، على اعتبار أنه توجد عائدات هامة غير مرئية لم تؤخذ بعين الاعتبار.

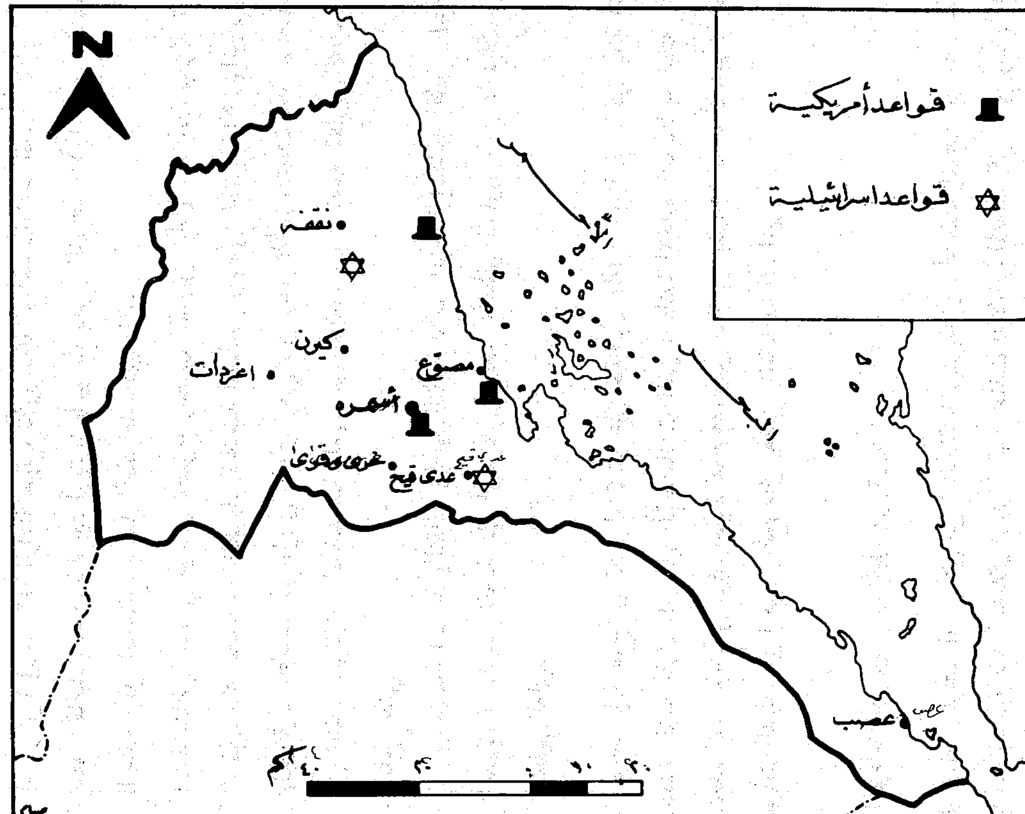
- لذلك توصي الجمعية العامة بما يلي :
- إن أريتريا في حدودها الراهنة سوف تكون دولة مستقلة ذات سيادة.
- تعقد اتفاقيات اقتصادية بين أريتريا وأثيوبيا، يكون الغرض الأول منها تسهيل التجارة ونقل البضائع، بقصد اتحاد اقتصادي دائم.
- إقامة مناطق حرة في ميناءى مصوع وعصب لتسهيل تبادل البضائع، وحركة تسيير السفن، والاستفادة من الظروف الخاصة للمناءين وموقعها الجغرافي الاستراتيجي.
- بغية تقوية التماسك الداخلي في القطر، نوصي بأن ترسل الأمم المتحدة بعثة اختصاصية من مختلف الوكالات المتخصصة، لكي تقوم بالدراسات المناسبة لتطوير القطر على أساس تقني.
- تدرس منظمة التربية والثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة إمكانية إقامة جامعة فى أسمرة، لا يقتصر نفعها على أريتريا، بل يعم الأقطار المجاورة التي لا تمتلك مراكز للتعليم العالي.

وبعد فإذا صح أن نكرر أو نؤكد على حقيقتين هامتين وردتا في مذكرة بعثة الأمم المتحدة، فإننا نقول: إن كل الإحصاءات التي أعطتها الإدارة البريطانية لبعثة الأمم المتحدة كانت وبشكل مؤكد مغايرة للحقيقة، وتميل فعلا إلى إظهار أريتريا كإقليم لا يحمل مقومات الدولة، من أجل ترجيح حل يفضي بانضمامها إلى أثيوبيا.

٢ ـ الموقف الدولي ومستقبل أريتريا :

لو بدأنا بالموقف الأمريكي من المشكلة الأريترية نجد أن هذا الموقف قد اتخذ شكلا عدائيا منذ البداية ضد استقلال أريتريا. فقد عملت الولايات المتحدة كل ما في وسعها على إنجاح مشروع الاتحاد الفيدرالي الذي كانت قد تقدمت به للأمم المتحدة، في مقابل تقديم تسهيلات عسكرية للجيش الأمريكي في أريتريا حسب ما وعد به هيلاسيلاسي. وفعلا عقدت المعاهدة الأولى بين الولايات المتحدة وأثيوبيا في ١٩٥١/١١/٧م، وتلاها في العام التالي عقد

القواعد الأمريكية والإسرائيلية في أريتريا



شكل (٥)

المعاهدة الثانية في ١٩٥٢/٥/٢٢م، وتتضمن استعمال المنشآت الدفاعية في أثيوبيا، ومنح الجيش الأمريكي تسهيلات عسكرية واسعة(٣٧).

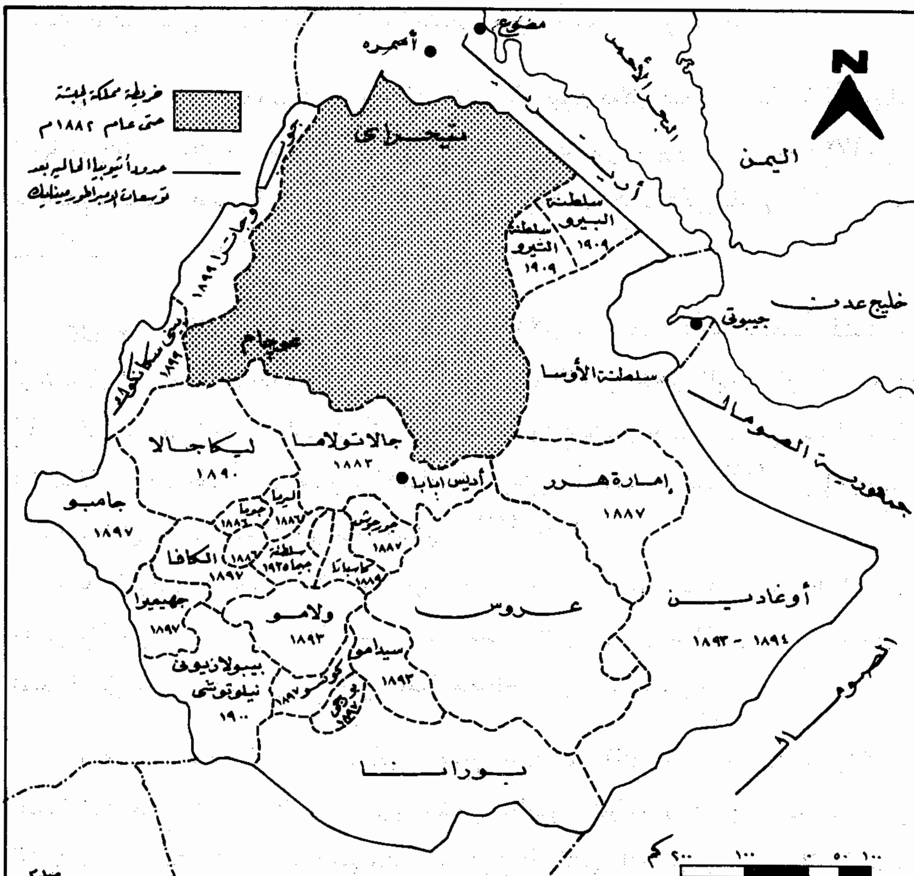
وفي عام ١٩٥٣م قامت الولايات المتحدة بإنشاء قاعدة بحرية لها في مصوع، كما قامت بإنشاء قاعدة كانيوستيشن للاتصالات العسكرية قرب أسمرا، شكل (٥).

وفي عام ١٩٦٠م قدمت الولايات المتحدة ١٥٠ مليون دولار كمعونة عسكرية لأثيوبيا، تلتها معونات عسكرية واقتصادية كثيرة، أهمها تزويد أثيوبيا بزوارق حربية (١٩٧٣م) تستخدم خصيصا ضد زوارق الثوار البخارية في البحر الأحمر. كيف يمكن تفسير هذا الموقف؟ هذا ما سنعود إليه بعد استعراض المواقف الأخرى.

تجلى موقف الاتحاد السوفييتي بشكل واضح خلال مناقشات الأمم المتحدة لمشكلة أريتريا في الأربعينات وبداية الخمسينات، وقد سبقت الإشارة خلال البحث إلى المشروع الذي تقدم به. كما تقدمت بولونيا تساندها الدول الشيوعية بمشروع مماثل يقضي بمنح أريتريا الاستقلال التام. وقد أعرب مندوب الاتحاد السوفييتي في الأمم المتحدة(٣٨) عن إعجابه بالشعب الأثيوبي لمقاومته عدوان دولة استعمارية(٣٩)، إلا أنه قال:
«إنه لا يمكن أن تكون هناك دولة حرة إذا كانت تريد استعباد دولة أخرى. وأعلن أن الاقتراح السوفييتي ينساق مع أغراض الأمم المتحدة التي يجب أن تعمل على تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها، بدلا من أن تعمل لخدمة مصالح الدول الاستعمارية».

كما تجسد الموقف السوفييتي بشكل واضح ومؤيد بعد ذلك للثورة الأريترية، وخاصة عندما نشأ ضمن الثورة الأريترية حزبا الشعب والعمل الماركسيان ضمن جبهة التحرير الأريترية في الستينات وبداية السبعينات. وبوقوع الانقلاب العسكري ضد هيلاسيلاسي، وتشكيل مجلس عسكري لتولي الحكم في أثيوبيا، ومن ثم وصول منجستو ماريام إلى رأس الحكم، تغير الموقف السوفيتي شيئا فشيئا، حتى انعكس تماما بعد أن أعلن منجستو بأنه تقدمي ماركسي.

أما سياسة أثيوبيا فيبدو أنها جبلت على العدوان ، فمنذ عهد إيكونو أملاك (أول من بدأ حربا شعواء ضد ممالك الطراز الإسلامي) إلى هيلاسيلاسي الذي ذبح الشعب الأريتري،



خريطة مملكة الحبشة
حتى عام ١٨٨٢م
حدود أثيوبيا الحالية بعد
توسعات الإمبراطور منليك
أسمره
مصوع
تيجراى
البحر الأحمر
اليمن
سلطنة البيرو ١٩٠٩
سلطنة التيرو ١٩٠٩
خليج عدن
جيبوتى
سلطنة الأوسا
جمهورية الصومال
الصومال
إمارة هرر
١٨٨٧
جالاتولاما
١٨٨٢
أديس ابابا
ليكاجالا
١٨٩٠
جامبو
١٨٩٧
الكافا
١٨٩٧
جهيميرا
١٨٩٧
ولامو
١٨٩٣
عروس
أوغادين
١٨٩٤ - ١٨٩٣
سيدامو
١٨٩٣
بيبولا زيوف نيلوتوتى
١٩٠٠
بورانا
كم ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ٥٠ ١٠٠

شكل (٦)

مرورا بمينليك الذي اشتغل بصناعة الموت، ووسع مملكته على حساب ممالك الغالا والصومال والدناكل وجومو والولامو، شكل (٦) لم تترك هذه السياسة سبيلا للتوسع إلا اتبعته، يحدوها الأمل إلى إعادة مجد مملكة أكسوم التاريخية على حساب حريات الشعوب، حتى ولو كانت هذه المملكة لا تمثل حاليا الأمهرية الأثيوبية.

يهمنا هنا أن نوضح الأسباب الحقيقية لتغير سياسة بعض الدول من المسألة الأريترية ومن مسائل كل الشعوب المغلوبة على أمرها.

وبداية بالنظام الأثيوبي نقول : إن الإمبراطور هيلاسيلاسي، وقبل أن يوقع على صك الاتحاد الفيدرالي مع أريتريا، أعلن في خطابه ١٩٥٠م ما نصه: «إنني لا أستطيع أن أعيش وراء قوة عربية مسلمة تحرمني من البحر الأحمر، أو تساوم بموقعها الممتاز على شواطئه من أجل ربط صلاتها بالمسلمين في بلادي». معنى هذا أن هيلاسيلاسي كان ينوي مسبقا إلغاء الاتحاد الفيدرالي، لأن الإقرار بالاستقلال الذاتي لأريتريا كان في نظره يشكل دافعا للقوميات الأخرى المضطهدة في الإمبراطورية الأثيوبية كي تطالب بحقوق مماثلة.

وقد جاءت انتصارات الثورة الأريترية التي أجهدت حكم هيلاسيلاسي الفاسد (الذي يقوم على الحق الإلهي) بالعسكريين إلى السلطة في أثيوبيا. وبدلا من حل القضية سلميا كما بدا في أول الأمر، طلب المجلس العسكري المزيد من الأسلحة من الولايات المتحدة، وهنا وبينما كانت أمريكا تماطل فقط في تقديم السلاح للضغط على أثيوبيا لتقديم بعض التنازلات، فاجأ المجلس العسكري العالم بطلب الأسلحة من المعسكر الشيوعي. ووجد منجستو ماريام في تجارته بشعارات الاشتراكية والتقدمية سلاحا مجانيا وفعالا للقضاء على المعارضة الداخلية في بلاده، وكسب عطف الاتحاد السوفييتي الذي بادر فورا إلى شحن ما يحتاجه منجستو من أسلحة وعتاد حربي، ليقمع به كل الثورات الداخلية في أثيوبيا والثورة الأريترية أيضا.

وهكذا فإن منجستو هو المستفيد الوحيد في النهاية، أولا من السياسة الأمريكية تجاه الثورة الأريترية، بحجة أن هذه الثورة يقوم بها مسلمون، ولا يمكن للولايات المتحدة أن تدعمها لتضرب أثيوبيا قلعة المسيحية في إفريقيا، وثانيا من السياسة السوفيتية التي رأت وبناء على تقديراتها الخاصة أن الفرصة مناسبة لإقامة علاقات جيدة مع النظام الأثيوبي، وطرد الوجود الأمريكي من أثيوبيا. ولكن هل يمكن للاتحاد السوفييتي أن يدعم نظاما عسكريا

دكتاتوريا على حساب مصلحة الشعب؟ أم أن الاتحاد السوفييتي مقتنع تماما بماركسية منجستو؟ وإذا كان الاحتمال الأخير بعيدا، فكيف نوفق بين الموقف السابق للاتحاد السوفييتي من قضية أريتريا في الأمم المتحدة ١٩٥٠م والموقف الحالي الذي تخلى به عن الثورة الأريترية، على الرغم من وجود الأحزاب الماركسية ضمن جبهة التحرير؟ ويبدو أن الجواب الحقيقي يكمن في أن الاتحاد السوفييتي قد باع مبادئه في سبيل توسيع نفوذه في قارة إفريقيا نظرا لعوامل عديدة، أهمها:

(١) فقدان الاتحاد السوفييتي لقواعده الرئيسية في مصر منذ ١٩٧٢ م.
(٢) إن الاتحاد السوفييتي وجد في أثيوبيا لقمة سائغة وجاهزة لإقامة علاقات وطيدة معها، بينما كان عليه الانتظار طويلا لإقامة علاقات مع الدولة المنتظرة في أريتريا في حال نجاح ثورتها، حتى ولو كانت ماركسية.
(٣) إن الاتحاد السوفييتي بتدخله في أثيوبيا وعدن يحاول أن يطوق المملكة العربية السعودية التي تعتبر البلد الوحيد الذي يقف ومازال حجر عثرة في سبيل نشر إيديولوجيته ونفوذه في المنطقة.
(٤) يمكننا التكهن بأن ساسة الوفاق الأمريكي السوفييتي قد قسموا العالم إلى مناطق نفوذ فيما بينهما، بحيث تسيطر روسيا على إفريقيا وجنوب شرقي آسيا، بينما تسيطر الولايات المتحدة على أمريكا اللاتينية والعالم العربي، وإلا فكيف نستطيع تفسير سياسة غض النظر التي تتبعها كل دولة من دول الوفاق تجاه الأخرى عند تدخلها وبسط نفوذها على كثير من دول العالم؟!!

ويتبين لنا بعد هذا أن كل ما يدعيه الاتحاد السوفييتي أو ما تدعيه الماركسية من مناصرة الشعوب المغلوبة على أمرها إن هي إلا أكذوبة افترتها الماركسية ومن يأخذون بها للسيطرة على الشعوب باسم الأممية والدعوات الأخرى. وكم كنا نرجو أن يعي قادة الثورة في أريتريا، ومن يدعون أنفسهم بالتقدميين العرب، هذا الدرس الجديد.

أما الدول العربية فيمكننا القول بأنها فعلا أضاعت استقلال أريتريا، فمنذ مناقشة قرار الاتحاد الفيدرالي في الأمم المتحدة صوت مصر في عهد فاروق جانب اتحاد أريتريا بأثيوبيا، وأقنعت بذلك عددا آخر من الدول العربية. وفي ١٩٥٦م عندما سافر وفد أريتري إلى الأمم

المتحدة لعرض خرق أثيوبيا لمقررات الاتحاد، قام المندوب السوداني، وأخذ على عاتقه بحث المخالفات الأثيوبية مع الوفد، وتنبيه حكومته إلى هذه المخالفات. وكانت النتيجة أن حل الوفد الأريتري في سجون أثيوبيا لمدة عشر سنين.

وبعد إلغاء الاتحاد الفيدرالي من طرف أثيوبيا سافر وفد أريتري إلى سوريا، وطلب من حكومتها إثارة الموضوع أمام الأمم المتحدة، وبعد أن استجابت الحكومة السورية لذلك، فوجئت بمندوب مصر (في عهد عبدالناصر ١٩٦٣م) والسودان في الأمم المتحدة يعترضان على تقديم أى مذكرة للأمم المتحدة، وأقنعوا المندوب السوري بذلك حرصا على العلاقات العربية ـ الحبشية ـ الإفريقية.

صحيح أن بعض الدول العربية في الستينات ومعظم الدول العربية في السبعينات قد اقتنعت بشرعية الثورة الأريترية، إلا أنه لازال هناك الكثير مما يجب أن تقوم به هذه الحكومات. ليس فقط من أجل الشعب الأريتري المسلم، ولكن من أجل الوقوف في وجه النفوذ السوفييتي الماركسي التوسعى الذى أسفر عن هويته في أثيوبيا، والذي يخشى من هيمنته بعد أن وضع قدمه في اليمن الجنوبي أيضا.

وهنا تجدر الإشارة إلى الموقف السلبي لليمن الجنوبي الذي اتخذته تجاه الثورة الأريترية (منذ تغلغل النفوذ السوفييتي في أثيوبيا) بعد أن كانت تحتضن الثورة وتغذيها. وتعليل هذا التغير في سياسة عدن واضح تماما، ويتمثل في خضوع كل الماركسيين لسياسة موسكو الأم، حتى ولو كان هذا الخضوع يصل إلى حد مقاتلة أبناء العمومة في أريتريا، مدعين بتقدمية منجستو ماريام الذي سيعطيهم كل حقوقهم ضمن إطار حكم ذاتي علماني داخل حدود أثيوبيا.

لقد تطلعت أريتريا إلى العالم العربي والإسلامي فعلا كما توقع هيلاسيلاسي، ودفعت ثمن هذا التطلع استقلالها ودمجها مع أثيوبيا، لأن هذا التطلع فعلا ليس في صالح أثيوبيا ولا في صالح إسرائيل صنيعة أمريكا، ويضر حاليا بنفوذ الاتحاد السوفييتي.

لقد لجأ حكام أثيوبيا لسياسة حجب الدعم عن الثورة الأريترية، ففي إفريقيا يثيرون النعرات التي اتبعها الاستعماريون طويلا، ويوهمون الأفارقة بالغزو العربي المزعوم، كما

يرفعون الشعارات الاشتراكية لكسب عطف الدول الاشتراكية في العالم، ويهددون الدول الغربية والولايات المتحدة والصهيونية بأن استقلال أريتريا سيحولها إلى دولة عربية، وسيصبح البحر الأحمر بحيرة عربية، وعلى هذه الدول أن تقوم بدورها فى ضرب الثورة الأريترية.

وتواجه القضية الأريترية حاليا معارضة قوية من الدول لكبرى، وخاصة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وتحاول هذه الدول التأثير على مصادر الدعم العربي الثورية والمحافظة، عن طريق الوفود العديدة التي وصلت إلى العواصم العربية من الاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وكوبا والولايات المتحدة، تطالب بوقف الدعم العسكري لأريتريا ومساعدة أثيوبيا لحل المشكلة الأريترية على أساس اتحاد فيدرالي.

٣ ـ توصيـــات :

بناء على ما تقدم فإننا نرى أن على الثورة الأريترية والدول العربية أن تقوما بدور فعال في مجالات عديدة، لمواجهة الدعاية والعدوان الأثيوبيين.

أ ـ دور الدول العربية :

ينبغي على الدول العربية أن تسارع فورا في تبني القضية الأريترية ومساندتهـا في المجالات التالية:

* مواجهة الدعاية الأثيوبية سلميا : ويتمثل ذلك بتبني الدفاع عن الشعب الأريتري والثورة الأريترية أمام الرأي العام الإفريقي والعالمي بصورة مكثفة. فالمشكلة الأريترية لاتزال في نظر الرأي العام الإفريقي وكثير من دول العالم مشكلة داخلية أثيوبية، وبالتالي فهي تدخل في نطاق قضايا الانفصال التي لا تجد ترحيبا من قبل إفريقيا والعالم، على الرغم من أن ذلك يتنافى وحقيقة المشكلة الأريترية التي نشأت بالأصل من قرار دولي خاطىء، وقرار أثيوبي ظالم.
* إثارة القضية الأريترية أمام الأمم المتحدة ومطالبتهـا بالتدخـل، استنـادا إلى بيان المستشارين القضائيين للأمم المتحدة الواردة في التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحـدة الفقرة ٢٠١، والتي تنص على ما يلي:

«من البين أن المهمة التي أنيطت بالجمعية العامة للأمم المتحدة بموجب معاهدة الصلح المعقودة مع إيطاليا، تعتبر منتهية متى دخل الميثاق الفيدرالي والدستور الأريتري حيز التنفيذ» ومع ذلك، فإن هذا لا يعني عدم حق الأمم المتحدة بإعادة النظر في القضية الأريترية. إن الميثاق الفيدرالي والدستور الأريتري قائمان على مبادىء قرار الأمم المتحدة، وإن هذه الوثيقة الدولية تظل محتفظة بقوتها القانونية الملزمة. وانطلاقا من هذا، فإنه إذا اقتضت الضرورة تعديل أو تفسير الميثاق الفيدرالي، فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة التي أصدرت تلك الوثيقة الدولية تظل السلطة الوحيدة المخولة اتخاذ تعديل أو تفسير. وبالمثل، فإنه إذا نقض القرار الفيدرالي، فإن القضية الأريترية يمكن عندئذ أن تصبح من اختصاص الجمعية العامة للأمم المتحدة.

معنى هذا أن القضية الأريترية قضية عادلة ورابحة إذا أثيرت في الأمم المتحدة، وخاصة أن أثيوبيا قد ألغت الاتحاد الفيدرالي من جانب واحد، كما ارتكبت مخالفات قانونية عديدة أثناء تطبيقه، كما سبق أن أشرنا.

* يجب على الدول العربية أن تقدم المزيد من العون العسكري للثورة الأريترية، وبشكل خاص لقوات التحرير الشعبية الوطنية الاتجاه، وقوات سلطان عفر الإسلامية الاتجاه. كما يطلب من بعض الدول العربية الداعمة لفصيلي المجلس الثوري والجبهة الشعبية أن تمارس ضغطا مكثفا على هذين الفصيلين من أجل توحيد قواتها العسكرية مع قوات التحرير الشعبية وقوات عفر في مواجهة الاحتلال الأثيوبي المدعم بالقوات الكوبية والخبراء السوفييت. وإلا فإن الزمن ليس لصالح استقلال أريتريا في ظل الانقسام الراهن والظروف الدولية الحالية.

ب ـ دور الثورة الأريترية :

وهنا لابد من الاعتراف بأن أخطاء الماضي[٤٠] انعكست على الوضع الحالي للثورة الأريترية، لذا فإن أي عمل جدي لتوحيد فصائل الثورة الأريترية، ومن ثم إحراز النصر والاستقلال. لابد وأن يعالج هذه الأخطاء. ويطرح شعار الاستقلال الوطني لأريتريا أولا وقبل كل الإيديولوجيات. فقد أثبت الواقع العملي أن الإيديولوجيات المختلفة التي تبنتها الثورة الأريترية، وأيضا شقيقتها الثورة الفلسطينية، قد بددت جهود الثورتين، وزادتها

انقساما وضعفا. أما الأمر الثاني فيتمثل بوضع منهج المستقبل يكون مقبولا لدى الجميع، وآخذا بالاعتبار معالجة النقاط الحساسة التي يمكن أن تعود بالانقسام مرة أخرى إلى فئات الشعب. وهذه النقاط تتمثل في الاعتراف بواقع التكوين السكاني المتعدد الأديان والثقافات واللهجات. فالتعصب للغة مثلا سبب الكثير من المشاكل والانقسامات، وسواء أكان هذا التعصب إلى اللغة العربية أم اللغة التجرينية. وأيضا ثمة مشكلة عويصة تتمثل في مقاليد الحكم والسلطة في المستقبل، وهي مشكلة قائمة من الآن، وتجب معالجتها ووضع الحلول لها، حتى لا تفسح المجال في المستقبل لتجدد الصراع والانقسام.

إن كل هذه القضايا لا تحل بالكلام وحده، وعلى الأريتريين أنفسهم أن يتركوا حساسيات الماضي والتعصب الحاضر بكل أشكاله الطائفي والثقافي والقبلي والإقليمي، ويضعوا الحلول المناسبة لواقعهم قبل فوات الأوان وضياع سبعة عشر عاما من الكفاح.

الحواشي

(١) حسب تقدير السلطات البريطانية، والمعروف أنها تميل إلى ترجيح كفة المسيحيين من أجل تمرير مشروع ضمهم إلى أثيوبيا.

(٢) لا يوجد إحصاء رسمي للسكان، وقد قدرتهم الإدارة البريطانية بطريقة التعداد الإداري حسب وحدة القرية والأسرة بـ ١٫٠٦٦٫٠٠٠ في عام ١٩٤٩م.

(٣) أحصيت المصانع بناء على عدد العمال، حيث اعتبرت كل ورشة إنتاجية مصنعا إذا زاد عمالها عن ١٠ أفراد.

(٤) أقوام كانت تسكن أريتريا عند قدوم القبائل السامية من اليمن، ويعتقد بأنهم نزحوا من جنوب الجزيرة العربية منذ عشرة آلاف عام.

(٥) سبي ، عثمان صالح ، تاريخ أريتريا ، ص ٣٤ ، بيروت ١٩٧٧ م.

(٦) امتدت هذه الممالك على ساحل البحر الأريتري والصومالي.

(٧) نتج شعب الأمهرا عن تزاوج شعب أكسوم مع قبائل الأقو الوثنية في الجنوب بعد انحسار نفوذ أكسوم واقتصارها على إقليم تجراي تحت ضربات قبائل البجة. وخلال ثلاثة قرون نشر الأكسوميون لغتهم (جعز) وديانتهم بين قبائل الأقو، وطوروا لغة مشتركة سميت بالأمهرا.

(٨) انظر البحث ص (٢) .

(٩) وهي باضع (مصوع) ودهلك وزيلع وسواكن .

(١٠) رينيه باسيه ، النقوش الكتابية في جزيرة دهلك، ص ٤٣ ـ ٤٤، ترجمة ونشر البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.

(١١) تقع هذه السلطنة ضمن مديرية دنقاليا على البحر الأحمر .

(١٢) رينيه باسيه ، مرجع سبق ذكره ص ٤٦ .

(١٣) حاكم الحبشة بين ١٦٣٢ ـ ١٦٦٧ م .

(14) Ullendorff : The Ethiopians , P. 59 .

(١٥) يطلق عليهم الأحباش أدال ، نسبة إلى سلطنتهم عدل في العصور الوسطى .

(١٦) تنازل الباب العالي لإسماعيل عن ميناءي زيلع وبربرة في الصومال عام ١٨٧٥ م .

(١٧) وثائق الخارجية الايطالية حول احتلال أريتريا، وزارة الخارجية الايطالية، الجزء الثاني ص ٢٣٣، دمشق ١٩٧٨م.

(١٨) قتل في معركة المتمة على أيدي المهديين في ٢٩ مارس ١٨٨٩ م .

(١٩) مع العلم أن كل سكان الشواطئ الأريترية مسلمون، بالإضافة إلى أقليات كبيرة تعيش في الهضبة.

(٢٠) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحدة في أريتريا ١٩٥٢م، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٦ بغداد ١٩٧٧م.

(٢١) يقصد بنفس الأحرف الأمهرية .

(٢٢) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، مرجع سبق ذكره ص ١٧٦ .

(٢٣) انظر البحث ص (٥) .

(٢٤) انظر البحث ص)٤) .

(٢٥) انظر البحث ص (٥) .

(٢٦) انظر البحث ص (٧) .

(٢٧) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠ .

(٢٨) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٢ .

(٢٩) انظر البحث من ص ٨ ـ ١٢ .

(٣٠) يشكل المسيحيون في مدينة أسمرا ٧٥٪ من السكان .

(٣١) خوفا على قاعدة إنيوستيشن للاستخبارات من الدمار .

(٣٢) المقصود هنا بانحسار دور المسلمين هو انحسار دور الشباب المسلم، لأن معظم القيادات رفعت الشعارات الاشتراكية والماركسية، وهي محسوبة على المسلمين.

(٣٣) نشأ أخيرا ضمن صفوف المجلس الثوري حزب ماركسي الاتجاه، يسمى بحزب العمل الأريتري (بدأ في النمو منذ الستينات).

(٣٤) تدعو قوات التحرير الشعبية إلى التزاوج الثقافي العربي ـ التجريني في أريتريا، بينا يرفض تنظيم آسياس أفورقي هذا الاتجاه، ويدعو إلى تجزئة أريتريا.

(٣٥) تخفف أثيوبيا الضغط على المناطق التي تسيطر عليها الجبهة الشعبية.

(٣٦) وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢م، الفقرات: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٧، صفحة ١٥٥ ـ ١٦١، بغداد ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م.

(٣٧) تنص المادة (٢) من المعاهدة على: «أن الحكومة الإمبراطورية الأثيوبية تمنح الولايات المتحدة حق ممارسة جميع الحقوق والصلاحيات والسلطات الضرورية لإنشاء وإدارة وتسيير المنشآت للغايات العسكرية، ولا يدخل في هذه الحقوق حق أو سلطة أو صلاحية تحويل هذه المنشآت أو جزء منها تحت تصرف دولة أو حكومة أو قوة عسكرية ثالثة».

(٣٨) كان ذلك أثناء مناقشة المشاريع المقدمة بشأن مستقبل أريتريا (١٩٥٠م) في معرض رده على المندوب البريطاني الذي نادى بعدم استقلال أريتريا.

(٣٩) يقصد حرب الحبشة مع إيطاليا .

(٤٠) تمثلت في المعاملة الخشنة من قبل القيادات المسلمة لأبناء وطنهم من المسيحيين غير مبالين بالحساسيات القديمة التي نشأت في الأربعينات. كما أن قيام القيادة العامة (وبدافع إقليمي طائفي) ببعض الإعدامات ضد أبناء الهضبة المسيحية مما دفع آسياس أفورقي إلى الانفصال بتنظيم ظاهره ماركسي بينا جوهره طائفي.

المصادر

المصـادر العـربية :

- أدولف روسي : أريتريا اليوم (روما ١٨٩٤م) ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية.
- وثائق الأمم المتحدة حول أريتريا : (تقرير اللجنة الرباعية ١٩٤٨م - تقرير بعثة الأمم المتحدة في أريتريا ١٩٥٠م - التقرير النهائي لمندوب الأمم المتحدة ١٩٥٢م) ترجمة جبهة التحرير الأريترية، بغداد ١٩٧٧م.
- وثائق الخارجية الايطالية حول أريتريا : ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.
- جبهة التحرير الأريترية : جهودنا من أجل الوحدة، (وثائق صادرة عن قوات التحرير الشعبية)، مكتب الإعلام.
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٠٣م.
- عثمان صالح سبي : تاريخ أريتريا ، دمشق ١٩٧٧ م .
- فرديناندو مارتيني : أريتريا في أفريقيا الايطالية ، ترجمة جبهة التحرير الأريترية، بيروت ١٩٧٦م.
- سيد أحمد خليفة : عارنا في أريتريا ، بيروت ١٩٧٤ م .
- رينيه باسيه : النقوش الكتابية في جزيرة دهلك ، ترجمة البعثة الخارجية لجبهة التحرير الأريترية، دمشق ١٩٧٧م.
- محمد سيد محمد : العلاقات بين السودان والحبشة في أواخر القرن التاسع عشر - مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، العدد الأول، صفحة ٢٠٧ - ٢٣٢، مكة المكرمة ١٩٧٥م.

المصـادر الأجنبيـة :

—Abul—Haggag, Y. A Contribution to the physiography of Northern Ethiopia, London, 1961.

- Shoff, W. H. : Periplus of the Erythrean Sea, New York, 1912.
- Ulendorff, E, : The Ethiopians-Introduction to people and country, London 1955.

مشكلة مسلمى الفلبين
منـذ الاحـتلال الاسـبانى
حتى الوقت الحاضر

دكتور / محمد شتا

المقدمـــة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبدالله المبعوث رحمة للعالمين، وبعـد.

فإن مشكلة المسلمين الذين يعيشون في الفلبين اليوم لا ترجع إلى هذا القرن الذي نعيش فيه بعد أن حصلت الفلبين على استقلالها، وإنما ترجع إلى خمسة قرون سابقة، عندما طرق الاستعمار الأسباني أرض الفلبين، فاستعمر أجزاء منها، ونشر المسيحية فيها، وحاول أن يبسط سلطاته وسيادته ودينه على الجزر والأراضي التي يقيم فيها المسلمون، فبدأ الصراع بينه وبين المسلمين، واستمر طيلة وجود الاستعمار الأسباني الذي استطاع أن ينشر المسيحية في الأماكن التي احتلها، ونجح في أن يجعل الفلبينيين المسيحيين يرثون روح العداوة والحقد التي يكنها الاستعمار الأسباني للمسلمين الذين تمسكوا بدينهم، ودافعوا عن أرضهم ووطنهم، ولم يعتنقوا دين الأسبان المسيحي، بل ظلوا يقاتلون الأسبان أثناء استعمارهم للفلبين، ثم استمر القتال فترة وجود الأمريكان، وإن كان قد هدأ فترة سادها الحذر، ثم اشتد الصراع بعد الاستقلال إلى أن وصل إلى الوضع الحالي الذي يعاني منه المسلمون اليوم من أجل الاحتفاظ بدينهم وبأرضهم وقيمهم.

ومن هنا نرى أن مشكلة المسلمين في الفلبين إنما هي بقية من بقايا الاستعمار الأسباني في الفلبين، وذيل من ذيوله التي خلفها بعد أن رحل عنها. وحل هذه القضية أو المشكلة إنما هو حل لقضية استعمارية قد طال عليها الزمن حتى بعد رحيل الاستعمار الأسباني بثمانين عاما.

وسوف تكون دراستنا لهذه المشكلة في إطار الحديث عن موقع الفلبين وأهم جزرها ـ السكان وديانتهم ـ علاقات العرب بالفلبين ـ دخول الإسلام إلى الفلبين ـ وصول الأسبان إلى الفلبين وبداية مقاومة المسلمين لهم ـ تتابع حملات الأسبان لاحتلال الفلبين ـ أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين ـ تمكن الأسبـان من القضـاء على المسلمـين في شمال الفلبين ـ محاولتهم القضاء على المسلمـين في الجنـوب ـ صمـود المسلمـين في القتـال ضد

الأسبان ـ محاولة المسلمين الاستعانة بقوى أجنبية أخرى ضد الأسبان ـ المعاهدات بين المسلمين وبين الأسبان ـ هزيمة الأسبان أمام الأمريكان ـ موقف الأمريكيين من المسلمين في الفلبين ـ ثم تطور المشكلة بعد الاستقلال.

المشكلة بعد الاستقلال.

١ ـ موقع الفلبين وأهم جزرها :

تقع الفلبين في جنوب شرقي آسيا بين خطي عرض ٥°، ١٨° شمال خط الاستواء، وبين خطي طول ١٢٠°، ١٢٧° شرقي خط جرينتش، وتظهر الفلبين كأرخبيل يمتد في جنوب شرقي قارة آسيا. وأول جزيرة فيها من الشمال هي جزيرة (يامي) Yami التي تبعد عن فرموزا ٧٨ ميلا، وآخر جزيرة فيها من الجنوب هي جزيرة (سالوج) Saluog التي تبعد عن برنيو ٣٤ ميلا. ومجموع جزر الفلبين ٧١٠٠ جزيرة بشكل تقريبي لمثلث متساوى الساقين، طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٥٢ ميلا، ومن الشرق إلى الغرب ٦٨٨ ميلا، وعدد الجزر التي لها أسماء ٢٧٨٢ جزيرة، والباقي من الجزر ليس لها أسماء بعد.

وأكبر الجزر هي جزيرة (لوزون) التي فيها عاصمة الفلبين (مانيلا) ومساحتها ٤٠٨١٤ ميلا مربعا، وتليها جزيرة (منداناو) ومساحتها ٣٦٩٠٦ ميلا مربعا، والثالثة جزيرة (سمر) ومساحتها ٥١٢٤ ميلا مربعا.

ومن الجزر الكبيرة جزيرة (نجرو) ومساحتها ٤٩٠٣ ميلا مربعا، وجزيرة (بلاون) ومساحتها ٤٥٠٠ ميلا مربعا، وجزيرة (باناي) ومساحتها ٤٤٤٨ ميلا مربعا، وجزيرة (مندور) ومساحتها ٣٧٩٤ ميلا مربعا، وجزيرة (ليبات) ومساحتها ٢٧٩٩ ميلا مربعا.

ومجموع مساحة الفلبين ١١٥٦٠٠ ميلا مربعا، وهذه المساحة تعادل مساحة إيطاليا، كما تعادل مساحة اليابان، وحوالى ثلثي مساحة أسبانيا.

٢ ـ السكان وديانتهم :

يتكون السكان في الفلبين من أجناس مختلفة من الزنوج والملايا والأندونيسيين والهنود والصينيين واليابانيين والعرب والأوربيين والأمريكان.

وقد قدر الأستاذ H. otley Beyer ـ أستاذ السلالات ـ نسبة الدم الذي يجري في عروق الفلبينيين بما يأتي:

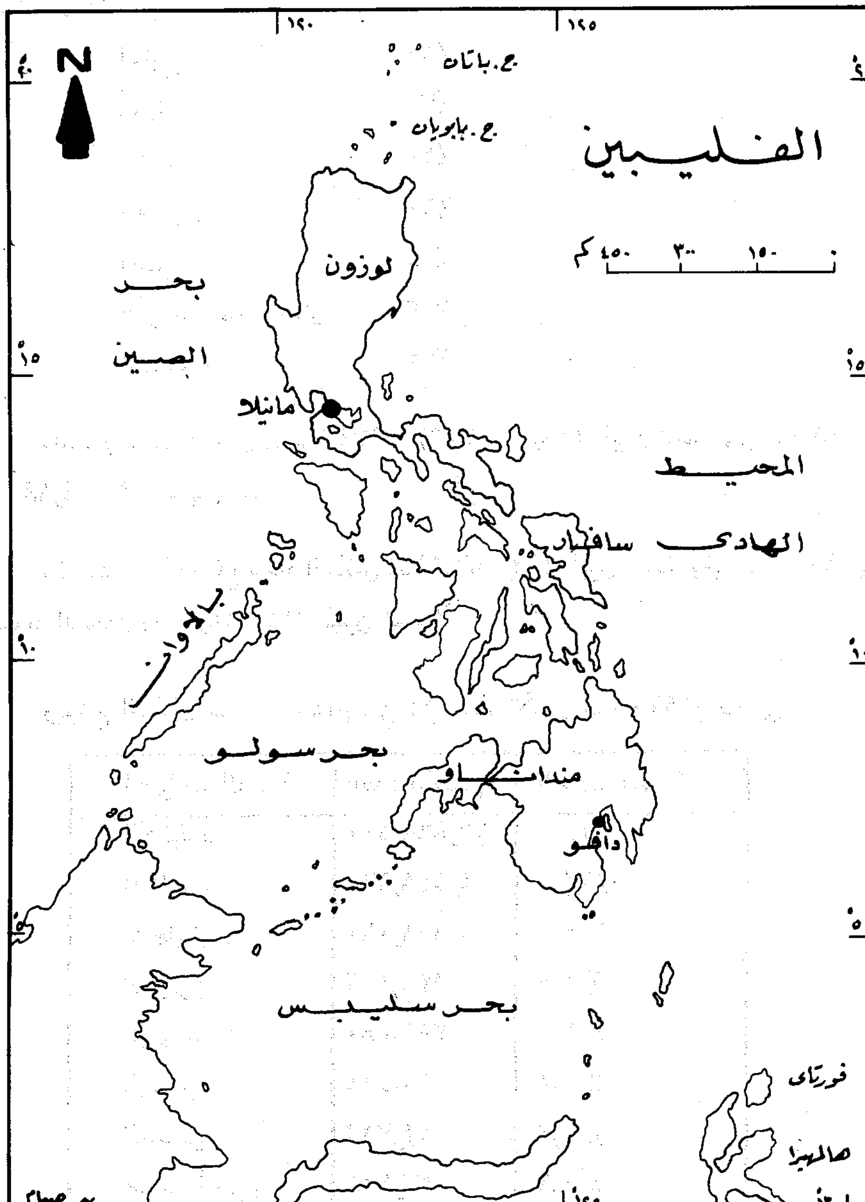
الزنوج	١٠٪
أندونيسيا	٣٠٪
الملايـا	٤٠٪
الصينيين	١٠٪
الهنـود	٥ ٪
الأوربيين والأمريكان	٣ ٪
العـرب	٢ ٪

وقد بلغ تعداد السكان في سنة ١٩٣٩م (١٦٫٠٠٠٫٣٠٣) مليون نسمة، وفي سنة ١٩٤٨م (١٩٫٢٣٤٫١٨٢) مليون نسمة[١].

وفى سنة ١٩٦٠م بلغ تعداد السكان (٢٧٫٠٨٦٫٦٨٥) مليون نسمة. وفى سنة ١٩٧٠م بلغ تعداد السكان (٣٧٫١٥٨٫٠٠٠) مليون نسمة[٢].

ويوزع السكان حسب معتقداتهم في الإحصاء الأخير سنة ١٩٧٠م كالآتي:

الطوائف الدينية	العدد الكلـي	النسـبة المئوية
الكاثوليك	٢٧٫٨٦٨٫٥٠٠	٧٥٪
المسلمون	٤٫٤٥٨٫٩٦٠	١٢٪
الأجليبايان	٢٫٦٠١٫٠٦٠	٧ ٪
الوثنيـون	١٫٦٣٤٫٩٥٢	٤٫٤ ٪
البروتستانت	٣٨١٫٥٨٠	١ ٪
البوذيـون	١١١٫٤٧٤	٠٫٣ ٪
الشينتـو	٧٤٫٣١٦	٠٫٢ ٪
طوائف أخـرى	٣٧٫١٥٨	٠٫١ ٪
المجمـوع... ...	٣٧٫١٥٨٫٠٠٠	١٠٠٪[٣]


الفلبين
١٢٠
١٢٥
٢٠
١٥
١٠
٥
ج. باتان
ج. بابويان
لوزون
٤٥٠ كم ٣٠٠ ١٥٠ ٠
بحر
الصين
مانيلا
المحيط
الهادى
سامار
بالاوان
بحر سولو
منداناو
دافو
بحر سليبس
فورتاى
هالميرا
٨٠. صيام

٣ ـ علاقات العرب القديمة بالفلبين :

لقد أقام العرب علاقات مع الشرق الأقصى خلال الحكم السبئي في جنوب الجزيرة العربية، حينما كانت سفن العرب التجارية تمخر عباب بحر الملايا ذاهبة إلى الصين في القرن الأول الميلادي، وفي القرن الثالث كان للعرب جالية تجارية تقيم في كانتون Canton، وفي القرن التاسع الميلادي زارت سفن العرب Kedahفي شبه الجزيرة الملايوية. ويقول RAYMUDO Geler : إن العرب السبئيين وصلوا بتجارتهم إلى الصين، وزاروا أماكن مختلفة في الفلبين مثل بلاوان، براجوا، منداناو، وكالامينتن، بسايا، مندورو، ولوزون(٤).

٤ ـ وصول الإسلام إلى الفلبين :

يذكر مؤلف التاريخ السياسي والثقافي للفلبين أن المسلمين الذين وصلوا إلى جنوب شرق آسيا، وحملوا الدين الإسلامي معهم، كانوا من سلالة السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يبين أنه بمصاهرة الأسر الوطنية الحاكمة وبالحيل السياسية استطاعوا أن يستولوا على حكم الملايو ويوحدوا حكومتها في حكومة واحدة، وأخذوا ينشرون العقيدة الإسلامية بهمة ونشاط ملحوظين. حتى إذا كانت سنة ١٢٧٦م وجدنا الإسلام قد أصل جذوره في «ملقا» Malacca، هذه المدينة التي صارت قلعة للمسلمين، وعاصمة فيما بعد لامبراطورية «ماجاباهت الهندية».

ثم يستمر في حديثه فيقول : ولكن كتب المؤرخين المسلمين في الفلبين moro Chronicles تذكر أن الداعية العربي مخدوم أمين الله المنتصر في «ملقا» وصل إلى ساحل سولو أحد جزر الفلبين الجنوبية في سنة ١٣٨٠م، وبدأ ينشر الدين الإسلامي في الفلبين. وبعد عدة أعوام وفي سنة ١٣٩٠م قاد «راجابجندا» أمير منانكا بن سومطرة Mononkaben Sumatra جيشا من المسلمين فتح به «سولو» واستطاع بسهولة أن يستولي عليها، لأن جنوده كانوا يستعملون البنادق التي كانت تستعمل لأول مرة في الفلبين.

وفي سنة ١٤٥٠ م وصل إلى سولو أبوبكر المسلم القائد من Palembong Sumatra وتزوج Poramisuli بنت «راجابجندا»، بعد وفاة راجابجندا تولى أبوبكر الحكم، وأقام سلطنة سولو، وأعلن نفسه سلطانا عليها. وقد شكل السلطنة على نظام السلطنة العربية معطيا لنفسه كل

اختصاصات الخليفة، وكان نظام حكمه مستمدا من القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، وبذلك استطاع أن ينشر بين المواطنين عادات وتقاليد جديدة مستمدة من آداب الإسلام وتعاليمه. وقد توفي أبوبكر سنة ١٤٨٠م بعد أن حكم ثلاثين عاما حكما ناجحا، سعد المحكومون في ظله بتعاليم الإسلام السمحة.

أما جزيرة (منداناو) ثاني الجزر الكبيرة في الفلبين والتي يوجد فيها الآن أربع محافظات يقطنها المسلمون فقد وصل الإسلام إليها عن طريق الشريف المسلم كابنسون Kabungsuwon قائد Gohor. ففي سنة ١٤٧٥م استطاع كابنسون مع الجنود (السمل) الذين يسكنون فى جزيرة قريبة من منداناو أن ينزل إلى شاطئ محافظة (كوتاباتو)، وأن ينتصر على القبائل المستوطنة هناك التى كانت قد استعدت لحربه. وقد بدأت القبائل الأصلية تعتنق الدين الإسلامي بعد انتصاره عليهم، كما تزوج الشريف كابنسون أميرة من أهل البلاد تسمى Putritunina وصار الأمير كابنسون أول سلطان مسلم في منداناو.

بينما يذكر الأستاذ نجيب صليبي في كتابه «تاريخ سولو» ما ينفي استخدام القوة في دخول الإسلام إلى الفلبين، وأن انتشار التعاليم الإسلامية واعتناق السكان الأصليين لها قد سبق قيام الحكم الإسلامي، فيقول[٥]: «وقد أثر في الفترة من سنة ١٣٨٠م إلى سنة ١٤٥٠م ـ أي في الدعوة إلى الإسلام ـ رجلان مشهوران، هما مخدوم وراجابجندا. ومخدوم كان قاضيا عربيا وأستاذ وصل إلى «ملقا» في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، حيث استطاع أن يجعل سلطان «ملقا» محمد شاه يعتنق الإسلام، ويقيم تعاليمه في أنحاء مملكة ملقا، واستمر تأثير مخدوم مشرقا إلى أن وصل سولو ومندانا وفي سنة ١٣٨٠ هـ ، حيث زار جزر الأرخبيل، وجعل كثيرا من الناس يعتنقون الإسلام في كثير من الأماكن. وتدعى جزيرة «سيبوتو» أن بها قبره، ولكن الأماكن التي كان نجاحه فيها باهرا هي «بونسا»، حيث تمكن بمساعدة رؤساء القرى الذين اتبعوه أن يقيم بها مسجدا.

وقد نجح مخدوم في الوعظ والتبشير بالدين الجديد بين الناس الذين اشتهروا بالاستقلال في آرائهم، والعناد في ممارسة دينهم وعقائدهم وعاداتهم، كما هو معروف ومشهور عن أهل سولو، وقد ألقى نجاحه في التبشير بالإسلام في تلك البقاع ضوءا جديدا على تاريخ الإسلام في الفلبين، حيث غير الرأي السائد بأن الإسلام دخل الفلبين بالسيف، كما كان لتعاليمه تأثير

كبير على أهل سولو الذين يصعب التأثير عليهم لتمسكهم بحريتهم وشجاعتهم المنقطعة النظير، ولقد لقيت تعاليم الإسلام في أهل سولو تربة صالحة لها.

ويستمر مؤلف «تاريخ سولو» فيقول: إنه بعد عهد مخدوم هناك قدم إلى سولو أمير من مانتكابن* يسمى راجابجندا**، وقال: إنه وصل إلى سمونجا وباسيلان قبل وصوله إلى سولو، وإنه تابع الأصول الشمالية التي تقود من (برنيو) إلى (كاجيان سولو)، (وبانوتارن)، سمونجا). وعندما وصل إلى بونسا خرج أهل سولو ليقاتلوه كما هو متوقع عادة، ولكن سلسلة النسب تستمر لتوضح أنه كان مسلما، لذلك كفوا عن القتال ودعوه ليقيم معهم، كما أكرموا استقباله. وقد كان راجابجندا مصحوبا بوزرائه، ولاشك أنه قدم إلى بونسا ليقيم ويحكم، وكان مجيئه نوعا من الغارات الطبيعية التي وضح نجاحها. كما ذكرت (ترسيلا) Trsila مندانا وأن الشريف (كابنسون) قد وصل إلى مندانا وبسلام، كما وصل راجابجندا إلى سولو. وبذلك اتفق المؤرخون الوطنيون في سولو ومندانا على أن إقامة الحكم الإسلامي في سولو على يد «راجابجندا» وفي مندانا وعلى يد الشريف «كابنسون» كان بطريق سلمي، ولم يستخدم السيف أو القهر والقوة».

هذا ما يذكره مؤلف «تاريخ سولو» الأستاذ نجيب صليبي وما يذكره مؤلف التاريخ السياسي والثقافي للفلبين عن دخول الإسلام إلى الفلبين. بينما يذكر الدكتور قيصر أديب مخول في كتابه القيم عن «الإسلام في الشرق الأقصى» عدة نظريات عن دخول الإسلام إلى الفلبين، منها: النظرية التجارية لانتشار الإسلام (ص ٤٢ ـ ٤٦)، والنظرية التبشيرية (ص ٦٦ ـ ٧٥)، ثم دور الحركة الصوفية في انتشار الإسلام (ص ٧٨ ـ ٩٠)، والنظرية السياسية مع ذكر أثر العامل الاقتصادي فيها (ص ٩٨ ـ ١١٤)، ثم يتحدث عن النظرية العقائدية والنظرية الصليبية[٦] لدخول الإسلام إلى الفلبين (ص ١٢٢ ـ ١٤٩).

وهو محق عندما يقول في نهاية بحثه الجاد عن دخول الإسلام إلى الفلبين: إن كل نظرية بمفردها غير كاملة إلا أنها تكمل بعضها بعضا[٧].

ومن هنا نرى أن عمل التجار المسلمين والمبشرين والدعاة ـ كما هو ثابت على القبر الموجود في جبل داتو القريب من سولو والذي توفى صاحبه سنة ٧١٠ هـ الموافق ١٣١٠م قد

سبق إقامة الحكم الإسلامي، ومهد له الطريق منذ مطلع القرن الرابع عشر أو قبل ذلك إلى حين وصول راجابجندا سنة ١٣٨٠م، حيث وجد شعبا مسلما في حاجة إلى قائد، فكان هو القائد المنتظر الذي أقام حكما إسلاميا دون أن تراق فيه دماء، وإنما هو إقامة لحكم إسلامي بين قوم مسلمين.

ومن سولو ومنداناو انتشر نور الإسلام، وعمت تعاليمه بين البسايا وغيرها من جزر الفلبين، كما تأصل في جزر مندور وباتنجس، وقامت إمارات وممالك في وسط وشمال الفلبين. ففي سنة ١٥٧١م كانت مانيلا عاصمة الفلبين الآن يوجد فيها مملكة إسلامية تحت قيادة راجا سليمان ـ ملك فلبيني مسلم ـ كما كانت في لوزون عند نهر Pasing River Tondo مملكة إسلامية أخرى تحت حكم الملك المسلم(٨).

٥ ـ وصول الأسبان إلى الفلبين وبداية مقاومة المسلمين لهم :

لقد بدأ وصول الأسبان إلى الفلبين في ١٧ مارس ١٥٢١م حين وضع (ماجلان) قدمه على أول أرض في الفلبين، وكان ذلك في جزيرة غير مسكونة جنوب جزيرة سمر تسمى Homomhon وقد حضر إلى الجزيرة بعض الفلبينيين، فأعطاهم ماجلان بعض الهدايا، وأعطاه الفلبينيون بعض الأطعمة، وفي ٢٥ مارس أبحر ماجلان نحو الجنوب الغربي، فوصل إلى جزيرة ليماساوا في ٢٨ مارس، حيث وجد مملكة تحت حكم راجا Kolombo، واستطاع ماجلان أن يتحادث مع الملك بواسطة عبده مترجم اسمه Enrigue من الملايا، وقد أعلن كلاهما صداقته للآخر. وفي نفس اليوم أعلنا اتفاقا دمويا بينهما، وهذا أول اتفاق فلبيني أسباني في التاريخ.

وبهذه المناسبة أقام الأب Pedro de Valderroma حفلة على شاطىء جزيرة Limasawa حضرها ملك Kolombo وماجلان ورجاله لكي يعلنوا هذه الحادثة التاريخية، وهي وصول الأوربيين إلى الفلبين، وقد زرع ماجلان شجرا على الجبل وأقام صليبا وانحنى له، وكذلك فعل الملك، وقد ساعد جنود الأسبان رجال الملك في حصاد أرزه، وبعد ذلك صاحب الملك الحملة إلى جزيرة سيبو. وفي ٧ أبريل ١٥٢١م وصل ماجلان إلى شاطىء جزيرة سيبو، واستعد لخوض معركة حربية، فأطلق مدافعه التي سببت ذعرا وخوفا شديدا للناس، وأرسل ابنه مع

المترجم Enrigue يقول لملك سيبو الذى كان رئيسا لثمانية قبائل (٢٠٠٠) مقاتل بالرماح: إن سيده قائد لأكبر ملك في الدنيا، وأنه حضر لكي يكتشف Mulucha ويريد أن يزوره لما سمعه عنه من سيرة طيبة، وليشتري طعاما من التجار. فأظهر الملك رغبته في استقباله، ولكن بشرط أن يدفع ماجلان الضريبة التي تدفعها سفن التجار الذين يدخلون الميناء، وبعض هذه السفن لدول أجنبية مثل سيام.

ولكن ماجلان رفض أن يدفع الضريبة، وتدخل (راجاكولامبو) ونصح ملك سيبو، وبين له الرغبة الطيبة للأسبان، فتنازل الملك عن طلب الضريبة، وترك ماجلان ينزل إلى شاطئ «سيبو» وفي ذلك اليوم احتفل أهل سيبو وماجلان ببداية الصداقة بينهما، وكانت سيبو في ذلك الوقت مدينة اقتصادية لها صلات تجارية مع الجزر الأخرى ومع شرق الهند وسيام والصين، كما كان أهلها يرتدون الملابس والحلي ولهم منازل ويحكمهم قانون، ولهم صناعة وتجارة وميزان وقياس، ويستخدمون كثيرا من آلات الموسيقى والطرب مما يدل على تقدمهم الحضاري...

وقد بذل ماجلان جهدا كبيرا لكي ينشر المسيحية بينهم، وبين لهم مزاياها، وبسرعة اعتنق ملك سيبو وأتباعه المسيحية، وتنصر في ١٤ أبريل سنة ١٥٢١ حوالي خمسمائة شخص من أهل سيبو، وكان من بينهم الملك وأسرته وكذلك راجا Kalambo. وقد أقيم صليب كبير على الشاطئ، فبلغ عدد المتنصرين ثمانمائة شخص من رجال ونساء. وبعد عدة أيام طلب ماجلان من أهل سيبو أن يحرقوا أصنامهم كما وعدوا عندما تنصروا، ولكنهم رفضوا ذلك لأنهم مازالوا يقدمون القرابين لأجل أن يشفي الصنم أخا الملك الذي يعد الرجل الشجاع الحكيم في الجزيرة والذي كان قد شعر بمرض خطير منذ أربعة أيام. ولكي يحمي ماجلان عقيدة المسيحيين الجدد ذهب إلى الرجل المريض ونصره وأسرته وعالجه، وبعد خمسة أيام من العلاج شفي الرجل المريض، ففقد الناس ثقتهم في الأصنام وأشعلوا فيها النار.

لابولابو يقاوم الأسبان ويتحداهم :

وبوحي من النجاح الأولي الذي لقيه ماجلان في سيبو أمر كل القبائل في سيبو والجزر المجاورة أن يعترفوا بملك سيبو Homaban كملك لهم، ويقبلوا يده علامة على الطاعة، ولكن حاكما فلبينيا مسلما شجاعا وهو لابولابو ملك Macten ـ وهي جزيرة صغيرة بجوار سيبو ـ رفض

بإباء أن يفعل ذلك، وقاوم الأسبان، فأرسل ماجلان رجاله، وأحرقوا القرى هناك، ولكن ذلك لم يخف لابولابو أو يحمله على التسليم والخضوع. وفي ٢٦ أبريل سنة ١٥٢١م جاء ابن الملك Zula وهو ملك آخر في جزيرة Macten إلى سيبو بهدايا وبرسالة يطلب فيها المساعدة ضد لابولابو، فوعده ماجلان بالمساعدة. وفي فجر يوم ٢٧ أبريل سنة ١٥٢١م هاجم ماجلان جزيرة (مكتن) بقوة مكونة من ستين فارسا أسبانيا في ثلاث سفن وألف مقاتل من حلفائه من أهل سيبو نقلهم في ثلاثين سفينة محلية، وأحب ماجلان أن يظهر شجاعة جنوده للملك وأهل سيبو، فقال لهم: امكثوا في سفنكم وانظروا كيف يحارب الأوربيون. وقبل أن يبدأ الحرب أرسل رسالة إلى لابولابو ليعطيه فرصة أخيرة للسلام، وطلب منه الاعتراف بسيادة الأسبان ودفع الجزية، فأجاب لابولابو بجرأة: إنه لا يخضع لأي ملك، ولا يدفع الجزية لأي قوة. وإذا كان العدو يملك رماحا فنحن نملك رماحا أيضا وشعلا نارية.

وقد أخذ ماجلان من رجاله تسعة وأربعين رجلا، وترك أحد عشر رجلا يحرسون السفن. وعندما وصل الغزاة إلى الشاطئ رأوا لابولابو مع جنوده ينتظرون عدوهم وقد اصطفوا ثلاثة صفوف، فأطلق جنود ماجلان نيرانهم أولا، ولكن بنادقهم لم تظهر تأثيرا في أهل (مكتن) الذين هبوا مسرعين ليحموا حريتهم ووطنهم، وصاحوا صيحة الحرب، وأشرعوا رماحهم وسهامهم النارية.

موت ماجلان :

وقد أمر ماجلان بعض رجاله بحرق بيوت أهل (مكتن) ليخيفهم فيذعنوا له، ولكن ذلك أتى بنتيجة عكسية، لأنهم عندما رأوا منازلهم تحرق ضاعفوا شجاعتهم، وهاجموا المغيرين بجرأة وبسالة أدت إلى رجحان كفتهم فلما رأى ماجلان أن النجاح ليس في صفه أمر رجاله بالانسحاب، وأحس بالهزيمة عندما اشتد الهجوم من كل جانب، فوقف ماجلان على الشاطئ، وحارب بشجاعة ليحمي رجاله في عملية الانسحاب إلى السفن، ولكن سهما مسموما جرحه في فخذه اليمنى، وطارت قبعته من على رأسه، وجاءت حربة فأصابته في وجهه، فحاول أن يأخذ سيفه فعجز عن ذلك لأن حربة أخرى جرحته في ذراعه اليمنى، وجاء رجل من مكتن وقطع رجله اليسرى فسقط على الأرض، وانقض عليه آخر وقتله بحربته وسيفه. وبذلك قتل

(ماجلان) كما قتل معه ثمانية من الأسبان وأربعة من أهل سيبو، وكانت خسائر أهل مكتن خمسة عشر رجلا.

لابولابو هازم ماجلان :

وظهر يوم المعركة أرسل ملك سيبو إلى أهل مكتن رسالة عارضا عليهم أي ثمن لكي يسلموا إليه جسد ماجلان، فأجاب أهل مكتن أنهم سوف لا يسلمون إليه ماجلان ولو دفع كل ثمين في العالم، ولكنهم سوف يبقون جسده للذكرى. وحتى الآن لا أحد يعرف أين جسد ماجلان، وإن كان يوجد الآن متحف لذكرى مقتل ماجلان قريبا من المكان الذي قتل فيه. وقريبا من هذا المتحف يوجد متحف آخر في قرية Opon Mactan يحمل ذكرى لابولابو البطل الشجاع المسلم هازم ماجلان.

إن انتصار لابولابو في مكتن كان صدمة وكارثة للأوربيين، فهذا أول نجاح للدفاع عن استقلال الفلبين ضد الاستعمار الغربي، وأول نصر سجلته قوة المقاومة الفلبينية المسلمة على قوى الغرب بفضل لابولابو أول بطل يسطع في التاريخ الملايوي، ويهزم ماجلان هازم البحار.

وبعد موت ماجلان اختار رجاله اثنين خلفا له. أما ملك سيبو وسكانها فقد فقدوا ثقتهم في الشجاعة النادرة التي كانوا يرونها للرجل الأبيض، وحتى الأسبان أنفسهم الذين يفاخرون بشجاعتهم قد تخلوا عن هذا الفخر الكاذب.

٦ ـ تتابع حملات الأسبان لاحتلال الفلبين :

بعد موت ماجلان سنة ١٥٢١م آثر الأسبان الانسحاب والعودة إلى بلادهم مكللين بذل الهزيمة والخزي، ولكنهم حاولوا العودة لاحتلال الفلبين عدة مرات في سنة ١٥٢٥م وفي سنة ١٥٢٧م وفي سنة ١٥٤٢م[٩]، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلى أن وصل القائد الأسباني «ليجزبي كانونا» في مارس ١٥٦٥م على رأس الحملة الحربية الرابعة، وكانت مجهزة بالمدافع المحمولة على عجلات، واستطاع أن يخضع ملكي جزيرة بهول Gala, Katuon، ويوضح لهما أنه ليس كالبرتغاليين، وأنه إنما جاء قاصدا السلام ولا يبغي سلبا أو نهبا أو إفسادا في الأرض. وبذلك نجح فى خداعها، وتمكن من أن يعلن معاهدة صداقة معها.

هزيمة سيبو وإقامة الأسبان فيها:

وقد أراد القائد الأسباني Legazpi أن يتخير مكانا صالحا لإقامة مستعمرة تكون مقرا مأمونا للحملة الأسبانية، فأرسل بعثة استكشافية إلى جزيرة سيبو، وبعد دراسة الأوضاع فيها عادت البعثة وأعلنت صلاحية المكان ليكون مقرا للحملة، لتوفر الطعام فيها ولما يتمتع به من ميناء طبيعي.

فتحركت الحملة من جزيرة بهول قاصدة سيبو، فوصلتها في ٢٧ أبريل سنة ١٥٦٥م، حيث كان أهل سيبو بقيادة ملكهم ـ Topas ابن الملك Homaban الذي كان ملكا أثناء حملة ماجلان ـ قد اجتمعوا على الشاطئ في ملابس الحرب ليقاوموا الغزاة البيض. وقد ذهب الأب Urdoneta تحت علم الهدنة والسلام إلى الشاطئ ليتفاوض مع الملك Topas، ولكن الملك رفض أي محادثة، وأصر على الدفاع عن وطنه ضد الغزاة. فنزل جنود الأسبان إلى الشاطئ، واشتبكوا في معركة حامية مع أهل سيبو، تغلب الأسبان عليهم فيها، فانسحب أهل سيبو إلى الجبل تاركين مملكتهم وبيوتهم تأكلها النار.

وفي ٤ يونية سنة ١٥٦٥م استطاع القائد الأسباني أن يعقد معاهدة صداقة مع أهل سيبو اعترفوا له فيها بسيادة أسبانيا عليهم، وبدفع ضريبة للأسبان مقابل حمايتهم من أعدائهم، وبإقامة علاقة تجارية بينهم وبين أسبانيا.

وبذلك تفرغ القائد الأسباني لبناء مستعمرة أسبانية في سيبو لتكون حصنا منيعا للأسبان، كما حفر بئرا تزودهم بالماء النقي، وأقام كنيسة للقسس، وبيوتا للجنود الأسبان وسمى هذه المدينة (المدينة المقدسة)، وتسمى هذه الكنيسة التي بناها كنيسة أغسطين، وقد قامت بعد ذلك حروب طاحنة بين الأسبان وبين المسلمين في الفلبين استمرت عدة قرون.

٧ ـ أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين (المورو):

إن الحرب الطاحنة التي وقعت بين الأسبان وبين مسلمي الفلبين تعد من الحروب البشعة الشنيعة، ومما أدى إلى شناعتها أنها كانت حربا دينية استعمارية بين الهلال والصليب كما يقولون. حتى إن الأسبان حملوامسيحيي الفلبين على قتال إخوانهم مسلمي الفلبين، كما كانت

كل قوى الأسبان هناك معدة لقتال المسلمين الذين صمدوا يحاربون فى منداناو وسولو أكثر من ثلاثة قرون، والمسلمون يحاولون خلال هذه الحروب أن يحموا أنفسهم، ويحققوا الحرية لدينهم وثقافتهم من أن يعتدي عليها الأسبان، أو يتمكنوا من استعمار بلادهم، فهي حرب صليبية وتعتبر امتدادا للحرب التي شنها الأسبان المسيحيون على المسلمين في أسبانيا (الأندلس) حتى أخرجوهم منها.

وقد أطلق الأسبان على المسلمين في الفلبين كلمة مورو Moro بمعنى المسلمين من الكلمة اللاتينية Mourus، ويطلقها الأسبان قديما على المسلمين في أسبانيا وشمال إفريقيا. وأخيرا أطلقوها على المسلمين في الفلبين. والمورو أو المسلمون هم الذين يسكنون جنوب الفلبين، ويقسمون إلى:

(١) **ماجنداناو** : الذين يسكنون كوتاباتو.

(٢) **سمال** : الذين يسكنون على شاطئ سمونجا والجزر القريبة شمال سمونجا **وتاوي تاوي**.

(٣) **مرناو** : الذين يسكنون حول بحيرة لاناو.

(٤) **سانجل** : (Sangils) الذين يسكنون خليج داباو.

(٥) **يكن** : (Yakans) الذين يسكنون باسيلان.

(٦) **هلوانو** : (Tausugs) الذين يسكنون سولو.

ويمكن أن نرجع أسباب الحرب بين الأسبان وبين المسلمين إلى ما يأتي:

١ ـ الخصومة التي يراها المسيحيون بين المسيحية وبين الإسلام، ومن هنا اتصلت الحرب واستمرت عندما حضر الأسبان بصليبهم إلى سكان الفلبين الذين لا يدينون بالصليب.

٢ ـ دفاع المسلمين عن أرضهم عندما جاءت حملات الأسبان إليها ليحموا أرضهم ويحافظوا على حريتهم المحبوبة لهم، ولذلك دافعوا بدون خوف إلى الآن عنها.

٣ ـ حب مسلمي الفلبين للمغامرات الجريئة وممارسة الحرب منذ فجر التاريخ، وهم يحبون الحرب بحثا عن المجد خلف أفق البحار(١٠).
ولاشك أن فى ذلك مبالغة في حبهم للحرب ..

ولعل مما يوضح ذلك ويضيف إليه أسبابا أخرى ذلك الكتاب الذى أرسله الحاكم الأسباني للفلبين (دكتور فرانسيسكودي ساندي) إلى قائد الحملة الأولى على سولو الضابط

(استيبان رود ريجوزفيجورا) سنة ١٥٧٨م، ويقول فيه: «إنك ستتوجه بهذه الحملة إلى برنيو وسولو لتتمكن من إخضاع الناس ورئيسهم في سولو لطاعة الملك ـ أي ملك أسبانيا ـ وعليك أن تساومهم في مقدار الضرائب التي يدفعونها على أن يكون المدفوع باللؤلؤ مثل ما يؤدون هذه الضرائب لملك برنيو ـ كما عليهم أن يقصروا التجارة علينا ولا يبيعوا أو يبتاعوا من غيرنا. وتجارنا سيذهبون إليهم بما يحتاجون من التجارة الخارجية، وعليهم أن يبينوا ما يحتاجون إليه منها.

فإذا لم يطيعوا أوامرك فعاقبهم، وبين لهم أن واجبهم هو زراعة الأرض وإظهار ما تنتجه، كما تأمرهم بألا يسمحوا لوعاظ المسلمين بتعليمهم لأن الدين المحمدي شر ومزيف، والمسيحية فقط هي الدين الصحيح، وعليك أن تبين لهم أن غرضنا هو تنصيرهم.

ولذلك عليهم أن يسمحو لنا بالتبشير بالدين المسيحي. وعليك أن تقبض على العلماء المسلمين وتحضرهم إلي، وأن تحرق المساجد والمدارس التي يعلم فيها العلماء، وأن تحرم بناءها ثانيا.

كما تأمرهم بألا يخرجوا من جزيرتهم للتجارة، وأن تقبض على سفنهم وتصادر ما تحمل من تجارة وذخيرة.

وأنذرهم إذا لم يتعاونوا معنا من الآن فإنك ستقضي عليهم. فإن فروا إلى الجبال فعليك بحرق منازلهم وتقطيع شجرهم.

ومن هنا ندرك أن الحاكم ساندي يريد :

١ ـ أن يكون أهل سولو تابعين للأسبان وتحت وصايتهم .

٢ ـ أن يحصل منهم ضريبة يدفعونها باللؤلؤ .

٣ ـ أن تكون تجارة سولو محتكرة للأسبان .

٤ ـ أن يعاقب سلطان سولو لأنه عاون سلطان برنيو .

٥ ـ أن يستولي على الآلات الحربية التي لدى المسلمين وعلى سفن النقل ماعدا سفن الصيد.

٦ ـ أن يصير أهل سولو مسالمين مزارعين للأرض .

٧ ـ أن يتنصلوا من العقيدة الإسلامية وأن يصيروا مسيحيين.

وقد وجه الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا إلى الحاكم الأسباني للفلبين خطابا يوضح فيه مقصد الأسبان من هذه الحرب، ويوضح هدف الأسبان منها، ويقول فيه: «لقد سمحنا لك بأن تستعبد المسلمين، وأن تستولي على ممتلكاتهم وتصادرها، ويمكنك أن تجعلهم عبيدا لكم، خاصة إذا أرادوا أن يبشروا بدينهم المحمدي (الإسلامي)، أو يحاربوك أو يحاربوا الهنود رعايانا».. وقد أجابه الحاكم بخطاب يطلب فيه المدد لأجل القضاء على الدين المحمدي الإسلامي(١١).

ومن هنا يتضح لنا أن الحرب التي شنها الأسبان على المسلمين في الفلبين كانت حربا صليبية يبغون بها القضاء على الإسلام هناك، ثم استعمار البلاد واستغلال ثرواتها ونهب خيراتها. وقد شجع الأسبان على مواصلة الحرب ما خدعوا به أنفسهم من اتصافهم بالشجاعة، كما غرهم انتصارهم السريع على سكان البسايا ولوزون في الشمال الذين لم يكونوا على درجة كبيرة من النظام بخلاف المسلمين الذين كانوا يقطنون الجنوب في سولو ومنداناو، حيث هب المسلمون في سولو ومنداناو ليدافعوا عن دينهم وعن حريتهم الوطنية التي لا يجدون أغلى منها، ويبذلون في سبيلها دماءهم ويسترخصون أرواحهم حفاظا عليها ودفاعا عنها، وأن يقدموا في سبيل ذلك كل ما يملكون..

بداية الحرب :

بعد أن استقر الأسبان في سيبو بدأوا يوسعون نفوذهم الاستعماري المسيحي فيها، فقامت معركة في سنة ١٥٦٩م قريبا من سيبو بين الأسبان وبين المسلمين من هولو وبرنيو، كما قامت معركة أخرى في ١٥٧٠م بين الأسبان وحلفائهم من البسايا وبين المسلمين في جزيرة مندورو، وقد تمكن الأسبان في هذه المعركة من التغلب على المسلمين وحرق قراهم والاستيلاء على كثير من متاعهم وحليهم وذهبهم.

٨ ـ القضاء على المملكة الإسلامية في مانيلا بجزيرة لوزون :

لقد شجع هذا الانتصار القائد الأسباني ليجزبي على أن يستمر في توسيع نفوذه نحو

الشمال في جزيرة لوزون حيث تقع مملكة مانيلا الإسلامية ومملكة تندو الإسلامية، وهما يعدان من أقوى الممالك الإسلامية في الشمال، وكان يحكم الأولى الملك «راجاسليمان»، كما كان يحكم الثانية عم راجاسليمان الملك «راجالاكان دولا».

وقد وجه القائد الأسباني إلى هاتين المملكتين حملة من ستمائة جندي من البسايا الفلبينيين ومائة وعشرين جنديا من جنود الأسبان، حيث توجهت من جزيرة بناي إلى مانيلا في مايو سنة ١٥٧٠م.

وكما هي عادة الاستعمار في خداعه ومكره نزل قائد الحملة جايتي Gaiti إلى الشاطئ لكي يتفاوض مع الملك راجاسليمان وعمه، زاعما لهما أنه جاء لصداقتهما، وبدأوا في عقد اتفاقية بينهم، غير أن راجاسليمان رفض أن تتم الاتفاقية عندما تبين له أن الصداقة مع الأسبان تعني دفع الضريبة والعبودية لأسبانيا.

ولذلك ثار الملك راجاسليمان معلنا أنه سيقاتل بدلا من أن يدفع الضريبة ويقبل الحماية الأسبانية.

وقد اشتعلت نار الحرب عندما أطلق القائد الأسباني نيران مدافعه على سفينة لكي يدعوها إليه، فظن الملك راجاسليمان أن المملكة قد احترقت فبدأت الحرب بشراسة ووحشية، ولكن تغلب الأسبان المجهزون بأسلحتهم ومعهم جنود البسايا على جنود راجاسليمان، واضطر راجاسليمان إلى الانسحاب تاركا منازله تشتعل فيها النار بعد أن استشهد من رجاله مائة شعيد وأسر ثمانون منهم بعض الصينيين واليابانيين، كما غنم الأسبان حلي راجاسليمان الشهيرة وبعض المدافع والسفن الحربية، ولكن رئيس الحملة لم يستقر في مانيلا طويلا خوفا من هبوب العواصف مع احتمال رجوع راجاسليمان لكي يسترد مملكته، فرجع إلى جزيرة بناي فخورا بهذا الانتصار العظيم والغنيمة الثمينة.

انتقال القيادة الأسبانية من سيبو إلى مانيلا :

سر القائد العام للحملة الأسبانية بالانتصار على راجاسليمان، ولذلك قرر نقل مقر القيادة من سيبو إلى مانيلا.

وفي أبريل سنة ١٥٧١م تحركت الحملة الثانية بقيادة القائد العام (ليجزبي) مبحرة من جزيرة بناي بأسطول مكون من سبع عشرة سفينة عليها مئتان وثمانون جنديا أسبانيا وعدة مئات من جنود البسايا بالإضافة إلى قوات الحملة السابقة، واتجهت كل هذه القوة إلى خليج مانيلا حيث قابل (لاكان دولا) ـ حاكم مملكة تندو وعم راجاسليمان ـ الحاكم العام الأسباني في سفينة شراعية ورحب به، فقابله الحاكم الأسباني بلطف، ووعده أنه سوف يعفو عن راجاسليمان لمقاومته للقائد الأسباني في العام السابق. ولكن شخصا خائنا يدعى «ديهندول» ذهب إلى القائد الأسباني وأخبره أن راجاسليمان يستعد للحرب. فاتجه ليجزبي إلى مانيلا وعندما ظهرت السفن الأسبانية قرب مملكة راجاسليمان حرق راجاسليمان الحصن، وانسحب عابرا نهر باسج إلى مملكة تندو، وبذلك نزل ليجزبي إلى مانيلا وتولى الحكم فيها.

محاولة راجاسليمان استرجاع ملكه :

لم يتنازل راجاسليمان عن مملكته سلميا وبدون قتال، بل قاتل إلى آخر قطرة من دمه بكل شجاعة وبسالة، وقدم روحه في سبيل وطنه، وآثر الموت الشريف على الحياة الذليلة حياة العبودية والتبعية. فبينما كان القائد العام الأسباني مشغولا بإعادة بناء مانيلا والعمل على استقرار حكمه فيها جمع راجاسليمان المحاربين من رجاله في القوارب عند خليج بجوار قرية قريبة من مانيلا تسمى Novatas، واستعان بحكام الأقاليم، فلبى نداءه للحرب دفاعا عن حرية الوطن داتو (ماكابب) حاكم (هاجانوي) وداتو (برانجايس) حاكم (بمبنجا).

وفي يونية سنة ١٥٧١م زحف راجاسليمان بقواته البحرية إلى الشاطئ الشمالي لخليج مانيلا، وتقابل مع القائد الأسباني في أقنال بنكوساي، حيث دارت رحى الحرب الضروس في هذا النهر، وقاتل الأسبان بأسلحتهم الحديثة يعاونهم حلفاؤهم من البسايا حتى كسبوا المعركة، وسقط راجاسليمان شهيدا في ميدان الشرف دفاعا عن حرية وطنه، كما استشهد معه ثلاثمائة جندي وأسر الباقي من رجاله بعد المعركة، وكان من الأسرى ابنه وابنا أخت الملك لاكان دولا..

وباستشهاد راجاسليمان بطل مانيلا المسلم وهزيمته في الموقعة في يونية سنة ١٥٧١م أعلن سقوط المملكة الإسلامية في مانيلا، وفقدت مانيلا حريتها، وصارت المقر الرئيسي للاستعمار

الأسباني، حيث بنى الأسبان فيها كنيسة للقسس وقصرا للحاكم الأسباني ومائة وخمسين منزلا للمستعمرين الأسبان، كما أقيم حصن راجاسليمان ثانيا، وهكذا أقيمت مدينة أسبانية على حطام المملكة الإسلامية في مانيلا.

وبنهاية هذه الحرب لم يقم للمسلمين قائمة بعد ذلك في أكبر جزيرة في شمال الفلبين وهي جزيرة لوزون.

١ ـ محاولة الأسبان القضاء على المسلمين في جنوب الفلبين :

استطاع الأسبان أن يقضوا على المسلمين في شمال الفلبين، ويزيلوا منها المملكة الإسلامية. وبعد سبع سنوات من قضائهم على المسلمين في لوزون واستقرارهم في مانيلا راودهم الأمل في أن يقضوا على سلطان المسلمين في جنوب الفلبين كما قضوا عليه في شمال البلاد، وبذلك يتحقق لهم امتداد استعمارهم إلى جميع جزر الفلبين، وتختفى الراية الإسلامية منها، ولا يرتفع فيها إلا الراية المسيحية، ولذلك تتابعت حملات الأسبان بضراوة وعنف على المسلمين في الجنوب.

ولكن المسلمين قابلوا هذه الحملات بإيمان ثابت وقلب غيور على حماية بلادهم ودينهم وجميع مقدساتهم، واستمرت الحرب الضروس أكثر من ثلاثة قرون مملوءة بالدماء والأشلاء لإرضاء نزعات دينية مسيحية حاقدة على الإسلام والمسلمين وموغلة في التعصب للقضاء على المسلمين وطمس التعاليم الإسلامية.

وقد تتابعت الحملات الأسبانية المجهزة بالأسلحة الحديثة التي وجهوها نحو المسلمين في الجنوب، حيث اعتصم المسلمون بدينهم وتمسكوا بعقيدتهم، وكتبوا بدمائهم الطاهرة الزكية أعظم وأجل صفحات مضيئة في التاريخ الفلبيني، والتي تشهد بحبهم للحرية واستمساكهم بها وإيثارهم الموت على أن تستعمر بلادهم أو يعتدى على عقيدتهم الصحيحة في صدق الدين الإسلامي الحنيف الذي يدينون به.

تتابع الحملات على الجنوب وموقف المسلمين :

أ ـ ففي سنة ١٥٧٨م أرسل القائد الأسباني العام حملة أسبانية تحت قيادة الضابط

(استيبان دي فيجورا) لتهاجم مدينة هولو، فوصلت إليها في يونية سنة ١٥٧٨م، وتولى السلطان (محمد حليم بنحيرن) سلطان سولو قيادة المسلمين للدفاع عن المدينة بحماسة وشجاعة، ومع أن الأسبان استطاعوا أن يستولوا على جزء من المدينة إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها تماما نظرا لما قام به المسلمون من مقاومة عنيدة، وأقسم السلطان على الانتقام من الغزاة فأعلن حربا شاملة ضد الأسبان الذين آثروا الانسحاب من هولو.

ب ـ وفي سنة ١٥٩٦م حصل الضابط (دي فيجورا) من الحاكم الأسباني العام على حق مطلق لاستعمار جزيرة (منداناو)، وأن يكون الحاكم الأسباني عليها، ومن ثم اتجه من جزيرة (إيلوايلو) في فبراير ١٥٩٦م بحملة حربية كبيرة مكونة من ألف وخمسمائة جندي فلبيني ومائتين وأربعة عشر جنديا أسبانيا واثنين من القسس قاصدا جزيرة (منداناو)، واستطاع أن ينزل الحملة في Riogrande في كوتاباتو، ومن هناك سار إلى Buhayen حيث دارت بين الحملة وبين المسلمين معارك حامية ومناقشات مرة متتالية، قاد المسلمين فيها داتو (Silanga)، واستطاع (Ubal) أخو القائد المسلم أن يقتل قائد الحملة الأسبانية في إحدى هذه المناوشات. ولكن الحملة الأسبانية عززت بقوة أخرى من مانيلا لتتابع مشروعها الاستعماري في منداناو.
غير أن المسلمين استطاعوا مع حلفائهم أن يقذفوا بالأسبان في البحر، واضطر القائد الأسباني (ronguillo) أن يحرق الاستحكامات والحصون التي أقامها الأسبان قريبا من كوتاباتو، وانسحب إلى (Caldra) قريبا من سمونجا حيث بنى حصنا فيها، وكان بناء هذا الحصن نتيجة الحملة الأولى لاستعمار منداناو وبعد خيبة أملهم في أن يحتلوا مدينة (كوتاباتو).

جـ ـ تحرك المسلمين للثأر من الأسبان المعتدين :
أثار غزو الأسبان للأرض الإسلامية في كوتاباتو هياج المسلمين في منداناو وسولو، وحرك عداوتهم وحقدهم، وأشعل نار غيظهم ضد المعتدين، فأعلنوا الحرب والجهاد الديني ضد الأسبان، ووضعوا خطة لتخريب كل المدن والقرى الأسبانية المسيحية في جزيرة لوزون وبسايا. وقد تحدث المؤرخون الأسبان بتعصب شديد بعيد عن العدالة والنزاهة عن هذه الحزوب بين المسلمين وبين الأسبان.

ففى شهر يولية سنة ١٥٩٩م جهز اثنان من أمراء المسلمين Silanga Saleh حملة مكونة من ثلاثة آلاف مسلم، أقلعت بهم خمسون سفينة للانتقام من الأسبان في الشمال، حيث تمكنوا من سلب ونهب قرى الشواطئ في جزر (بناي) و (نجروس) و (سيبو)، وأثاروا الرعب في تلك الأماكن، وأحرقوا المنازل والكنائس، وأسروا الرجال والنساء والأطفال، وقتلوا كثيرا من أهلها بقسوة وعنف، وانتهكوا حرمتها جزاء وفاقا لاعتداء الأسبان على بلادهم.

ثم قاموا بحملة أخرى سنة ١٦٠٠م عدتها سبعون سفينة وأربعة آلاف مقاتل للانتقام من الأسبان، ولكن لم يحالفهم النجاح في تلك الحملة مثل ما حالفهم في الحملة الأولى.

د ـ وقد أثارت أخبار تحرك المسلمين بغاراتهم على الجزر السابقة للثأر من الأسبان حفيظة الأسبان وخاصة الحاكم الأسباني العام في مانيلا، فأخذ يرسل الحملة تلو الأخرى للهجوم على أراضي المسلمين في الجنوب، وكانت أولى هذه الحملات بقيادة قائد محنك هو Juan Cablinato وبقوة تعدادها مئتا جندي أسباني وأعداد كثيرة من جنود الفلبين المسيحيين، وقد توجهت تلك الحملة إلى هولو في فبراير سنة ١٦٠٢م، وحاولت أن تحتل المدينة، وضربت حولها الحصار ثلاثة أشهر، ولكن المسلمين صمدوا لتلك الحملة، مما اضطر القائد الأسباني إلى فك الحصار والعودة من حيث أتى.

وقد تتابعت الحملات الأسبانية بعد ذلك على هولو بغية الانتصار على المسلمين فيها وحملهم على اعتناق المسيحية، وقد بلغ عدد تلك الحملات من سنة ١٥٧٨م إلى سنة ١٨٧٦م أكثر من ست عشرة حملة، كلها كانت تبوء بالفشل سوى الحملة الأخيرة التي تمكنت من احتلال هولو. كما وجه الأسبان حملات أخرى إلى منداناو. وقد ساعد الأسبان في قيامهم بتلك الحملات استيلاؤهم على مدينة سمونجا وجعلها مركزا استراتيجيا لهم، فسهل لهم الإغارة منه على المسلمين في هولو ومنداناو.

ومن الحملات التي استطاع الأسبان أن ينتصروا فيها على المسلمين ويحققوا بعض النصر الحملة التي توجهت مرة إلى منداناو ومرة إلى هولو بقيادة القائد الأسباني.

كركـــورا وقـــدرات :

في سنة ١٦٣٧م أسند إلى القائد الأسباني كركورا القيام بحملة على المسلمين في لاناو، وفي وسط تقديس القسس وصلوات المسيحيين في مانيلا ترك قائد الحملة الشاطئ بأسطول مجهز تام الاستعداد للقتال، وتوجه إلى مندناو حيث استراح فترة قصيرة في سمونجا، ثم توجه إلى (لاميتن) الحصن الحصين للمسلمين الذي يقع قريبا من بحيرة لاناو، فتصدى له المسلمون تحت قيادة القائد المسلم الشجاع (قدرات)، وبعد معركة عنيفة أضطر (قدرات) إلى التراجع إلى حصن إليهان Ilihan، فتقدم كركورا بجنوده إليه، ورغم قتال وتضحيات المسلمين الأشاوس من الرجال والنساء والأطفال وعظم الخسارة لكل من الفريقين، ومع دفاع المسلمين عن موقعهم دفاع الأسود الضاربة التي اغتيل عرينها، واستشهاد كثير من المسلمين بشجاعة من أجل إيمانهم ووطنهم رغم كل ذلك فقد دارت الدائرة على المسلمين، وعندما ظهرت هزيمة المسلمين استطاع القائد المسلم قدرات بذراعه المصابة برصاص العدو أن يجد طريقه وسط جنود الأسبان ويهرب. أما زوجته الشجاعة فقد حضنت ابنها بقوة، ودفعت بنفسها وسط جنود الأسبان، ثم قذفت بنفسها من شاهق الجبل وأفلتت من الأسر.

حملة كركورا على هولو :

وفي نفس العام أي سنة ١٦٣٧م رجع كركورا القائد الأسباني إلى سمونجا حيث أعد حملة أخرى كبيرة مكونة من ثمانين سفينة عليها ألف جندي فلبيني وستمائة من جنود الأسبان، حيث هاجم هولو في مطلع عام ١٦٣٨م، وتصدى له السلطان (بنجسو) Bungsu مع حلفائه باسيلان وماكاسر (Macassar) بقوة مكونة من أربعة آلاف مقاتل من المسلمين.

وبعد ثلاثة أشهر كاملة من الحرب الضروس والمسلمون يحمون مدينتهم بنجاح ويدافعون عن وطنهم ويقدمون الشهداء من أبنائهم، وبعد قتال دموي شرس سقطت مدينة هولو في أبريل سنة ١٦٣٨م في أيدي الأسبان. ولكن السلطان استطاع أن ينجو من المعركة ويهرب من الأسبان، أما السلطانة فقد أخذت أسيرة وتسمى Tuan Baloca، وقد خسر المسلمون في هذه المعارك مئات الشهداء والأسرى.

وقد حاول قائد الحملة تتبع السلطان والأمراء في سولو وجزر الأرخبيل ولكن أهل سولو حاولوا أن يغيروا على جزر البسايا انتقاما من الأسبان.

١٠ ـ محاولة المسلمين الاستعانة بهولندا ضد الأسبان :

حاول المسلمون في هولو الاستعانة بهولندا ضد الأسبان استغلالا للعداء بين هولندا وأسبانيا، فذهب بعض علماء المسلمين ومعهم راجامردا سيكالا وارث السلطنة في سولو للاستعانة بهولندا التي كانت تحتل جاوا آنذاك، وطلبوا مساعدة هولندا لهم في طرد الأسبان. وفي سنة ١٦٤٦م ظهرت سفن هولندا أمام هولو وسمونجا، فقرر الأسبان الانسحاب من هولو بعد أن عقدوا معاهدة مع أهل سولو لإقامة سلام دائم بين أهل سولو والأسبان. وبأن يساعد كل منهما الآخر ضد العدو الأجنبي. وفيها اعترف الحاكم الأسباني بسلطة سلطان سولو من جزيرة تاوي تاوي إلى توتب، وأن تصل سلطة أسبانيا إلى تابول وسياسى، وذلك في مقابل جلاء الأسبان عن هولو. وكدليل على الرضا وعد سلطان سولو أن يرسل كل عام إلى سمونجا ثلاث سفن من الأرز، وأن يسمح لقسس الجزويت بأن يأتوا إلى هولو وكذلك تبادل الأسرى والمجرمين، ولكن هذه المعاهدة لم تستمر طويلا، وعادت الحرب ثانيا بين المسلمين وبين الأسبان بشراسة وعنف...

١١ ـ المعاهدات بين المسلمين وبين الأسبان :

عندما عجز الأسبان عن كبت قوى المسلمين وهزيمتهم بدأت القوة الأسبانية تتفاوض مع المسلمين، وقد عقدت عدة معاهدات بينها وبين المسلمين، منها اتفاقية سنة ١٧٢٥م، وبمقتضاها أصبحت التجارة حرة بين المسلمين وبين الأسبان، وتعهد المسلمون بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين..

وفي سنة ١٧٣٧م وقع السلطان علم الدين الأول سلطان سولو مع الحاكم الأسباني العام اتفاقا مكونا من خمس مواد، يقضي بما يأتي:

١ ـ إقامة سلام دائم بين الدولتين، وكل مخالفة أو ظلم أو تعد من القوتين يسوى سلميا.

٢ ـ أن يقدم كل منهما للآخر العون ضد أي عدوان أجنبي، والدول الأوربية مستثناة من هذا الشرط.
٣ ـ حرية التجارة بين الدولتين للتجار الذين يحملون جواز سفر من الدولة.
٤ ـ أن تكون كل دولة مسئولة عن هتك السلام بين الدولتين بأحد رعاياها.
٥ ـ تبادل الأسرى بين الدولتين وإعادة تماثيل الكنائس وزخارفها التي استولى عليها أهل سولو.

وهناك معاهدات أخرى أبرمت بين المسلمين وبين أسبانيا في سنة ١٧٤٦م، ١٨٠٥م، ١٨٣٦م، ١٨٥١م، ١٨٧٨م.

وفي اتفاق سنة ١٧٤٦م حضر رسول خاص من مانيلا إلى السلطان علم الدين يحمل رسالة من الملك فيليب الخامس ملك أسبانيا، يرجو فيها أن يسمح للقسس بأن يأتوا إلى هولو ويعظوا بالمسيحية لأهل سولو، وقد أقام السلطان لرسول الملك حفلة تكريم واستعراضا للجيش. وفي مجلس استشاري بين السلطان والداتوات وافقوا على أن يعظ القسس في هولو، بل ذهب السلطان إلى أبعد من ذلك بأن سمح للأسبان بأن يقيموا كنيسة في هولو.

وفي مقابل ذلك على أسبانيا أن تساعد السلطان في إقامة اسطول بحري بمبلغ ستة آلاف بيزو، وتمده باثنى عشر مدفعا عيار ١٣٣ رطلا، وكمية من المسامير والحديد، وقد حضر القسس الجزويت إلى هولو تنفيذا لهذه الاتفاقية.

ومع رضا السلطان عن هذا الوضع إلا أن الناس قابلوا ذلك باستياء عظيم، وتكون حزب معارض بقيادة الداتو (بانتيلان) الذي قاد حملات منظمة ضد الأسبان أحدثت خرابا في كل مكان، واستطاع أن يدخل الرعب والفزع في كل القرى المسيحية في مندانا وبسايا ولوزون حتى في شوارع مانيلا نفسها، حيث نزل المسلمون إلى شاطئ مانيلا تحت سمع وبصر السفن الحربية الأسبانية، واستطاعوا أن يردوا على الحملات المسعورة التي قادها الأسبان على المسلمين في الجنوب.

وفي سنة ١٨٤٨م بنى حاكم الفلبين الأسباني ثلاث سفن بخارية وسفينتين استكشافيتين وثلاث سفن نقل للجنود، وقد بنت إنجلترا هذه السفن لحاكم الفلبين وهي سفن بخارية تسير أسرع من السفن الشراعية التي يستعملها المسلمون.

كان ظهور هذه السفن في المحيط الهادي بداية لنهاية سيادة المسلمين على البحار، إذ بهذه السفن وبقوة كبيرة من الجنود هاجم الأسبان المسلمين في هولو، ودمروا استحكاماتهم واستولوا عليها، فاضطر سلطان هولو والأمراء أن يعقدوا معاهدة مع الأسبان فى سنة ١٨٥١م، اتفق فيها على سيادة الأسبان على هولو، وأن يرفع السلطان العلم الأسباني عليها، وألا يعقد اتفاقا مع أية دولة أخرى. وفي مقابل ذلك يقدم الأسبان للسلطان وللأمراء معاشا ينفقون منه، وأن يسمحوا للمسلمين بمزاولة شعائرهم الدينية، ويضمنوا للسلطان أن يرث أبناؤه عرش هولو.

ومع ذلك فإن هذه المعاهدة لم تنه الحرب بين الأسبان وبين المسلمين، إذ بمجرد جفاف حبر هذه المعاهدة عاود المسلمون حربهم ضد الأسبان بعد أن أسسوا بيت الحرب ولموا شعثهم تحت قيادة الأمراء وهزموا الأسبان.

عاود الأسبان الكرة على المسلمين في سنة ١٨٧٦م، حيث هاجموا هولو بقوة كبيرة مكونة من تسعة آلاف جندي أسباني وفلبيني بسفن بخارية حربية مجهزة بمدافعها.

وقد دافع المسلمون عن مدينة هولو دفاع الأبطال، ولكنهم منـوا بمذبحـة فظيعـة من الأسبان. وفي هذه المرة سقطت مدينة هولو سقوطا تاما، واستولى عليها الأسبـان، فنقـل المسلمون السلطة إلى (ماينبون) في جانب سولو الآخر ووقع السلطـان معاهـدة سلام مع الأسبان سنة ١٨٧٨م، ولكن ذلك لم يمنع المسلمين الأحرار من أن ينغصوا على الأسبان حياتهم، ويجعلوا إقامتهم في هولو جحيا لا يطاق، ففي سنة ١٨٨٣م ذبح المسلمون كثيرا من جنود الأسبان في شوارع هولو، وقد قدر الذين قتلوا من الجنود المسيحيين بأيدي المسلمين من سنة ١٨٩١م إلى سنة ١٨٩٩م بثلاثمائة جندي مسيحي.

أما في مندناو فقد جرد الأسبان حملة عليها في سنة ١٨٨٦م تمكنت من تخريب بعض استحكامات المسلمين وبيوتهم، ولكنهم فشلوا في احتلال أرض المسلمين، فعاود الأسبان الكرة سنة ١٨٩١م، حيث استطاعوا أن يستولوا على كوتاباتو، ولكن بعد وقت قصير تمكن المسلمون من طردهم منها، وأرغموهم على الرجوع إلى سمونجا. فجرد الأسبان حملة أخرى سنة ١٨٩٥م ضد المسلمنين في لاناو، ولكنها عادت بالفشل.

١٢ ـ هزيمة الأسبان أمام أمريكا :

أخيرا قامت الحرب بين أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية) والأسبان ١٧٩٨م، حيث كان الأسبان والمسلمون يموتون في الغابات لما اتصف به الأسبان من اعتداء وتعصب، ولما آمن به المسلمون من دفاع عن أرضهم ووطنهم وحفاظا على دينهم وعقيدتهم. وبعد أكثر من ثلاثة قرون من الغارات المحمومة والحملات المتكررة فشل الأسبان في أن يحتلوا أرض المسلمين في الجنوب، أو يتمكنوا من تنصير المسلمين الشجعان.

وفي مايو سنة ١٨٩٩م احتل الجيش الأمريكي هولو ثم سمونجا من مدن المسلمين، وعاد الجنود الأسبان من ميدان القتال إلى أسبانيا بخفي حنين يحملون الخيبة والفشل.

١٣ ـ موقف أمريكا في الفلبين من المسلمين :

بعد أن انتصرت أمريكا على الأسبان في شمال الفلبين دفعت أمريكا إلى أسبانيا مائتي مليون دولار لتحل محلها في الفلبين، وتحرر بذلك عقد أبرم في باريس في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨م. وقد قاوم المسلمون الغزاة الجدد من أمريكا بدون هوادة، وقدموا الشهداء من أبنائهم وأمرائهم في السنين المتتالية، فقد تقابل المسلمون مع قوى الاحتلال الأمريكي في موقعة قريبة من هولو سنة ١٩٠٦م، حيث استشهد من المسلمين أكثر من ستمائة شهيد من الرجال والنساء والأطفال. وكانت الموقعة الثانية قريبة من هولو أيضا في سنة ١٩١٣م، وقدم فيها المسلمون كثيرا من الشهداء، وثبت خلال هذه المعركة تفوق الأسلحة الأمريكية على أسلحة المسلمين. وغيرت أمريكا بعد هذه الموقعة من سياستها، فاختارت حكاما من المدنيين لتهدئة شعور المسلمين، واستطاع (Mr. frank. W. Carpenter) أول محافظ أمريكي لجزيرة سولو ومنداناو أن يظهر الصداقة لسلطان المسلمين، ويكون سنة ١٩١٤م وزارة خاصة بشئون منداناو وسولو للإشراف على المناطق الإسلامية السبع، وهي: سولو، لاناو، كوتاباتو، سمونجا، داباو، اغوسن، بوكيدنن، وجعل مقر الوزارة في دنسلان بمنطقة لاناو.

واستطاع هذا المحافظ (فرانك كربنتر) أن يعقد معاهدة مع السلطان جمال الكرام سلطان سولو في سنة ١٩١٥م، تنازل فيها السلطان عن سلطاته الدنيوية (أي السياسية)، واعترف

فيها بالنفوذ الأمريكي في بلاده، مقابل إعطائه معاشا سنويا، ثم الاعتراف به كقائد روحي لمسلمي الفلبين.

وبذلك أفل نجم سلاطين المسلمين، ثم حلت الوزارة الخاصة بشئون مندانـا وسولـو، وضمت إلى مكتب شئون القبائل غير المسيحية سنة ١٩٢٠م.

لقد استطاع (فرانك كربنتر) بحسن إدارته وحكمته وتقديره لشخصية المسلمين أن يحقق في سنين قليلة مالم تستطيع سيوف الأسبان أو مدافع الأمريكيين تحقيقه من نشر السلام والطاعة في أرض المسلمين.

وفي الثلاثينات من القرن العشرين وافقت أمريكا على استقلال الفلبين تدريجيا بإعطاء السكان في الفلبين مدة عشر سنوات كفترة انتقال قبل منحهم الحرية الكاملة مع الإبقاء على المصالح الأمريكية.

واختير أول رئيس للبلاد من العناصر الوطنية المسيحية، وكان يتمتع بكل الصلاحيات، فألغى مكتب شئون غير المسيحيين الذي كان يتبع سلطة حكومة الولايات في الفلبين، وأصبح يتبع وزارة الداخلية الفلبينية. وبذلك صار المسلمون في جنوب الفلبين فلبينيين دون أن يدروا من أمرهم شيئا.

قامت مظاهرات بين المسلمين ضد هذا الإجراء، وأيدهم بعض الشيوخ الأمريكيين في منع ضم مندناو وسولو ـ ذات الصبغة الإسلامية ـ إلى الفلبين، ولكن لم يتم ذلك.

استمر الوضع على ذلك إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية، واحتل اليابانيون الفلبين، وهب المسلمون يكافحون الغزاة الجدد، وأعلنوا عصيانهم على الحكومة العميلة، وزج بكثير من المسلمين في السجون ومعكسرات الاعتقال التي أقامها اليابانيون، لأن المسلمين وقفوا ضد الاحتلال الياباني وضد الإبادة الجماعية التي نفذها اليابانيون ضد المسلمين.

وعندما هزم اليابانيون وقامت الحكومة الوطنية الكاثوليكية في الفلبين رفع المسلمون لواء العصيان ضدها وضد العصابات المسيحية التي ظلت تمارس أعمالها الإرهابية حيال الأقليات

الإسلامية في بعض الجزر. ومما أثار المسلمين وأساء اليهم قيام الحكومة الفلبينية بتهجير العديد من المسيحيين إلى المناطق الإسلامية، مما يؤدي إلى جعل المسلمين أقلية في بلادهم.

١٤ ـ تطور المشكلة بعد الاستقلال :

بعد استقلال الفلبين جعلت إدارة شئون المسلمين في يد رئيس الدولة الفلبيني اعتبارا من سنة ١٩٥٠م، وكان كاثوليكيا متعصبا، فأخذ يعمل على تفتيت القوى الإسلامية وحرمانها من الحقوق التي تتناسب مع تعدادها بالنسبة لمجموع سكان الفلبين.

كان ذلك من الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين لعدم قيام الدولة بأية مشروعات إصلاحية تؤدي إلى تقدم المسلمين، كما أدى هذا الوضع إلى ضياع كثير من أراضيهم. ففي عام ١٩٠٨م كان المسلمون يسيطرون على ٩٢٪ من مجموع مساحة منداناو، ولكنهم الآن نتيجة لسياسة القهر والاضطهاد وإخراج المسلمين من أراضيهم ومنحها للمهاجرين المسيحيين فقد صارت مساحة الأرض التي يعترف بها للمسلمين لا تزيد على ٣٥٪ وإن كانوا يضعون أيديهم فعلا على نحو ٦٥٪ من مجموع مساحة الأراضي كلها[١٢].

والمسلمون لا يتركون أرضهم ويرحلون عنها إلا بعد أن يقدموا كثيرا من أبطالهم شهداء في مقاومة السيحيين الذين يريدون اغتصاب أرضهم، وقد تكونت جماعات مسيحية لاضطهاد المسلمين وحملهم على ترك أرضهم مثل جماعة (إيلاجا) المسيحية، وهي تنظيم سري، هدفه الاستيلاء على الأرض التي يملكها المسلمون. وقد درب أفراد هذه الجماعة على حرب العصابات، ووجد كثير من المدافع الرشاشة في حوزتها، وهذه الجماعة تعد من أخطر الجماعات الكاثوليكية تعصبا ضد المسلمين، حيث يعملون على إبادة المسلمين والاستيلاء على أرضهم. وتحت ضغط قوتهم المتفوقة على المسلمين في العدد والسلاح يترك المسلمون أرضهم لينضموا إلى معسكرات اللاجئين المسلمين الذين بدأ يتكاثر عددهم من خمسين ألفا إلى قرابة ربع المليون لاجئ.

وقد كشف النواب المسلمون عن وجود تواطؤ بين حكومة ماركوس الفلبينية الحالية وبين تلك العصابة، وساقوا الأدلة الآتية على صحة ما يقولون:

١ ـ إن قوات إيلاجاش أيدت مرشحي الرئيس ماركوس في الانتخابات التي جرت في نوفمبر سنة ١٩٧١م.

٢ ـ عدم تصدي قوات الأمن والجيش الحكومية لقوات إيلاجاش عقب اعتداءاتها في كوتاباتو ولاناو على المسلمين.

٣ ـ لم تحرر الحكومة أي قضية ضد أفراد إيلاجاش الذين قبض عليهم متلبسين بجرائم القتل ضد المسلمين.

٤ ـ اعترف أحد قواد جماعة إيلاجاش أمام لجنة التحقيق التابعة لمجلس الشيوخ الفلبيني في مارس سنة ١٩٧١م بأنهم يتلقون تدريبات عكسرية، ويتسلمون معونات ومؤن من الحكومة.

٥ ـ اعترف الجنرال (كاسترو) قائد الشرطة في الفلبين أن هناك خمسة وثلاثين ألف رجل من عصابات إيلاجاش المسلحة في مناطق المسلمين بجزيرة ميندناو.

٦ ـ جاء في تقرير عن القوات المسلحة سنة ١٩٧١م أنها وافقت على صرف مبلغ (واحد وسبعين مليون بيزو) لأعمال الاستخبارات في منطقة منداناو، وقد اتهم المسلمون الحكومة بأن هذه الأموال إنما أعطيت نقدا (لإيلاجاش)، وقد اعترف وزير الدفاع اعترافا غير مباشر بتلك التهمة في مارس سنة ١٩٧٢م، وذكرت جريدة (مانيلا كرونيكل) تلك الحقيقة دون تحفظ أو مداراة.

٧ ـ أثبت قاضي منطقة بولان (جوان الهيبيري) أن قائد جيش برتبة (رائد) هو الذي يقود جماعة (إيلاجاش) من (لاناودل سور) الشمالية، كما أن منظمة (جينا) وهي الجناح العسكري السري لكافة الجمعيات الكاثوليكية الشرعية العلنية تتلقى معونات وإسهامات من الكنيسة الكاثوليكية بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ولديها إمكانيات كبيرة، وعندها أكثر من مخزن للسلاح وميدان للتدريب على القتال النظامي والشعبي[١٣].

ولقد قدم المسلمون كثيرا من الشهداء والجرحى في سبيل محافظتهم على أرضهم التي تحاول جماعة إيلاجاش الاستيلاء عليها، وبلغ عدد خسائر المسلمين فيما بين ديسمبر سنة ١٩٦٩م حتى فبراير سنة ١٩٧٢م حسب تقارير الشرطة والصحف الفلبينية كالآتي:

أ ـ القتلى ١٨٤٥ شهيدا

ب - الجرحى	٤٢٠	جريحا .
جـ - البيوت المحترقة	٢٥٦١	منزلا .
د - عدد المساجد المحترقة	١١	مسجدا .
هـ - البلدان المهجورة	١١	قرية تبلغ مساحتها ٥٠٠,٠٠٠ هكتار مربع[١٤].

وقد اتهمت منظمة تحرير مورو الوطنية في عريضتها المرفوعة إلى لجنة حقوق الإنسان الدولية حكومة ماركوس بارتكاب جريمة القتل الجماعي ضد المسلمين، إذ قتلت وجرحت حوالي المائة ألف، وشردت مالا يقل عن نصف المليون، واغتصبت ما يزيد على المليون هكتار من أراضي المسلمين، وحرقت البيوت والمساجد والمدارس، وخربت من الممتلكات الإسلامية ما قيمته مليار دولار أمريكي.

كما جاء في الكتاب الأبيض الذي قدمه المسلمون إلى ماركوس في سنة ١٩٧٥م أن عدد المذابح والحوادث الدامية في جنوب الفلبين قد بلغ ٤١٧ حادثة في الفترة ما بين ١٩٦٩م إلى أول سنة ١٩٧٢م، وهذا غير مئات الحوادث التي لم تسجل ولم تطل يد القانون المتسببين في هذه الحوادث[١٥].

وقد ذكر النائب (دبين كانوي) عضو المعارضة الوحيد عن جزيرة متداناو «أن عدد ضحايا القتال بلغ خمسين ألف نسمة خلال ست سنوات، من بينهم ألف نسمة في العام الماضي وحده»[١٦].

المطالبة باستقلال الجزر الإسلامية :

كاد الرد العملي على هذا الاضطهاد والاستيلاء على أراضي المسلمين هو قيام جماعة تطالب بانفصال المسلمين عن الفلبين ليكونوا دولة إسلامية في جزر المسلمين في الجنوب، وقد ظهر هذا الاتجاه في أواخر سنة ١٩٦٧م، وظهر التكوين العسكري لهذه الحركة في أواخر سنة ١٩٦٩م.

وزعيم هذه الحركة الاستقلالية الإسلامية شيخ ذو حذق سياسي ودراية عسكرية، اكتسبها

خلال مقاومته لليابانيين وخلال عمله السياسي كحاكم لمحافظة كوتاباتو، وهو الداتو أتج متالم الذي يرى أن حل هذه المشكلة هو الاستقلال بالجزر التي يشكل المسلمون فيها أكثرية عددية أو تفوقا في ملكية الأراضي.

وهذان الشرطان يتحققان في جزر ميندا ناو وأرخبيل سولو بصورة ظاهرة لا محاراة فيها.

وقد أرسل ذلك الزعيم ببرقيات ورسائل إلى الأمم المتحدة وإلى الرئيس الفلبيني (ماركوس) يعلنه فيها أنه يعتبر المسلمين مستقلين ومنفصلين عن حكومة مانيلا التي ترسل إليهم عصابات كاثوليكية لقتل الأبرياء من النساء والأطفال، وتحاول اغتصاب الأرض من أصحابها المسلمين لكي تسلمها لمن تهجرهم إليها من الكاثوليكيين لتجعلهم أغلبية سكانية فيها.

ولأن المسلمين لا يقبلون أي ثمن مهما كان غاليا لبيع أرضهم فالوسيلة الوحيدة للاستيلاء عليها هو اغتصابها بغارات جماعية مسلحة في ظل رعاية السلطة وبتدبير وتخطيط منها.

والمسلمون يقاومونهم حسب طاقتهم ، ولكنهم في حاجة إلى مساعدة كل القوى المتحررة في العالم وخاصة القوى الإسلامية.

وبجوار هذه الحركة التي يتزعمها (داتو اتج متالم) وجدت جبهة تحرير بنجسامورو، أي جبهة تحرير أمة المسلمين، وينضوي تحتها كثير من الهيئات والمنظمات، ويرأسها مجلس ثورة يقوده زعيم باسم حركي هو عمر أوقاف.

ولهذه الجماعة جناح عسكري مقاتل، وتدرب شبابها على حرب العصابات لحماية أنفسهم وحماية المسلمين. وقد أدى ظهور هذه القوى المقاتلة إلى تجمع صفوف الجماعات والطوائف الإسلامية وخاصة بعد التحرك العربي الذي أرسل وفدا لتقصي الحقائق في الفلبين سنة ١٩٧١م، فتكونت الإدارة الحديثة، وتضم هذه الإدارة الجمعيات والمنظمات والهيئات التالية:

١ ـ جمعية أنصار الإسلام : ويرأسها مندوب المؤتمر الدستوري (أحمد دموكاو ألنتو)، وهو عضو سابق في مجلس الشيوخ الفلبيني.

٢ ـ اتحاد القوى والجمعيات الإسلامية بالفلبين برئاسة النائب البرلماني رشيد لقمان، وكانت تسمى من قبل جمعية الشبيبة الإسلامية، وكانت مجلة دعوة الإسلام لسان حالها.
٣ ـ نقابة المحامين المسلمين برئاسة عضو الشيوخ (مامتال تامانو).
٤ ـ الجمعية الإسلامية بالفلبين برئاسة النائب البرلماني (ساليباد ابنداتون).
٥ ـ مجلس التنسيق الوطني للشئون الإسلامية برئاسة (مكافانتويحيى عباس) الابن.
٦ ـ المجلس الوطني للشباب المسلم برئاسة (مكافانتون عباس) الأبن .
٧ ـ اتحاد الشبان والطلبة المسلمين برئاسة فاروق شريف.
٨ ـ الاتحاد الفيدرالي للجمعيات الإسلامية بالفلبين برئاسة السيدة الحاجة زويدا تاماتو.
٩ ـ صحيفة دعوة الإسلام : رئيس التحرير (عبدالرشاد آساني) .
١٠ ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية برئاسة النائب البرلماني (محمد علي ديمابورو).

كما توجد جمعية إقامة الإسلام، ومهمتها نشر الثقافة والتعليم الإسلامي في المناطق الإسلامية، ولها نشاط ملحوظ في ذلك[١٧].

وقد عرضت مشكلة المسلمين في الفلبين على مؤتمرات وزراء خارجية الدول الإسلامية ابتداء من مؤتمر كوالالمبور الذي انعقد في عام ١٩٧٤م إلى المؤتمر التاسع الذي عقد في داكار سنة ١٩٧٨م.

وقد انتدب المؤتمر لجنة وزارية رباعية مكونة من وزراء خارجية المملكة العربية السعودية وليبيا والصومال والسنغال لتقصي الحقائق في الفلبين، وبعد مساع عديدة تحت إشراف لجنة مؤتمر وزراء الخارجية للدولة الإسلامية دارت مفاوضات بين وفد من حكومة جمهورية الفلبين ووفد جبهة تحرير مورو، أسفرت في النهاية عن اتفاق طرابلس سنة ١٩٧٦م. ومن بين ما تضمنه هذا الاتفاق ما يأتي:
١ ـ منح الحكم الذاتي الداخلي للمسلمين في جنوب الفلبين في إطار احترام السيادة الوطنية لجمهورية الفلبين ووحدة أراضيها على أن يشمل ذلك ثلاثة عشر إقليما.
٢ ـ إقامة محاكم شرعية إسلامية للمسلمين، وإشراكهم في المحكمة العليا للبلاد.
٣ ـ تعليم المسلمين في نظام تعليمي خاص بهم .
٤ ـ إعلان وقف إطلاق النار، والعفو العام عن المجاهدين المسلمين، وإطلاق سراح المعتقلين

السياسيين، وعودة اللاجئين إلى ديارهم، وضمان حرية الانتقال وحرية التجمع.

٥ ـ قيام نظام مالي خاص بالمسلمين مع تمثيلهم في الحكومة المركزية، وقيام حكومة انتقالية للحكم الذاتي، ومجالس تشريعية وتنفيذية، وقوات أمن داخلي إقليمية.

٦ ـ تكوين لجنة خاصة لمراقبة اتفاق وقف إطلاق النار مكونة من ممثلين لجبهة تحرير المورو، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وحكومة الفلبين(١٨).

ونتيجة لهذا الاتفاق أعلن عن وقف إطلاق النار احتراما للاتفاقية، ونزولا على رغبة العالم الإسلامي.

إلا أن الخلافات بدأت تظهر اعتبارا من شهر فبراير سنة ١٩٧٧م حين اجتمعت اللجنة المشتركة المكلفة بحل المسائل العملية المترتبة على اتفاق طرابلس، فقد تحولت حكومة الفلبين عند نقطتين أساسيتين في اتفاق طرابلس، تتعلقان بالأقاليم التي كان مقرراً أن يمارس فيها الحكم الذاتي الداخلي، وإدخال إجراء دستوري غير مقرر ألا وهو الاستفتاء.

وقد أبدت اللجنة الوزارية الرباعية والأمانة العامة في اجتماع مشترك تحفظاتهما حيال هذا التغيير في موقف حكومة الفلبين، كما لفتا نظرها إلى هذا التغيير، وأعربا عن استعدادهما للمساعدة على إيجاد حل للمشكلة.

وقد كلف المؤتمر الإسلامي الثامن لوزراء الخارجية للدول الإسلامية ـ بعد اطلاعه على الوضع في مجموعه ـ اللجنة الوزارية الرباعية بأن تواصل وساطتها بين الطرفين تطبيقا للقرارات التي سبق اتخاذها في المؤتمرات السابقة لوزراء الخارجية للدول الإسلامية.

وقد وجهت اللجنة رسالة إلى حكومة الفلبين في ١٣ يونية سنة ١٩٦٦م، ذكرت فيها «أنه ينبغي التوصل إلى التفاهم والتعايش السلمي بين كل الأطراف والأديان والعناصر الشقيقة لشعب واحد». وأجابها وزير خارجية الفلبين «بأن بلاده لن تدخر وسعا من أجل التوصل إلى حل سلمي وعادل للمشكلة».

غير أن هذه الرسائل لم تحل المشكلة ، واستؤنفت عمليات العنف والإبادة والتدمير بين الجانبين في جنوب الفلبين، واستمر الوضع في التدهور، مما أدى إلى قتل العشرات من الضباط

والجنود الفلبينيين، وقيام الحكومة بعمليات جوية وبرية وبحرية ضد المسلمين في الجنوب، قتل فيها كثير من المسلمين ودمرت منازلهم وشردوا من ديارهم وقراهم.

ونتيجة لذلك اجتمعت اللجنة الوزارية الرباعية في الخامس من نوفمبر سنة ١٩٧٧م، ووجهت إلى الرئيس ماركوس وإلى رئيس جبهة تحرير مورو.دعتهما فيه إلى وقف كافة العمليات العسكرية والعودة إلى مائدة المفاوضات.

كما كتبت إلى حكومات ماليزيا وأندونيسيا وتايلاند تطالبهم ببذل مساعيهم الحميدة في هذا الاتجاه، كما أهابت بمجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان والدول الإسلامية بالتدخل لايقاف المجازر الوحشية وانتهاكات حقوق الإنسان، وبينت أن استئناف الحرب سيهدد الأمن والاستقرار الدوليين.

وقد دعا الرئيس ماركوس السيد/ نور مسواري رئيس جبهة تحرير مورو إلى التوجه إلى الفلبين للتفاوض معه، وأجابه السيد نور مسواري بأنه مستعد لاستئناف المفاوضات في دولة محايدة، وتحت رعاية منظمة المؤتمر الإسلامي، وفي إطار احترام اتفاق طرابلس.

غير أن تجدد العنف في جنوب الفلبين جعل الرئيس ماركوس يعلن عن طريق سفيره في جده أنه يتشكك في جدية وإخلاص جبهة مورو تجاه الحكم الذاتي الداخلي للمسلمين في الفلبين، وأنه يعلم - وفقا للوثائق التي تم الاستيلاء عليها - أن السيد نورمسواري يعمل من أجل الانفصال. ولكن رئيس جبهة تحرير مورو نفى هذا الاتهام.

وفي ١٨ فبراير ١٩٧٨م اجتمعت اللجنة الوزارية لمدة ثلاثة أيام، وأجرت بحثا مستفيضا للوضع، واستمعت إلى السيد نورمسواري، واتخذت مجموعة من الإجراءات لم يذكر عنها تقرير داكار شيئا.

وفي ٥ مارس ١٩٧٨م بعث الأمين العام لمؤتمر وزراء الخارجية برسالة إلى الرئيس ماركوس، دعاه فيها مرة أخرى وباسم اللجنة الرباعية إلى إيقاف كافة العمليات العسكرية ضد المسلمين في جنوب الفلبين، وقد أعرب السيد نورمسواري لرئيس دولة الفلبين عن استعداداته الطيبة.

وفي أول أبريل ١٩٧٨م بعث الرئيس ماركوس برد إلى أمين عام منظمة تحـرير مورو وضمن رسالته مؤاخذاته ضد رئيس جبهة تحرير مورو، وأعرب عن حسن نوايا حكومته، غير أنه أشار إلى الاختلاف الدائر في صفوف الجبهة، وذكر أن الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر قد قدم له هاشم سلامه على أنه الزعيم الجديد، وأخيرا ذكر الرئيس ماركوس «أن الحيطة تتطلب منه أن يتابع التطورات»(١٩).

وقد ألقى الرئيس ماركوس خطابا في ١٩٧٨/٩/٢١م «وعد فيه بتخصيص منطقة تتمتع بشبه حكم ذاتي ٢٫٥ مليون من سكان الأقاليم الجنوبية في ميندناناو وسولو وتاوي تاوي وباسيلان، وأضاف قائلا: لا داعي للقلق بشأن الموقف في جنوبي الأرخبيل، اللهم إلا إذا تلقى الثوار أعضاء الجبهة الوطنية للتحرير ـ مورو ـ مساعدات من الخارج(٢٠).

وهي وعود كما رأينا سبق تكرارها دون أن يكون لها أثر واقعي يقر الأمن والسلام، ويطمئن المسلمين على دمائهم وأرواحهم وأرضهم.

الانشقاق في جبهة تحرير مورو:

إن الشقاق والاختلاف في جبهات المطالبين بحقهم هو الداء الوبيل الذي يؤدي إلى ضعف تلك الجبهات وتخاذلها، ويقف حاجزا سميكا دون الوصـول إلى أهدافهـا وتحقيق مطالبها، وللأسف قد حدث ذلك في جبهة تحرير مورو.

فقد ظهرت حركة منشقة ادعت عزل رئيس جبهة تحرير مورو، وضاعفت هذه الحركة من اتصالاتها بالسفارات في جده وبالأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

وقد ذكرت هذه الحركة المنشقة بعض الأسباب لعزل رئيس جبهة تحرير مورو السيد نورمسواري منها:

١ ـ أن القيادة تحت رئاسة السيد نورمسواري تتنافى مع التوجيهات الإسلامية في تحركاتها وأساليبها وأهدافها، ونحت نحو الماركسية الماوية.

٢ ـ أن القيادة تحت رئيس الجبهة السيد نورمسواري لم تقم على أساس المشارورة والقيادة الجماعية المستجيبة، بل قامت على مبدأ ديكتاتوري فردي وانعزالي خفي وغامض، مما

أدى إلى سوء تدبير جميع شئون الجبهة، وخاصة فيما يخص الشئون الإدارية والاستراتيجية والمالية.

٣ - نتج عن قيادة السيد نورمسواري المحوطة بالسرية الكثير من الاضطراب والتشكك وخيبة الأمل بين الأعضاء والمجاهدين في الميادين، وأدى ذلك إلى كثير من الخسائر في صفوف المقاتلين، وأدى ذلك إلى التفتت والتفرق والاختلاف بين المسلمين وخاصة المجاهدين، فضعفت قوتهم المعنوية، مما أدى ببعضهم إلى الاستسلام والتوقف عن عملية الجهاد، بالإضافة إلى التفرق بين المنظمات والمؤسسات الإسلامية.

ولذلك فقد أسندت هذه الحركة المنشقة قيادة الجبهة إلى السيد سلامة هاشم عضو اللجنة المركزية لجبهة تحرير مورو الوطنية ورئيس شئون خارجيتها اعتبارا من ١٣ محرم سنة ١٣٩٨ هـ ، وقد وزعت منشورات عليها توقيع ٧٦ شخصا من المؤيدين لهذا الانشقاق[٢١].

ولاشك أن هذا الانشقاق يعطي للحكومة الفلبينية فرصة ذهبية لتقف من مطالب المسلمين موقف التسويف، ثم المعارضة لهذه المطالب حتى تتمكن من القضاء عليهم، خاصة والمسلمون يمكنونها من ذلك بإشاعة الفرقة والاختلاف بين صفوفهم.

ومن هنا نرى أن المسئولية الكبرى لحل هذه القضية يقع على كاهل المسلمين في الفلبين أولا، وذلك بتوحيد صفوفهم، ووأد أي نزاع أو شقاق يقوم بينهم حتى يصيروا صفا واحدا يقف في وجه المعتدين عليهم، ويحقق لهم قول الله تعالى:

(إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ) (الصف: ٤)

كما تقع مسئولية كبرى على الدول الإسلامية وخاصة المجاورة للفلبين (أندونيسيا وماليزيا) بإظهار التضامن مع المسلمين في الفلبين، ولو أدى ذلك إلى فرض عقوبات اقتصادية وسياسية ضد حكومة الفلبين نظرا لمماطلتها في تحقيق اتفاق طرابلس وتحديها لقرارات مؤتمرات وزراء الخارجية للدول الإسلامية.

ثم على الدول الإسلامية تعضيد قضية المسلمين في الفلبين عند عرضها في مجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان وهيئة غوث اللاجئين الدولية.

وعليها تقديم المساعدات المادية والمعنوية للمسلمين في الفلبين حتى يتمكنوا من مواصلة جهادهم وحصولهم على حقهم في المحافظة على أرواحهم وعقيدتهم وأرضهم.

ولي في النهاية أن أقول: إن المسلمين إذا طالبوا بالاستقلال التام والعودة إلى وضعهم السابق الذي كانوا عليه خلال الاحتلال الأسباني فإن لهم سندا قانونيا هو هذه المعاهدات المتعددة التي وقعت بينهم وبين الأسبان، حيث تظهر شخصيتهم الاعتبارية كدولة مستقلة لها كيانها الخاص.

ثم إنهم أثناء الاحتلال الأمريكي كان لهم وضعهم الخاص الذي يكفل لهم المحافظة على أرضهم وعلى دينهم وعلى خصائصهم الحضارية المترتبة على اعتناقهم لدينهم الإسلامي الذي لا يفصل بين الدين والدنيا، والذي يوجه الحياة الإنسانية في كل مظاهرها الفردية والاجتماعية.

ومع ذلك فإن الدين الإسلامي لا يمنع أن يعيش أتباعه مع أصحاب الأديان الأخرى، ولكن بشرط أن تحفظ لهم حقوقهم ويعيشوا مع غيرهم على قدم المساواة في الحقوق والواجبات.

أما أن يهجر المسيحيون من الشمال إلى الجنوب لكي يكونوا أكثرية بين المسلمين، ثم تعطى لهم أراضي المسلمين، ويطرد المسلمون منها، ويصلبوا وتحرق ديارهم وتهدم مساجدهم ومدارسهم، فإذا ثار المسلمون للحفاظ على كرامتهم والاحتفاظ بحقوقهم وأرضهم قالت الحكومة الفلبينية عنهم: إنهم عصابات، وإنهم سفاكون... وإنهم... وإنهم... فذلك مالا يرضاه إنسان.

وإذا كان هذا هو ما حدث بعد الاستقلال بالنسبة للمسلمين فإنني أقول: إن ذلك ليس استقلالا، وإنما هو استعمار آخر من ساكني الشمال لساكني الجنوب، أو من المسيحيين للمسلمين بعد أن عجز الأسبان عن احتلال أراضي المسلمين في الجنوب، وبعد أن اعترف الأمريكان أثناء احتلالهم للفلبين بالشخصية المتميزة للمسلمين، وحافظوا لهم على أرضهم وعلى دينهم وعلى مقومات حياتهم المادية والمعنوية.

ولاشك أن الأمر للمسلمين ساكني الجنوب الفلبيني في حرية الاختيار للوضع الذي يرضونه من الاستقلال التام أو الاندماج بوضع خاص.

إلا أن الضمير الإنساني والأخوة الإسلامية تحتم على من يهتم بالمشاكل الإنسانية، ويحرص على الأخوة الإسلامية أن يكون عونا دائما للحق والعدل الذي يطمئن الإنسان على حاضره وعلى مستقبله حتى تسير الحياة سيرا طبيعيا آمنا ومستقرا.

ooo

الحواشــــي

(١) انظر : Philippin. Political and cultural History, Volume 2. by Gregorio. F. Zaide

(٢) انظر : عذراء ماليزيا (الفلبين) للدكتور مصطفى مؤمن الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢ صـ ٤٠

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(٤) انظر : Philippin. op. Cit. p. 41

(٥) انظر. The History of Sulu by Nageeb. m. Saleeby pay 42, 43 manile 1963

* مانتكابن : منطقة غنية ومتقدمة في وسط سومطرة، وقدم منها كثير من الأسر الملايوية .

** راجا : اللقب العادي لملوك الملايا .

(٦) موجز النظرية أن انتشار الإسلام جاء كرد فعل لقدوم المسيحيين إلى تلك المنطقة.

(٧) انظر : كتاب الإسلام في الشرق الأقصى وصوله وانتشاره وواقعه: تأليف دكتور قيصر أديب مخول، تعريب دكتور نبيل صبحي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

(٨) ملاحظة : أثناء إقامتي في الفلبين مبعوثا للأزهر لنشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الفترة من ٦٢ - ١٩٦٥م زرت في شهر فبراير ١٩٦٥م بصحبة الحاج عبدالعزيز عمر مؤسس كلية مسلمي الفلبين فى هولو قبر المبشر الاسلامى مخدوم أمين الله فى قمة جبل (أغد) (ومعناه الجبل التابع) ويرتفع حوالى ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر وهو قريب من مدينة هولو ومازال هناك إلى الآن خادم يعتنى بقبره ويوقد عليه البخور كما يضع الناس عليه دائما قماشا أبيض وحول القبر كثير من القبور الأخرى التى يقولون عنها إنها لاتباعه ولا توجد كتابه على هذه القبور.. أما فى جبل (داتو) الذى يجاور الجبل السابق ويرتفع حوالى ١٨٠٠ قدم فيوجد قبر كتب عليه باللغة العربية «من مات غريبا مات شهيدا هذا قبر الشهيد تمهار وأنه توفى فى شهر رجب المعظم ٧١٠ هـ أى منذ سبعة قرون»..

وهذا يدل على أن الإسلام قد وصل إلى الفلبين وانتشر هناك قبل قيام المملكة الإسلامية فى سولو على يد راجابجند وأبوبكر من بعده..

(٩) عذراء ماليزيا الفلبين ، دكتور مصطفى مؤمن ، ص ١١ .

(١٠) انظر. Philipin. op. cit. p. 306

(١١) History of Sulu by najeeb ... Saleeby pp. 49-54.

(١٢) عذراء ماليزيا (الفلبين) د. مصطفى مؤمن ، ص ٤٢ .

(١٣) انظر عذراء ماليزيا (الفلبين) ، دكتور مصطفى مؤمن ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٤) انظر المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(١٥) نقلا عن مجلة الدعوة الهندية، العدد الثامن عشر ، السنة الثانية ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٩٨ هـ مارس سنة ١٩٧٨م.

(١٦) صحيفة الجزيرة الصادرة في المملكة العربية السعودية في ١٣٩٨/١٠/٢٥ هـ ـ ١٩٧٨/٩/٢٧م.

(١٧) انظر عذراء ماليزيا (الفلبين)، د. مصطفى مؤمن ، ص ٧١، ٧٢ .

(١٨) انظر

(أ) تقرير عن قضية المسلمين في جنوب الفلبين مقدم إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في داكار سنة ١٩٧٨م..

(ب) مقال النضال الإسلامي في الفلبين، مجلة الدعوة الهندية، العدد الثامن عشر، مارس سنة ١٩٧٨م.

(١٩) انظر: التقرير المقدم عن قضية المسلمين في جنوب الفلبين إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في داكار، أبريل سنة ١٩٧٨م.

(٢٠) صحيفة الجزيرة التي تصدر في المملكة العربية السعودية العدد ٢٢٧٢ في ١٩٧٨/٩/٢٢م.

(٢١) انظر : منشورات جبهة تحرير مورو الوطنية، اللجنة المركزية، وثيقة تولية الرئاسة.

المصادر

١ ـ الإسلام في الشرق الأقصى : وصوله وانتشاره وواقعه. للدكتور قيصر أديب مخول، تعريب الدكتور نبيل صبحي، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

٢ ـ حاضر العالم الإسلامي : تأليف لوثروب ستودارد الأمريكي، ترجمة عجاج نويهض، وفيه فصول وتعليقات للأمير شكيب أرسلان، جـ ١، ٢، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٧٣م.

٣ ـ عذراء ماليزيا (الفلبين) : للدكتور مصطفى مؤمن، الناشر دار التراث العربى ليبيا، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٢م.

٤ ـ المسلمون في جزر الفلبين : جهادهم ومطالبهم. للدكتور رءوف شلبي، الناشر مكتبة الأزهر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٦م.

٥ ـ تاريخ الإسلام في الفلبين : للشيخ أحمد بشير أحد، مؤسس جمعية إقامة الإسلام بمدينة مراوي فلبين، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٤م.

٦ ـ في جزر الفلبين : دراسات ومشاهدات وذكريات للدكتور عبدالرحمن حسين، بحث لم يطبع بعد.

٧ ـ رحلة ابن بطوطة : المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، سنة ١٩٦٧م .

٨ ـ مجلة الأزهر سنة ١٩٦٦م ١٩٦٧م مجموعة مقالات تحت عنوان: «عائد من الفلبين» للباحث الدكتور محمد محمد شتازيتون

٩ ـ صحيفة الأهرام القاهرية.

١٠ ـ صحيفة الجزيرة السعودية .

١١ ـ مجلة الدعوة الهندية العدد الثامن عشر : مقال عن الفلبين يتضمن الخطاب الذي ألقاه الأستاذ يحيى عباس في أول ندوة إسلامية أقامها معهد شئون الأقليات المسلمة بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة في ٢٥ شوال سنة ١٣٩٧ هـ ، ترجمة السيد/ جميل إسماعيل يحيى (نشرة معهد شئون الأقليات المسلمة).

١٢ ـ التقرير المقدم إلى المؤتمر التاسع لوزراء خارجية الدول الإسلامية في دكار سنة ١٩٧٨م.

١٣ ـ نشرات جبهة تحرير مورو الوطنية اللجنة المركزية.

1 - Moro Problens .

تقرير لجنة البرلمان الخاصة بمشاكل المورو (المسلمين في الفلبين) المقدم إلى برلمان الفلبين سنة ١٩٥٤م برئاسة السناتور أحمد ألنتو.

2 - Philippin Political and Cultural History, Volumes, By Gregoria. F. Zaide.

3 - The History of Sulu by Nageeb Saleeby manila 1963.

وقل رب زدني علما

مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية